

إكتشاف جزيرة العرب

خمسة قرون من المغامرة والعلم

جاكلين بيرين

ترجمة قدرى قلججي

بساكسين بيرين

الكتاب في جزيرة العرب

خمسة قرون من المغامرة والعلم

نقله الى العربية

فدري قلعجي

قدم له: الشيخ محمد الجاسر

دار الكتاب العربي

مقدمة بسم الشيخ محمد الجليل

لا مغالاة في القول بأن لكثير من علماء - الغرب من مستشرقين وغيرهم ، بدأ طولى في إبراز معالم تاريخ جزيرة العرب ، وفي كشف ما خفي من آثارها ، فضلاً عما لهم من فضل في إحياء التراث الاسلامي ، والشرقي ، بوجه عام .

ولقد تصدى لذلك منهم فئتان : فئة عُنيت بنشر المؤلفات القديمة ، ومنها ما يتعلق بتاريخ العرب وجغرافيتها بلادهم ، نشرأ بلغ الغاية ، في تحقيق النصوص ، وتقريب إدراكها بالتبويب والتعليق ، ووضع الفهارس الكاملة ، لختلف موضوعات تلك النصوص ، بحيث أصبح مهملهم - في هذا المجال - مثلاً يُحتذى ، في الجودة والدقة ، وبلوغ ما يتوخى من نشر المؤلفات .

ومن الانصاف ، بل من الاعتراف بالفضل لذويه ، القول بأن كُتْلَ معنيتها بالبحث في تاريخ الجزيرة وجغرافيتها ، ما يزال عالمة على ما

نشره اولئك المستشرقون وحققوه من المؤلفات القديمة عنها ، ولنتناول على سبيل المثال لا الحصر - كتاب (معجم البلدان) لياقوت الحموي ، ويعتبر من أوفى المراجع عن الجزيرة بل عن البلاد الاسلامية في القرن السابع الهجري وما قبله ، فهذا الكتاب القيم الضخم نشر ثلاث مرات ، مرتين في القاهرة وبيروت ، والمرة الثالثة وهي الاولى تولاه المستشرق الالماني (فردنند وستنفلد) منذ ما يقارب القرن من الزمان ، وستان بين ما قام به هذا العالم المحقق من جهد واتقان في نشرته ، من حيث تحقيق النص ، والرجوع الى مصادره ، ومن حيث وضع الفهارس المستوفاة الكاملة ، وبين ما قامت به داران كبيرتان تعتبران من أقوى دور النشر في البلاد العربية . هذا العالم الغربي الذي لم تحل عجمته ، وبعده عن العرب وعن بلادهم ، من أن يقدم على مخطوطة قديمة أخرى ، تتعلق بجغرافية تلك البلاد ، وتبلغ مئات الصفحات ، مثل « معجم ما استعجم » لأبي عبيد البكري الأندلسي فينسخها بخط يده ثم يتولى مقابلتها بأصح ما يعلمه من نسخ لتلك المخطوطة ، بعد أن يحصلها من مختلف مكاتب العالم ، ثم يقوم - بعد كل ذلك - بنشرها على خير ما عرف من طرق النشر وأقربها للصحة ، وأيسرها للاستفادة ، بحيث لم يستطع ناشر عربي أتى بعده ، فوجد الطريق معتبداً ، أن يبلغ مبلغ ذلك العالم الغربي في الدقة والإتقان .

وقلّ مثل هذا عن كتاب « صفة جزيرة العرب » للهمداني ، الذي تولى نشره للمرة الأولى العالم النمساوي (داود هنري ملر) فأخرجه في سنة ١٨٨٤ م مستطاع آن ذاك في أتقن صورة ، وأوفى تحقيق بعد أن أضاف إلى الأصل من الفهارس ومقارنات النصوص ميثاقية . وعن طبعته ونسخ مخطوطة لم يطلع عليها نشرت (دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر) الكتاب بتحقيق العلامة الأستاذ محمد بن علي الأكوع . مؤرخ اليمن في هذا العصر .

بَلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَنْكَرُ فَضْلَ الْمُسْتَشْرِقِ الْهَوْلَنْدِيِّ « دِي خَوِيه » إِذْ
جَمَعَ عِدْداً مِنْ أَمْهَاتِ كُتُبِ الْجُغْرَافِيَةِ الْقَدِيمَةِ ، وَنَشَرَهَا - بَعْدَ تَحْقِيقِهَا ،
وَالْمُقَابَلَةِ بَيْنَ أَصُولِهَا ، وَالرَّجُوعِ فِي ذَلِكَ إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الْمُؤَلَّفَاتِ -- بِاسْمِ
(الْمَكْتَبَةِ الْجُغْرَافِيَةِ) ؟ !

إِنْ مَا قَامَ بِهِ هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءُ الثَّلَاثَةُ يُعْتَبَرُ جُزْءاً يَسِيراً بِمَا قَامَ بِهِ
أَخْوَانُهُمْ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْبَاحِثِينَ حِيَالِ التَّرَاثِ الْعَرَبِيِّ الْإِسْلَامِيِّ ، بِوَجْهِ عَامٍ ،
بِمَا لَا تَسْمَحُ الْمُنَاسِبَةُ ؛ مِنْاسِبَةً كِتَابَةً هَذِهِ الْمَقْدَمَةُ ، بِالتَّوَسُّعِ فِي
الْحَدِيثِ عَنْهُ .

وَقَبْلَ هَؤُلَاءِ ، آتَتْ فِتْنَةٌ أُخْرَى ، هِيَ فِتْنَةُ الرُّؤَادِ مِنَ الْعُلَمَاءِ
وَالْمُفَاصِرِينَ الْغَرِيبِينَ ، الَّذِينَ كَشَفُوا كَثِيراً مِنْ مَعَالِمِ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ
وَأَثَارِهَا ، وَعَرَفُوا الْمَجْهُولَ مِنْ مُخْتَلَفِ أَخْبَارِهَا وَأَحْوَالِهَا ، بَعْدَ أَنْ جَاسُوا
صَحَارِهَا ، وَاخْتَرَقُوا فَيَافِيهَا وَقَفَارِهَا ، وَوَصَلُوا إِلَى أَصْقَاعِهَا النَّائِيَةِ ،
وَتَوَغَّلُوا فِي مَجَاهِلِهَا ، مَدْفُوعِينَ بِدَوَافِعٍ مُخْتَلِفَةٍ ، مُسْتَهْنِينَ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ
بِجَمِيعِ الْأَخْطَارِ وَالصَّعُوبَاتِ ، مِمَّا بَلَغَتْ مِنْ شِدَّةٍ وَعُنفٍ ، ضَارِبِينَ
أَرْوَاعَ الْآمَالِ بِصَبْرِهِمْ وَجَلْدِهِمْ ، وَتَحْمَلُهُمْ لِنُطٍّ مِنْ حَيَاةِ الشُّظْفِ وَالْقَسْوَةِ ،
قَالَ « إِنْ يَسْتَطِيعُ ابْنُ الصَّحْرَاءِ نَفْسَهُ أَنْ يَجَارِيَهُمْ فِي تَحْمَلِهِ فِي هَذَا
العصر .

وَنَجِدُ أَمْثَلَهُ وَاضِحَةً لِمُفَاصِرَاتِ هَؤُلَاءِ الرُّوَادِ الْأَوَائِلِ فِي هَذَا الْكِتَابِ
الَّذِي عُرِّبَتْهُ الْإِسْتَاذُ قَدْرِي قَلْعَبْجِي ، عَنْ اللُّغَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ وَدَعَاهُ وَاکْتِشَافِ
جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، فَأَضَافَ - بِعَمَلِهِ الْمَشْكُورِ ، مِنْ تَعْرِيبٍ ، وَنَشْرٍ - إِلَى
الْمَكْتَبَةِ الْعَرَبِيَّةِ كِتَاباً جَدِيداً بِالْقِرَاءَةِ ، لَا مِنْ الْمَعْنِينَ بِالْبَحْثِ وَالدراسة
فِي تَارِيخِ الْجَزِيرَةِ وَجُغْرَافِيَتِهَا وَحَدِّمْ ، بَلْ مِنْ كُلِّ قَارِئٍ عَرَبِيٍّ لَمْ يَتِمَكَّنْ
مِنْ قِرَائَتِهِ بِلُغَتِهِ الْأَصْلِيَّةِ .

لَا إِدْرِي أَيْؤَخِّدُ قَارِئُ هَذَا الْكِتَابِ - كَمَا أُخِذْتُ - بِوُضُوحِ

تصويره غاذج من مغامرات عدد غير قليل من الرحالة الغربيين ، ممن استهووهم « جزيرة العرب » بسعرها ، فهاموا في ققارها ، سعيّاً وراء المجهول من أخبارها ، حتى أصبحت رسيرهم وأخبار رحلاتهم جزءاً من أساطير تلك الجزيرة ، في غرابتها واستهوائها للباحثين ! ولكنني لا أشك بأنه سيستمع حقاً بما أبرزه هذا الكتاب من جوانب قوية ، من حياة بعض أولئك الرواد ، وبما تميّزت به تلك الحياة - بنوع خاص - من التضحية ، والاستهانة بكل مشقة ، في سبيل الوصول الى نتائج ، عادت بفوائد جمة ، على كل باحث في تاريخ الجزيرة ، ودارس لأحوال سكانها ، بصرف النظر عن بواعث السعي للوصول إليها .

وقد لا يحتاج القارئ الى السير معه - في ثنايا الكتاب - لادراك الجوانب المهمة من نتائج تلك الرحلات ، كالكشف عن آثار الحضارة العربية القديمة في جنوبي الجزيرة ، والوصول الى حل رموز الابدية الحيرية « خط المسند » ، حلاً أضاف معلومات جديدة ، عن حلقة كانت مجهولة لدى العرب أنفسهم ، من تاريخ ذلك الجزء من بلادهم ، فبرزت بفضل معرفة قراءة « المسند » ، في آثاره ، من محافدة وسدود ، ودوّل تعاقبت الحكم فيه ، كالدولة « المعينية » و « البيئية » و « القتبانية » و « الحيميرية » .

الأ أن بين ثنايا الوصف الموجز لتلك الرحلات - في هذا الكتاب - لمحات قد يكون من فائدة القارئ أن يطيل الوقوف عندها .

فهذا الرحالة الذي عرف باسم « لويس فارتيا البولوني » ، والذي قام برحلته في مطلع القرن السادس عشر (التاسع الهجري) فقام في خلالها من العذاب ألواناً من السجن والتعذيب ، وضروب الاهانة ، نجد فيها دون من انباء رحلاته وصفاً أخذاً لميناء « جازان » ، قد لا تجده في

اي مؤلف عربي ، أُلّف في ذلك العهد او قبله (ص ٤٨) .

ثم هذا الرحالة - رغم كل ما قاسى من ضروب العذاب - قدّم لأبناء جلدته من الأوروبيين معلومات كانوا يجهلون عنها مناسك الحج ، وعن مدينتي مكة ، و المدينة ، على جانب كبير من الصواب ، في عصر كان أولئك لا يعلمون شيئاً في هذا المجال .

وتُبرِزُ رحلة الربان الهولندي (فان دون بروكه) ميناء (المكّ) أعظم ميناء في اليمن في مطلع القرن السابع عشر ، هذه البلدة التي اقترن اسمها عند الغربيين باسم (البُن) منذ كانت المرفأ التجاري لتصديره ، الى أن أوشكت أن تزول من الوجود في عصرنا هذا .

ويصف هذا الرحالة الهولندي (ص ٨٣) مظاهر الترف في حياة ولاية اليمن من الاتراك ، إثان سيطرتهم عليه ، ويُسجّل ظاهرة غريبة في طريقة حكم هؤلاء لتلك البلاد فيقول (ص ٨٤) : « وكان هذا الباشا الكثير البذخ ، قد وسّع سياسة الرهائن للاحتفاظ بسلطته على العشائر العربية . وبذكر أن عدد الرهائن قد بلغ الألف ما بين رجال ونساء وأولاد ، من اخوة واخوات وأبناء عظماء المقاطعات التي أخضعت بهذه الوسيلة . هذه الظاهرة السيئة التي بقيت الى عهدنا هذا .

وقلّ أن نجد وصفاً - في الكتب التي بين أيدينا - أبْدع ولا أقرب الى الحقيقة من وصف « دكسيتر » لقوافل الحجاج (ص ٩٣) وهو لإنجليزي اختطف ثم بيع واسترق وجاء الى مكة في الربع الأخير من القرن السابع عشر .

وتتعلّق للقارئ بوضوح ، قسوة الحياة التي يعانيها أولئك المغامرون في قصة (بعثة جامعة غوتجن) التي بعثها ملك الدانمارك الى الجزيرة

في عام ١٧٦١ فلم يعد منها سوى العلامة نيور ، وابتلعت الجزيرة
الاربعة الآخرين ، إلا أن ما أسداه نيور من يدٍ في ميدان البحث
يخفف ألم الفجيعة بفقد تلك النخبة المختارة من العلماء المغامرين .

اما الرحالة الالماني « ستيزن » الذي ادعى الاسلام ، وحج عام ١٨١٠ ،
ورسم مخططاً للمدينة المنورة ، والذي بواسطته عرفت اوروبا لأول مرة
الكتابة الجيمسرية ، فلم يكن أسعد حالاً من (بعثة جامعة غوتنجن) .
لقد توفي مسموماً في سجن (تمز) ! .

فما سجله الرحالة الدانمركي الاستاذ « كارستين نيور » الذي وصفته
المؤلفة - بحق - بأنه النموذج الكامل للرائد العالم ذي النزعة الانسانية
- تستوقف القارئ العربي ملاحظتان هامتان من ملاحظاته .

(١) عن سكان الساحل الشرقي للخليج العربي ، حيث يقول (ص ١٦٦) :
« لقد أخطأ جغرافيونا - علي ما اعتقيد - حين صوروا لنا جزءاً من
الجزيرة ، خاضعاً للفرس ، لأن العرب هم الذين يمتلكون - خلافاً لذلك -
جميع السواحل البحرية للامبراطورية الفارسية ، من مصب الفرات الى
مصب الاندوس ، على وجه التقريب » . ثم يستكمل نيور في ايضاح هذه
الملاحظة بإيراد الأدلة التاريخية التي شاهد صحتها وأدلتها ، ويسوق
في معرض الحديث عن فزع ملوك الفرس من النفوذ العربي في تلك
السواحل (ص ١٦٨) قوله : « وكان نادوشاه قد رسم خطة تقضي بإلقاء
القبض على هؤلاء العرب ، ونقلهم الى سواحل بحر قزوين ، وإحلال
الفرس محلهم ، ولكن مصرعه حال دون تنفيذ هذه الخطة ، وحالت
الاضطرابات المستمرة في بلاد الفرس دون اعتدائهم على حرية هؤلاء العرب » .

(٢) ويصف نيور الحركة الدينية الاصلاحية التي شاهد تبشيرها في

اطراف الجزيرة ، وصف العالم المتجرد من كل غاية لا تمت الى الحقيقة ، في وقت كان علماء المسلمين انقسم في جميع ولايات السلطنة العثمانية ، تحارب تلك الحركة ، وتقصها بكل سوء ، فيقول (ص ١٧٦) : « إن اعداءهم يحاولون ان يظهروا مذهبهم بظهر سيء ، وأن يعملوا على تبغيضه ، بتصويره على غير حقيقته ، وأن ينسبوا إليه ما لا يقول به او يدعوا إليه . »

وقد أدرك هذه الحقيقة فيما بعد الرحالة الاسباني « دومنغو باديا اي لبلينخ » الذي أسلم وسمى نفسه « الحاج علي بك العباسي » حينما جاء الى مكة حاجاً في سنة ١٨٠٦ ، وشاهد موكب الامام سعود بن عبد العزيز في ذلك العام ، فقد سجل في مذكراته قوله (٣٠٣) : « الحقيقة تفرض عليّ أن أعترف انني وجدت جميع الوهابيين الذين تحدثت إليهم على جانب من التعقل والاعتدال ، وقد استقيت منهم كل المعلومات التي أوردتها عن مذهبهم » - الى ان قال - : « ان الناس لم يفهموا المعنى الاصلاحى لهدم المزارات وتقويض أضرحة الاولياء التي كان المؤمنون يؤدونها لها واجب الإجلال ، وقد كاد هذا الإجلال يتحول الى نوع من العبادة التي لا تجب الا لله وحده . »

ولعل من المفيد - ما دما يصدد الحديث عن هذه الدعوة الدينية الاصلاحية - أن نشير الى رأي للكاتب الفرنسي « الكسندر دوماس » على جانب كبير من العمق في ادراك ما كان متوقفاً لتلك الحركة من الانتشار ، فقد قال (ص ٣٤٧) : « إن الاصلاح لوشيك الحدوث ،

١ - أطلق خصوم هذه الحركة الاصلاحية كلمة (الوهابيين) على الثائمين بها ، تشويهاً لها ، وتبغيراً منها ، ولهذا فالعالمون بها ينفرون من هذه التسمية ، حتى بعد ان أصبحت علماً .

من القوقاز الى رأس زنجبار ... ان مئتي مليون مسلم اليوم يتعادون ويتنازعون . تجمعهم نقطة عقائدية واحدة هي الحج .. ولكن المستقبل في غمرة كل ذلك للوهابيين وحدهم ، ولذهبيهم الذي يختفي امامه الوفاء الاولياء ، وامام مبادئهم الخلقية التي تكاد تكون انجيلية ، ينسحب ذلك الانحلال الشرقي المنتشر في اكثر العواصم . قال دوماس هذا القول ، والضعف يدب في مفاصل حكومة الامام فيصل بن توكي ، والسيطرة الخارجية تقطع اجزاءها جزءاً فجزءاً ، ومع ذلك فقد تحققت نبوءة هذا الكاتب .

وتقول مؤلفة كتاب « اكتشاف الجزيرة » (ص ١٧٧) ، عن الرحالة « نيبور » : « وتكمن احدى مآثر نيبور العديدة في أنه أدرك الأهمية التي كانت الحركة الوهابية مزمنة ان تحرزها وهي ما تزال في مهدها ، وفي أنه أعطى اوروبا عنها معلومات صحيحة وقد أمرها بغربال حكمه الموضوعي الدقيق ، وتزها عن كل هوى » . ويحسن ان يضاف الى قول الكاتبة الفاضلة : بأن الباحث العربي يجد فيما سجله نيبور عن رحلته حقائق عن سكان شرق الجزيرة العربية ، وعن احوال ذلك القسم من بلادنا ، يلقي اضواء بدونها لا نتيين معالم تاريخ ذلك القسم ، على ما تتصف به تسجيلاته من ايجاز .

ولعل من أمتع فصول هذا الكتاب ، الفصل المتعلق بـ « اكتشاف عسير » - ص ٢٥١ - حيث تتجلى في هذا الفصل ما تتصف به المؤلفة من روح علمية منصفة ، تتعمق الحقيقة ، فقد ربطت بين الحديث عن إقليم عسير وبين حملة محمد علي - والي مصر - للقضاء على حكم آل سعود ، ومشيرة الى ما جرته هذه الحملة المشؤومة على تلك البلاد من خراب ، وما نشرته بين قبائلها من فوضى ، ولن يعدم القارئ - بين فصول الكتاب الاخرى - من لمحات خاطفة تبرز الغزو التركي المصري لبلاد العرب مجرداً

من معاني الانسانية والاخلاق ، بخلاف ما أضفي عليه من صفات الدفاع عن الاسلام من قبل طائفة من المؤرخين ، المشوهين للحقائق ، وكيف يكون مدافعاً عن الاسلام من لا يتورع من اسناد الحكم في احدي المدينتين الكريمتين الى (توماس كيث) من فرقة (الهابيلندرز ال ٧٢) - ص ٢٣٢ - ولا يجد وازعاً من دين او خلق عن إتلاف المزروعات ، وهدم المنازل ، وقطع الرؤوس ، وطمس الآذان ، وذبح الأسرى ، وغير ذلك من مظاهر المهيبة والوحشية ، بما صورته الرحالة الفرنسي « موريس تاميزيه » الذي رافق الحملة المصرية الى عسير ، بكل مرارة وأسى .

لا يزال (إقليم عسير) مفتقراً الى مراجع تاريخية ، كغيره من أقاليم الجزيرة - باستثناء الحجاز - ولهذا فإن المجلدين اللذين سجل فيها هذا الرحالة الذي زار ذلك الاقليم كاتباً لأحد اطباء الحملة الفرنسيين مشاهداته وملاحظاته يعتبران من المراجع المفيدة عن هذا الاقليم .

ولعل في سرد اسماء بعض المواضع التي مرّ بها الرحالة ، وسجل عنها بعض المعلومات ما يرسم لنا معالم تلك الرحلة .

سار الجيش من جدة في السابع عشر من ايار سنة ١٧٣٤ متجهاً الى الطائف ، ماراً ببَحْرَة - حَدَاء - وادي فاطمة - بئر البرود ، وعندها شاهد (تاميزيه) أطلالاً وصفها بالأهمية ، من الناحية الأثرية ، وتحدث عنها بإسهاب - كما تحدث عن سكان قرية السَّيْل من قبيلة « عُنَيْبَة » بعد اجتيازه قرية الزَّيْمَة ، ولما بلغ الطائف وجد بحال الوصف ذا سعة ، فرسم في وصفها صفحات فيها إبداعٌ ، وفيها صدق تصوير ، ثم تابع الجيش سيره صوب عَسِير ، فبزع وادي ضَرَاء (ص ٢٦٢ : درة خطأ) فوادي رَنْبَة (لا رَنْبَة كما في ص ٢٣٣ و دَنْبَة ص ٢٦٣) فوادي

هريجاب ، فوادي شتهران ، حتى بلغ قرية خميس مشيط ، حيث دارت رحى المعركة .

وعند العودة من الرحلة اتخذ رحالتنا ساحل تهامة طريقاً له ، بحتاراً بلدة أبي عريش ، متابعاً رسم لوحاته لكل مكان يمر به ، مصوراً كل حادثة تلفت نظره ، ببراعة ووضوح .

لن نسير مع (بر كهارت السويسري) مؤلف كتابي « رحلة الى بلاد العرب » و « ملاحظات عن البدو » الذي زار الحجاز عام ١٨١٤ و « دومنغو بادليا اي لبليخ الاسباني » المعروف باسم الحاج علي بك العباسي الذي شاهد موكب الامام سعود بن عبد العزيز في مكة سنة ١٨٠٦ ، فيها على جانب عظيم من الشهرة في عالم الرحالين ، ومؤلفاتها ما تزال معيناً موروداً للباحثين ، غير ان بما يستدعي العجب ما لقيه الرحالة الاسباني ، الذي ظهر بمظهر وجيه من سلالة بني العباس ، من شريف مكة من حفاوة ورعاية ، قلّ أن يحظى بها من هذا الوالي أحد من أبناء جلدته ، فهل كان ذلك عن مجرد بلاهة يتصف بها هذا الوالي ، أم أن وراء الامر ما وراءه ؟! إن بما لا شك فيه ان بلاهة شريف مكة - أياً كان باعثها - قد عادت بفائدة ذات أثر حميد على البلاد ، وعلى الباحثين في تاريخها ، بوجه خاص .

وماذا عن القسم الشمالي من نجد ، مقر امارة « آل رشيد » ؟

لقد زارت نيابة انكليزية تدعى « الليدي آن بلانت » هذه البلاد ، في الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، إبان حكم الامير محمد بن عبد الله الرشيد ، أعظم أمير رشيدي ، امتد حكمه حتى شمل نجداً كلها . وقد اشتمل المجلدان اللذان تضمننا أخبار تلك الرحلة ، على الكثير الشيق من

أنباء ذلك الحاكم ، ووصف بلاده في عهد حكمه . وأما ما قبل ذلك فإن المعلومات الوافية عن تلك الامارة ما تزال تعوز الباحثين^(١) .

ولقد قام الرحالة الفنلندي « جورج أوغست والان » برحلتين الى مدينة حائل بين عامي ٤٥ و ١٨٤٨ في عهد الامير عبدالله بن رشيد ، مؤسس الامارة الرشيدية ، ويمكن القول اعتماداً على النماذج الموجزة التي نقلتها مؤلفة هذا الكتاب (في الصفحات ٢٧٢ الى ٢٨٨) بما دونه من مشاهدات أثناء رحلته ، عن حائل ، وعن بلاط ابن رشيد ، وعن اسلوب حكمه - بأن المعلومات التي سجلها تصلح اساساً يعتمد عليه من يعنيه دراسة احوال تلك الامارة^(٢) !

من خلال هذه اللحات القصيرة تبرز للقارئ قيمة هذا المؤلف ، لا من حيث شموله لمعلومات ودراسات تاريخية في مجال الريادة والرحلات ، بل لأنه يبسط امام القارئ العربي المعني بدراسة تاريخ الجزيرة - ميداناً واسعاً ، ممد للطرق ، واضح المعالم .

لقد قسرتنا مقتضيات العصر الحديث على مجازاة الغريين في سنن الحياة اليومية ، في البيت ، وفي الشارع ، وفي المدرسة ، وفي كل مكان

(١) وقد ترجم الاستاذ محمد أنعم غالب ما يتعلق بتلك الامارة ، ونشرته (دار البعثة للبحث والترجمة والنشر) في الرياض سنة ١٣٨٦ / ١٩٦٧ ، غير أن قسماً كبيراً من الرحلة ما لا يتعلق بامارة آل رشيد ، لم يعرب بعد .

(٢) وقد طهت رحلته بعنوان : « صور من شمالي جزيرة العرب في منتصف القرن التاسع عشر » في بيروت سنة ١٩٧١ . بترجمة الاستاذ سمير سليم شيلي . ومراجعة الاستاذ يوسف ابراهيم يزبك . ولكن الترجمة - وبلا لاسف - مع كثرة أخطائها في كتابة الاسماء العربية ، لم تكن كاملة ، فقد حذف منها من النصوص ما جعل الباحث لا يعتمد عليها ، ومنها ما ورد في إشارات مؤلفة هذا الكتاب .

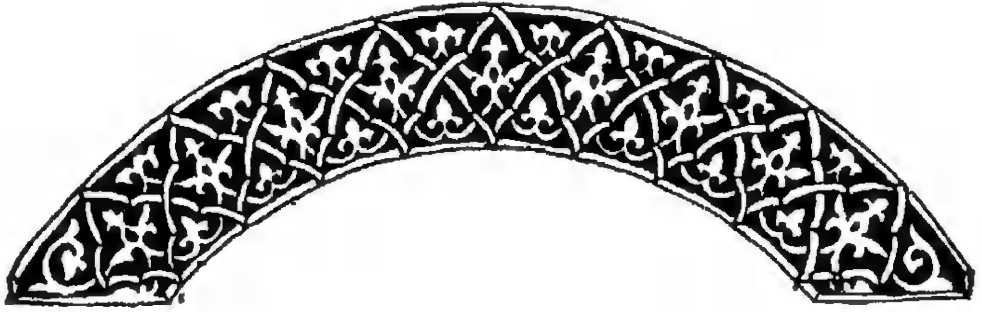
ألا يجدر بنا أن نسعى لمجاراتهم في مضمار البحث والسعي لإدراك الحقائق العلمية ، بنفس الأسلوب الذي وطّئ هؤلاء الرواد المغامرون أنفسهم على الأخذ به ، لتكييف حياتهم تكييفاً يمكنهم من الوصول الى الغايات التي يسعون إليها ؟

إن القارئ العربي كثيراً ما تعتريه حالة من الريبة والشك حيال كتابات الغربيين عن العرب ، وهي حالة مع منافاتها للحكمة العربية القديمة : (الحكمة خالصة المؤمن بلمتقطها حيث وجدها) لا تتفق مع المنطق القويم في شيء ، فالحق يجب قبوله ، أياً كان مصدره ، والباطل لا يتوقف رفضه على معرفة مصدره ، وأولئك - بحكم بُعدهم عنا ، وجهلهم لأحوالنا في الماضي - تشوب كتاباتهم عنا شوائب من الخطأ ، لا ينبغي أن تكون حائلاً بيننا وبين المعرفة ، بل الأجدر بها أن تكون من الحوافز التي تدفعنا الى معرفة كل ما يكتب ، عن بلادنا وتاريخنا ، لنقبل الحق وننتفع به ، وننفي الزيف ونأباه .

ثمّ الكمال - من قبل - ومن بعد - لمن له الكمال .

حمد الجاسر

المجلد الاول
رفع الستار



شبه الجزيرة العربية القارة المفقودة

إذا ما اتخذنا وجهة النظر الأوروبية ، وهذا ما سنفعله هنا ، أمكننا القول انه اعتباراً من القرن الخامس للميلاد ، وحتى يقظة الرغبة الكبرى في المعرفة خلال عصر النهضة ، لم يكن لأوروبا أية فكرة عن شبه الجزيرة العربية .

كانت قارتنا الأوروبية قد سادها جهل يكاد يكون مطبقاً ، بعد أن طغت على الحضارة الرومانية التي عرفت بها ، موجات الغزو البربرية في القرنين الرابع والخامس . وقد احتفظت الأديرة بشيء من المعرفة القديمة في المخطوطات التي كانت تنسخ فيها بكثير من الصبر . كانت أوروبا تتقدم متخذةً مركز ثقل قاري لها في اكنس - لاه شابيل أو في رافس ، أما العالم الإغريقي - اللاتيني ، فقد كان البحر الأبيض المتوسط قلبه النابض .

كانت التجارة ، والحروب ، فيما سلف ، ما بين سواحل هذا البحر الذي نشأت حوله أولى حضارات العالم . وكان أغنياء الإغريق والرومان يستهلكون يومياً أفارويه الهند ، والكهنة يحرقون أمام آلهتهم بخور بلاد العرب ، والجيوش تحارب الفرس أو هنبعل ، ولكن بالنسبة إلى أوروبا البرابرة ، لم يكن البحر سوى حدٍّ وسور لا يمكن تجاوزهما .

إن هذا الفاصل ما بين أوروبا من جهة ، والشرق من جهة أخرى ، قد ازداد عمقاً منذ أن ظهر الإسلام . فمنذ أن جهر محمد بالنبوة سنة ٦٢٢ ، أعلن الجهاد المقدس في الشرق . وقد أوقف ذلك ، بادئ ذي بدء ، نشاط التجار الذين تهيؤوا السفر إلى بلاد تسودها الحروب ، ومرعان ما أصبح على جانبي البحر الأبيض المتوسط لا حضارتان متباعدتان . فحسب ، بل عالمان متعاديان .

ثم اجتاحت الجيوش الإسلامية في اندفاعها الجبار الذي لا يقاوم سورية (٦٣٣) ، وفلسطين (٦٣٨) ، وبلاد ما بين النهرين (٦٤٠) وأرمينية وجورجية وقرقازية (٦٤٢) ، ثم بلاد الفرس ، وكردستان ، وآذربيجان ، وعلام (سوزيان) وفارسيستان ، حتى بلاد آموداريا (الاوكسوس) حيث أوقفت تقدمهم مقاومة الأتراك .

ولم تقف الجيوش العربية عند سواحل البحر الأبيض المتوسط ، وإنما اجتازت هذا البحر واحتلت الجزر الواقعة في القسم الشرقي منه ، كما أنها غزت ، في الوقت ذاته ، جميع البلدان الساحلية : مصر (٦٤٢) ، وليبيا ، وطرابلس الغرب ، والمغرب ، ولم تتوقف إلا عند شاطئ المحيط الأطلسي .

وبعد فترة من الهدوء الموقت دامت ثلاثين سنة ، بسبب النزاع على الخلافة ، بلغت الجيوش العربية في حربها مع الأتراك واحات أفغانستان ، وأبواب الصين ، ومقاطعة السند كلها في بلاد الهند (٧٠٧) ، أما في غربي البحر الأبيض المتوسط الذي احتلت جميع جزره ، فقد أخضعت قرطاجة العاصية ، وسحقت البرابرة ، وانجحت من هناك شطر إسبانيا فاحتلتها بكاملها (٧١٠) ، ثم تدفقت موجة الفتح العربي منها إلى نابون (٧١٩) ، وقرقاصون ، ونيم ، وبروفانسية ، وصعدت نهري الرون والسون حتى بورغونية ، وأخيراً حتى اللوار . وهناك تمكن شارل ماوتل من إيقاف زحف الجيوش الإسلامية في بواتيه (٧٣٢) ، واضطرها

الى التراجع حتى قاربون . وأوقف الزحف العربي في الوقت ذاته أمام
بيزنطية سنة (٧٤٣) ، فكانت تلك هي الحدود التي 'قدّر' له ألا
يتخطاها أبداً .

لقد وضعت موجة الفتح المتدفقة فاصلاً مادياً ما بين أوروبا وبلاد
العرب . وقد أنشأ العرب خلال القرون التي عكبت الفتوحات في
إمبراطوريتهم التي كانت تضم اسبانية ، حضارة باهرة ؛ فاتتة ليس
بأبهرتها فحسب ، بل بازدهار العلم والفكر أيضاً . ويخيل إلينا أن
العرب أخذ آتئذ يتعرف إلى بلاد العرب ، مهد الإسلام الذي كانت
العربيون يرتادون جامعاته .

على أن هذا التعرف لم يكن كافياً ، لأن العرب المنتصرين ، الخارجين
من الصحراء العربية كانت انتصاراتهم قد تغلبت عليهم . فقد جعلت منهم
الاسكندرية ومكتبتها الشهيرة قوماً متعلمين ، وهؤلاء العرب الذين فتشهم
المعرفة ، والجمال ، والثرف ، والذين كانت أعواصهم قد غدت بغداد ،
والقاهرة ، وطلبيطة ، لا مكة والمدينة ، أخذوا يحقرون الأرض
الجحود اللاهبة ، التي خرج منها اجدادهم لغزو العالم .

لقد أصبحت الجزيرة العربية مهلة من جديد ، ولم يعد يهتم بالتعرف
إليها ابناؤها الذين استوطنوا - خارج حدودها - بلداناً نشأت فيها
أقدم حضارات العالم

ولكن بعض الرواد المسلمين ، حاولوا بعد انقضاء عدة قرون على
ذلك ، التعرف إليها من جديد . فزار ابن بطوطة في سنة ١٣٢٨ مكة ،
واليمن ، وظفار ، وعُمان ، ولذا أمكننا اعتباره أول رائد عصري
لشبه الجزيرة العربية . بيد ان هذا الاستكشاف الكثير النواقص لم تفد
منه أوروبا التي لم تستطع قراءة ما كتبه ابن بطوطة وغيره من أغلب
المؤلفين المسلمين ، إلا خلال القرن التاسع عشر حين كانت معرفتها
ببلاد العرب قد تجاوزت ما كتبه المؤلف القديم .

بلغت الحضارة الإسلامية أوجها ما بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر ، وكانت هذه الفترة فترة استراحة فاصلة بين تدفق الموجتين المتعاكستين : الموجة الدافعة بالإسلام إلى غزو الغرب ، والموجة المهيبة بالغرب إلى مهاجمة العالم الإسلامي ، لاستعادة قبر المسيح والأماكن المقدسة . دخل الصليبيون من بلاد بيزنطة ، إلى بلاد فلسطين وحدود الجزء الشمالي من شبه الجزيرة العربية ، فهل أتاح لهم ذلك أن يتصلوا اتصالاً مباشراً بشبه الجزيرة المجهول ، الغامض ؟

لقد ساد السلام سنة ١٨٨١ ما بين مملكة القدس التي كانت يحكمها بودوان دي انجو الرابع ، وجيرانها المسلمين . وكان هذا الملك الشاب الذي قرض البرص اطرافه ، شخصية مسيحية اسطورية ، تتغلب لديها القيم الروحية على كل شيء آخر .

على ان صاحب إحدى افطاعاته المعروف باسم رينولد دي شاتيون ، ذا الدم الفوار ، سيد الكرك ، الذي مثله رينه غروسه فارساً قاطع طرق ، تم ملاعبه عن التوحش ، وممثلاً للطبقة الاقطاعية الدموية السالابة في الغرب ، تحول في الشرق إلى بدوي فرنسي لا يفهم الحرب إلا في سبيل الغزو ... إن رينولد هذا لم يكن يشبه مولاه ، وقد دفعته روح النهم والطمع المستبدة به ، التي أثارها ما كان يسمعه عن الكنوز المقدسة في معبد المدينة ، إلى القيام بتجاوز الحدود ، ودخول شبه الجزيرة العربية ، غير مكترث بالمعاهدات التي كان مولاه ملك القدس قد وقع عليها .

تقدم رينولد ورجاله في صيف عام ١١٨١ في القسم الصحراوي من شبه الجزيرة المجاور لتخوم اقطاعه ، ولم يتمكن من بلوغ المدينة ، ولكنه فاجأ قافلة آمنة متجهة من دمشق إلى مكة ، وسلبها كل ما كانت تحمله . أسف بلاط القدس لنبا هذه الغزوة كل الأسف ، وتملكته من جرائها الخيرة ، واشماز بودوان الرابع من هذا المدوان كل الاشتمزاز ، ولكنه

عجز عن حمل صاحب اقطاعه على إعادة الأسلاب إلى السلطان صلاح الدين ، واضطر مرغماً إلى التسليم بالحرب التي أعلنها دي شاتيون على العرب بتلك الطريقة .

واغتم دي شاتيون فرصة تساهل مولا ، فاحتل ميناء حريباً واقعاً على خليج العقبة ، ونقل إليه على ظهور الجمال ، سفناً فلسطينية مفككة ، أعاد تركيبها فيه . وما كادت هذه السفن الخمس الكبيرة تصبح جاهزة ، حتى وجهها مع خمس سفن هجومية صغيرة ، لمحصنة جزيرة « غراي » لإشغال الجيوش الإسلامية ، وأرسل العدد الأكبر من قطع اسطوله بحروب شواطئ البحر الأحمر ، ويعكر صفوها ، ويلقي فيها الذعر من سنة ١١٨٢ إلى سنة ١١٨٣ .

نزلت قوات رينولد دي شاتيون على أحد شواطئ الحجاز ، واستعدت للزحف على المدينة .

ولكن صلاح الدين ، من جهته ، أمر بتفكيك بعض السفن ونقلها من مصر إلى البحر الأحمر ، لانجساد العرب المروتين . واستعد أمير اسطوله للقيام بهجوم معاكس على سفن رينولد ، فأمر السفن التي كانت تحاصر جزيرة « غراي » ، ثم أخذ يطارد جنوده . وأدرك السفن التي كان يجارها يحاولون الالتحاق بالجنود المتوجهين لمهاجمة المدينة المقدسة ، ودمرها . وعند المضائق الصحراوية الواقعة على بعد مسيرة خمسة أيام من البحر الأحمر ، ومسيرة يوم واحد إلى المدينة ، هوجم الجنود الثلاثة من الفرنجية الذين كان قد انضم إليهم عدد من « الفرارين » المسلمين ، وتم القضاء على معظمهم . وأعدم في مكة والمدينة عدد من المائة وسبعين جندياً الذين نجوا من الموت في المعركة ، واقتيد الباقون أسرى إلى مصر ، ولم ينج بالفرار أحد منهم . ويذكر ابن جبير أنه شاهد جنود الفرنجية لدى وصولهم « مربوطين على ظهور الجمال ، وقد أديرت وجوههم نحو ذيولها

إمعانا في إذلالهم ، بين قرع العبلول والصنوج ، وهتاف الشعب . وقد
حزت اعناقهم فيما بعد .

وهكذا ظلت شبه الجزيرة العربية مصونة الحى . ولم تلبث فلسطين
أن سقطت بكاملها في ايدي المسلمين

وجاء فتح الأتراك العثمانيين فغمرت جيوشه البلدان ، وبيزنطة ،
وشرقي البحر الأبيض المتوسط ، وبسط الخلفاء الأتراك سلطانهم على معظم
البلدان الإسلامية ، ولكن شبه الجزيرة العربية ، ظلت بمنعنة على الفتح
التركي ، بفضل صحرائها التي هلكت فيها عطشاً الجيوش التي وجهها
السلطان سليمان سنة ١٥٥٠ .

وبما أن الأتراك كانوا قد اعتنقوا الإسلام ، فقد ظلت إمبراطوريتهم
بالنسبة الى الأوروبيين عالماً مغلقاً معادياً ، شأن الامبراطورية العربية ،
ووقفت اوروبا والاسلام وجهاً لوجه كعالمين كل منهما غريب عن الآخر ،
يتعذر تداخلها مادياً وروحياً .

وهكذا أسهمت القطيعة ما بين ساحل البحر الأبيض المتوسط الناجمة
عن غزوات البرابرة ، وحرب الاسلام المقدسة الهجومية ، ونسيان الحضارة
الاسلامية لمهد روادها الأوّل ، ومقاومة الجزء الصحراوي من شبه
الجزيرة العربية لغزوة رينولد دي شاتيون ، الغزوة المسيحية الوحيدة ،
والعداوة الدينية المزمّنة ، كل هذه أسهمت في ان يسدل ما بين اوروبا
الناشئة وشبه جزيرة العرب ، ستار كثيف من الجهل الشديد .

لقد كان كل ما يعرفه الأوروبيون ان النبي محمداً ولد في شبه الجزيرة
العربية ، وان اسم المدينتين المقدستين فيها مكة والمدينة . وكان يسود
اعتقاد خاطئ بأن جثمان النبي محمد معلق في الهواء في معبد مكة . ولم
تكن اية سفينة اوروبية تزور سواحل شبه الجزيرة العربية ، ولم يكن
يدخلها اي مسيحي ، إلا إذا اعتنق الاسلام ، وتخلّى بأخلاق العرب ،
وساكنهم .

على ان الاهتمام بالتبشير بالانجيل في بلاد الحبشة المسيحية ، المقابلة
لشبه الجزيرة العربية ، كان قد حدا بالبابا يوحنا الثالث إلى ان يرسل
إليها الراهب الدومينيكي ، غليوم آدم ، الذي يرجع انه كان فرنسياً ،
فتمكن من مسافة حدود شبه الجزيرة العربية .

لقد توجه هذا الراهب فعلاً إلى هرمز الواقعة في مدخل الخليج
العربي ، ومنها إلى عدن حيث مكث سنتي ١٣١٣ و ١٣١٤ ، ثم أبحر
نحو جنوبي إفريقية ، بعد ان قضى تسعة أشهر بين ظهرا في السكان
المسيحيين في جزيرة سقطرة . ثم عاد إلى فرنسا ، وتوفي في البلاط
البابوي في آفينيون .

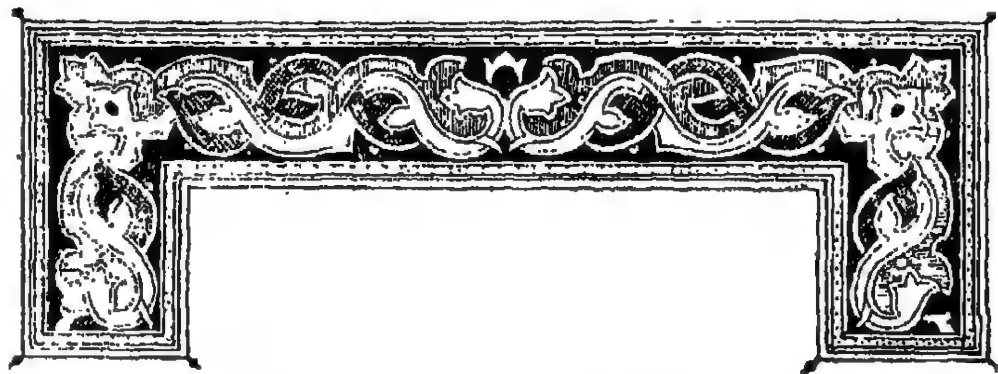
يدلنا هذا على أن ثمة عدداً صغيراً جداً من الأوروبيين لم يكن
يجعل جهلاً تاماً شؤون المحيط الهندي في القرن التاسع عشر ، وأحوال
الملاحة والتجارة فيه ، والدور الاستثنائي الذي كانت تملأه عدن ،
والمطامع التي كان يستثيرها هذا المرفأ الكبير . وقد برهن هذا الراهب ،
في الوقت ذاته ، عن بعض الآراء الفلكية السابقة لعصره ، إذ انه قدّر
في آن واحد ان الأرض كروية ، وان في الامكان الوصول إلى الجانب
الجنوبي من إفريقية الذي كان موقعه مجهولاً .

ولكن هذه الحالة النادرة تؤلف الشذوذ المثبت للقاعدة ، والمبين
للجهل المطبق الذي كان يتخبط فيه الأوروبيون فيما يختص بشبه الجزيرة
العربية .

لقد كان شبه الجزيرة العربية ، البالغة مساحتها خمسة اضعاف مساحة
فرنسا ، المتعذر الوصول إليه ، لأن شواطئه مغلقة على البحر الأبيض
المتوسط بمجموعة من البلدان الاسلامية المعادية ، المعروف لدى القدماء
رغم اعتبارهم إياه غريباً ، كان شبه الجزيرة هذا ، بالنسبة إلى الأوروبيين
لمجدد ، عالماً مفقوداً ، عالماً يستثير التشوق أكثر من قارة مجهولة ،
لميس لأنه مخفي بقاعاً يجب استكشافها ولا علم لأوروبا بشكلها وحقائقها

فحسب ، بل لأنه كان يشكل إطاراً للحضارتين : حضارة إسلامية بمدينة
المقدسة الغامضة ، وحياتها الاجتماعية ، وعاداتها ، وسكانها ، وحضارة
عريقة في القدم لم يكن يعرف الناس إلا تخميناً ، أنها كانت من أغنى
الحضارات في العالم القديم . فكانت الرغبة في المعرفة هي التي أهابت
بأوروبا إلى اكتشافها من جديد .





من خلال كتب لقدماء

اضطربت نار حب الاطلاع ، والمعرفة ، والاكتشاف في أواخر القرن الخامس عشر . فأغار ملوك البرتغال القباطنة المعروفين بالجرأة والافدام ، مراكب سيروها على طول ساحل افريقية الغربي لاكتشاف بلدان جديدة . وبينما كان هؤلاء يمخرون عباب البحار عكف آخرون على مطالعة ما اكتشفوا من كتب الأقدمين ، وعثروا في خلالها على الناربخ القديم ، والمعارف التي اكتسبها البشر قديماً .

وأبقت هذه الاكتشافات العقول ، فأخذت تتساءل عن كل شيء : عن النجوم ، وشكل الأرض ، والشعوب ، والعادات ، والقارات المجهلة ، والقارات التي كانت معروفة فيما مضى .

وطفق الناس يقرأون التوراة بأعين جديدة ، فأدركوا انها تضم بين دفتيها تاريخاً الى جانب الحكمة والدين .

عندئذ سقط الحجاب عن وجه من وجوه شبه الجزيرة العربية . كان قد أهمل في عالم النسيان منذ ما يقارب العشرة قرون ، وأخذ ينبعث من خلال الرقوق المصفرة .

قرأ الناس في التوراة ، في سفر الملوك ، ان سليمان ، وقد أدرك ان

في الامكان الابحار الى بلاد اوفير نزولاً بالبحر الأحمر للبحث عن الثروات المدهشة ، بنى اسطولاً في ميناء ايزيون جابر ، وان مراكبه عادت من بلاد اوفير حاملة اربعماية من ذهباً (سفر الملوك الاصحاح ١١ الرقم ٢٨) . فأين يقع ميناء سليمان هذا ؟ وأين تقع بلاد اوفير هذه بنوع خاص ؟

ولكن الأمر الذي يغري الخيلة ، زيارة ملكة سبأ التي اجتذبتها شهرة سليمان الحكيم ، فأقبلت تزوره ، تصحبها حاشية غفيرة غنية التجهيز ، وجمال تحمل الطيوب ، وكميات كبيرة من الذهب والحجارة الكريمة قدمتها الى سليمان (ملوك ص ١٠ آية ٢ و ١٠) . فما هي مملكة سبأ هذه التي كانت على هذا الثراء الأسطوري ؟

لا شك في أن الناس كانوا يعرفون الرواية الحبشية التي تذكر ان ملكة سبأ كانت احدى ملكات بلادهم ، وانهم يتحدرون بوساطتها من سليمان الذي لا يمكن ان يكون قد رفض القيام نحو الملكة الضيفة بواجب اللياقة الاول الذي كان في وسعه أن يقوم به .

وقد ورد في التوراة اسم مملكة اخرى باسم سبأ ربما كانت واقعة في بلاد الحبشة

ولكن الناس كانوا قد أخذوا يقرأون من جديد كتب الاغريق التي كانوا يجدون نسخاً منها في بطون مكاتب الأديرة حيث كانت قد اجتازت القرون الوسطى .

ثم ان الكثيرين من كتّاب الاغريق كانوا قد كتبوا عن شبه جزيرة العرب . فقد استقى هيرودوس مؤرخ القرن الخامس قبل الميلاد من مصر ، معلومات طريفة عن شبه الجزيرة العربية ، وأغنامها الغريبة ذات الأليات الدهنية الضخمة ، وطوبها الشهيرة : كالبخور ، والصبر ، وخيار شبر ، والقرفة ، والكافور ، واللادن ، وسمع من المصريين

روايات عن الأخطار التي تعترض سبيل من يقومون بجمع نتاج هذه الطيوب . فالأفاعي المجنحة تحمي أشجار البخور ، ويقتضي إبعادها عنها بالدخان ، وعلى من يريد جمع خيار مشبر من إحدى البحيرات ، أن يكسو جسمه كلياً بجلود الثيران اتقاء للسعات الحيوانات المجنحة ، ويحشى الكافور من وكنات الطيور الجارحة بذبح ثور ، ونثر لجه إرباً في أسفل الصفور العالية ، فتحمل الطيور حملاً ثقيلاً من اللحم ، الى وكناتها فتهوي لتقل الحمل ، جاعلة العطر الثمين في متناول طالبيه . أما اللادن فيعلق بلحي الماعز فيما هي ترعى الشجيرات التي تحمله .

ولكن من الواضح ان هذه الروايات كانت تحتوي على شيء من الخرافة .

وبعد انقضاء عصر على ذلك ، بحث ثيوفراست تليذ ارسطو ، وقد اعتاد ان يضمن الفلسفة ملاحظات علمية عن كل شيء ، في كتابه الذي أسماه « تاريخ النبات » عن طيوب بلاد العرب الشهيرة . فلم يكتف بوصف شجيرات الصبر والبخور ، بل أورد معلومات مفصلة عن زراعتها والمتاجرة بها فقال : « تحدث شقوق في الشجيرات يقطر منها سائل صمغي بقطرات شبيهة بالؤلؤ . ويكون كل واحد نصيبه من الصبر والبخور بالطريقة ذاتها ، ويتركها في عهدة رجال يقومون بحراستها ، بعد أن يكون قد نصب على كومتها لوحة كتب عليها عدد الكيلات في الكومة ، وعن الكيلة الواحدة . ويقبل التجار ، فاذا رأى أحدهم كومة أعجبه ، كلما ووضع ثمنها مكان البضاعة . ثم يأتي الكاهن فيأخذ ثلث الثمن للإله ، تاركاً ما تبقى ، في أمان لصاحب البضاعة ، حتى يأتي فيأخذه . »

وتحدث ثيوفراست عن السبثيين من سكان جنوبي شبه الجزيرة العربية ، واصفاً إياهم كمعارين ، أو زراع أو تجار ، يسافرون على وجوه البحار على ظهر سفن ، أو على زوارق من جلد . ولكن أكثر نشاطهم مكسباً

تقل المقر الذي يستخرج منه أقوى العطور ، الى البلدان المجاورة .

وفي مستهل القرن الأول لليلاد ، رسم المؤرخ اليوناني ديودور صورة أكثر حياة ، لبلاد العرب ، بلاد الطيوب ، والسكان السبثيين فقال : « تفوح في طول البلاد وعرضها روائح عطر طبيعي ... وتنمو على طول الساحل اشجار البلسم ، والقرفة وهي نبتة من نوع خاص ، لطيفة المنظر عندما تقطع ، ولكنها سريعة الذبول . وفي داخل البلاد غابات كثيفة تنمو فيها أشجار البخور والصبر الضخمة ، وأشجار النخيل ، والكافور ، وغيرها من الأشجار ذات الروائح العطرية . ومن المستحيل تمييز خواص كل شجرة منها وطبيعتها بسبب وفرة عدد أنواعها ، وضخامة كميات العطور المستخرجة منها . والعطور المستخرجة تبدو كأنها سماوية وغير قابلة التفسير ، وهي تتملك حاسة الشم وغيرها من الحواس لدى كل من يشمها ، حتى ان المسافرين ، لا يفوتهم التمتع بهذه المتعة ، رغم كونها على مسافة بعيدة من الساحل ، اذ تحمل الريح التي تهب من اليابسة في الصيف ، روائح الأشجار العطرية فتوصلها الى الجزء المجاور لها من البحر .. والذين يتمتعون بهذه الروائح العطرية ينحيل إليهم وكأنهم تذوقوا طعام الخلود . »

« أما السبثيون فأنهم متفوقون على جميع العرب المجاورين ، وغيرهم من الشعوب ، بثرواتهم وبذخهم بنوع خاص . وهم في الواقع ، يحصلون على أفضل الأسعار في مقايضات البضائع والصفقات التجارية ولهذا السبب ، ولكونهم بعد بلادهم قد جعلهم في منأى عن الغزو زمنياً طويلاً ، تراكت لديهم اكوام الذهب والفضة ، ولاسيا في سبأ حيث يقوم القصر . والأقداح المختلفة التي يستعملونها مزينة بنقوش ذهبية وفضية ، وقد استعملوا الاسرة ، والمشاجب والقوائم الفضية ، واتست سائر أنواع الأثاث التي استعملوها بفخامة لا يكاد يصدقها العقل » وانتصبت في مقدمة منازلهم مجموعة من الأعمدة الطويلة ، بعضها مذهب والبعض الآخر مزدان بتيجان تحمل رسوماً فضية . »

من المحتمل ان تكون مملكة السبثيين قد سبقت بعشرة قرون عصر الملكة الحارقة العظيمة التي قامت بزيارة الملك سليمان . ولكن السبثيين ليسوا الشعب الوحيد الذي اشتهر في جنوبي شبه الجزيرة العربية . فقد تحدث الجغرافي اليوناني سترابون حوالي مستهل القرن الميلادي الأول ، عن الشعوب الأربعة الهامة ، ناقلاً معلومات كان قد أوردها ايرواستين الفلكي الاسكندري الكبير ، الذي عاش قبل ذلك بثلاثة قرون . وهذه الشعوب الأربعة هي . أولاً المعينيون في القسم الواقع على ساحل البحر الأحمر ، وأكبر مدينة من مدنها قرنة او قرنات . ويجاورهم السبثيون وعاصمتهم حريابة ، ثم القتبانيون الذين كانوا يقيمون على طول المضيق الذي يستعمل للمرور ، وعاصمة ملكهم مدينة ثنة ، وأخيراً ، في أقصى الجهة الشرقية الحضرموتيون ومدینتهم سبتة . وكانت كل مدينة من هذه المدن خاصة لزعيم واحد ، مزدهرة كل الازدهار ، تزينها المعابد والقصور .

وكان السبثيون وجيرانهم ينقلون بالقوافل البخور ، والأفاويه المستوردة بالقوارب من بلاد الهند ، ويوصلونها عن طريق « الجرعاء » إلى الخليج العربي ، وعن طريق غربي شبه الجزيرة العربية الى خليج العقبة ومدينة البتراء .

ويذكر سترابون ان السبثيين قد جمعوا ثروات طائلة من المتاجرة بالطيوب ، فاقتنوا أواني مطبخ ذهبية وفضية ، ومزهريات ، وشجياً ، وأكواباً كبيرة ذات أغطية . وكانت ماكنهم بادية الفخامة ، والروعة ، كسيت أبوابها وجدرانها وسقوفها بالفسيفساء الذهبية والفضية والعاجية المزدانة بالحجارة الكريمة .

ولا يدهش القارئ اذ يعلم من المؤرخ نفسه ان الامبراطور الروماني أوغسطس ، كان قد وطد العزم سنة ٢٤ قبل الميلاد ، على أن يستولي على تجارة القوافل هذه التي تكسب سكان الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة

العربية تلك الثروات الاسطورية ، وعهد الى القائد آثيليوس غالوس بقيادة حملة لهذا الغرض . وقد كانت حملة شاقة ، محزنة ورغم انها كانت مظفرة في بادئ الأمر . وتمكن هذا القائد على الرغم من الأمراض التي فتكت بجيشه في ذلك المناخ اللاهب ، الرطب في المنطقة الساحلية ، من احتلال مدينة نجران . واستطاع ورجاله ، بعد ذلك بستة أيام ، من قهر العرب غير المسلحين تسليحاً جيداً ، على مقربة من أحد الأنهر . ثم توجهوا ومعهم دليل من أهالي البلاد نحو مدن العربية السعيدة . وكان السير ، بالنسبة الى أفراد ذلك الجيش ، مضيقاً عبر ذلك البلد الفقير ، الشديد الحرارة ، المحروم من الماء ، تكتنفهم الصحراء من كل جانب ، وربما يضلهم الدليل في مسالك غير موثوق منها ، وقد بلغوا مدينة مريابة فحاصروها ، ولكن العطش كان قد أخذ يتهدهم بالفناء . فهل كانت تلك المدينة هي مأرب عاصمة السبئيين ؟ ان الاجابة على هذا السؤال لا تزال حتى اليوم موضوع جدل . فقد ادعى الرومانيون انهم بلغوا مدينة تقع على مسيرة يومين من بلاد البخور .

ولكن الجيش وقد استبد به اليأس والمرض ، وتهدهه العطش بالفناء ، وخشي خيانة الدليل ، اضطر الى التراجع قاطعاً في شهرين الطريق التي استغرقت ستة اشهر في الذهاب .

وأصدر الملك أوغسطس مخطوطة في عدة نسخ تباهى فيها بالظفر الذي أحرزه ، ولكن ذلك لم يحل دون اخفاق الرومانيين اخفاقاً نهائياً في السيطرة على التجارة العربية . فقد دافعت طبيعة بلاد السبئيين عنهم دفاعاً أفضل من دفاع أسلحتهم امام هجوم الرومان الذين لم يكن قد قهرهم أحد بعد . وهكذا اضطر الناس الى التعرف بالاختبار ، الى طبيعة هذه الارض غير المضياف ، التي لا يستطيع العيش فيها الا من اعتادوا اقتحام الصعاب .

لقد كانت شبه جزيرة العرب حسب رواية ايراتوستين بالفعل ، تتألف

من جزأين كبيرين يختلف كل منهما عن الآخر كل الاختلاف . ففي
الجهة الجنوبية العربية السعيدة التي يقول « ان » عدة أنهر تزويها ثم تخفي
في السهول والبحيرات ، وهي خصبة التربة ، يكثر فيها العسل والماشية
وتتعدم فيها الخيول والبغال والخنازير ، وفيها كل اصناف الطيور الا
الدجاج والأوز . أما في الجهة الشمالية فتقع العربية القفراء « وهي بلاد
وملية ، قاحلة ، ينبت فيها بعض النخيل ، والاقنثة (شوك اليهود)
والطرفاء ، وتتعدم فيها المياه الا مياه الآبار ، ولا يقطنها غير البدو من
العرب وهم رعاة ابل » .

واذا كان لدى الناس في مستهل القرن الأول للميلاد هذه الفكرة
الموجزة عن طبيعة البلاد ، وسكانها ، وحضارتهم ، فلم يكن لديهم فكرة
واضحة عن شكل شبه الجزيرة العربية اذ لم يكونوا قد تعلموا آنذاك
رسم الخرائط .

لقد ذكر هيرودوت ان سلاكس وعدداً من البحارة اليونانيين نزولاً
عند أمر داريوس ، ملك الفرس (حوالي سنة ٥١ ق. م .) استطاعوا
ان يدوروا حول شبه الجزيرة العربية ، ابتداء من مصب نهر الأندوس
في بلاد الهند حتى بلاد مصر التي بلغوها عن طريق الجزء الأعلى من البحر
الأحمر . لقد كان الناس يدركون اذن ، منذ زمن بعيد ، ان شبه
الجزيرة العربية يقع على أحد حدوده بحر يتمكن المرء من بلوغ بلاد
الهند عن طريقه . ولكن بينما نعرف اليوم ان البحر الأحمر ، والمحيط
الهندي ، والخليج العربي تتصل ببلاد العرب ، كان الأقدمون يتصورون
بحراً واحداً يحد السواحل العربية بكاملها ، ويطلقون عليه اسم بحر أريتريا
(أي الأحمر) .

ولم يتمكن الملاحون الاغريق حتى القرن الثاني الميلادي من اعطاء
فكرة واضحة عن شكل الساحل الحقيقي في مجمله ، لأنهم لم يكونوا قد

تكنوا بعد من القيام بدورة كاملة حول شبه الجزيرة العربية .

لقد كان العرب ، في الواقع ، يعتبرون مضيق باب المندب شديداً الخطورة ، ولذلك أطلقوا عليه هذا الاسم ، ولم تكن الملاحة في المحيط الهندي الواقع ما وراء هذا المضيق ، ممكنة الا باتجاه الرياح الدورية فيه . وتهب هذه الرياح الدورية من شهر شباط (فبراير) حتى آب (اغسطس) من الجهة الجنوبية الغربية ، دافعة السفن نحو بلاد الهند ، أما خلال الأشهر الستة الأخرى فانها تهب من الجهة الشمالية الشرقية باتجاه شبه جزيرة العرب . ولم يعرف البحارة الاغريق خلال عصور عديدة ، استخدام هذا النظام الذي تتبعه الرياح الدورية .

لهذا السبب أورد الملاحان آغاتا رشيد وأرتيميدور وصفاً دقيقاً مفصلاً ، لشاطئ البحر الأحمر ، وموانئه ، وصغوره غير البعيدة عن وجه الماء ، وسلاسل سواحلها ، وسكانه ، دون ايراد اي ذكر لميناء حضرموت لكونه واقعاً ما وراء مضيق باب المندب .

وقد توصل هيبالوس في القرن الثاني قبل الميلاد ، الى اكتشاف وسيلة لتنظيم رحلة بحرية كاملة ابتداء من البحر الأحمر ، بحيث يتم الوصول الى باب المندب حين تكون الرياح الدورية ملائمة المهبوب . ومنذ ذلك الحين فقط ، بدأ الاغريق يقومون برحلات بحرية منتظمة الى بلاد الهند ، واستطاعوا ان يبحروا على مقربة من ساحل حضرموت .

ونجد في المؤلفات التي وضعت في مستهل التاريخ الميلادي عدداً متزايداً من المعلومات عن داخل البلاد . فقد أورد المؤرخ الروماني بليني في القرن الثاني للميلاد لوائح باسماء القبائل ، والمدن ، والقرى في القسم الأوسط من شبه جزيرة العرب ، ويبرهن عن معرفة ادق بالسكان ، الحضرة منهم والبدو .

ويذكر كتاب « دورة حول بحر أريتيريا » لمؤلف مجهول ، اسماء

الطرق التي كانت تربط ما بين مملكة سبأ والبتراء من جهة ، وبينها وبين عمان وحضرموت والجرعاء على الخليج العربي من جهة أخرى .

وأخيراً نجد في كتاب بطليموس أطلساً حقيقياً يحتوي تعليقات وشروحاً ، وقد نسقت فيه المعلومات المجموعة حتى أيامه ، تنسيقاً دقيقاً .

ان رجال عصر النهضة لم ينظروا الى هذا الكتاب كمجموعة معارف فحسب ، بل اعجبوا بما احتواه من الاكتشاف العلمي الذي سمح بأن تعين على الورق مواقع الأماكن المعروفة المختلفة . ولم يكن ذلك ممكناً الا بتقسيم العالم بصورة اصطلاحية بمتوازيات خطوط العرض ابتداء من خط الاستواء : وبمتوازيات خطوط الطول ابتداء من نقطة حددها الجغرافي في جزيرة فيتبول . وبالنسبة الى هذه المتوازيات أمكن تحديد المواقع الجغرافية للأماكن المختلفة ، ووضعها على الخارطة .

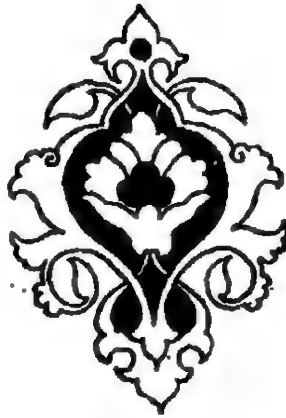
والجزيرة العربية التي رسمها بطليموس ممدودة عرضاً نحو الاسفل ، وضيقة في الاعلى . وقد رسم فيها الجغرافي أربعة أنهر كبيرة ، وسلاسل جبال وعدداً كبيراً من الاسماء .

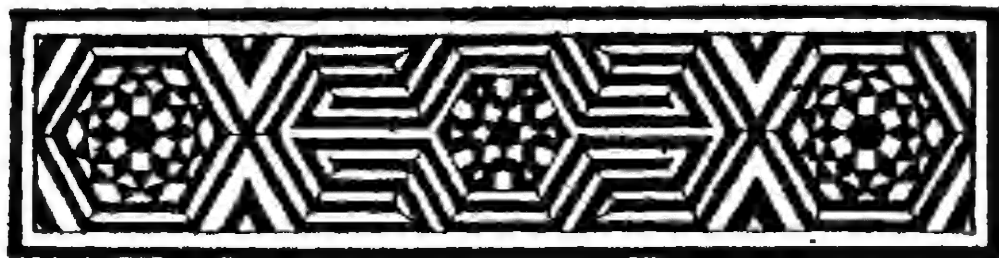
لقد أدهشت هذه المعرفة رجال عصر النهضة . ولكنهم كانوا قد تعلموا في مدرسة المؤلفين القدماء ان يتحروا صحة المعرفة ، وان يصروا على التحقق بأنفسهم ، ورفضوا الاستماع الى الروايات . فلم يكتفوا بالاطلاع على ما كتب ، ولكنهم تحرقوا شوقاً الى الرؤية بأعينهم . ومن ثم نشأ ذلك الشوق الملح الى السفر الذي سمح برؤية أراض جديدة ، وأناس جدد ، وعادات جديدة ، وكلها موضوعات للملاحظة والتأمل في وسعهم تقديمها لمواطنيهم . ولكن أوروبا كانت قد أخذت تقدم مادة اكتشافات عديدة فكيف السبيل الى دخول الشرق الاسلامي ، الشرق المعادي ؟

ومع هذا ، فقد وجد رجل كتب ما يلي : « ان الرغبة التي أهابت

بالكثيرين الى رؤية الممالك الدنيوية ، هي التي يبدو انها قد دفعتني الى العمل نفسه . وبما ان الممالك والمقاطعات الاخرى كلها قد أعلن عنها الكثيرون ، عقدت العزم على رؤية المقاطعات والممالك التي لم يقيم اجدادنا بزيارتها إلا فيما ندر . واتكالا على معونة الله ابجرنا من البندقية عند هبوب رياح ملائمة .

كان هذا سنة ١٥٠٣ ، وكان ذلك الرجل لودفيكو دي فارتيما .





لودفيكو دي فارتيا

هل سبق احد لودفيكو دي فارتيا في زيارة بلاد العرب ؟ يعتقد احد المعاصرين ان كابوت ، الرحالة الكبير ، قام بزيارة مكة بين سنتي ١٤٧٦ و ١٤٩٠ ، ولكن الشكوك تحوم حول صحة ذلك . على ان هناك امراً لا يتسرب اليه الشك وهو ان الملك جان عاهل البرتغال قد ارسل إلى شبه الجزيرة العربية سنة ١٤٨٧ بدرو دي كوفيلها الذي كان يتكلم العربية ، للتحقق من إمكانية الذهاب إلى الهند مروراً بالبحر الأحمر . وقد بلغ أحد موانئها عن طريق برية بالانضمام إلى قافلة من المغاربة متوجهة إليها من القاهرة ، وأبحر منها على ظهر مركب إلى عدن ، ومنها إلى بلاد الهند . وما كاد يعود إلى القاهرة حتى تلقى أمراً من ملكه بالذهاب إلى بلاد الحبشة ، وقد قام بذلك قياماً حسناً إلى درجة أنه أقام فيها مدة ثلاثين سنة كاملة . وقد روى كوفيلها لكاهن سفير برتغالي مثل بلاده في الحبشة من سنة ١٥٢٠ إلى سنة ١٥٢٦ قصة أسفاره المليئة بالحوادث مضمناً إليها حديثاً عن سفرة زعم أنه قام بها إلى مكة والمدينة . فهل قام ، حقيقة ، بتلك السفرة ؟ إذا كانت هذه السفرة قد تمت بالفعل فإنها على كل حال لم تزود شيئاً على معلوماتنا

عن شبه جزيرة العرب ، لأنه لم يكتب عنها شيئاً .
وقد كتب المدعو ارنولد فون هارف ، خلافاً لذلك ، قصة رحلاته
التي ادعى القيام بها الى كولونيا ، فالبنديقية ، فالاسكندرية ، فالقاهرة ،
فجبل سيناء ، وزعم انه اجتاز من هنالك شبه جزيرة العرب الى عدن ،
وأبحر منها الى سوقطرة ، فسيلان . وزار بلاد الهند ومدغشقر ، وقطع
جبال القمر ، واكتشف منابع نهر النيل الذي تتبعه حتى القاهرة ،
وعاد منها الى اوروبة ماراً بفلسطين وسورية وتركية .

ولكن مثلما تتيح لنا الفرصة اليوم ان نرى كيف يقوم الصحافيون
المعاصرون « بتتيل » رواياتهم ، والتأثير على القراء الذين لا دراية لهم بتعري
المعرفة ، يبدو ان عدداً من الناس صدق رواية ارنولد فون هارف آنذاك ، على
اننا نستطيع اليوم ان نتبين اخطائه ، وعدم الترابط المنطقي في روايته ،
والحماقات التي ارتكبها فيها ، حين تقارنها بالمعلومات المكتسبة . ومن
الظاهر انه لم يزر إلا القاهرة ، وسيناء ، وفلسطين وسورية . ولكنه
قد استقى بعض المعلومات عن بلاد بعيدة ، أراد ان يعرضها ، وكأنه
شاهدها بأم العين ، دون ان يفهم ما رواه عنها ، ويدقق فيه .

لقد كسب منها ، في حكم الأجيال الآتية ، لقب اول موزع للأبناء
الكاذبة . اما لودفيكو دي فارتيا ، فإنه يبدو ، على العكس ،
صادق الرواية ، موضوعياً ، إيجابياً ، رغم انه لم يتمكن من تجنب
إيراد بعض الأخبار التي سمع بها اثناء رحلته الى بلاد الهند ، كأنها
أخبار شهداها بأم العين .

ليس اصل لودفيكو دي فارتيا معروفاً ، فبعض من يستشهدون به
يدعونه « البولوني » ، وبعض آخر يطلق عليه اسم « الروماني » . فقد
كتب احد مؤرخي الاكتشافات في القرن الثامن عشر انه « كان
دومانياً من أسرة باتريزي النبيلة ، ولكنه اشتهر باسم لويس فارتيا
البولوني الذي انتحله في مذكراته » .

ومها يكن من امر ، فانه ما من قصة رحلة لاقت ، طوال نصف قرن ، مثل النجاح الذي لاقت قصة رحلته . فقد تعاقبت طبعاتها وتراجعت خلال ثلاثين عاماً دونما انقطاع ، وظهر منها بعض الطباعات في القرن السابع عشر .

وما يزال كتابه شائعاً حتى اليوم ، لاسيما وان مؤلفه قد برهن عن كونه قاصاً رائعاً ، فضلاً عن كونه شاهد عيان أميناً ، وما ذلك لانصرافه إلى الأدب ، إذ كان على العكس بعيداً كل البعد عن اللجوء إليه ، متحاشياً كل التحاشي وصف جمال الأشياء ، فقد كتب عن دمشق : « من المؤكد ان المرء لا يستطيع وصف جمال المكان وجودته » ، ولكنه يمتاز من غيره بأنه لم يحاول قط ان يُدهش ، وان يضخم ما يراه ، وان يعظم قدر نفسه . انه يبحث عن المعلومات التي يفيد نقلها ، فيذكر عن المدن عدد بيوتها ، ومساجدها ، والأحداث البارزة في تاريخها ، ومتنوجاتها التي يراها في الأسواق ، وازياء ملابس أهلها ، وصورة صحيحة عنهم ، وعاداتهم . ويكمن سحر روايته ، في دقة الملاحظة وصحتها ، وفي ما تنسم به من واضح الوصف وبحكمه ، هذا عدا عما في مغامراته من لذة النسق الروائي الخيالي .

لقد غادر البندقية سنة ١٥٠٣ فبلغ القاهرة ، ثم بيروت ، فطرابلس ، فعلب ، واخيراً دمشق حيث أقام مدة لتعلم العربية . وتعرف في مصر وفي سورية إلى المماليك ، أولئك الجنود الذين كانوا يقومون بمهام الشرطة لحساب السلطان التركي . وكانوا في الحقيقة من الأسرى المجرين ، والفاشيين ، والصربيين ، والبلغاريين ، وغيرهم من الأوروبيين الألمان ، والقطالانيين ، والصقليين ، والايطاليين ، الذين كانوا يُنقلون إلى مصر بعد ان اعتنقوا الاسلام . وكان هؤلاء الجنود بما عرف عنهم من عدم اكتراث بالواجبات الدينية ، وروح القوضى ، والرغبة في المشاكسة قد استثاروا احتقار المسلمين وكرههم . ويروي لنا دي فارتيا نفسه السلوك الفاسق

الذي كانوا يسلكونه تجاه نساء دمشق .

ولكي يحقق دي فارتيا رغبته في رؤية اشياء جديدة ، لم يجد افضل من التعرف الى ضابط من ضباط الممالك ، عهد إليه وإلى ستين من رجاله بحراسة قافلة حجاج متجهة الى مكة مؤلفة مما يقارب خمسة آلاف شخص ، وخمسة وثلاثين ألف رجل ، ومرافقته في الذهاب والاياب ، فقبل الضابط ، وأصبح دي فارتيا من الممالك (بقوة المال واشياء أخرى .. كنت أعطيه إياها) .

لذا فقد قدر له وذلك إذا صبح على جانب عظيم من الأهمية ، أن يتعرف الى مدينتي الإسلام المقدستين ، وقبر النبي ، وحرم الكعبة ، وأعظم شعيرة من سنائر الدين الإسلامي وهو الحج .

فقد بلغ ، في المرحلة الأولى من الرحلة ، الى مزيريب في حوران . وكانت هذه المنطقة المتاخمة للمناطق الزراعية والمتحضرة ، دائمة التعرض لغزوات بدو الصحراء . وكان الرومان قد اضطروا الى إنشاء حدود محصنة لإيقاف هذه الغزوات .. وقد أدرك دي فارتيا الذي بقي ثلاثة ايام في مزيريب كل الادراك ، طباع البدو الذين التقى بهم لأول مرة ، والأحوال السائدة في منطقة الحدود هذه ، فكتب يقول : « عندما يحين موعد جمع المحاصيل الزراعية ، يراهم الناس في الصباح الباكر على مقربة من المدينة التي يجدون فيها الحنطة والشعير مدروسين ، نظيفين ، رغم اعتقاد الناس في الليل السابق انهم على بعد مائة ميل من المدينة ، فيملأون اكياسهم ويذهبون بها ، ويحدث لهم أن ينطلقوا ليلاً ونهاراً كاملين على صهوات الخيل دونما استراحة ، وعندما يصلون الى بيوتهم يسقونها حليب النوق البارد المرطب ، ويبدو كأن هذه الخيول تطير كالهبازة

» واعلموا ان معظم هؤلاء الناس — ما عدا زعماءهم — يركبون الخيل بلا سروج ، ويرتدون نوعاً من القمصان . وجهاز حريمهم ومعهم من القصب

الهندي يتراوح طوله بين عشرة أشتار واثني عشر شبراً ، وينتهي في طرفه بقطعة من حديد . وإذا ما أرادوا ان يقيموا سباقاً رأيتهم لاصقين يمتون خيلهم ، يخفاف الحركة كأن بهم نشوة ، قصار القامات ، سمر الوجوه ، صوتهن شبيه بصوت النساء . وعددهم كبير الى درجة يتعذر معها تقديره ، والمنازعات والحروب تظل قائمة بينهم . وهم يسكنون الجبال ، وعندما يسمعون بمرور قافلة باتجاه مكة ، يأتون للتصدي لها وصلبها ، وينقلون امتعتهم ونساءهم واولادهم وخيامهم على ظهور الجمال ، بيوتهم شبيهة بخيام المحاربين ، وهي مصنوعة من الصوف الحشن . وقد اختبر مع القافلة الممر القسري المرقق لبلوغ احد الآبار ، اثناء اجتيازها منطقة قاحلة ، حيث قضى ثلاثون شخصاً نحبهم عطشاً ، وحيث ترك عدد من المحتضرين على جوانب الطريق ، وقد دفنوا في الرمال حتى الأعناق .

ولم يكن دي فارتيا ليعرف ان القافلة كانت تجتاز آنذاك « النفود » ، وهو جزء من الصحراء يمتد عرضاً في شمالي شبه الجزيرة العربية . وقد اضطرت القافلة ايضاً الى الوقوف في وجه البدو الذين كانوا يحاولون تقاضي بعض المال عن المياه المستقاة من آبارهم ، أو غزو القافلة . وكان الممالك يبدون شجاعة فائقة في هذه المناسبات ، فلم تفقد القافلة سوى رجل واحد وامرأة واحدة .

ولم يورد دي فارتيا في كتابه اسماء المواقع المختلفة التي مرت بها القافلة مكتفياً باسم مزريب نقطة الانطلاق ، وباسمي مكة والمدينة اللتين كانت القافلة تقصدهما .

وبذكر دي فارتيا ان القافلة بلغت وادي سدوم وعمورة بعد مسير اثنين وعشرين يوماً . ومن الواضح ان ذلك ليس صحيحاً لأن هاتين المدينتين تقعان على شاطئ البحر الميت وقد سبق لدي فارتيا ان اعلنا انه ليس بالرجل الذي يستقلي معلوماته من الكتب . ولكنه يورد هنا

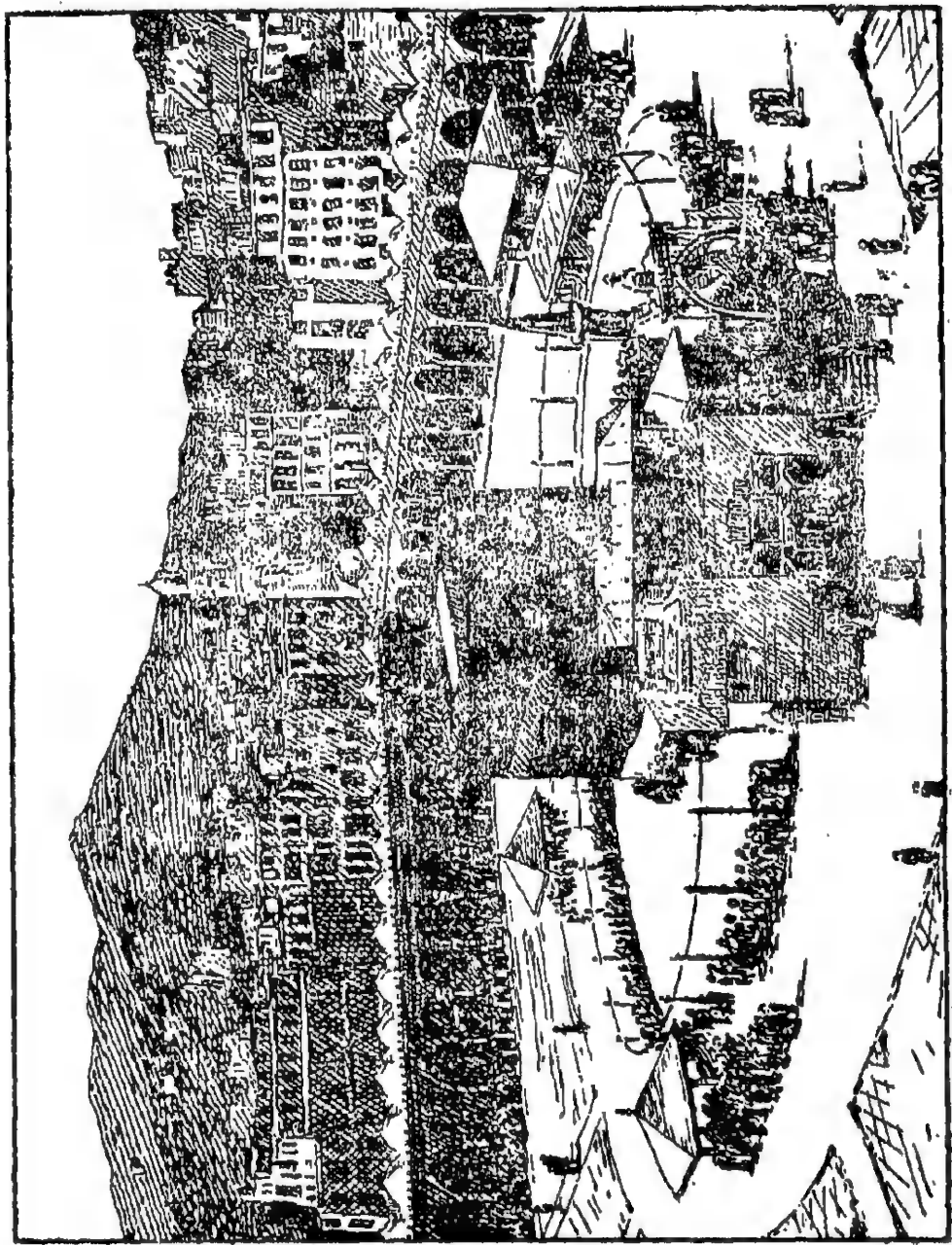
خليطاً بما يتذكره من التوراة فيقول ان سكان هاتين البلديتين لا بد ان يكونوا قد ارتكبوا ضروباً من المعاصي ، حتى أُنزل بهم ذلك العقاب ، لأن كل ما يحيط بذلك المكان من أراضٍ قاحل لا ماء فيه ، ولا ينتج أي شيء . وبضيف الى ذلك قوله : « لقد كانوا يعيشون على المن ، وبما انهم لم يعترفوا بتبعة الله ، وبسبب آثامهم الفاحشة ، عاقبهم الله بأعجوبة منه ، ولا يزال المرء يرى اطلال هاتين المدينتين » .

ان في ما كتبه دي فارتيا صدى للعقيدة الاسلامية ، فلا يزال المسلمون حتى يومنا هذا ، يعتبرون هاتين المدينتين القديتين المهدمتين ، كمدينتين لعنهما النبي . ولا شك في ان دي فارتيا قد خلط هذا النوع من الاعتقاد بما تذكره من معاقبة العبرانيين في الصحراء لتدميرهم من الرب ، ومن معاقبة سدوم وعمورة .

إننا نظن ، إذا أخذنا بعين الاعتبار أيام السير المذكورة ، ان المدينتين الواقعتين في ثلاثة اخماس المسافة ما بين دمشق والمدينة ، لا يمكن ان تكونا سوى مدائن صالح والعلا . وقد مر بها دي فارتيا متوهماً انها سدوم وعمورة ، ولم يحظر ببالة ان هناك حضارة عريقة في القدم ، لا تزال في حاجة الى من يكتشفها .

ومر بسفح جبل يراوح محيط دائرته بين عشرة اميال واثنى عشر ميلاً ، فكتب : « هناك يسكن اربعة او خمسة آلاف يهودي ، وهم عراة تماماً ، يراوح طول الواحد منهم بين خمسة وستة أقدام ، اصواتهم شبيهة بأصوات النساء ، لوهم أميل الى السواد منه الى السرة » لا يأكلون الا لحم الغنم ، ولا شيء لديهم غيره . وهم محتنونون يجهرون بيهوديتهم . وعندما يتمكنون من إلقاء القبض على احد المسلمين ، يسلخون جلده حياً ، . وأغلب الظن ان هؤلاء اليهود إما ان يكونوا عشيرة خيبر او عشيرة دغتي ، الذين شهدوا أياماً عصيبة في القرن التاسع عشر .

واخيراً بلغ دي فارتيا المدينة . وكان يُظن في اوروبة ان جثائن



مسجد الكعبة في مكة
نقلًا عن صورة فوتوغرافية :
لكراجفكي في الجلة الجغرافية
الوطنية .

النبي محمد معلق في الفضاء في البيت الحرام بمكة . فكان لفارتيا الفضل في
تصحيح هذا الاعتقاد الخاطيء . إذ رأى بالفعل قبر النبي في المدينة .

وصف المسجد بأنه مربع ، ينتصب فيه اربعة اعمدة بيضاء من الحجر
المحرق ، وذكر أنه رأى فيه ما يقارب الثلاثة آلاف مصباح كلها
موقدة دائماً ، وفي أحد أركانه برج مربع مكسو بالحزير منطوق بأعراس
من النحاس ، يدخل إليه من باب صغير ، يرى على كل جانب من
جانبيه ما يقارب العشرين كتاباً من كتب سيرة النبي ، وأحاديثه ،
ووصاياه ، وأعمال عظماء المسلمين المدفونين فيه وما أثرهم ، وهو يضم في
الحقيقة : قبر النبي والخليفين أبي بكر وعمر ، ويذكر دي فارتيا أن
هذا البرج يضم أيضاً ، قبور علي وعثمان وفاطمة بنت النبي . ومن
الواضح أنه قد أخطأ من قال له ذلك فيما يختص بالإمام علي ، أما فاطمة
فلا يعتقد بدفنها هناك إلا الشيعة . وأما عثمان فقبره في مدفن آخر من
مدافن المدينة .

ويقول دي فارتيا أنه لم يَرَ أصحابه وهم ذور عقول واجعة ، الأنوار
التي يؤكد المسلمون أنهم يرونها تنبثق ليلاً من قبر النبي .
على أن دي فارتيا أحسن دون ما تحيز وصف الشعائر التي كانت
تقارن في مكة ، وأعجب بالمدينة المقدسة المحاطة بالجبال . وذكر أن
الأراضي التي تقع حولها قاحلة ، وأن المواد الغذائية تأتيها من القاهرة عن
طريق ميناء جدة الواقع على البحر الأحمر ، ومن بلاد الهند وبلاد فارس ،
وسورية ، وأنه يردها كميات كبيرة من الجواهر والأفاويه من بلاد الهند
وببلاد الحبشة ، وكميات كبيرة من منسوجات القطن والكتان والحزير من
بلاد البنغال ، وأن تجارة الجواهر ، وأصناف الأنسجة الحريرية . والقطنية ،
في هذه المدينة المزدهرة بالناس ازدهاراً لا مثيل له في أي مكان آخر ،
ناشطة نشاطاً لم ير مثله في حياته ، وأن العطور تباع بالجملة تحت قباب
المسجد الكبير ، بينما تباع الجواهر بالقرب من بابه .

يعرف بما كتبه بوكهاردت ان الكعبة ، قدس أقداس مكة ،
وقد أعيد بناؤها كلياً سنة ١٦٢٧ . أما دي فارتيا فقد وآها في حالتها
القديمة . وقد ذكره المسجد المستدير ، الرائع كل الروعة ، بمدرج الكوليزيه
في رومة . وفي فسحة مكشوفة في وسطه ، برج صغير يقدر كل من
جوانبه بما يراوح بين خمس وست خطوات ، أحيط بنسيج من الحرير
الأسود هو الكعبة . ويمكن الدخول إلى الكعبة من باب من الفضة ،
يقع أسفله على ارتفاع قامه رجل ، وقد وضع على كل من جانبيه إطاء
جليء بالعطر . وترى حلقة ضخمة في كل ركن من أركان البرج .

ويروي لنا حالتنا كيف ان الجميع ، قبل بزوع شمس الثالث
والعشرين من شهر ايار (مايو) أخذوا يطوفون حول الكعبة مقبلين
زواياها ، وبعد الفراغ من ذلك ، جعلوا يقتربون من بئر « زمزم » التي تقع على
بعد اثنتي عشرة خطوة منها ، وهم يسرون القهقري . وفيما يستغفر المؤمن
الله بصوت مرتفع يلقي على رأسه ثلاثة أسطل من الماء ليتل حتى انخص
قدميه ، لا يستثنى من ذلك احد ولو كان مرتدياً ثوباً من ذهب ،
لأن ماء هذه البئر يعد مطهراً للخطايا ، ويتوجه الجمهور بعد ذلك إلى
أسفل جبل « منى » لتقديم الأضاحي ، فيقوم كل مؤمن بنحر عدد من الحراف
يتراوح بين اثنين وخمسة ، ويحتفظ بشيء من لحمها لاستعماله الشخصي ،
ويوزع ما تبقى على الفقراء ، والفقراء كثيرون ، يتنازعون لا اللحم
فحسب ، بل قشور الحيار التي تلقى اليهم على الرمل .

وفي اليوم التالي بعد ان يقوم الحاج بإعلان التوبة ، يسرع الجميع
بالعودة إلى البلدة . ويلاقون في منتصف الطريق جداواً كومت في
أسفل كمية من الحجارة الصغيرة ، على كل واحد ان يقوم برمي احداها
كأنه يرمي بها عدواً غير منظور .

ويشرح دي فارتيا هذه الشميرة الدينية فيقول إنها رمز لطاعة
المسحق ، ودليل على الرغبة في الاقتداء بها . فقد جاء في التعاليم الاسلامية ،

أن الشيطان حاول إقناع إسحق بعدم اللحاق بأبيه إبراهيم العازم على التضحية به ، فطرده اسحق مرتين ، وفي المرة الثالثة رجه بالحجارة لكي تم مشيئة الله .

ويذكر دي فارتيا ايضاً ان الحمام يغزو مكة ويحدث اضراراً جسيمة ، ولكن ما من احد يقدم على قتل حمامة واحدة ، لأنهم يعتقدون أنها تتسلسل من الحمامة « التي كانت تكلم النبي محمداً بوصفها الروح القدس » .

ويذكر لنا اخيراً ، انه رأى في احد جوانب المسجد وحيدى قرن حين كانا قد أهديا الى سلطان مكة . وتبدو هذه الرواية من قبيل الحرافات ، وأن لا أساس لها من الصحة ، ولكنها ليست كذلك لأن من المؤكد ان وحيد القرن موجود في غابات بلاد الحبشة الكثيفة .



كانت ادروية مزمنة إذن ، منذ ذلك الحين فصاعداً ، أن تعرف شيئاً ، ولو مختصراً ، عن كيفية تأدية فريضة الحج الشاقة ، الحج الذي هو من أركان الدين الإسلامي ، ويجعل من المؤمن مسلماً حقيقياً جديراً بالجنة .

وبما ينير الإعجاب موضوعية الرحالة ، الذي يلاحظ للمرة الأولى شعائر مجهولة ، والذي يحسن السؤال ، وفهم المعنى الروحي لمناسك الحج .

وقد كان مزمناً ان يطلع مواطنيه على مجالي جزء آخر من بلاد العرب ، بعد ان أطلعهم على الجزء الصحراوي منها ، وعلى المدينتين المقدستين . وما هذا الجزء إلا العربية السعيدة .

لم يفكر رحالتنا المملوك قط بالعودة مع القافلة إلى دمشق ، وفيما كان يشتوي ذات يوم بعض البضائع لرئيسه ، اتهمه احد الناس بأنه

ليس مسلماً ، وعبثاً أقسم « برأس النبي ... » انه مسلم ، واضطر الى مرافقة متهمه الى منزله للتفاهم معه . وحين دخل المنزل أفهمه متهمه ، باللغة الإيطالية ، انه سبق له أن قام بزيارة لإيطاليا ، وانه رأى هناك . فشرح له دي فارتيا أنه أسلم في القاهرة . ، وأصبح من الممالك . فسر متهمه المسلم بذلك ، وأحاطه بالإكرام والاحترام . ثم دار الحديث بينهما عن شؤون الساعة ، فعلم دي فارتيا ان السبب في تناقص تدفق الثروات في تلك السنة على البلاد عما سبقها من السنين ، عائد الى ان مراكب ملك البرتغال كانت قد اخذت تصل المحيط ، وتبلغ حتى خليجان فارس والعربية .

كان ذلك ، في الواقع ، سنة ١٥٠٩ . وكان الملاحون البرتغاليون قد توغلوا في رحلاتهم الاستكشافية طوال ساحل إفريقيا الغربي ، الى درجة ان فاسكو دي غاما ، أفلح بين سنتي ١٤٩٧ و ١٤٩٩ في الدوران حول رأس الرجاء الصالح . وبتجاوزه الطرف الأقصى من شبه الجزيرة الأفريقية: ألقى نفسه في المحيط الهندي ، وبصعوده ، بجذر كلي في بادئ الأمر ، الساحل الافريقي الشرقي ، بلغ الشواطئ العربية .

وهكذا ، فيما كان دي فارتيا يتعلم العربية في دمشق ، كان فاسكو دي غاما ، من جهة الجنوب يسير السواحل العربية . وعندما علم دي فارتيا بذلك تظاهر بالاستياء الشديد وبالعداء نحو النصارى ، وطلب من صديقه المسلم ان يساعده على التخلص من القافلة ، ومن وجوده في سلك الممالك ، ليتمكن من التوجه الى ملوك الجنوب ، أعداء البرتغاليين ، وتعليمهم صنع المدافع . واتفقا على خطة . وبينما كان رنين الأبواق يتعالى داعياً الممالك الى الالتحاق بفرقتهم ، وصوت المنادي ينذر المتخلفين بعقوبة الأعدام شتقاً ، كان دي فارتيا مختبئاً في شقة الحرم الخاصة بزوج التاجر المسلم وابنة أخيه ، مستودعاً الله روحه ، مذعوراً كل الذعر من ذلك الانذار . واخيراً هدا روعه برحيل القافلة ، وأحاطته

زوج مضيغه وابنة أخيه الفاتنة بفائق العناية ، وأسلمته ، حسب توصية رب البيت ، الى قافلة متجهة الى مصر عن طريق ميناء جدة . ولم يكذب يبلغ جدة ، حتي أم المسجد ، واستلقى فيه ارضاً متظاهراً بالمرض ، وبقي فيه اربعة عشر يوماً لا يخرج منه إلا ليلاً لشراء الطعام . واخيراً ، وجد سفينة متجهة الى بلاد الفرس فركبها بعد ان تدبر أمره مع قبطانها .

ويتحدث دي فارتيا عن الصخور القريبة من وجه الماء ، وعن الصعوبات التي تتخلل الملاحة ما بين جدة وجزيرة قمران ، وعن البدو العراة ، الذين يرجعون بحجارة مقابلهم ، من ينزل من الرجال ليشتروا لهم طعاماً ، وأخيراً عن دخوله الى ميناء جيزان الجميل الذي عد فيه خمساً واربعين سفينة ، وأدهشه ان في البلدة عنياً ، ودراقن ، وسفرجلاً ، وتقاحاً ، ورماناً ، وليموناً ، وبرتقالاً ، في وفرة جديرة بالجنة .

ورأى في جيزان ايضاً كميات وافرة من اللحم ، والحنطة ، والشعير ، والذرة البيضاء التي يضع الأهليون منها خبزاً ممتازاً . وذكر ان الناس يمشون شبه عراة ، ولكنهم يعيشون كسليين .

وأخيراً وصلت السفينة التي كانت تمخر على محاذاة سواحل باب المندب الى ميناء عدن . ويقول عنها دي فارتيا انها اشد مدينة سهلية تحصيناً وآها في حياته ، ترتفع الجبال على جانبيها ، والأسوار على الجانبين الآخرين منها . تشرف عليها خمس قلاع ، ويقدر سكانها بخمسة أو ستة آلاف بيت . وترسو السفن في مينائها في أسفل احد الجبال ، ويرتفع في أعلى هذا الجبل حصن منيع . والحر فيها شديد الى درجة ان السوق تقام فيها في الساعة الثانية بعد منتصف الليل . والسفن التي ترسو فيها تأتيها من بلاد الهند ، والحبشة ، وبلاد فارس ، ولا تصكاد السفينة تدخل ميناءها ، حتي يقبل ضباط السلطان يسألون عن نوع البضائع التي تحملها ، والبحارة الذين على ظهرها ، ثم ينتزعون أشرعتها

ودفعها ليتأكدوا من انها لن ترحل قبل تأدية الضريبة المتوجبة
للسلطان .

كانت سفن البرتغاليين تطوف المحيط فاشطة امام عدن في سنة ١٥٠٤ ،
وكان انطونيودي صولدانيا قد اكتشف جزيرة سقطرى سنة ١٥٠٣ ،
ولما نزل دي فارتيا في عدن كان الناس يشعرون بخطر البرتغاليين ،
لذلك لم يكذب احد رفاقه ، لسوء طالعه ، يوجه اليه شتيمة ، وكانت
هذه الشتيمة توجه عادة الى الكفار ، حتى انهم بأله نصراني يتجسس
لحساب البرتغاليين ، وألقي القبض عليه ، وسيق في اليوم ذاته الى قصر
السلطان كي يعدم . وقد تأخر تنفيذ الاعدام به لغياب السلطان . وفي
اليوم الثالث وصل الى عدن خمسون أو ستون مسلماً هربوا سباحة من
السفن التي وقعت في ايدي البرتغاليين ، وهجموا على قصر السلطان يزيدون
قتل دي فارتيا ورفيقه السجينين معه ، ولكن حارسهم انقذهم بإغلاق
الباب في وجه المهاجمين .

وبعد انقضاء خمسة وستين يوماً سيقوا الى روضة ليمثلوا امام السلطان
الذي كان منهمكاً باستعراض الجيوش التي يستعد لارسالها لمحاربة سلطان
صنعاء التي تبعد عن روضة مسيرة ثلاثة ايام . ولم يحمل انشغال بال
دي فارتيا بالمصير الذي سيؤول إليه دون ملاحظته الجيش ، وتعدادده .
فقد رأى ان الثلاثة آلاف جندي المؤلفة منهم فرقة حرس السلطان من
اصل الثمانين ألفاً الذين يتألف منهم الجيش كله ، كانوا أجباشاً تم شراؤهم
في الثامنة من عمرهم ، ودربوا على القتال ، مسلحين برماح يحملونها باليد
وسيوف قصيرة عريضة ، يحمل كل منهم مقلاعاً لف حول رأسه لإلقاء
الحجارة ، وضع بينه وبين الرأس عود من الخشب يدعونه مسواكاً
ينظفون به اسنانهم . يرتدون ثياباً من نسيج أحمر او ملون بلون آخر ،
فوقها سترة قطنية تقيهم ضربات الأعداء . ويجعلون لهم ، عادة ، حق
الأربعين او الخمسين من عمرهم ، قرنين مصنوعين من شعرهم ، ويشبهون

الجداء . ويذكر دي فارتيا ان خمسة آلاف رجل توافق الجيش .

وهنا تبدأ بالنسبة إليه ، مرحلة تجارب . فعين استعمله السلطان امره ، أفاد بأنه مسلم ، ولكن حين طلب إليه ان يؤدي الشهادتين ، أرتج عليه ، ولم يعرف ان يتفوه بكلمة واحدة ، وهو يقول انه لم يعرف ما اذا كان ذلك خوفاً من العقاب ، ام مشيئة من الله سبحانه وتعالى . غالقي في السجن ، وقيد بالسلاسل الحديدية ، ولم يعطَ إلا رغيفاً من خبز الذرة صباحاً وآخر مساء .

ولكي يتيح احد الثلاثة فرصة الهرب لرفيقه ، تم الاتفاق فيما بينهم على ان من تقع القرعة عليه ، يجب ان يتظاهر بالجنون وقد وقعت القرعة على دي فارتيا .

ويدعي ان الملكة رآته من نافذتها ، وهو يقوم بضروب من الشذوذ ، فرقت حاله لا سيما وان بياض بشرته أثر فيها كل التأثير . فكان يتلقى الضربات صامتاً ليجيد تمثيل دوره ويستعجل مناسبة الهرب لرفيقه ، ومن جهة اخرى كان ينال ما ينفقه عليه سراً حسن التفات الملكة ووصفتها . ويزعم رحالتنا انه رفض النزول عند رغبة الملكة وتحقيق امنيتها بأن تحمل منه جنيناً أبيض البشرة ، خشية ان يظل محتجزاً ، ولو محظياً ثرياً ، اذ لم يكن له سوى امنية واحدة وهي استعادة الحرية والاستزادة من المعرفة .

وقد أخرجته الملكة من السجن ، وظل مدة في القصر ، ثم تمارض واستأذن الملكة بالذهاب لاستشارة ولي من أولياء الله يقيم في عدن ، لعله يشفيه ، فوافقت الملكة على طلبه ، وشفي من مرضه طبعاً ، وقام بزيارة عدة مدن بإذن من القصر .

ومر بلنج ، وصنعاء ، وتمز ، وذمار التي تتيينها بسهولة ، ولكنه ذكر ايضاً امكنة يصعب التحقق من هويتها : دمتة (دمنه ؟) والمقارنة

(المقرنة) وريولم (هل هي ريمة أم يريم ؟) وإياز (حبس ؟) .

لقد لاحظ هذا النوع من الأغنام التي تحدث عنها هيودوت في القرن الخامس من قبل الميلاد ، التي تزن إلية الواحدة منها حتى الأربعين ليوة ، والتي تبلغ من السمنة درجة تجعل سيرها عسيراً . ورأى منطقة دمنة القاحلة التي يسكنها قوم فقراء ، ولكنه وصف سوق إياز^٢ التي تردها كميات من الأفابيه والأقمشة القطنية والحريية ، والثمار الممتازة ، كالعنب ، والدراقن ، والسفرجل ، والتين ، والجوز ، والعنب الممتاز . وذكر ان جبلين متقابلين تعلوهما قلاع حصينة يطلان على المدينة . ولم يستطع دي فارتيا أن يفهم طبيعة الحصومة ما بين سكان الجبلين ، فهم جميعاً يؤمنون برسالة النبي محمد ، ولكنهم ، رغم ذلك يقتلون فيما بينهم بعنف ، والواقع ان هذه الحصومة فاشئة عن خلاف مذهبي ما بين الطائفة السنية والزيدية الذين لا يعترفون بالخلفاء الثلاثة الأول كخلفاء شرعيين للنبي محمد ، والذين يتزعمهم آغا خان^٣ .

ان باقوت الجغرافي المسلم يذكر ان المقرنة ، قلعة في اليمن ، ولكن دي فارتيا يقول انها مدينة جميلة جداً ، واقعة على هضبة مرتفعة ، يصعد إليها من طريق لا يستطيع اثنان ان يسيرا فيها جنباً الى جنب ، هراؤها ممتاز ، ومعظم سكانها من البيض ، وهي تنتج كثيراً من المحاصيل الغذائية ، وتكثر فيها مياه الصهاريج ، وفي هذا المكان الاستراتيجي الرائع يخفي السلطان كنزه من الذهب ، ذلك الكنز الذي يعجز اكثر من مائة جبل عن حمله ..

ويعجب دي فارتيا بأسوار صنعاء الضخمة ، عاصمة اليمن حالياً ،

١ و ٢ - لعلها سرياز .

٣ - يتزعم آغا خان الإسماعيليين في سورية أما في شبه الجزيرة العربية فتبته ثلاثة خلافة يدعون الباطنية - لبوا من الزيدية - ويقع بقاياها في حواز ونجران .

ووفرة غارها ، وكثرة ينابيعها ، وبساتينها ، وكرومها ، وتبدو له
تعر مدينة قديمة جداً ، بمسجدها الذي يذكره بكنيسة السيدة مريم
المستديرة في رومة ، وقصورها الرائعة ، ويقول انهم يصنعون فيها كميات
وفيرة من ماء الورد .

ويصف زبيد الواقعة على بعد مسيرة نصف يوم من البحر الأحمر
بأنها مدينة تجارية ممتازة ، تباع فيها كميات من السكر والفواكه ، وتباع
فيها أيضاً مقادير كبرى من الأفاريه المستوردة من بلاد بعيدة .
ويعود أخيراً الى عدن ، حيث يتأرض من جديد ، وينام في المسجد
حتى يقبض له قبطان سفينة يوافق على إبعاله الى بلاد الحبشة . وبعد أن
يمكث فيها فترة قصيرة من الزمن ، يبحر الى بلاد الفرس ، ومنها الى
بلاد الهند ، مقارماً إغراء زواج عرض عليه ، ووعوداً بإغداق الثروات
الطائلة عليه ، بحبيباً الصديق الذي حاول بذلك استبقائه : « اعلم اني لا
اطوف العالم سعياً وراء الكسب والاثراء ، بل مدفوعاً بدافع الميل
والاطلاع . »

لقد كانت خاتمة رحلته سيئاً لأكثر ما اكتسبه من الشهرة . وفعلًا ،
عندما كان في كالكته في بلاد الهند ، كان البرتغاليون الذين شادوا
حصناً في جزيرة سقطرى قد تمكنوا من السفر منها مباشرة الى سواحل
الهند ، وقد علم انهم استوطنوا كانوننور ، واخذوا يشيدون فيها قلعة .
فتمكن من اللحاق بهم في الثالث من كانون الأول (ديسمبر) من سنة ١٥٠٥
دون ان يستثير الشبهة . وحذر نائب ملك البرتغال من الهنود الذين كانوا
يتأهبون لمحاربتهم ، وقد تسلموا تسليحاً قوياً بالمدافع التي كان جنديان
برتغاليان هاربان قد صنعها لهم . وأهله الشجاعة التي برهن عنها في
المعارك التي نشبت فيما بعد ، لأن ينعم عليه ملك البرتغال دون مانوئيل
برتبة فارس عام ١٥٠٨ .

وعاد من لشبونة الى رومة ، فأقامته جامعة البندقية على روايته

المدھنة المليئة بالأحداث ، واكتسب في رومة حمایة أسرني كولونا
وسفورزا العظیمتين ، وكذلك حمایة الكاردينال كارفاجال الذي موّل
ترجمة مؤلفه الى اللاتينية .

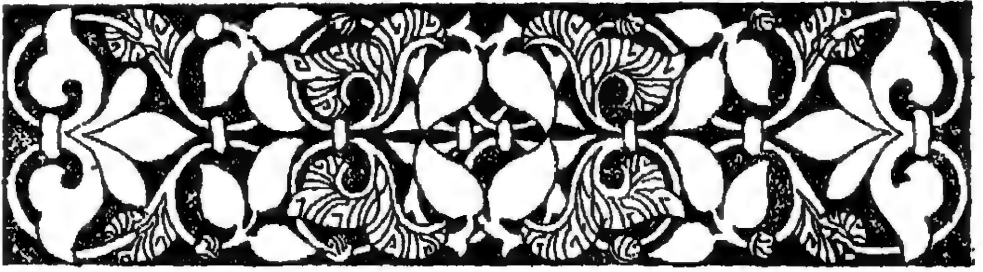
على ان خاتمة حياته بمهولة مثل بدايتها ، ولا يمكننا الا ان نفترض
افتراضاً انه توفي ما بين سنتي ١٥١٢ و ١٥١٧ .

ويضم كتاب دي فارتيا خارطة تظهر فيها شبه جزيرة العرب كما
رسمها بطليموس وهي ممدودة عرضاً في الجهة الجنوبية بصورة غريبة .
لقد أعطى مواطنيه ، وصفاً مقتضياً ، ولكن صحيحاً ، لما يمتاز به
شبه الجزيرة العربية وفي الدرجة الأولى : مدينتها المقدستان موطننا النبي
محمد ، والحج إليها ، ومفارقة جغرافية بين العربية القفراء في الشمال ،
والعربية السعيدة في الجنوب ، وتجارتها مع الهند والحبشة ، وبلاد فارس ،
ومصر ، ومنتوجاتها من المطور ، وسكانها من البيض والأرقاء السود ،
وحضرها وبدوها .

لم يكن ما اكتسبه من معرفة ، علمياً بل كان موضوعياً ، ودقيقاً
الى أقصى درجة ممكنة ، لاسيما وقد صدر عن رجل لم يكن يملك أية
وسيلة للاستعلام سوى عينيه وذكاؤه : وقد أحسن دي فارتيا استخدام
كليهما معاً .

وكان كل شيء ما يزال بعد في حاجة الى أن يكتشف ، ولكن
ذلك لم يعن ان هذا الإندر الذي اكتسب من المعلومات لم يكن تلقيناً
صحيحاً .

المجلد الثاني
رواد مصروفه



الاسرى

سيكون القرن السادس عشر كليا عصر السيادة البحرية البرتغالية على البحور الساحلية لشبه جزيرة العرب ، حتى تؤسس شركات الهند الهولندية والانكليزية في اوائل القرن السابع عشر ، فيكون ذلك ايذانا بالصعوبات التي ستعرض السيطرة البرتغالية بل بأفول نجمها .

كان البرتغاليون يأملون بعد افتتاح الطريق البحرية الى الهند ، مروراً برأس الرجاء الصالح ، أن يحوّلوا إليها لمصلحتهم المتاجرة بمنتجات بلاد الهند . وكانت هذه المتاجرة تتم فيها مضى عن طريق بلاد العرب ، والخليج العربي ، والبحر الأحمر ، الى الموانئ التركية الواقعة على البحر الأبيض المتوسط ، بطريق برية بحرية مشتركة . فكان البرتغاليون اذن يهدفون الى سد مداخل الخليج العربي والبحر الأحمر ، كي يتم نقل البضائع بوساطتهم من وكالاتهم التجارية المنشأة على السواحل الهندية والعربية الى لشبونة .

وقد رأينا ان الخطوة الأولى التي قاموا بها هي التركيز في كلكتة على الساحل الهندي . ومن هنالك ، قروا القيام بمراقبة حركة النقل التجارية في الخليج العربي . فشيّدوا حصناً في هرمز ، وآخر في البحرين ، وثالثاً في عمان على طرف شبه جزيرة العرب . وكان لا بد ، بعد ذلك

من التأكد من مدخل البحر الأحمر ، لذا فقد ظهر اسطول پرتغالي سنة ١٥١٣ أمام عدن بقيادة ألفونسو دي البوكرك . وقد قام هذا الاسطول بمحاولة هجوم عند الفجر . ولكن الميناء المحاط بأسواره المنيعة أبدي مقاومة شديدة . وكان ألفونسو دي البوكرك قد رسم خطة بمحاول فيها الاستيلاء على جثمان النبي محمد في المدينة ، وطلب كنيسة القدس فدية له . فلما أخفق في هجومه على عدن صعد البحر الأحمر ثانية ولم يقيم بمحاولة أخرى غير الاستيلاء على بعض السفن . وقد اكتفى البوكرك ، فيما بعد ، بفرض المراقبة على مدخل البحر الأحمر بين طرفي رأس الفرتك ورأس غردفوي .

اتخذ البرتغاليون مراكز في مسقط على الساحل الجنوبي في سحار ، ومطرح ، وقریات .

ومن الطبيعي ان هذه السياسة التجارية الهادفة الى تقوية حركة النقل التجاري بجزاً باتجاه لشبونة ، على حساب الموانئ التركية في الشرق ، سببت لهم معاداة الأتراك ، الذين ما كادوا يستولون على مصر ، حتى وجهوا تباعاً حملتين بحريتين (١٥١٩ و ١٥٣٨) لمحاربة البرتغاليين في المحيط الهندي . ولكن النتيجة الأولى والأخيرة التي حصلوا عليها ، كانت الاستيلاء على اليمن التي بلغوها عن طريق ساحل البحر الأحمر ، في كلتا الحملتين .

وسمها بيد الأمر غير متوقع ، فقد أفاد الغرب من الحملة التركية في سنة ١٥٣٨ ، الحصول على قصة هذه الحملة مع وصف مختصر للطرق التي سلكتها في البحر الأحمر وفي اليمن ، بقلم أحد أبناء البندقية . فقد كان الأتراك ، محتاجين بالفعل ، إلى فنيين في الملاحة لحملتهم هذه ، فأسروا في ميناء الاسكندرية ، بحارة سفينة بندقية ، ولم يخلوا سبيلهم الا عند عودتهم منها . وقد نشرت قصة هذا الكاتب المجهول منذ سنة ١٥٤٠ في مجموعة ايطالية لقصص الرحلات .

كان الأتراك قد استولوا في اليمن ، على العاصمة صنعاء ، وعلى المدن الرئيسية فيها ، وكانوا مسيطرين على طرق المواصلات الكبيرة عبر البلاد . ولكن بعض المناطق كانت ما تزال معادية للأتراك ، مبالغة الى البرتغاليين . وظلت عدن حتى سنة ١٦٣٥ ، خاضعة للرقابة التركية (باستثناء فترة العصيان الذي أعلنه العرب عليهم سنة ١٥٤٧) . ولكن على طول الساحل كانت تتعاقب سلطنتا الشعر وظفار التابعتان قانونياً لباشا صنعاء ، وبينهما سلطنة قشن التي كانت تتبعها جزيرة سقطرى . وبما ان البرتغاليين كانوا يكتفون بالحصول على قاعدة بحرية في سقطرى كانت هذه السلطنة مبالغة إليهم . وكانت عمان تحتوي عدة قلاع برتغالية .

وكان للبرتغاليين ، عدا عن أهدافهم التجارية ، رغبات في القيام بحرب صليبية ، أو بحملة تبشير . وقد وجهت جهود التبشير الى بلاد الحبشة ، ومن ثم منشأ رحلات الاستطلاع العديدة الموجهة إلى ساحل البحر الأحمر الغربي بين سنة ١٥١٥ وسنة ١٥٢٨ .

ولكن حاكم الهند البرتغالي الدون اسنيفاو دي غاما ، قام برحلة اوتياذ حقيقية إليها سنة ١٥٤١ ، اصطعب فيها الدون جوار دي كاسترو الضابط والرياضي والعالم الفذ ، لذا فقد كان الكتاب الذي وضعه باسم « روتيرو » أول مؤلف وضع على أساس الملاحظة العلمية ، والمعلومات الدقيقة التي تمكن رجل غربي من إيرادها عن البحر الأحمر . لقد طبقت جوار دي كاسترو في كتابه هذا طرائق جديدة ، ألهمته إياها عقلية علمية صرفة .

إلا ان هذه المخطوطة القيمة لم تصلنا إلا بعد ان مرت بظروف غريبة . فقد وقعت في يد قرصان انكليزي على ظهر سفينة برتغالية ، فأخذها الى بلاده وباعها من السيد وولتر واليه نحو آخر القرن السادس عشر ، ثم ترجمت الى اللغة الانكليزية ، بعد انقضاء ثمانين سنة على وضعها ، ونشرت سنة ١٦٢٥ في مجموعة انكليزية لقصص الرحلات .

ولم تقم أية مجازفة أخرى على الشاطئ العربي ، غير مجازفة لوبو
صوارز دي البرغاريا أمام جدة سنة ١٥١٧ ، ومجازفة روي غونسلافز
دي كاميرا الى النجا ، وأدى ذلك الى معرفة سواحل هذا البحر معرفة
أفضل .

وبما ان البرتغاليين لم يبذلوا أي جهد للتوغل في داخل البلاد ، كانت
الأسرى وحدهم هم الذين استطاعوا أن يكشفوا الحجاب أمام عصرهم عن
بعض نواحي شبه الجزيرة العربية .

كان الأتراك في الواقع ، يستولون على ما أمكنهم الاستيلاء عليه من
الأسرى ، ويقبلون الافراج عن تدفع لهم عنهم فدية مالية هامة . وكان
البرتغاليون بدورهم يبيعون الأسرى الذين يقعون في أيديهم ، كما تشهد على
ذلك ، هذه الحادثة الطريفة الجديرة بالذكر ، وهي ان احد الجنود رأى
بين الاسرى العرب رجلاً يهودياً كان قد انجده ذات يوم ، فسأل القبطان
أن يحسم من مرتبه المبلغ اللازم لاقتدائه ، وأفرج عنه .

وكان يدخل شبه جزيرة العرب ، ولا شك ، عدد من النصارى ، الذين
كانوا قد اعتنقوا الاسلام ، ولكن هؤلاء كانوا يقيمون في بلاد العرب ،
ولم يكن للاختبارات التي يقومون بها أية فائدة للغرب .

ويمكن بعض من أوفدوا خصيصاً ، من الاهتداء الى طرق فريدة عبر
البلاد . ولكن لم يزد أي منهم في معرفة عصرهم ببلاد العرب . فلا
يكفي المرء أن يسافر ، بل عليه أن يلاحظ ويروي . وهذا ما قام به
بعض الأسرى الذين وقعوا في أيدي الأتراك ، فقد اجتاز أحدهم شبه
الجزيرة من الغرب الى الشرق ، واكتشف اثنان آخران منهم حضرموت
الداخلية وشاهدا للمرة الأولى ، خرائب عريقة في القدم ، تشهد على
الحضارة العربية ما قبل الاسلام .

وضع قصة الرحلة ، التي فرض القدر على الأبوين اليسوعيين بائز
ومونصرات القيام بها ، الأب بائز نفسه ، في كتابه المعروف بتاريخ بلاد

الحبشة ، ولكن هذه القصة التي حفظت في خزائن المحفوظات اليسوعية ، لم تنشر الا في مطلع هذا القرن .

كانت الارسالية التي انشئت في بلاد الحبشة قد تعرضت لمذبحة لم تدع إلا كاهناً واحداً في قيد الحياة . فقرر الأساقفة مونسرات الطاعن في السن يصحبه الأساقف باثر ، لتجديد هذه الارسالية . فأبحرا سنة ١٥٨٩ باتجاه الحبشة ، ولكن سفينتهما غرقت في مياه جزيرة خوريا موريا ، فأسرهما العرب الذين يقطنون الساحل واقتادوهما إلى ظفار ، فأنهما بأنهما جاسوسان ذاهبان الى بلاد الحبشة لإقناع ملكها بمحاربة الأتراك ، وقرر سوقهما إلى حضرة ملك البلاد ، وهذا ما سمح لهما بأن يكونا أول أوربيين رأيا مدن وادي حضرموت ، ولكن بعد أية مشقات ؟ فقد أجبرا بادىء ذي بدء ، على السير وراء الجمال ، ثم أركبا على الجمال بعد أن سال الدم من أقدامهما ، وعجز عن السير الأساقف مونسرات الطاعن في السن ، واجتازا منطقة صحراوية . ولم يستطيعا ان يأكلا الجراد المقلي الذي قدم لهما . وأخيراً ، وصلاً ، بعد انقضاء عشرة أيام الى « تريم » حيث هدد الشعب برجمها . ولكنها استقبلا استقبلاً اهدأ في هَيْشَن ، حيث مثلاً بين يدي « الملك » الذي يقيم في قلعتها . فقامت بمهمة الترجمة بينهما وبين الملك ، امرأة كانت قد انقذت من الفرق مع ثمانية من البرتغاليين ، واعتنقت الاسلام .

وعلى الرغم من ان السلطان كان راغباً في أن يبيت في أمرهما بنفسه ، اضطر الى أن يسلم أسياده الأتراك جميع الأسرى . لذلك أرسل الكاهنان الى صنعاء ، بعد أن امضيا أربعة أشهر في حضرموت ، ليمثلا بين يدي الباشا .

يذكر باثر في وصفه للبلاد ، انها لا تستحق أن تسمى بالعربية السعيدة ، ولكن ما قراه كان يقول لو اجتاز العربية القفر؟ يقول باثر إن معظم الأرض باثر ، وان السكان لا يزدهون سوى الذرة البيضاء التي لا تغل

إلا غللاً هزيلة ، وأن الجوع ضارب أطنابه في البلاد ، ولكنه ، رغم ذلك ، رأى شميراً وقبهاً وبلعاً ، وتعرف السبعينان كلاهما إلى القهوة ، فقال عنها بائز : « ماء يغلى مع قشرة ثمرة يدعونها البن ، لأن سكان جنوبي شبه الجزيرة العربية يستعملون القشرة لا الحب نفسه . ويلاحظ بائز أن من عادات سكان حضرموت بأن يدهنوا شعرهم الأجعد بالسمن . وقد شهد مناخة قامت بها التبادلات طوال شهر كامل ، على ابنة السلطان التي امتدت إليها يد الموت . فقال انهن يذرون الرماد على شعرهن مرتين في اليوم ، ويختمن على سطح احد المنازل ، وينتظمن في صفين ، ويلطمن صدورهن ، ويتعجن ، ويتعانقن .

أما قبور الفقراء فأكوام من الحجارة في حين تشاد القباب على قبور الأغنياء .

وعند بلوغ هينن المتاخمة للتلكات التابعة لسلطان الشعر أودع الأبرى في قلعة ، وأقيم عليهم حراس فيما كانت الجمال تروى . ثم ساروا في صحراء قاحلة أربعة أيام وأربع ليال . وفي اليوم الخامس بلغوا بئراً أخذوا عندها قسطاً من الراحة . وفي اليوم السادس بلغت القافلة الصغيرة مكاناً يدعى « بلقيس » ، سمع فيه للكهنة اليسوعيين بالتفرج على أطلال أبنية كبيرة جداً أقيمت بالحجارة التي تحمل كتابات قديمة كان سكان البلاد لا يستطيعون قراءتها . كانت تلك الحرائب ، التي كان سكان تلك المنطقة يدعونها عرم بلقيس ، معبد بلقيس ملكة سبأ . وقيل لبائز أنها أطلال مدينة قديمة عظيمة ، وأنه كان للملكة سبأ هناك قطعان كبيرة من الماشية .

وكان الأوروبيون يعرفون الاسطورة الحبشية التي تروي أصلهم إلى اليوم قامت ملكة سبأ بزيارة سليمان الحكيم ، ولم يكونوا قد اتبهاوا . اتبهاها كافيّاً إلى ما كتبه إراتوستين عن مملكة السبيين في جنوبي شبه الجزيرة العربية . فقال بائز آتشد في نفسه ، وكان محقاً فيما قال : « إذا صح أن هذه المدينة مدينة ملكة سبأ ، كان ذلك دليلاً على أن مملكتها



« سقاية » في شہام بحضرموت اقلًا عن صورة فوتوغرافية لتبارك في
كتاب « رحلة إلى حضرموت » .

لم تكن تشمل بلاد الحبشة فحسب بل بلاد العرب أيضاً . وكان لا بد أن تنقضي ثلاثة قرون ، على كل حال ، حتى يتوصل أوروبي آخر إلى تأمل تلك الأطلال الباقية من مملكة السبئيين العريقة القدم ، الطائلة الثراء ، ويلقي على نفسه السؤال ذاته الذي ألقاه بائز ، ويجد له جواباً .

وأخيراً بلغوا صنعاء عن طريق مأرب ، ولم يكن قد سبق بائز ومونصرات إلى وصف صنعاء أحد من الأوروبيين ، وكانت صنعاء التي ألقاها دي فارتيا مزدهرة ، يوم زارها ، قد أخذ نجمها بالأفول تحت الحكم التركي ، ولم يبق فيها سوى ألفين وخمسمائة بيت ، خمسمائة منها بيوت يهود .

بقي الكاهنان في صنعاء خمس سنوات ونصف ، سجينين في بادئ الأمر مع ستة وعشرين برتغالياً ، وخمسة نصارى هنود أسروا في مليندة ، ثم سخرأ للعمل في البساتين ، وأخيراً أجرا إلى « هندي من عبدة الأصنام » . وأرسلا في نهاية المطاف إلى الحما سيراً على الأقدام حيث تم اقتداؤهما .

إلى جانب هذه الرحلة ذات الفائدة الجزيلة تظهر الرحلة التي قام بها مانوئيل دي آلبيدا ، المؤرخ اليسوعي ، سنة ١٦٣٣ ، الذي وقع هو بدوره في الأسر ، ذات فائدة ثانوية . فقد سبق من عدن إلى خنفر ولج ليس إلا . وما يلفت النظر ، في ما كتبه ، تأخر عدن التي رأى فيها مقابل كل اثني عشر أو خمسة عشر بيتاً خرباً بيتاً واحداً قائماً . ولم يكن ذلك نتيجة للحصار الذي فرضه البرتغاليون فحسب ، إذ لم يكن هذا الحصار ذا أثر كاف لينشر الحراب في عدن ، بل لازدهار ميناء الحما أيضاً ، كما سنرى .

إن هاتين القصتين اللتين كتبهما رجلا ن مثقفان ، واللتين حفظتا طويلاً في خزانة المحفوظات ، لعلى درجة من الصحة لا يمكن أن يتسرب إليها الشك ، في حين أن بعض القصص التي ظهرت في أيامنا هذه تختلف في

شأنها اختلافاً كبيراً ، وهي موضوع ربية .

أما القصة التي كتبها غريغوريو داكوادرا ، فإن ما أورده فيها من معلومات تاريخية قد ثبتت مطابقتها للوقائع التاريخية التي عرفت اليوم بفضل مصادر أخرى ، وفي وسعنا بعد أخذ كل شيء بعين الاعتبار ، كما برهن عن ذلك بكنههم ، ان نثق بها ونصدقها .

لم يكتب غريغوريو داكوادرا هو نفسه قصة مغامراته ، بل كتبها داميار دي غويس الذي سمعه مراراً يرويها ، ولكن فائدتها للعلم ، أقل لسوء الحظ من غرابتها التي تجعلها جديرة بالآذار ، لأن غريغوريو لم يقم برحلته لكي بدون ملاحظاته ، والطريق التي كان أول من سلكها إنما فرضتها عليه الأقدار المعاكسة . لقد كان يقود سفينة شراعية ذات صاريين ، وطبقة واحدة ، في قسم من الأسطول معقود لواؤه لديوارته دي ليموس ، يبحر على مقربة من الساحل الإفريقي في سنة ١٥٠٩ . فانقطع قلس السفينة ذات ليله بينما كانت راسية في مقديشو ، ولما استيقظ البحارة ، كانت الأمواج قد جرفتها إلى عرض البحر . وفيما كانوا يقطعون رأس غردفوي ، شاء سوء طالعهم أن تدفع الأنواء سفينتهم نحو زيلع حيث وقعوا في الأسر .

أرسل داكوادرا وبعض رفاقه إلى زيند هدية « لملك عدن » الذي كان يمتلك عدداً كبيراً من الأسرى . فتعلم العربية ، وكسب ما يقوم بأورده وأورد رفاقه من صنع قبعات ملونة كالقبعات التي ما يزال اليمنيون يعتمرونها حتى اليوم .

وبعد انقضاء بضع سنوات ، تغلب أحد الملوك المجاورين على « ملك عدن » ، فأخرج عن داكوادرا ورفاقه البرتغاليين الخمسة الذين كانوا ما يزالون في قيد الحياة . وبورد التاريخ المحلي ذكر هذا النزاع في سنة ١٥١٦ ، ويذكر أن الملك المجاور إنما كان حاكم مكة .

وقد تظاهر داكودرا بأنه مسلم ورع يرغب في زيارة قبر النبي ،
فرافق الملك الجديد الى المدينة ، فوصلوها بعد أن كان قد انقضى يومان
على رحيل قافلة دمشق . وفيما كان مسلما المزعوم يقوم بأداء الشعائر
الدينية المفروضة على من يحجون الى قبر النبي ، استبدت به فجأة حماسة
إيمانه المسيحي ، وجعلته في حالة اختطاف ، وقد تأثر المسلمون بذلك
الاتعمال العاطفي المفاجيء الذي أصاب ذلك الحاج ، واعتبروه ولياً من
أولياء الله . لذا ، فقد تمكن من الحصول على إعانة مالية ، وأرزاق
كافية ، وسمح له بالالتحاق بالقافلة التي كانت قد يمت شطر دمشق ،
لادعائه بأنه يريد الذهاب إلى كربلاء لزيارة قبر حفيد النبي ، ولكنه ضل
الطريق ، وتاه في الصحراء حتى أعياه التعب ، واستبد به الجوع والعطش .
وبعد ان تلا صلاة سأل فيها الله ألا يميته في ذلك القفر ، استعد لأث
يستودعه روحه ، ولم ينسَ أن يستغفره آثامه . وأحس فجأة أن أناساً
غير منظورين يرفعونه ثم ينزلونه على رأس لثة من الرمال . ولما استعاد
وعيه رأى قافلة متوقفة للاستراحة ، فتوجه نحوها زحفاً . وقد قبل
فيها ، فأوصلته الى بلاد « بابل » ، حيث أدرك البصرة ، وتوجه منها
الى الهند ، ومن ثم عاد إلى بلاد البرتغال في سنة ١٥٢٠ ، ولم يلبث ان
انخرط في سلك الآباء الكبوشيين .

وكانت ستقضي عدة قرون قبل أن يقام برحلة ثانية تقطع فيها شبه
الجزيرة العربية من الغرب إلى الشرق ، بين المدينة والعراق الحالي
لقد تمكن داكودرا من إماطة اللثام عن طبيعة شمالي بلاد العرب
الصحراوي ، وعن وجود النفود الكبير الذي ضل فيه السيل .

ولكن القصة التي اكتسبت ، في ذلك العصر ، أكبر قسط من
الشهرة ، كانت « قصة الرحلات الشهيرة التي قام بها السيد فنان بلان
من الثانية عشرة حتى الستين من عمره ، الى أقطار العالم الأربعة » ، فقد

طبع منها في باريس ثلاث طبعات ما بين سنتي ١٦٤٨ و ١٦٥٨ ، وترجمت الى الانكليزية في سنة ١٦٦٠ . والسؤال الذي يفرض نفسه على المرء هو هل هذه الرحلات قد تمت فعلاً ، أم انها رحلات من نسج الخيال ؟

يصور فنسان لبلان نفسه رجلاً مصاباً بجنون السفر . فقد وجد وهو ابن تجهز مراكب في مارسيليا ، أن أشد رغبات اللهو المستبدة به ، رغبة التسكع في مركب والده حين يكون راسياً في الميناء . وتنى ان يقوم برحلة على ظهره ، ولكن أباه لم يحقق له تلك الأمنية ، ولا ريب ، ويقول فنسان :

« ولكنني وقد رأيت ذات يوم من سنة ١٥٦٧ ، وأنا لم أبلغ الرابعة عشرة من عمري ، مركب والذي يستعد للإبحار نحو الاسكندرية ومدينة القاهرة العظيمة ، تسلطت علي تلك الرغبة النبيلة ، رغبة اوتياذ العالم ، فوطدت العزم على الاختباء فيه من غير علم أبوي . »

وقد وافق القبطان على خطة ابن سيده ، وأوصله الى القاهرة حيث بقي ثمانية اشهر وهو أصغر من ان يقوم بملاحظات مفيدة ، ولكنه تعلم قليلاً من العربية . ثم أبحر باتجاه مرسيليا ، إلا أن المركب الذي كان على ظهره غرق قرب جزيرة كاندي ، ولم ينجُ من ركابه وبجارله سوى خمسة اشخاص أحدهم فنسان ، وآوام القنصل الفرنسي الذي كان يعرف أباه .

ووصل الى المرفأ مركب من مرسيليا . فأخبره أحد البحارة وقد دهش لرؤيته في قيد الحياة ، أن أبويه قد ذرفا على فقدده دموعاً أغزر من الدموع التي سكباها على غرق المركب ، وأنها أقاما له جنازاً . ولكن فنسان الولد لم يفكر قط في ركوب المركب الى بلده ، بل كان يريد الذهاب الى القدس .

لبس البحار طلبه ، وأوصله الى طرابلس ثم إلى دمشق . ولكنها

تأخرا في احد المرافئ فاقلمت السفينة وتركتها . وكان لا بد لهما من كسب معيشتها ، فاقتاد البعار الحدث الذي بسط عليه حمايته ، إلى مذيّرب على طريق القوافل من دمشق الى مكة . وهناك ذهب به الى منزل شقيقه الذي كان قد أسلم مرغماً ، واتخذ لنفسه اسم مراد ، وكان يعيش في تلك القرية كما يعيش الأتراك . فعرض مراد عليها أن يأخذها إلى مكة مع القافلة التي ستمر بمذيّرب في طريقها اليه ، ليقوما بالتجارة فيها . فاعدوا الزاد والبضائع ، وانضموا الى القافلة التي لم تلبث أن وصلت .

سلك فنان لبلان ذات الطريق التي سلكها دي فارتيا من قبله ، بما في ذلك موقع سدوم وعمورة ، وهو لا يطلعنا على اكثر مما أطلعنا عليه دي فارتيا . ويقول انه رأى قبر النبي ، ويؤكد انه ليس مغلفاً في الفضاء . وقد بهرته كميات الجواهر والثروات الطائلة التي كانت قد أهديت الى هذا المكان المقدس . ورأى مثلما فعل دي فارتيا وحيد قرن في مكة ، ولم يفهم كما لم يفهم دي فارتيا من قبله أية حقيقة من الحقائق الدينية التي رأها في ذلك المكان ، بل ظل يحبل كل شيء ، على وجه التقريب ، عن الدين الإسلامي .

انه لم يأت مكة إلا لكي لا يفترق عن الرجل الذي لا نصير له غيره . وقد قال البعار لأخيه ذات يوم ، إنه يريد الذهاب بشيء من البضائع الى جدة ليبيعها فيها ، فتسلم منه ستة جمال محملة ولكنه اعتبرها حلكاً له دون ما رادع من ضمير ، بذريعة أن أخاه مارق عن دينه ، وقرر التوجه الى العربية السعيدة ، ومن هناك الى بلاد الفرس ، بقصد المتاجرة . وذلك ما دفع فنان الى الكتابة فيما بعد : « حينئذ علمت أنني في صحبة رجل موغل في الشر ، ولكن ماذا كان في وسعه ان يفعل غير الحاق به ، سعيداً بعدم تخليه عنه .

وقد قطعاً منطقة نهامة الساحلية ، ومرّا بجيزان ، وزيد والقطيف^١ حتى بلغا عدن ، ويذكر فنان انها مرّا بجميع بلدان شبه جزيرة العرب ، متاجرين ، زائرين مدناً جميلةً عديدة ، وكثيراً من الممالك والسلطنات ، تحدهما الرغبة الملحة لبلوغ بلاد الفرس . ونفهم من قصته أنها اجتازا حضرموت التي يذكر اسماء موانئها : ظفار ، وسلالا ، وقنا ، وسلطنة الفرتك ، وأنه قطع منطقة زراعة اشجار البنخور ، الذي يورد التفاصيل عن جمعه وعن خواصه ، وعن الذباب الصغير الذي يتكاثر على ثمره الناضج ، وعن الحيوانات التي تتسلق اشجاره وتعبث بثمارها . وهكذا يصل ملاحنا الصغير الى بلاد الفرس ، ويتابع منها رحلاته الى اقطار المسكونة الأربعة .

ان المرء إذ يفكر في ان معظم هذه القصة مشوش ضعيف المعلومات ، يجد نفسه ملزماً على ألا يتوقع اكثر من ذلك من رحالة حدث ، دون مذكراته فيما بعد . وهي لا تخلو من النقد المستعجب ، ومن الاسماء التي يمكن التعرف إليها ، ومن المعلومات التي يمكن تشبيهها بالمعلومات التي أوردها دي فارتيا : كوحيد القرن في مكة ، وقلعة المقارنة في بلاد اليمن ، حيث يخفي الملك كنوزه لكونها حصناً طبيعياً يتعذر الوصول إليه . وتذكرنا التفاصيل التي يوردها عن اشجار العطور بما ذكره كتاب الإغريق عن زراعتها .

ولكن إذا أنعمنا النظر في قصة هذا الملاح الصغير عن كذب ، وجدنا انه يعرف اشياء كثيرة . يعرف ان العربية السعيدة كانت تدعى « سبأ » في الأصل ، وان العربية البتراء سميت هكذا باسم مدينة البتراء التي كان يقطنها الأنباط فيما سلف . ولا شك في أنه لم يتعلم هذه الأمور

(١) القَطِيف لا تقع على هذا الساحل ، بل على ساحل البحر الشرقي (خليج العرب) شرقي الجزيرة ، وإذن فهذه الكلمة غير صحيحة ، فهل هي طيف ام سليف ام رأس الكتيب ؟

من البدو ، بل تعلمها من كتب المؤلفين اليونان أنفسهم . وهكذا لا يمكن ان يكون قد رأى هنالك ميناء قانا ، كما أن نظره لم يقع على سلطنة القرطك بالذات ، لأن هذا الاسم ليس وارداً إلا في كتب البورتغاليين ، ولم يذكر إلا في خرائطهم .

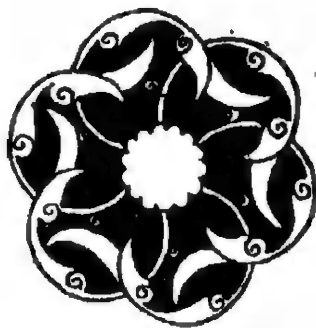
وعندما يذكر وحيد القرن الذي رآه في مكة يستشهد بدي فارتيا ، الأمر الذي يدل على أنه قد قرأ قصة رحلته .

وما من ريب في أن هذا الملاح يعرف أشياء كثيرة إنما عثر عليها في بطون الكتب . وهو لا يعلم ، بزيد الأسف ، انه لا يمكن أن يعتبر كل ما في الكتب حقائق راهنة . فالاعتقاد يسود اليوم بأن جنوبي شبه الجزيرة العربية لم يكن فيه قط خيار شبر ، وشجر كافور . فقد شمل هيرودت في وصفه لشبه جزيرة العرب ساحل البحر الأحمر الغربي . ومن جهة اخرى لا نجد لدى فنسان بلان أية معلومات جديدة ، ذات قيمة لم ينقلها عن الكتب .

لقد اتضعت الحقيقة إذن ، وهي أن فنسان بلان بطل قصص خيالية ، وأن رحلاته التي « دونها بيير برجرولن الباريسي بأمانة رواية عن لسانه » ليست إلا من نسج خيال هذا الأخير . وليس صاحب هذه القصة بحاراً لا يفكر إلا في القيام بالمغامرات ، وإنما هو رائد من رواد المكتبات تمكن من تنسيق المعلومات المستقاة من كتب الأقدمين ، والبورتغاليين ، ومن دي فارتيا ، ووضع نوعاً من الجغرافية العالمية في شكل قصة خيالية .

ليست قصة رحلة فنسان بلان إذن الى المدينتين العربيتين المقدستين ، والعربية السعيدة حوالي سنة ١٥٧٠ ، سوى تجميع للمعلومات المكتسبة حتى ذلك الحين . فلنجل ذكر بيير برجرولن لأنه مهر بتأليف رواية خيالية ، غنية بالمعلومات بالنسبة لمعاصريه .

ولكن الرحلات الحقيقية التي قام بها الأسمى كانت وحدها على جانب من الأهمية بالنسبة الى الأجيال الصاعدة ، لأنها زادت من المعلومات عن النفود والعربية الفقراء ، وحضرموت الداخلية ومدنها المزدهمة بالسكان ، وخرائب مأرب . ويعود الفضل الرئيسي الى الأب باثر الذي كان أول من تمكن من رواية الكتابات ، والآثار العمرانية التي خلقتها حضارة جنوبي شبه جزيرة العرب العريقة في القدم ، والذي استطاع ان يتبين المسألة التي فرضت نفسها فيما بعد على المؤرخين وعلماء الآثار . ولو لم يحفظ هذا الكتاب الهام في خزائن المحفوظات المنسية ، لأفاد سبيل العلم ، ولجنب نيور الشطط الفادح فيما بعد .





المنافسة ما بين شركات الهند

كان البرتغاليون منذ ايام فاسكو دي غاما قد استأثروا دون أية منافسة ، بالسيادة على الطريق البحرية الى الهند ، طريق الأفافيه والعطور . (وحدث في سنة ١٥٩٥ أن اجتازت احدى السفن الهولندية للمرة الاولى ، رأس الرجاء الصالح) . فقد كان للهولنديين امتيازات استثمار في موانئ الشرق . وبينما كانت مصلحتهم توجب عليهم بحاملة الاتراك ، كانت مصلحة البرتغاليين تقضي بعدم انقطاع البضائع عن الوصول الى الموانئ الشرقية كي يحصلوا على حصتهم من التجارة البحرية الكثيرة المغنم ما بين الهند وشبه جزيرة العرب ، وبين أوروبا . لأجل هذا ، سعى الهولنديون الى اكتساب ود الملوك المحليين . وكانت هذه السياسة التجارية المختلفة عن سياسة البرتغاليين مزمنة ان تخلق منافسة شديدة بل عداوة بين الجانبين .

تأسست الشركة الهولندية للهند الشرقية سنة ١٦٠٢ ، لكن لم يكن مقدراً للهولنديين أن ينشثوا مع شبه جزيرة العرب نفسها علاقات كذلك

التي أنشأها البرتغاليون . ولن يظهر منهم (لكونهم من اتباع المذهب البروتستانتي ، خلافاً للبرتغاليين الكاثوليك) لا حلييين ، ولا مرسلين ، ولن ينشئوا أية قلعة ، بل سيكتفون بارتياح أربعة موانئ هي : الحما ، وعدن ، والشحر ، وقشن . وفي بعض الأحيان مرفأى الجديدة ومستط . وسيقتعون بإنشاء وكالتين تجاريتين وحسب في الحما والشحر ، وسيكونون وكلاء تجاريين لإحدى الشركات ليس إلا .

ولم يرسل أول مركب هولندي الى بلاد العرب إلا في سنة ١٦١٤ ، لأنهم وجهوا أولى جهودهم نحو بلاد الهند .

في هذه الاثناء ، كان الانكليز قد قاموا بتأسيس شركة انكليزية للهند الشرقية مدفوعين الى ذلك بالسياسة التجارية ذاتها . فأرسلوا في سنة ١٦٠٩ السفينتين « الصعود » و « الرجاء الصالح » اللتين بلغتا عدن بعد رحلة استغرقت سنة كاملة . وكان قائدهما الكسندر شاربيه ، والوكيل التجاري الرئيسي فيها جون جورداين .

كان حاكم عدن تابعاً للبasha التركي في صنعاء . وقد استقبل شاربيه عند نزوله الى الميناء استقبلاً حسناً ، ولكنه استبقى فيه حتى ورود أوامر البasha الذي سمح بابتياح المواد الانكليزية ، على ان جون جورداين الذي استبطأ عودة القائد الى ظهر السفينة ، احتجز مبعوثي الحاكم . عندئذ أفرج المدنيون عن شاربيه ، ولكنهم زادوا الرسوم الجمركية ، مهددين جون جورداين ، في حال رفضه تأديتها ، بإرساله الى صنعاء لمقابلة البasha . ولكن جورداين الذي لم يكن بالرجل اللين العريكة ، كان على أتم استعداد للذهاب الى صنعاء .

وقد سرّه ان تنتهي مدة بقائهم في عدن ، وهو يصف المدينة بقوله : « إنها مكان حصين متمتع ، وأنها محاطة بسور ذي ابواب ثلاثة مغلقة ، جعل الباب الاكثر تعرضاً من بينها للغزوات من القلزم ، وهو سهل الانزال عند الطلب ، وتحيط بالميناء جبال تعلوها قلاع ، ومراكز مراقبة ،

ونحبيه من جهة البحر جزيرة شاهقة تقع على مرمى بندقية من المدينة ،
أقيم عليها حصن منيع يتعذر افتتاحه إلا اذا نفذت منه المؤن ، لأن
موقعه يجعله حصيناً ، فهو جبل أشبه بالقلعة الجبارة . »

لكن عدن التي احتلها الأتراك سنة ١٥٣٨ واستعادها العرب منهم ،
ثم احتلها الأتراك مرة ثانية سنة ١٥٥١ ، لم تكن في ذلك الوقت سوى
مدينة مهتمة خربة ، وخلاصة القول انها « مدينة مزعجة ، لا يرتاح
الانسان إلى سكناها ، إذ ما من خضار ينبت بين أسوارها ، وليس
لسكانها إلا التمتع برأى صغورها الوعرة ، ومنازلها المهتمة . . وقد قيل
لنا انها لم تر أمطاراً منذ سبع سنين . ولا مياه عذبة فيها بل آبار
ذات مياه ملحة كياه البحر .

ويقول جون جورداين إن الميناءين الكبيرين هما الخا وجدة ، أما
عدن ففي تأخر تجاري ، لا تأتيا في السنة إلا سفينتان أو ثلاث من
بلاد الهند أو من الخليج العربي ، تقترب من ساحلها لبيع الحام ، والعمائم ،
والمنسوجات القطنية ، ثم تعود منها محملة بالصمغ العربي ، والبخور ، والصبر ،
والقوه ، هذا النبات الذي يباع في الهند كصباغ أحمر .

أن النظام التركي يعيد هذا الميناء ذكره الى الحاضر ، ذو طابع
ميز . فالحاكم - وهو الذي سيلقي القبض فيما بعد على ميدلتن ورفاقه -
شاب يوناني الأصل اعتنق الاسلام ، وعلى شاكلته جميع الأتراك ذوي
المناصب الهامة في هذا البلد ، والكل عبيد للباشا . ولا يتجاوز عدد أفراد
الحامية في المدينة والحصون معاً الثلاثائة جندي ، لكنهم ، رغم ذلك ،
قد ملأوا أفئدة الأهلين وعباً بحيث لا يجسر أحد على النظر إلى وجه
تركي .

وعندما علم شاربيه أن في الخا إمكانية للتاجرة ، قرر الابحار إليها ،
موقفاً من أن جورداين سيلحق به بعد القيام برحلته إلى صنعاء .
وبدأ جورداين رحلته إلى صنعاء مصطحباً أمين سر الحاكم والترجمان

ومرتدين عن النصرانية أحدهما فرنسي والآخر ايطالي . وقد رأى في طريقه تتابع المناطق المقفرة تارة ، والبقاع الفاتنة الشديدة الخصوبة طوراً . فبعد منطقة الحوطة التي ينبت فيها القطن ، وجميع أصناف الفواكه ، والتي تسقي فيها الجداول مزروعات الحبوب ، اجتازوا منطقة صحراوية قاحلة نشر فيها قطاع الطرق المول والرعب . ثم قطعوا جبلاً شاهقاً كبير الحجارة ، ثم سهلاً شديد الحصب . وقد أعجب بمدينة « اب » القائمة على قمة أكمة ، تحرسها قلعة منتصبة في أعلى تلة مقابلة لها ، وبدأت له هذه المدينة مزدحمة بالسكان . وأدهشته خصوبة أراضيها الخارقة التي يقول عنها : « انهم يزرعون فيها القمح طوال السنة » ويدعون أنهم يحصلون كل ثلاثة أشهر مرة . ويبدو لي ان ما يقولونه صحيح لأنني رأيت بأم العين في آن واحد قمحاً مزروعاً أخضر ، وقمحاً يجري بذره ، وقمحاً قريباً من النضج ، وقمحاً قد تم نضجه وآن أوان حصاده .

ومن ثم أخذوا يصعدون جبلاً . والوصول إلى تنقيط سحابة^١ يستلزم أربعاً وعشرين ساعة من الصعود . ولكنه اكتشف هنالك زراعة البن ، وعلم ان حبوب هذا البن بضاعة تجارية عظيمة ، لأنها تشحن إلى مدينة القاهرة العظيمة ، وإلى جميع انحاء توكية ، وبلاد الهند . وبعد ان أدهشته هذه المنطقة الجبلية التي تروىها الينابيع ، وتنبت فيها الحبوب والفواكه ، اجتازوا منطقة مقفرة حيث حلوا في أحد الحانات ، ثم بلغوا ذمار المدينة الشديدة الازدحام بالسكان ، التي لا أسوار لها ، الرائعة ، الكثيرة الجنان ، على ان الماء غير موجود في المدينة ، وإنما في آبار خارجها ، يرفعه بواسطة الثيران أناس يعملون مقابل اجور تدفع لهم ، ويسيلونه كل صباح في ميازب للء عهاريج المدينة ، وعندما تمتلئ هذه الصهاريج ، تروى الحقول والبساتين كل يوم .

١ التنقيط - في لغة اليميني - هو القبة - الممر الصخري بين مضيق جبل .

وأخيراً بدت لهم صناعة في سهل بديع المنظر ، ذات منازل ومعابد وأبراج جميلة ، وبساتين رائعة ، وقد وجد ان السكنى فيها بمتعة ، وان هواها معتدل ، بارد في الصباح كما في بلاد الانكليز .

وتستخرج من جبل واقع على مقربة من صنعاء ، كما يفعلون في ذمار ، كميات من الأحجار الكريمة المتنوعة ، كالعقيق الياقي ، والعقيق الأحمر ، وغيرهما من ضروب الأحجار الثمينة . أما الحكم التركي فإنه يلقى فيها مقاومة شديدة .

ولا يسيطر الأتراك إلا على المدن والطرق الرئيسية التي تشرف عليها القلاع ، ويحتفظ الباشا بعدد من وجهاء العرب كرهائن قضمن له ولاء المشائير ، وتسديد الضرائب (ويلاحظ جورداين ان التجارة في أيدي المنود من تجار منطقة كُجُرات ، الذين يديرون وكالات عامة لبيع الأقمشة التي تأتي بها السفن من بلاد الهند ، وتفرغها في مرافئ عدن والحما ، وجدة .)



وقد مر في طريق عودته بتعز ، ولكنه لم يتمكن من زيارتها ، وكتب في تعليق ذلك قائلاً : « كان الناس قد ازدحموا لرؤيتنا إلى درجة اننا لما خرجنا لرؤية المدينة كدنا الا نستطيع الرجوع لكثرة الجماهير التي كانت ترحبنا . »

واضطر جورداين الى قضاء ثلاثة أيام في صحبة برتغالي عجوز متسكر لنصرانيته ، ادعى أنه قد باع نفسه من الشيطان ، وروى له قصصاً غريبة كثيرة وجدها جورداين مسلية .

وأخيراً التحق بسفينته في الحما ، وقد عجز عن الحصول على تخفيض للرسوم الجمركية ، وإذا كان قد قال اذنأً ببيع بضائعه ، فقد أمر بعدم العودة الى اليمن إلا إذا حصل على اذن رسمي صادر عن القسطنطينية . ولكنه وجد الاسعار غير مناسبة ، فأقلع باتجاه الهند .

لا شك في ان الاتراك تخوفوا من رؤية الانكليز يتدخلون في تجارة جدة التي كانوا قد احتكروها . لذا فقد ألغوا القبض على هنري ميدلتن الذي أرسلته الشركة ذاتها على رأس ثلاث سفن ، فور وصوله إلى عدن تنفيذاً للأمر الذي كان قد أصدر إليهم بإلقاء القبض على جميع المسيحيين الذين قد يأتون عن طريق البحار .

وقد قام ميدلتن بدوره ، برحلة الى صنعاء ، ولكنه كان أسيراً مع أربعة وثلاثين من تجارته ، وقد تمكن أحد الضباط من الفرار ، واعتنق الإسلام بحار صغير أدركه المرض ، وقام ميدلتن بتدوين مذكراته ، فيما بعد ، اعتماداً على ذاكرته .

يذكر ميدلتن انهم أحسوا ببرد قارس في الجبل ، وان سهل صنعاء بدا له وكأن النيران قد التهمت ما فيه ، وكأن الحجارة قد نثرت في كل مكان منه ، ولكنه ألقى المدينة حسنة البنيان .

ولما أدخل الباشا سبيلهم بعد انقضاء ستة اسابيع ، عادا بطريق ذمار ، فتعز ، والحقا ، ولما رأى انه قد احتُظ به ورفاقه تحت المراقبة في حالة انتظار لجأ الى الفرار والتحق بسفينته ، وبعد ان نجح في اختطاف رفاقه ، قذف المدينة بقنابل مدافعه انتقاماً وتشفيماً .



بعد انقضاء اربع سنوات على ذلك ، جاء الهولنديون الى عدن . كان الحاكم الهولندي العام في مقاطعة « بانتام » من أعمال الهند قد قرر إرسال السفينة « ناسو » بقيادة بيتر فان دون بروكه لاستطلاع الامكانيات التجارية مع شبه جزيرة العرب . وقد استقبله حاكم عدن استقبالا حسناً . قام قائد الحامية بزيارة السفينة ، وعند الظهر سأل القبطان ان ينزل الى الميناء ، ويحل ضيفاً في قصر الحاكم . في ذلك الحين تعرف فان دن بروكه الى أروع خطر من اخطار البلاد العربية .

ألا وهو العاصفة الرملية . فقد كتب يقول : « عند الظهر ، أقبل من
اليابسة ظلام شديد شبيه بسيل مدار من المطر ، تصعب حمرة شديدة
كحمرة أتون متقد ، فملكنا منه العجب وأفزعا النظر إليه . فأرسل
الحاكم يقول لنا بأن تلقى مرساقين أو ثلاثاً غير المراسي التي كنا قد
ألقيناها . ولما زالت العاصفة كانت السفينة قد كُسيت بطبقة من الرمل
الأحمر تبلغ سماكتها ثخانة أصبع . وقد اتجهت العاصفة نحو بلاد الحبشة .
وحين نزلت إلى البر ، وسرت في صحبة الحاكم إلى قصره وقد أدت
القوات العسكرية لنا كل واجبات التحية والإكرام ، قال لي إن السحابة
القائمة جاءت من بحر الرمل ، وإن هذه العاصفة الرملية كثيراً ما تدفن
قوافل كاملة برجالها وجمالها ، وعندما يعثر عليهم يكونون قد تحولوا
إلى موميات . »

كانت تلك هي المرة الأولى التي ينكشف فيها لأوروبي بصورة غير مباشرة ،
الربع الحالي ، وهو الصحراء الوسطى الشاسعة ، فالصحراء التي كاد أن
يفقد فيها داكوارا حياته ، والتي خلفت على حدودها قافلة دي فارتيا
ثلاثين من رجالها قضوا عطشاً ، لم تكن سوى النفود ، القسم الرمي
الجسم الذي يتوغل عرضاً في شمالي شبه الجزيرة العربية ، ولم تكن
الربع الحالي .

لقد تمكن فان دن بروكه بوصفه من رعايا أمير اورانج حليف سيد
القسطنطينية العظيم وصديقه ، من الإقامة في مسكن مربع بانتظار
جواب باشا صنعاء على طلباته ، وبما أن الجواب ورد سلباً ، فقد أبحر
نحو ميناء الشعر . ولم يكتب سلطان الشعر التابع للأتراك باستقباله
استقبالاً حسناً ، معلناً له أن المنطقة ستكون مفتوحة دائماً أمامه كلمة
قصدها كتاجر محترم ، بل منحه أذنأ بأن يوكل عنه اثنين أو ثلاثة من
رجالهم ليتعلموا العربية حتى موعد عودته في الفصل المقبل .

إن وصفه لميناء الشعر وصف بحار حقيقي ذكر فيه بدقة موقع عرضه

بالنسبة الى خط الاستواء ، ومرسأه ، وقلعته الحصينة ، التي تمثل دوراً بارزاً في مقاومة الهجوم ، والتي لا فائدة لها في حالة قصف الميناء بقنابل المدافع .

وذكر فان دن بروكه ان ميناء الشعر هو ميناء السلطان الرئيسي ، ولكن مكان إقامته مدينة حضرموت ، ولا ريب في انه يعني حضرموت وهو اسم المنطقة الداخلية .

أما عن السكان فقد قال : « انهم ذوو استقامة ، ولطف ، يحبون مصادقة الغير ، متواضعون ، ذوو طبيعة هادئة ، ومؤمنون إيماناً ثابتاً برسالة النبي محمد . ونساء الطبقة العالية محجبات ، شديداً الإغراء ، جميلات الحياء ، رشيقات القوام . ويقوم ذوو الفتيات بتزويجهن من الغرباء مقابل قليل من المال ، وهن في سن مبكرة . (ويذكر الدكتور ب. سرجنت ان هذه العادة ما تزال جارية حتى يومنا هذا لدى عشيرة هموم ، ولكن لا ريب في ان هذه العادة لم تكن عامة في الشعر) . »

ولاحظ فان دن بروكه ان الكثيرين من عبدة الأوثان من هنود وأعجام يقيمون هناك ، ومعظمهم من الصناعيين . ويقول ان المرفأ الذي رأى فيه ثلاثة عشر أو أربعة عشر مركباً ، تؤمه سفن كثيرة في كل سنة ، من بلاد الهند ، وبلاد فارس ، وجزر كوموروس ، ومدغشقر ، ومليندة .

وقد ترك هناك رجلين ، وتوجه نحو قشن حيث أحسن السلطان استقباله ، ورافقه الى قصره بجراحة ألف جندي يحمل كل منهم على كتفه سيفاً كبيراً مسلواً . وسمح له على الفور بأن يتولا هناك عدداً من رجاله حتى عودته . ولكنه قدر ان من الأفضل له أن يستأذن بالانصراف بعد ان علم ان بين ذلك السلطان والبرتغاليين الذين يقصدون بلاده سنوياً روابط صداقة ، وانه من أعداء الأتراك ، فعاد الى بنتام .

وفي السنة التالية قرر مجلس الإدارة ورئيسه جان بيترز كوين ، ان يقوم فان دن بروكه برحلة ثانية يحمل فيها سفنه مواد غذائية للبيع . فوصل ميناء الشعر في كانون الثاني (يناير) من سنة ١٦١٦ حيث وجد الرجلين اللذين كان قد تركها هناك ، ثم ذهب الى الخا في هذه المرة ، فوجد في مينائها ثلاثين سفينة منها الكبيرة ومنها الصغيرة ، بين هندية ، وفارسية ، وعربية .

وبعد ان شرح نواياه لرسل الحاكم ، استقبل في قصره بالطبل والمزمار ، وبعد ان شرح للحاكم نواياه مرة ثانية ، خلع عليه الحاكم حسب عادة البلاد ، ثوباً من الحرير الموشى بالذهب ، واستأجر له ولرفاقه منزل مزود بكل ما يلزمهم ، وحددت نسبة الرسوم التي ينبغي له تأديتها لباساً صنعاً عن جميع الصفقات التجارية التي يعقدها ، بثلاثة في المائة . ولم يتبق عليه إلا أن يفرغ البضائع ويبيعها بأسعار ملائمة مقابل ريبالات ذهبية رنانة .

وشهد فان دن بروكه وصول قافلة من حلب فالسويس كانت مؤلفة من ألف جمل محملة بمئتي ألف ريال ، ومئة ألف دوكا ، بحرية وبندفية ومغربية ، وأنواع الخامل ، والأنسجة الحريرية ، وأنسجة دمشق المعروفة بالدامسكو ، وأقمشة البروكار التركي الموشى بالذهب ، والجوخ ، والقرمز ، والزعفران ، وبضائع نورمبرغ ، وقد استغرق وصولها شهرين كاملين . رأى في عداد البضائع المنقولة بالسفن القصدير ، والفضة الخام ، والجلد الموسكوفي ، والقوة . وجميع هذه البضائع ، كان الفرس والعرب والهنود يقومون بشراؤها مقابل البضائع التي جاءوا بها من بلدانهم .

ورأى فان دن بروكه خلال مدة إقامته أيضاً ، وصول اربعين سفينة فادمة من بلاد الهند ، وبلاد فارس أو من إفريقيا . ويقول انها كانت محملة بالأنسجة القطنية والنيلاج ، والقرنفل ، وجوز الطيب ، والدارصيني ، وخشب الصندل ، والصبر ، والعاج ، والعنبر الرمادي ،

والزباد ، والخزف والحرائر من صنع بلاد الصين ، والسكر والأرز ،
والتبغ وجوز الهند ، والعميد ، والاماء ، والزنجبيل اليابس ، وألياف
جوز الهند ، واللبنان . وكل هذه الأصناف كانت تفرغ إما في مكة ،
أو في السويس أو في القاهرة . واخيراً رأى في عداد المواد التي كانت
يجري الاتجار بها ، « البن » وقد قال انه نوع من الحبوب السوداء التي
يصنع منها سائل أسود يشرب حاراً . وقد تعرف هو أيضاً للمرة الأولى
الى القهوة ، على الرغم من انه لم يرَ مزروعاتها خلال رحلته .

ولو فكر فان دن بروكه بذلك ، لما تمكن أي شيء غير رؤية
مزروعات البن من اعطائه فكرة أحسن عن تجارة البن في الأزمنة القديمة ،
تلك التجارة التي أكسبت السبثيين ، وسطاءها ، خلال حقبة طويلة من
الزمن ، ثروات طائلة .

أورد فان دن بروكه عن النخاط معلومات فنية دقيقة وموقعها العرضي
بالنسبة الى خط الاستواء ومرسأها ، ويذكر انه رأى قلعة صغيرة
مستديرة الشكل ، شيدت بالحجارة الزرقاء في عهد السير هنري « ميدلتن » .

وذكر ان « النخاط » لم تكن سوى قرية يقطنها بعض الصيادين منذ
اربعين أو خمسين سنة خلت . ولكن عندما استولى الأتراك على البلاد ،
ازدهرت تدريجياً لأن مراكب عاهل القسطنطينية الأعظم التي تأتي من
السويس في كل سنة محملة بالبضائع الثمينة ، كانت تتعرض لأخطار جسيمة
لدى اجتيازها مضيق باب المندب في طريقها إلى عدن ، وأضاف الى
ذلك سبباً آخر لنمو النخاط وازدهارها هو الحصار الذي كان البورتغاليون قد
فرضوه على مدخل البحر الأحمر .

كان ميناء النخاط قد أصبح ميناء دولياً . وكان الحاكم فيه وما يتبعه
على الثلاثمائة جندي أتراكاً ، وما تبقى من الجنود عرباً ، أما السكان
فقد كانوا ينتمون الى جنسيات متعددة ، ثلاثة آلاف من البانيانيين

العاملين في التجارة وبيع الآلات الحديدية والصرافة والصناعة ،
وعدد من اليهود ، والهنود ، والأعجام والأرمن .

وكانت الحرارة شديدة ليلاً ونهاراً بحيث انه لم يكن ليستطيع العيش
لو لم يكن يسكب عليه الماء باستمرار .

وبعد انقضاء شهر واحد ، أرسل الباشا من صنعاء كتاب اعتماد الى
المولنديين ، أمر فيه رعاياه والحكام باستقبالهم في كل مكان مثاماً يستقبلونه
هو ، وأمر قبطان مراكبه بمرافقة فان دن بروكه على رأس عشرين
جندياً تركياً للمحافظة على سلامته ، وإيصاله إلى قصره . وفي اليوم التالي
بدأوا رحلتهم على ظهور الخيل .

وقد مروا في طريقهم بمدن موزع ، وحاسب ، ويغروس ، وقال
عن هذه البلدة انه يتعذر الاستيلاء عليها ، كالمقرنة التي أورد ذكرها
دي فارتيا ، لانه يُرقى إليها في شعب لا يكاد يتسع لشخصين معاً ،
وقد أهدى إليه حاكم هذه البلدة معطفاً من الجوخ جاءه في أوانه لأن
البرد القارس كان قد اخذ يتهددهم .

وعند وصوله الى تعز استقبل استقبالاً فخماً ، وقد تجول فيها
ووقعت من نفسه موقعاً حسناً . رأى فيها ستة أبراج شاهقة ، ومساجد
عديدة ، ومدفناً رائعاً لأحد الباشوات ، بدا حديث البناء ، وقيل له
انه كلف أكثر من مائة ألف ريال ، ووجد انها مركز تجاري هام .

وتابع طريقه في الجبل فأدهشه ، والبلاد آتشد في بدء شهر آذار
(مارس) ، ان يرى أعمال الحراثة والبذر قائمة ، فيما كان حصاد الخنطة
الناضجة على قدم وساق .

لقد لاحظ ، مثلاً فصل جوردان من قبل ، خصب التربة الحارق
للعادة ولاسيما في منطقة تعز ، هذه التربة التي يذكر امين الريحاني انها
تعطي اربعة مواسم في السنة الواحدة .

واجتاز اب ، ومقدر ، ونقيل سماره ، حتى بلغ ذمار التي استقبله
حاكمها المجري الأصل الذي أقامه الاتراك عليها استقبلاً فخماً ، وقد
ذكر انها مدينة فقيرة بالمدافع ، وان احد الايطاليين كان قد شاد لحاكمها
قصرأ من الحجارة الزرقاء .

واخيراً ، بما ان فان دن بروكه كان في طريقه الى صنعاء ، أهدى
إليه حاكم هذه المدينة جواداً رائعاً ، مزيناً بالذهب والفضة ، ليدخل
مدينة صنعاء وهو معتلٍ مته . وقد استقبل فيها بتظاهرات الجنود ،
ورفع البيارق ، وجاء الباشا ومائتان من الوجهاء على ظهور الخيل للقائه ،
وقد ارتدوا حلاً من الذهب والفضة ، ينبعث منها لآلاء عجيب في أشعة
الشمس المائلة نحو المغرب .

واستقبله الباشا على الفور في قصره الذي لم يبلغه إلا بعد شديد
عناء ، لكثرة ازدحام الناس ذوي الفضول على جوانب طريقه ، وعندما
أجاب على الأسئلة المتعلقة بما يهدف إليه من وراء رحلته ، أكد له الباشا
انه يرحب به كل الترحيب ، وسأله أن يأخذ قسطاً من الراحة قبل
متابعة المحادثات بعد ان خلع عليه كساء من البروكار الذهبي ، وأكرم
مشواه ، وقدم له أفخر الأطعمة ، كما انه من جانبه قدم الى الباشا
كثيراً من الهدايا التي كان قد جاءه بها .

ولا شك في ان مظاهر الترف التي أتى على وصفها كانت تدل على
ذوق رفيع . من ذلك وصفه لتلك الحديقة التي حوت كل اصناف الفواكه :
« لوز ، ودراقن ، وليبون ، وعنب ، وورود لا حصر لانواعها ، ومنتزهات
عديدة ، وفوارات مياه ومرادق بديعة » . ولإتمام اللوحة « فهد نخيف
مدجن ، يأكل فئات الخبز من على المائدة دون ان يؤذي احداً » . ثم
يأتي على وصف المدينة : اسوارها الحصينة ، وابراجها ومساجدها ويضيف
الى ذلك ذكر الحمامات الحارة (الحمامات التركية) حيث كانت الرجال
يغتسلون أولاً قبل ظهور الشفق ، ثم تغتسل النساء من بعدهم .

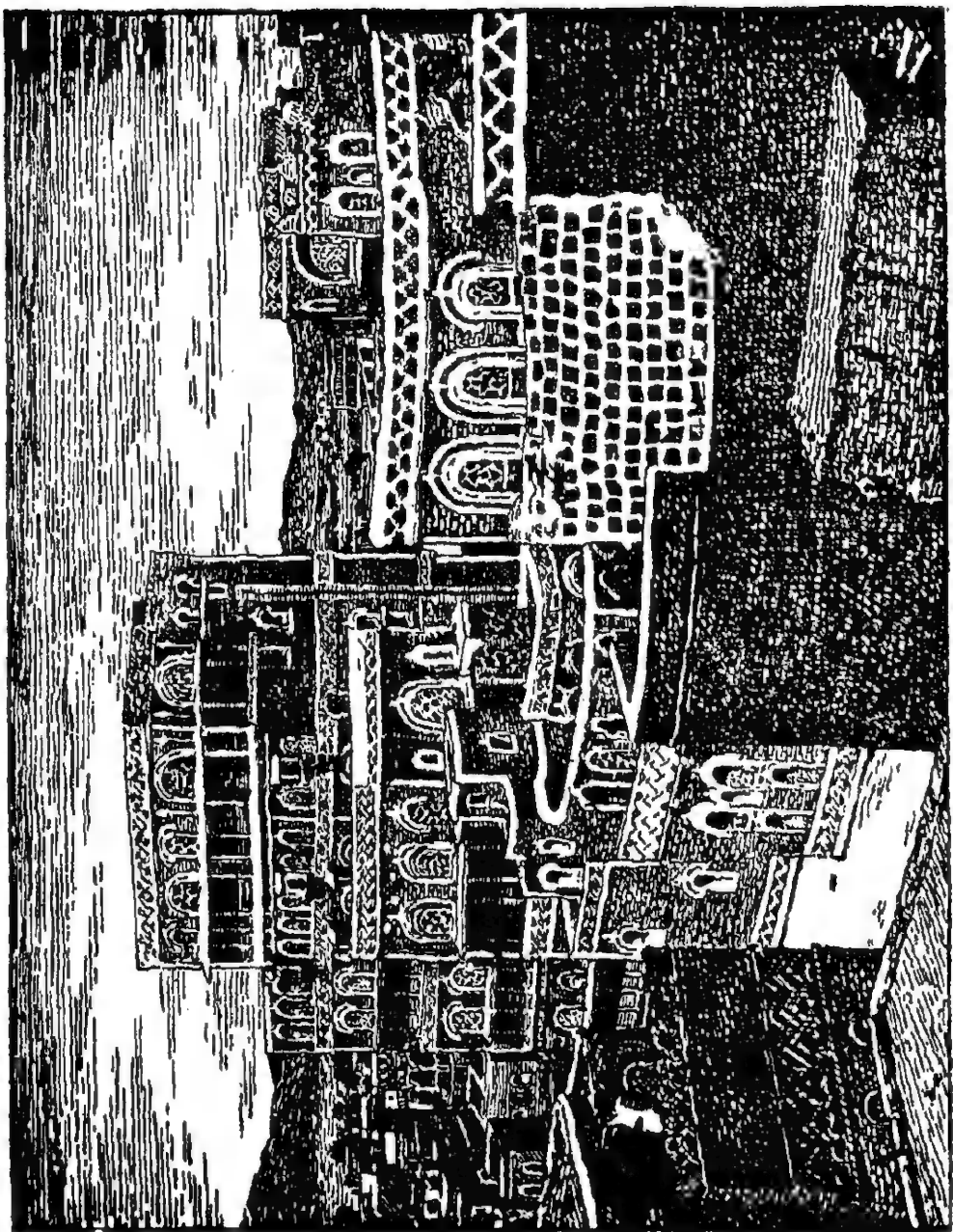
ويلاحظ ان الحركة التجارية ناشطة يقوم بها البانيانيون ، والهنود ،
والفرس ، واليهود ، وان النساء محجبات توافقهن الاماء العديداً ، كما
هي الحال في تركيا . والاماء هؤلاء جلهن من المسيحيات اللواتي يختطفهن
الاتراك من انحاء الشرق . وبهذه الوسيلة عمرت هذه البلاد .

وكان الباشا نفسه مجري المنشأ ، وقد عين بمنصب نائب عن سيد
القسطنطينية العظيم لمدة ثلاث سنوات . ولكنه في الواقع كان متربعا على
كرسي الحكم منذ تسع سنوات ، وقد سمع الناس يقولون انه سمم رجلين
كانا قد أرسلوا للحوال محله .

وكان هذا الباشا الكثير البذخ قد رشح سياسة الرهائن للاحتفاظ
بسلطته على العشائر العربية . ويذكر فان دن بروكه ان عدد هؤلاء
الرهائن كان قد بلغ الألف ما بين رجال ونساء وأولاد من اخوة واخوات
وابناء عظماء المقاطعات التي أخضعت بهذه الوسيلة ولم تعد تقوم بأي عصيان .
وقد رأى فان دن بروكه ، الى جانب البذخ التركي « كنزاً عظيماً ،
وبقايا عديدة من الماضي ، ولا سيما منزلاً كبيراً يقال انه بني على عهد
نوح ، كانت تقيم فيه زوجات الباشا تحت حراسة بعض الحصان » ورأى
ايضاً بالاضافة الى ذلك ، معبداً رائعاً في مدخله قطعة كبيرة من
الحشب منزلة في بوابة من القاز يقال انها من بقايا فلك نوح . وقد
أروه بشراً قالوا ان يعقوب قام بحفرها .

ورأى فان دن بروكه على مقربة من بئر يعقوب « أثراً قديماً اختفى .
اليوم ، وهو معبد مربع مقام على قطعة من الارض منبسطة ، يحتوي على
مائة عمود يؤلف كل منها حجرة واحدة .

وعلى الرغم من ان الباشا استقبله استقبالا فحشاً ، فقد اخبره انه لا
يستطيع ان يوافق على طلبه بابقاء بعض رجاله في الخا ، لأنه لم يأت
بكتاب من سيد القسطنطينية الكبير ، إذ كان ائمة الإسلام يخشون ان
يوسخ الأجانب اقدامهم شيئاً فشيئاً على مقربة من مكة . وكان البعارة



منازل مدنية في
 سنه : هـ
 عن صورة
 فوتوغرافية
 للسيدة فاين .

غير المرتبطين بنظام ، قد اوغلوا فعلاً في غياب فان دن بروكه حتى ميناء الحديد ، مبررين بذلك هذه المخاوف .

وهكذا ، بسبب هذا العمل الأخرق ، لم يحصل فان دن بروكه على شيء آخر غير إبقاء نسبة الرسوم ثلاثة في المائة ، الأمر الذي يدل على الخطوة ، إذ كان التجار الهنود والاعجام يؤدون رسوماً تبلغ نسبتها من خمسة عشر الى ستة عشر في المائة .

وبعد ان قام فان دن بروكه بزيارة بستان آخر غاية في الروعة استأذن الباشا بالانصراف في السادس عشر من شهر ايار (مايو) فتلقي منه ثوباً جديداً من البروكار المذهب ، ووصل الى النجا بعد ثمانية ايام ، وأخذ منها رجاله متخلياً عن فكرة تأسيس وكالة تجارية فيها ، وتوجه الى بلاد الهند .



ان هذه المهمة التي أحسن فان دن بروكه القيام بها كان من المقدر لها فيها بعد ، ان تؤول الى إخفاق عاجل .

لقد حصلت الشركة في سنة ١٦١٨ على فرمان تركي للقيام بتجارة سلمية في موانئ بلاد اليمن . ولكنها أمرت بالألا يتقدم رجالها نحو مكة ، اي من مرفأي ينبع وجدة . (لكن كوين رئيس مجلس الإدارة لم يستغل هذا فرمان على الفور) .

في هذه الاثناء كانت المنافسة قد اخذت تشتد بين الهولنديين والانكليز . فقد جرت معركة ما بين قوات كوين وقوات جورداين البحرية ، الذي ارغم على خوضها رغم التفاوت ما بين قوائه وقوات منافسه المفاجئة ، فلقى فيها حتفه . وأرسل فان دن بروكه مرة اخرى الى شبه الجزيرة العربية . فترك في عدن هرمان فان جيل ومعه كمية من البضائع ، في حين قام هو بزيارة سقطرى ، وقام فان جيل هذا بزيارة الباشا في صنعاء قبل ان يتوجه الى النجا . في هذه الاثناء كان النزاع البحري مستبراً ما بين الهولنديين من جهة

والانكليز والمولنديين الراغبين في وضع حد لسيطرتهم على البحار من جهة اخرى . وقد تحقق هذا الأمر ، وأصبح أمراً مقضياً في سنة ١٦٢٢ حين استولى الهولنديون على عدد من السفن البرتغالية .

كانت الاتفاقيات تقضي بالآ لتعرض السفن التي تؤمن خط الهند لأي أزعاج ، ولكن الهولنديين ارتأوا مهاجمة سفن « الدنيبل » التي كانت تقوم بنقل بضائع برتغالية ، فدفعوا ثمن النكت بالعمود المقطوعة غالباً جداً . إذ كان العرب يعتبرون سفن « الدنيبل » كمصدر أكبر للربح بالنسبة إليهم . وهكذا سبب الهولنديون لأنفسهم نقمة العرب عليهم واستيائهم منهم . وبالإضافة إلى هذا كان الحاكم الذي عينه الأتراك في صنعاء يقدم على سرقة أموال الدولة دوناً حياء .

ولما توجه الهولنديون في بعثة إلى زبيد لتجديد وخصتهم ، التي القبض عليهم وأردعوا السجن . فقد ادعى الباشا ان الحسارة الشخصية التي أصابته من جراء احتجاز سفن « الدنيبل » بلغت مليوناً من الريالات . كما انه أمر بتوقيف الهولنديين الذين كانوا في الحيا .

وبعد ان افرج عن فان دن بروكه ، وأوقف مرة ثانية وسبق إلى صنعاء ، علم ان الباشا يرغب في شراء اموال الوكالة الهولندية التجارية إذا ما أعيدت السفن المحتجزة وأموالها إلى أصحابها . ولما رأى فان دن بروكه ان ليس في وسعه الخروج من هذه المفاوضات العقيمة ، استطاع الحصول على اذن من الحاكم في الحيا بركوب البحر ، تاركاً دي ميلده رهينة .

وقد أعدم الباشا شقاً بسبب تساهله ، وذهبت الجهود التي بذلها الهولنديون بين سنة ١٦٢٣ وسنة ١٦٢٨ للإفراج عن اسراهم ، وعن أموالهم المصادرة ، ادراج الرياح .

وعاش دي ميلده حياة اسطورية ، لم يعرفها مواطنوه إلا عن طريق السمع ، فقد سجن في صنعاء قارة ، وفي زبيد طوراً ، وكان في تعز حين اعلنت الثورة العربية على نير التسلط التركي سنة ١٦٢٦ ، وخدم

يدي ميلده الاتراك مخلصاً ، إذ صنع لهم المدافع . ولكنه وقع أسيراً في أيدي العرب سنة ١٦٣٢ ، ولم يكن إخلاصه للاتراك بما يشفع به .

وقد اضطر الهولنديون الى التخلي عن امل الافراج عنه ، وإلى متابعة أعمالهم التجارية في بلاد العرب ، حيث كانت الثورة قد شلت كل وسائل النقل التجارية بالقوافل والمراكب على السواء .

على ان احد القباطنة الهولنديين قام بآخر محاولة في سنة ١٦٢٨ إذ ابتاع اربعين بالة من البن ، وكان البضاعة التجارية الرئيسية في المحل ، وقد وصلت هذه الكمية إلى بلاد هولندا في سنة ١٦٢٣

كانت أوروبة مزعومة ان تتذوق هذا المشروب العربي ، وإلى درجة ان شبه جزيرة العرب أصبحت في نظر أبناء القرن الثامن عشر بلاد البن قبل اي شيء آخر .

لقد كان البن في القرن الثامن عشر موضوع نزاع مستمر نشب على طريق بلاد الأفاديه ما بين شركات الهند الشرقية . وكانت من المقدر للسيادة البحرية والتجارية التي فرضها البرتغاليون خلال القرن السابق ، الاتعيش زمناً اطول بالنظر الى الجهود المشتركة التي بذلها الانكليز والهولنديون لتحطيمها .

اما بالنسبة الى بلاد العرب نفسها ، فقد كان هذا القرن ، عصر تسلط الحكام الاتراك المياليين الى البذخ ، وسرقة أموال الدولة ، والذين كان الفضل لفان دن بروكه في اطلاقنا على غط معيشتهم ، المقتبس كلياً عن بلاد الفرس ، والشبيه بطراز الحياة في قصص ألف ليلة وليلة .

وفي القرن الثامن عشر تقلص ظل هؤلاء الحكام الذين جرفتهم موجة الثورات العربية العارمة ، وتخلص العرب من الاتراك الذين طردوا من البلاد طرداً تاماً .



الحجّاج الممكة

ان أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين ،
فيه آيات بينات ، مقام ابراهيم ومن دخله كان آمناً ، والله على الناس
حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ، ومن كفر فإن الله غني عن
العالمين .

(سورة آل عمران ٩٧ و ٩٨)

الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق
ولا جدال في الحج ، وما تفعلوا من خير يعلمه الله ، وتزودوا فإن
خير الزاد التقوى ، واتقون بأولي الألباب . ليس عليكم جناح أن
تبتغوا فضلاً من ربكم فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند
المشعر الحرام ، واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين .
ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله ان الله غفور
رحيم . فاذا قضيت مناسككم فاذكروا الله كذا ذكركم آباءكم أو
أشد ذكراً ، فمن الناس من يقول ربنا آتينا في الدنيا ومساله في
الآخرة من خلاق .

(سورة البقرة ١٩٨ - ٢٠١)

فما كانت أبواب العربية السعيدة تفتح أمام الغربيين الذين يؤموت سواحلها سعياً وراء المصالح التجارية ، كانت منطقة المدن الاسلامية المقدسة بحراسة مشددة خشية أن يتسلل إليها أحد الأوروبيين ، وكانت موانئ هذه المنطقة محرمًا عليهم دخولها .

لقد كان محظوراً على غير المسلمين تحت طائلة عقوبة الموت ، دخول الأرض المقدسة الواقعة حول مسجد مكة . وكان الدخول الى هذه المنطقة ، والسير نحو « بيت الله » لاحتراز الرحمة السماوية ، حلم كل مسلم مؤمن ، حلاً يحاول المستحيل كي يحققه ، مرة واحدة في حياته على الأقل . لذا فقد كان المؤمنون من جميع اقطار العالم الاسلامي يسلكون مختلف الطرق المؤدية إلى مكة .

وفي الفترة الواقعة ما بين عام ١٦٠٤ و عام ١٧٣٩ ، ترك لنا أربعة من مشاهير الحجاج ذكريات رحلاتهم ، وقد جاء أحدهم من القسطنطينية ، والثاني من بلاد الهند ، والثالث من مدينة الجزائر ، أما الرابع وكان المسلم الوحيد فيما بينهم ، فقد قدم من بلاد الفرس .

قام بزيارة الأماكن المقدسة في سنة ١٦٤٣ رحالة غريب ، متنكر ، لم يكن سوى المطران ماثيو دي كاسترو ، القاصد الرسولي في بلاد الهند . ولهذا الرجل ، في تاريخ الكنيسة ، أهمية خاصة ، لأنه وقد ولد براهما في جزيرة واقعة الى الشمال من غوا في بلاد الهند البرتغالية ، كان أول كاهن ، ثم مطران ، من سكان تلك البلاد الأصليين ، وهذا ما يفسر قصته المضطربة ، الكثيرة الحركة ، المفعمة بالانفعالات المختلفة .

لقد كان البرتغاليون ، في الواقع ، يريدون الاحتفاظ باحتكار الارساليات الكاثوليكية إلى بلاد الهند . ولكن رومة كانت تدرك جيداً الخطر الكامن في ربط النصرانية بالاستثمار ، وفي ترك السلطة العليا على إدارة الارساليات لملك البرتغال . لذا فقد حلت بانشاء اكليروس من سكان البلاد أنفسهم ، قادر على نشر بشارة الانجيل في البلدان البعيدة ، بأكثر

ما يكون من التفهم ، وخارج نطاق كل اعتبار سياسي او اقتصادي ، ولكن البرتغاليين لم يكن ليوضحهم قط أن يروا الكليويكيين من أهالي البلاد . وحينئذ قرر ماثيو الشاب ، وقد رأى ان من المتعذر عليه في بلاده الانخراط في سلك الاكليروس ، ان يذهب الى رومة سعيّاً وراء تحقيق هدفه المنشود ، فوصل الى مدينة القدس ، حيث تعلم اللاهوت خلال سنوات عديدة ، ولم يلبث ان قال لقب ملغان في اللاهوت ، وسم ، لا كافناً فحسب ، بل قاصداً رسولياً ، مكلفاً من رومة مباشرة ، بانشاء ارسالية خارج حدود البلدان التي فتحتها البرتغاليون ، وزود بصلاحيه سيامة أهالي البلاد .

وكانت عودته الى بلاد الهند إيداناً بحملة شعواء شنها عليه البرتغاليون ، زادها عنفاً مزاجه العصبي ، وقلة حنكته الدبلوماسية . ولم يلبث وقد رأى التهم تكال لارساليته جزافاً ، وكهنته يلقون في غياهب السجون ، وخشي أن يكون مصيره هو بمائلاً لمصيرهم ، ان قرر مراجعة رومة . فقام برحلته الى مصر براً ، ماراً بشبه الجزيرة العربية ، خوفاً من أن يقع في قبضة البرتغاليين فيها إذا سلك طريق البحر .

وهكذا لقيه ذات يوم في ألخا انطونيو دي آلميدا اليسوعي فادعى أنه الكاهن القائم بخدمة المطران ماثيو دي كاستور ، وطلب من انطونيو ان يعرضه بعض المال مقابل سند يدفع في المطرانية . فأعطاه دي آلميدا بعض المال ، ولم يعرف الا فيما بعد ، ان الرجل الذي استقرضه المال إنما كان المطران نفسه ، وأنه بعد ان افترق عنه قام بزيارة قبر النبي وبلغ بلاد مصر ثم رومة سالماً معافى . ولا شك في انه - إذا صحت روايته - الكاهن المسيحي الوحيد ، أو بالأحرى المطران والقاصد الرسولي الوحيد الذي قام بزيارة المدن الاسلامية المقدسة ، ولكنه لم يكتب بنفسه شيئاً عن ذلك .

وقد روى فيما بعد ، شابان وقعا في الأسر ، واشترىا كعبدین ، قصة الحوادث السيئة التي سافتها الى المدن المقدسة . وكان أحدهما جوهان فايلدن من مواليد نورمبرغ ، الذي كان يؤدي خدمته العسكرية في الجيش الإمبراطوري في المجر ، فأسره الأتراك واقتادوه الى القسطنطينية . وقد جاء به سيده سنة ١٦٠٤ إلى مكة والمدينة لاداء فريضة الحج . ولما استعما حريته في سنة ١٦١١ ، وعاد إلى وطنه قام بكتابة مذكراته عن هذه الرحلة .

أما ثانيهما فقد كان شاباً انكليزياً يدعى جوزف بيتس دكسيتر ، اختطفه أحد القراصنة الجزائريين سنة ١٦٧٨ وهو ما يزال في الخامسة عشرة من عمره ، وباعه من ضابط خيالة قرر أن يجعل منه مسلماً . وقد قام بالحج الى الأماكن المقدسة برفقة سيده ، بعد ذلك بعدة سنوات . وهناك اعتقه سيده من الرق . وفيما كان يقوم بالخدمة بالاجرة ، كان يسعى للعثور على وسيلة تمكنه من مغادرة البلاد . فانخرط في سلك الجندية ، وأصبح من أفراد كوكبة الخيالة التي أرسلها السلطان العثماني إلى الجزائر ، وفي الطريق لاذ جوزف دكسيتر بالفرار في مدينة ازميز ، ومن هناك تمكن من الوصول إلى بلاد الانكليز .

ولم تعرف القصة التي نشرها في بلاد الانكليز سنة ١٧٠٤ الا في هذه البلاد نفسها ، ويبدو ان ما من احد عرف لها قدراً هناك . ولكننا عندما نقرأ الآن ما كتبه عن الحج وعن المدينتين المقدستين ، تملكنا الدهشة لدقة التفاصيل .

لا شك في أن الرق الحدث كان متوقد الذكاء ، ولم تكن عيناه في جيبه . وقد رسم الأشياء ودون أي تنميق ، بموضوعية تستلفت النظر . وتمكن من التعمق في فهم عقلية الحاج الدينية ، فوصفها باحترام كلي ، رغم أنه لم يؤمن بما يؤمنون . وهكذا يصف لنا الاحترام الفائق الذي منحص به الأولياء ، ويزيد في أهمية هذه الشهادة ، اقدام الوهابيين على

على الغاء هذه العادة ، وعدم وجود أي وصف قديم لها .
يقول في قصته : « بعد ان انقضى اثنا عشر يوماً على البحارة من
السويس ، وصلنا الى مكان اقيم فيه على الساحل قبر لأحد الجبناء المسلمين ،
أي أحد الأولياء ، او المشاهير بتدينهم وتقواهم ، وكان قد انقضى على
وفاته بضع مئات من السنين . فلما بلغنا ذلك المكان ، قام أحد البحارة
بموافقة بقية رفاقه ، بصنع قارب صغير ، يبلغ طوله قدمين تقريباً ، وجاء
كل حاج يرغب في اظهار إحسانه إكراماً لذلك الحبيس ، فأخذ منه بعض
الدرهم لتلك الغاية . حينئذ اخذوا شموعاً صغيرة ، وقارورة من الزيت ،
ووضعوها في القارب مع المال المجموع . ولكنني اعتقد انهم لم يضعوا في
القارب الا جزءاً يسيراً من المال ، واستبقوا معظمه لأنفسهم . وبعد أن
فعلوا ذلك ، رفعوا أيديهم سائلين الحبيس بركته وأدعيته من أجل ترفيقهم
في رحلتهم . ثم أنزلوا القارب الى البحر ، وهم لا يشكون أبداً في أنه
سيبلغ قبر الحبيس لمؤانسته ، رغم ان موقعه موحش .

« لقد توفي هذا الحبيس ، حسبما تروي سيرهم ، اثناء رحلة قام بها إلى
مكة ، لذلك تراهم يحلون ذكراه كل ذلك الاجلال . »

وهو يلاحظ بعد انقضاء بضعة أيام على ذلك ، عادة اساسية من العادات
التي تمارس في الحج ، ويظهر احسن من اي شاهد آخر سبقه ، قيمة
الاحرام ، فيقول : « في رابع على بعد مسيرة أربعة ايام من مكة ،
يحرم الذكور من الحجاج ، اي انهم يخلعون ثيابهم ويأثرون بحرامين او
وشاحين كبيرين من القطن الأبيض . يأثرون وسط جسمهم بالأول فيصل
حتى كعبي القدمين ، ويغطون بالآخر القسم الأعلى من الجسم عدا الرأس ،
ولا يلبسون اي شيء آخر ، وانما ينتعلون حذاء ذا نعل رقيق لا يغطي
وجهه سوى أصابع القدمين . ويسيرون على هذا الشكل ، ككتائبين
متواضعين من رابع إلى مكة للاقتراب من المسجد ، مكابدين حرارة
الشمس الالهة التي تقشر جلود ظهورهم وأذرعهم ، وتنفخ رؤوسهم نفخاً

شديداً ، طوال المدة التي يترددون فيها ثوب الاحرام المتواضع ، والتي تبلغ سبعة ايام على وجه التقريب ، يراقبون مزاجهم مراقبة شديدة ، ويحترسون من شهواتهم كل الاحتراس ، ويفرضون على أنفسهم مراقبة صارمة ، ولا ينفكون يتلفظون بمبارات التقوى ، ويحرصون على ان يظلوا على وفاق وسلام مع من يحتمل ان يختلفوا معهم ، ويمتثلون إثمًا ، وشيئاً مخزياً ، ان يضرروا السوء لأي كان من الناس .

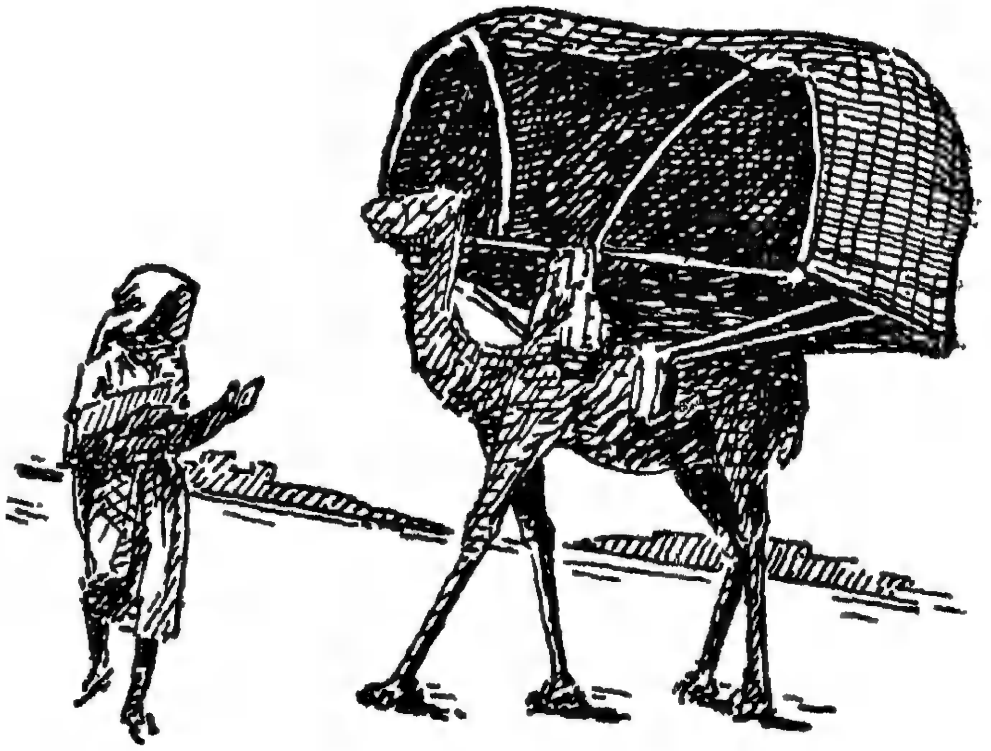
اننا نعتقد ان ما من احد غيره استطاع ان يصف بمثل هذه الموضوعية المدركة الاستعداد الديني الذي تكون عليه جماهير الحجاج الى مكة .

سنرى في القرن التاسع عشر ، علي بك ، يشرح شرحاً فلسفياً العمل التقوي الأكبر في الحج : الاجتماع على جبل عرفات . ولكن بيتس قد فهم احسن من غيره معنى ذلك من وجهة النظر الاسلامية اذ قال : « لقد كان مشهداً قادراً ، في الحقيقة ، على اختراق القلب ، ان يرى الانسان تلك الالوف المؤلفة من الرجال المرتدين ثوب التواضع ، وأمانة الجسد ، مكشوفى الرؤوس ، وقد بللت الدموع خدودهم ، ويستمع إلى زفرات الحزن وتنهدياته التي تصعد لها صدورهم ، وهم يستغفرون الله خطاياهم ، ويعاهدونه ان يحيوا حياة متجددة . »

وبصحيح بيتس بعض الأخطاء والمبالغات التي يجدها في الكتب المعاصرة له ، ويصف وصفاً بالغ الصحة الاماكن والشعائر (خلا خطاً يتعلق بما يظنه قبراً لإبراهيم ، ولو عُرِف كتابه ، وقُدِّر قدره ، لما تبقى لعللي بك في سنة ١٨٠٧ ما يطلع اوروبا عليه بهذا الشأن .)

ولكن ربما لم يكن من الممكن ان يفتتن القرن السابع عشر بوصف ذي موضوعية لا تصنع فيها ، تؤلف لحناً مفرط الواقعية .

ولكنني لا اعتقد ان في الامكان ، مثلاً ، اعطاء وصف اكثر امانة وحيوية عن تنظيم القافلة ، من الوصف الذي اورده :



هودج على ظهر جمل .

« في اليوم الاول لمغادرتنا مكة لم يكن هنالك اي نظام ، بل كانت الفوضى ضاربة اطنابها ، ولكن في اليوم التالي بذل كل واحد جهده لتتقدم الى الامام ، وكان هذا سبباً في وقوع منازعات ، ومشاجرات كبيرة . ولكن حين اخذ كل واحد مكانه في القافلة ، حافظ الجميع على امكنتهم بنظام وهدوء ، حتى وصلت القافلة الى القاهرة . وكانت اربعة جمال تسير في المقدمة ، يتبعها الجميع في صف وقد ربط كل منها الى الآخر .

« يدعى مجموع هذه الجمال قافلة . وهي تقسم الى عدة قطر لكل حنبا اسمه ، وهو يضم عدة مئات من الجمال . وتتحرك القافلة كل قطر في اثر الآخر ، كجيش منفصل بعضها عن بعض . وعلى رأس كل قطر

سيد كبير ، أو ضابط محمول في هودج على ظهر جبلين أحدهما الى الأمام
والآخر الى الوداء ، مكسو بقمش مشع يعاوه قماش أخضر انيق
الترتيب .. ويسير أيضاً في مقدمة كل قطر جل بجل يحمل اموال القافلة ،
وقد علق له على جانبيه جرسان يسمع رنينها من بعيد . وحول أعناق
بعض الجمال ، وحول قوائم البعض الآخر ، جلاجل مستديرة ، يضاف
الى رنينها اصوات الخدم السائرين على الاقدام على مقربة من الجمال ،
والذين لا ينفكون يحدون طوال الليل ، فتتألف من مجموع تلك الاصوات
ضجة سارة جداً ، وتتواصل الرحلة مفعمة لذة . وهم يقولون ان هذه
الموسيقى تزيد الجمال خفة وحيوية . وهكذا تسير القافلة في نظام تام كل
يوم ، ولولاء لسادت الفوضى والبلبلة بين جماهير غفيرة العدد كالجماهير التي
تضمها القافلة .

« وعندم في الليل ، وهو الوقت الرئيسي للسفر بسبب حرارة الشمس
المحرقة ، اضواء يرفعونها على رؤوس ، نوع من الصواري لهداية الحجاج
في سيرهم ، وهي مواقد من النحاس تشعل فيها كسارة الحطب اليابس
التي يحملها احد الجمال في اخراج كبيرة احدثت في اسفلها فتحة يستطيع
الخادم ان يخرج منها الحطب كلما احتاجت النار الى شيء من الوقود .
ولكل قطر ساريتة الخاصة التي يعلق في أعلاها عشرة مواقد او اثنا عشر
موقداً ، ولكل قطر شكل مواقده الخاص . فبعضها بيضوي ، والبعض
مثلث ، والبعض مستطيل ، والبعض الآخر بأشكال حروف هجائية .
تسهل على من في القافلة تبين القطر الذي ينسب إليه . وتحمل هذه
الصواري في مقدمة القطر ، وتنصب الواحدة قرب الاخرى عندما تتوقف
القافلة للاستراحة . وهي ترفع خلال النهار ايضاً غير موقدة ، فيعرف
الحجاج من شكل المواقد وعددها القطر الذي إليه ينتمون . »

كان جوزف بينس قد رأى هذه القافلة تخرج من مدينة الجزائر ،
وتقام لها الأفراح أينما مرت . ولكن قافلة الحجاج لما كانت تأخذ أوج
دوعتها في القاهرة . وقد كتب عالم الكليبيكي ايرلندي اسمه ريتشرد
بوكوك ، زار القاهرة وسيناء سنة ١٧٣٩ ، في جملة الرحلات التي قام
بها ، وصفاً حياً لتشكيل القافلة في القاهرة .

إن أولى حملات الحج في الواقع ، هي الحفلة الفخمة التي تنقل بها
إلى القافلة الكسوة التي تغطي بها الكعبة وقبر النبي في المدينة ، هذه
الكسوة التي تُصنع في القصر المصري خلال السنة .

في اليوم الثالث من عيد الفطر الذي يلي صوم رمضان ، يتوجه
موكب للمعجى بالكسوة من القصر الى مسجد الحسن . « ويؤلف هذا
الموكب جميع شيوخ المساجد ، والهيئات التجارية المختلفة ، تتقدمهم
الأعلام . » وعندئذ تخرج الكسوة فيسبق الناس الى لمسها ولثم ايديهم
ورفعها الى رؤوسهم . . وتصل الجمعيات المختلفة رافعة بيارقها ، تتقدم
اولاها جوقات موسيقية ، والاخرى جماعات الراقصين ، وكانت بعض
هؤلاء يبدون في حالة اختطاف ديني ، ويقومون بألوف الحركات بأيديهم
ورؤوسهم ، والبعض لا يرتدون سوى سراويل قصيرة ، والبعض الآخر
يغيبون عن الوعي كمن قد قطعت انفاسهم . « ثم يأتي المحمل ، كساء
قبر النبي ، الموشى بالذهب على احمر واخضر ، بحمله حمل صبغ بالحناء .

ويقول بوكوك : « لقد علمت ان هذه الجمال تربي لهذه الغاية ،
وانها لا تستخدم لأي عمل آخر لأنها تعتبر شبه مقدسة . وأكد لي
بعضهم ، ان الاتراك كانوا في فورة حماسهم ، يجمعون الزبد الذي يخرج
من افواه هذه الجمال للتبرك به ، وتكسو الجمل بكامله تقريباً أقمشة البروكار
الفاخرة ، والاجواخ الغالية الثمن ، وكلها موشاة ، ويتبع هذا الجمل
ثلاثة جمال لا يقل جهازها عن جهازه فخامة ، ثم ستة جمال اخرى
يمتلئها ستة احداث . ، ويليه كساء قبر ابراهيم ، ثم فرقة « الاشواس »

ثم ضابط كبير من الباشوات يتبعه وكيل خزانة الكسوة المكلف بكل ما يرسل الى مكة ، والذي يركب جواداً رائع العدة ، ثم يأتي الانكشاريون ، وضباط الباشا يتقدمون كساء الكعبة .

ويتوقف الحفلة بين الحين والآخر ليتسنى للشعب لمس الكسوة ، وأخيراً تأتي القافلة ، بكل ما فيها من ضروب الزينة . « فقد زين كل من الجمال الخمسة التي تتقدم كل جماعة ، بريشة نعامة حمراء رائعة جعلت على رأسه وأخرى على خطامه ، وتدلت على جانبي رأسه شرابسة صغيرة زين اعلاها بريشة من اللون ذاته . وزينت عدد هذه الجمال بالأصداق . وتدلى على جانبي رأس كل من الجمالين الثاني والثالث جرس طوله قدم تقريباً بالإضافة الى الزينة المذكورة . »

تخرج القافلة دون انتظام متجهة نحو « سبيل علام » الواقعة على بعد ثلاثة او اربعة اميال من القاهرة ، حيث تخيم ثلاثة ايام . ثم تتجه الى البحيرة حيث تخيم ، ولا يعود امير الحج الى القاهرة ابداً . ولا يستطيع المرء ان يرى شيئاً أجمل من هذا التخم ، فجميع العطاء ينصبون خيامهم هناك ، ويقضون الوقت في المآذب والأفراح ، ويقصده جميع السكان ليسهموا في العيد ، وتنتهي الأمسية بإيقاد نيران الفرح والألعاب النارية . بعد خروج موكب الكسى تبدأ القافلة المؤلفة من اربعين ألف نسمة ، سيرها وتقوم بالاعمال التجارية الهامة ، على هامش الحج ، وتعود منه بحملة ببضائع بلاد فارس وبلاد الهند .

هكذا كان الناس يستطيعون ان يروا قافلة الحج المنطلقة من القاهرة في مطلع القرن الثامن عشر ، وربما كانت شبيهة بالقوافل التي كانت تنطلق منها في ايام جوزف بيتس قبل ذلك بخمسين عاماً .



اما القافلة الاخرى التي كانت تنطلق من دمشق ، فإن طريقها لم

يكن سهلاً عبر العربية البتراء المففرة ، كما علمنا من مذكرات دي فارتيا .
وبعد انقضاء سنتين على إقامة بوكوك في القاهرة ، كتب لنا عبد الكريم ،
احد نبله كشير قصة حبه من بغداد الى مكة ، مع قافلة دمشق .
كان وهو المسلم الذي تضطرم العاطفة الدينية في صدره منشوقاً الى
ان يؤدي هذه الفريضة الاسلامية ، فعصل على اذن من عاهله طهاز
قولي خان ، بأن يرافقه رئيس اطباء البلاط ابوي خان ، الى مكة
المكرمة .

وفي دمشق عين لكل حاج مكانه في القافلة ، واتخذت كل فصيلة من
الجمال مكانها بسرعة ، ثم بدأ السير .

« اذا كانت المحطات متباعدة كثيراً ، تسير القافلة ليلاً ونهاراً ، ولا
تتوقف إلا ساعة واحدة في موعد كل صلاة من الصلوات الخمس ، وخلال
هذه الاستراحة القصيرة تبرك الجمال وهي محملة . وتمطى القافلة ، بالإضافة
الى ذلك ، استراحة في منتصف الليل مدتها ساعة ، ويطلق امير الحج اثناء
الليل سهماً نارياً ، ليعلم من هم في المؤخرة ان القافلة ستتوقف . وينقل
جنود امير الحج من مكان الى مكان .

« وفي المحطة الثالثة بعد دمشق ، تزود القافلة بكل ما تحتاج اليه
استعداداً لقطع الصحراء . فيأتيها البدو لبيعوا الحجاج متوجاههم . وبعد
ان تكون القافلة قد اكملت استعدادها وتمونها بالأرزاق ، تستأنف المسير .

« وعند اجتياز القافلة الجبال التي أقدمت فيها عشيرة ثمود على قطع
بطات قوائم جبل النبي ، قامت القافلة بإطلاق النار دفعة واحدة بكل
ما لديها من اسلحة نارية ، وقرعت الطبول ، وتعالى التصفيق ، فأحدث
ذلك ضجة شديدة ، ويدعي سائقو الجمال ان جالهم تقضي نجبها حزناً
وهي تسمع أنين جبل النبي ، إذا هم لم يجدوها تلك الضجة . »

واجتازت القافلة منطقة « سدوم وعمورة » التي اتى دي فارتيا على
ذكرها ، والتي لا تبعد كثيراً عن منطقة خير ، ويقول عبد الكريم :

« ما يزال يقيم هناك عدد كبير من اليهود الذين يعتقدون ان ما من شيء يسر الله اكثر من ذبح حاج يؤم مكة .. وعلى الرغم من جميع الاحتياطات الحكيمة التي اتخذها امير الحج ، لم يتمكن من الحيلولة دون اختطاف ثلاثة حجاج من القافلة ، وقتلهم رمياً برصاص البنادق .. »

وهو يذكر على غرار بيتس ، ما يدخله الى النفس من مرور ، منظر ذلك العدد الكبير من الاضواء المنتشرة في كل القافلة ، والتي تتوزع اثارة متقلبة ، وحذاء سائقي الجمال ، وذلك بما يعرض بعض الشيء عن التعب الشديد الذي يدرك السائر في الصحراء .

« ومن الممكن تحمل التعب لولا القلق الذي يوجهه الى النفس باستمرار البدو من العرب . وفي رسمي ان اضع مجلداً ضخماً عن الحيل التي يلجأ اليها هؤلاء اللصوص ، ولكن الذين لا يعرفونهم ربما اهتموني بالتلفيق او المبالغة . وبكفي ان اذكر هنا بعض الحيل الاكثر استعمالاً ، فبينما يكون ، مثلاً ، اكثر افراد القافلة نائمين في الليل على ظهور الجمال السائرة ، وقد اضمأهم التعب ، يقترب خمسة او ستة من البدو ، من الجمال التي يبدو انها آثمن حملاً من غيرها . ومن المعروف ان حمل الجمل مرتب بحيث تكون البضائع الى جانب ، ومؤونة الطريق الى الجانب الآخر . فبينما يفتح بعضهم الحمل وينزعون منه البضائع يسند البعض الآخر المؤن من الجانب الآخر لئلا تقع ، فتوقظ المسافر الذي لا بد من ان ينذر القافلة بالخطر . ولكنهم لا يكادون يُفرغون رزمة البضائع ، حتى يرخوا كل شيء ويلوذوا بالفراة ، وتثور ثائرة الجمل لدى رؤيته صاحبه وما تبقى من الحمولة يسقطان على الارض ، ويتسلكه الذعر ويحاول التخلص من رفاقه . وغالباً ما يوطأ صاحب الجمل باخفاف بعبه في غمرة تلك الضجة فيفقد حياته .. »

« والأعراب يجرون بسرعة فائقة .. فقد كان احد وجهه شيراز

يتوضأ ذات يوم ، فأقبل اعرابي من ورائه واختطف ابريق وضوئه ،
وراح يجري كالسهم .

وسئى فيما بعد ، بفضل دارفو ، وبوركها ردت بأية روح رياضية ،
وبأي مفهوم ترتبط هذه السرقات من وجهة نظر البدو .
واخيراً وصل عبد الكريم مع القافلة الى المدينة بعد ان قضى احد
رفاقه نحبه اعياء .

الوصف الذي يخص به عبد الكريم المدن المقدسة لا اهمية خاصة
له بالنسبة إلينا ، لأنه قد اقتبس من كتاب كارستن نيور ، مضيفاً إليه
ما تثيره في النفس رؤية الهدايا النقيصة المقدمة لقبر النبي في المدينة ، التي
يقوم بحراستها اربعون شخصاً يظن ان الطمع لن يدفعهم الى سرقتها لانعدام
ذريتهم .

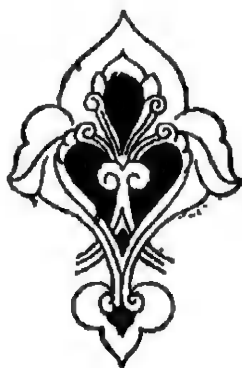
وهو يورد ايضاً وصفاً مقتبساً عن الكاتب التركي كاتب خلي ،
للأرض المقدسة في مكة فيقول : « ان هذه الأرض تمتد الى مسيرة
ثلاثة اميال من جهة المدينة ، والى سبعة اميال من جهة اليمن والعراق ،
والى عشرة اميال من جهة جدة . وتعتبر كل هذه البقعة والجبال التي
تشمها اراضي مقدسة . »

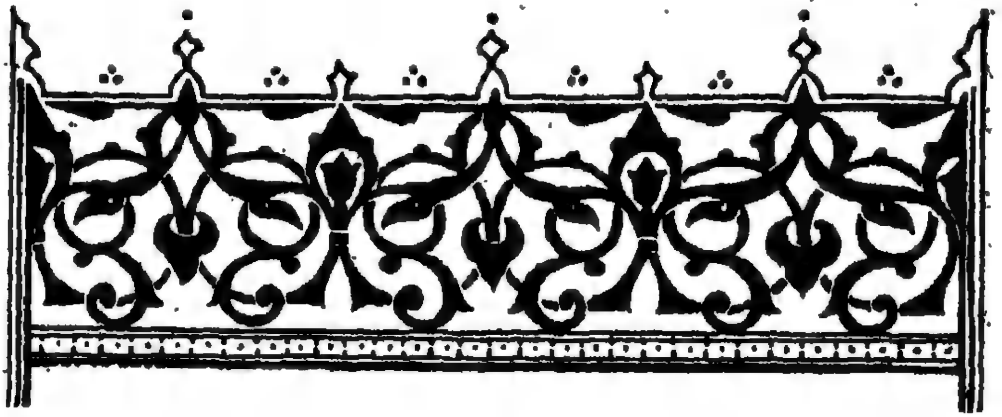
ويشدد عبد الكريم على جبل ابي قبيس من بين هذه الجبال للاسباب
التالية : ١ - لقد نقل الله اليه الحجر الاسود . ٢ - لقد دفن فيه
آدم . ٣ - أطل ابراهيم من على قمته ، ودعا جميع شعوب الأرض
الى زيارة الكعبة . ٤ - في أعلاه اجتوح النبي اعجوبة شطر القمر
باشارة من يده . ولكي يخلد المسلمون الأول ذكرى هذه الاعجوبة
شادوا في أعلاه بناء يشبه المغارة أسموه « محل شق القمر » . وهذا البناء
من الاماكن التي يرجع ان الوهابيين قد حرّموا إقامة شعائر التعبد
فيها ، ولن يعثر له على ذكر في قصص الرحالين الذين قصدوا شبه
جزيرة العرب فيما بعد .

وبعد ان حج عبد الكريم الذي تبدو قصته ضعيفة جداً من ناحية المعلومات الجديدة التي تتضمنها ، وقضى ثلاثة اشهر في مكة ، أبحر الى جدة في طريقه الى البنغال التي وصل اليها سنة ١٧٤٢ .



كانت الحاجة ما تزال تدعو الى الحصول على وصف دقيق شامل للأراض المقدسة ، ولكن كان قد أصبح في الإمكان على الأقل ان يتصور المرء ، منذ ذلك الوقت فصاعداً ، ايمان الحاج وتسليخه المقرط ، والقيمة الدينية الصحيحة لتأدية فريضة الحج لدى المسلمين ، وان يتصور القافلتين القادمتين إلى الاراضي المقدسة ، احدهما من دمشق والآخرى من القاهرة ، عبر المشاق ، والاعطاش ، في مظاهر متضاربة من الفاقة ، والبذخ ، وهما تحملان حجاجاً مؤمنين من اقصى انحاء العالم الاسلامي .





بلاد البن

كانت الجزيرة العربية طوال عصور عديدة بلاد الطيوب والعطور ،
وساحل الطريق البحرية الى بلاد الهند ، إلا أنها غدت في القرن الثامن عشر ،
لمدة طويلة ، بلاد البن .

ولا شيء يعطي فكرة عما كانت عليه بلاد العرب آنئذ ، وما كانت
تغته للأوروبيين ، أفضل من الفكرة التي أعطاها الكتيب المسمى « رحلة إلى
العربية السعيدة » الذي وضعه دي لاروك النبيل الفرنسي ، المشبع بروح
التطلع والموضوعية والنقد ، واختيار الأحسن ، التي اتصف بها واضعو
الموسوعات في ذلك العصر .

لقد تمكن دي لاروك من جمع الرسائل والكتب التي خطها بحارة
سان مالو الذين كانوا قد قاموا برحلة إلى اليمن في سنتي ١٧٠٨ و ١٧١٠
أولاً ، ثم في سنتي ١٧١١ و ١٧١٣ فنشرها بشكل رسائل . ولم يكن
أولئك البريطانيون قد ركبوا البحار إلى تلك البلاد النائية إلا سعيًا وراء
البن الذي كان مبتغاهم الوحيد في تينك الرحلتين .

لقد اهتم الطبيب الجراح — على ظهر إحدى تلك السفن ، وكان قوي

الملاحظة ، عالمًا في الطبيعيات - بقضاء اوقات فراغه على الياسة للحصول على معلومات عن زراعة تلك الشجرة الثينة وتصويرها . وقد نشر دي لاروك هذه المعلومات بشكل بحث صغير ، وأهاب به فضوله من جهة أخرى ، الى جمع كل ما أمكنه جمعه من المعلومات والمكتتب عن البن . فتفحص بعين الناقد المدقق كل الأبحاث التي كتبت في الموضوع ، ولزم - بنوع خاص - جانب الكتاب الذي كان قد وضعه السيد دي غالند نقلًا عن كتابين عربيين وضعوا في الموضوع ، في ذلك الوقت .

وكان دي لاروك ابن رحالة كبير من مرسيليا جاء بالبن الى فرنسا لاستعماله الخاص منذ سنة ١٦٤٤ ، كما كان باريسي الأصل متضلماً من تاريخ مدينته ، فأضاف الى كل ما تمكن من جمعه ، قصة انتشار البن في فرنسا وفي مدينة باريس . حتى انه نشر نخبه من القصائد باللاتينية والفرنسية ، لم يأنف ألمع رجال الفكر والأدب من نظمها في مدح هذا المشروب المفيد ، الذي خصه جان سياسقيان باخ نفسه بأحد ألقابه .

لقد شاع استعمال البن في بلادنا الى درجة رسخ معها في اذهاننا الاعتقاد بأنه كان مستعملاً عندنا منذ أقدم الأزمنة ، وشق علينا التصديق بأن استعماله لم ينتشر في بلاد الشرق إلا منذ أربعة قرون خلت ، في حين أنه لم يمتد على استعماله في بلاد أوروبا اكثر من قرنين . ولم نعد تصور قط الحماسة التي أثارها عبر أوروبا في الشعر الغنائي ، ظهور هذا المشروب :

أية لذة تعدل لذتك
حين تعدك أيد ماهرة
تكفي رائحتك لامتلاك
من لم يجتبروا سحرك
أيما المشروب الذي أحب
سدّ وسيل في كل مكان

وأطرد الكوثر نفسه
من موائد الآلهة
أعلن الحرب أبداً
على عصير بنت الكرملة للفتان
وأذق الأرض
هدوه السهاه اللذيذ

(نظم فوزيه - موسيقى يونيه)



ولكننا ما زلنا لا نعرف إلا القليل من المعارك الحامية الوطيس التي
نجمت عن ظهور البن ، بين عشاقه ورجال الدين ، في الشرق والغرب على
السواء .

تذكر الأساطير ان بعض الرعاة هم الذين اكتشفوا مزايا شجيرة البن ،
اذ أحسوا ان ما عزم الذي رعاها ، أخذ يقفز مرحاً ، نشيطاً ، مبدياً
علامات الجذل والغبطة . ومهما يكن من أمر ، لم ينشأ التعامل التجاري
بالبن في أول عهده في بلاد الحبشة حيث تنمو شجيرات من تلقاء نفسها ،
بل في جنوبي الجزيرة العربية . ويقال ان مفتياً من عدن عمم استعمال البن
بين دراويشه بعد ان لاحظ انه يطرد النعاس ، ليسهل عليهم إقامة
الصلوات ليلاً . ولم يلبث سكان عدن ان قدروا مزايا هذا المشروب
تقديراً أقل روحانية من تقدير مفتيهم ، وانتقلت عادة استعماله من عدن
إلى مكة حوالي سنة ١٥٠٠ ، ثم الى المدينة والمدن العربية الأخرى ، ثم
الى القاهرة . وأنشئ في هذه العواصم ، ومن بعد ذلك في القسطنطينية ،
مقاهٍ لشرب القهوة فتحت أبوابها للجميع ، وكان الناس يستطيعون ، وهم
يشربونها ، ان يلعبوا بالشطرنج وطاولة النرد .

ولكن انتشار استعمال القهوة لم يتم دون حرب شعواء أعلنها على
شاربها رجال الدين المسلمون الذين رأوا ، لما تحدته من تنبه ، ان من
الواجب ان تحرم تحريم المسكر . واشتد الجدل الديني في مكة والقاهرة ،
وأغلقت المقاهي في القسطنطينية ثم أعيد فتحها ، ولكن رجال الدين
خسروا المعركة في نهاية الأمر . فاذا كانت المقاهي قد أغلقت فان القهوة
تربعت على العرش في المنازل ، وأصبح ابريق القهوة من أدوات المنزل
الضرورية كالدرست ، وابريق الوضوء .

في ذلك الحين ذاق بعض الرحالين طعم هذا المشروب الأسود في شبه
جزيرة العرب ، وتعرف إليه بعض الأوروبيين في مصر ، وتركيا معاً .
وصل البن الى البندقية في مطلع القرن السابع عشر ، وقد رأينا ان

امستردام عرّفته سنة ١٦٣٣ ومثلها لندن في ذات الوقت على وجه التقريب .
وبعد أن أدخل بعض المسافرين عادة استعمال القهوة في منازل أصدقائهم
في مرسيليا ، أخذ بعض التجار يستوردونها من القاهرة .

وأصبحت مرسيليا وليون ميدان معركة جديدة قامت بسبب القهوة .
ولم يكن معلنو الحرب في هذه المرة علماء الدين الاسلامي ، بل علماء
معهد الطب .

وبلغت المعركة أوجها سنة ١٦٧٩ حين قدم طبيب شاب أطروحة ،
بمناسبة تخرجه من معهد الطب ، وكان قد طلب إليه ان يبحث فيما إذا
كان استعمال القهوة مضرّاً بصحة سكان مرسيليا ، الى جانب ثلاثة موضوعات
اخرى تتعلق بمآلة القهوة ، وقد جزم الطبيب الشاب في أطروحته بأن
المواد النافذة التي تكثر في القهوة ، قوية النفوذ عظيمة الحركة الى درجة
انها اذا ما انتشرت في الدم ، تنتقل بادئ ذي بدء الى جميع اجزاء
الجسد ، ومن هناك ، تهاجم الدماغ ، وبعد ان تذيب كل رطوبة وكل
مواد خشنة فيه ، تفتح جميع مسامه ، وتحول دون وصول الأرواح
الحيوانية التي تحدث النوم الى الدماغ ، عندما تأخذ هذه المسام في
الانغلاق ، ومن ثم تحدث هذه الأجزاء البالغة بما فيها من خواص سهراً
عاصياً في غالب الأحيان الى درجة أن العصارة العvisية التي تعتبر قوتها ضرورية
لتجديد الأرواح تنفذ كلياً ، فتوقضي الأعصاب ، وينجم عن ذلك المعجز
والشلل . وينتاف الدم الذي سبق له ان احرق ، تستنزف العصارة من
جميع اجزاء الجسم الى درجة ينحف معها الجسم كله نحافة مخيفة . . فيجب
الاستنتاج من هذا كله ان القهوة مضرّة لمعظم سكان مرسيليا .

ولكن معهد الطب لم يتمكن من حمل سكان مرسيليا على النفور من
القهوة التي اصبحت منافسة للخمر في سائر انحاء فرنسا ، على ان هذا
للتقرير لم يكن خاطئاً كلياً ، وقد أدرك ذلك مدمنها بطريقة أقل
مقلساً وتحليلاً ، ولكن أشد اقناعاً ولا ريب .

ان زيارة أحد السفراء الأتراك لباريس في سنة ١٦٦٩ هي التي فتحت الباب رسمياً لدخول القهوة إليها . وقد حاول بعض الأرمن والشرقيين ، افتتاح محلات لتقديم القهوة فيها ، ولكن نوع هذه المحلات لم يجتذب الباريسيين . وقد نجح أكثر من هؤلاء باعة القهوة المتجولون في الشوارع .

وفي اواخر القرن السابع عشر فكر الفرنسيون في افتتاح قاعات لشرب القهوة لا عامة ولا عادية بل مزينة بالفرش ، والمرابيا ، واللوحات ، والثريات ، حيث كان يقدم الشاي والمشروبات الروحية ، والحلويات ، والمربيات . وكانت تلك الفكرة بمثابة قدرها الباريسيون قدرها أكثر من المشروب العربي ذاته ، لما فيها من سحر المنادمة والمحادثة ، فقد غدت المقاهي ملتقى الأشراف من الناس . ويذكر دي لاروك : « ان رجال الادب ، والشخصيات المعروفة برزانتها ، لم يكونوا يستغفون بهذه المجتمعات المريحة كل الراحة ، الملائمة للمناقشات الادبية والتاريخية في جو من اللهو ، دون اي ازعاج او تكلف » وفي الوقت الذي كتب فيه دي لاروك ما كتبه عن القهوة ، كان قد افتتح في باريس ما لا يقل عن ثلاثمائة مقهى . ومن المعلوم ما أصبح لهذه المقاهي من اهمية في تاريخ الادب الفرنسي في القرن الثامن عشر .



هكذا غدت الجيوب الصغيرة التي تحملها شجيرات البن في شبه جزيرة العرب في الاعوام الاولى من القرن الثامن عشر ، ليس فقط ذات قيمة بالنسبة الى اوروبة ، بل ضرورة للحفاظ على حقيقة اجتماعية ذات طابع فرنسي ، كانت قد دفعت الى نشأتها .

وكان تجار مرسيليا قد احتفظوا حتى ذلك الحين باحتكار استيراد البن من القاهرة ، ولكنهم أخذوا يتسائلون عن سبب عدم اقدامهم على شرائه من شبه الجزيرة العربية مباشرة .

كانت الثورة العربية قد طردت الأتراك من شبه الجزيرة ، ولم يكن قد بقي في أيديهم الا ميناء جدة ، وكانت بلاد اليمن خاضعة لحكم إمام . وما كاد الهدوء يستتب حتى افتتح الهولنديون ثانية وكالة تجارية في المحا ، بالنظر الى ان التجارب التي أجروها في زراعة البن في باتافيا لم تسفر عن النتائج المرجوة . اما الشركة الانكليزية للهند الشرقية ، فإنها كانت ترسل في كل سنة بعض السفن الى المحا ، وكانت تستورد حمولة سفينة من البن كل سنتين مرة واحدة الى مدينة لندن .

وقد أسس تجار سانت مالو هم أيضاً شركة لاستيراد البن من منشئه . وهكذا تمت بين سني ١٧٠٨ - ١٧١٠ - ١٧١١ - ١٧١٣ الرحلتان اللتان كتب دي لاروك قصتها . وللرحلة الثانية اهميتها الخاصة في تاريخ اكتشاف شبه جزيرة العرب ، لان القدر كان سيتبع لاثني من البحارة في تلك الرحلة ، سلوك طريق العاصمة ، والبقاء فيها وقتاً كافياً للتجول فيها وفي ضواحيها ، كضيفين مكرمين قدمت لهما كل واجبات الضيافة .

فقد سأل الملك المصاب بمرض ، الفرنسيين الذين كانوا قد نزلوا الى ميناء المحاهل بينهم طبيب يستطيع شفاءه من دملين كان مصاباً بهما . فأرسل اليه الجراح الثاني في البعثة ، يصعبه أليد دي لاغرولودير الضابط الأكبر لبحارة السفينة بونديشيري ، كندوب عن فرنسا لدى ملك اليمن . فبدأ السير باتجاه العاصمة حاملين الهدايا تخففرهما فصيلة من الحيلة ، وعدد من الجمال .

قطعا الطريق في أسرع ما يمكن مارين بموزع ، وتعز ، ومنزول ، وقبالة ، وبريم ، وذمار ، وكانت هي الطريق التي سبق لدي فارتيا أن سلكها . ولكنها توقفا على بعد ربع فرسخ من ذمار ، لأن الملك الذي كان قد أعيد الى العرش بفضل الثورة العربية ، قد شاد عاصمته هناك ، في سهل لطيف من منطقة مؤاب ، يزرع فيه الأرز ، والقمح ، وأشجار الفاكهة ، وكروم العنب ، الى جانب البن الذي شاهدوا شجيراته

ابتداء من تفر . وقد استغرق شفاء الملك ثلاثة أسابيع قضوها هناك .
وبما يجدر بالاهتمام ، من وجهة النظر التاريخية ، المقارنة ما بين نمط
المعيشة في بلاط هذا الملك العربي الذي وصفه هذان الرحالتان وبين نمط
المعيشة الذي شاهده فان بروكه في عهد الأتراك . فقد عقب الترف
التركي ، بساطة مفرطة في المعيشة . فالقصر الملكي يكاد يكون عارياً ،
يتسم بالزهد . وحديقته بستان للخضار غرست فيه شجيرات البن . والحلة
التي يرتديها الملك من قماش لا بأس بنعومته ، وهي بسيطة خالية من الزينة ،
ولا يميزها من غيرها إلا إزارها المصنوع من الحرير الناعم الأبيض . وقد
أدرك لاغرولودير أن تلك البساطة متعمدة بدافع المبدأ الديني . وهذا
المبدأ ، على كل حال ، يكشف للمرة الأولى ، عن طبيعة الملكية العربية .
الخاصة هناك ، إذ ان الامام او الشريف الذي يمسك بزمام الحكم يجب
ان يكون من سلالة النبي ، وهو يمثل السلطين الدينية والزمنية معاً .

ولا يبدو الامام بمظهر الأبهة الملكية الا عندما يؤدي صلاة الجمعة في
المسجد ، وما يزال هذا صحيحاً في أيامنا الحاضرة . فالوصف الذي أورده
دي لاغرولودير للمرة الأولى ، يعطينا فكرة عن مظاهر الأبهة الاسلامية
والعربية بنوع خاص : « يبدأ السير باتجاه المسجد في الساعة الثانية من بعد-
الظهر ألف جندي يقومون بأطلاق جماعي للنار لدى خروجهم من القصر
الملكي ، في نظام جيد . ومن بين هؤلاء الجنود صفان من حملة البنادق
المروسة التي تدعى بيارق محمد وعلي . ويتبع هؤلاء الجنود مباشرة مائتا
خيال من حرس الملك يحملون بالإضافة إلى السلاح العادي ، وهو البندقية
والسيف ، حراباً قصيرة مهدبة الأسنة . ويتبع الخيالة ضباط القصر الملكي
وأفراد الحاشية بمتطين صهوات جياد مطهية ، ثم يظهر الملك على مسافة
منهم ، على متن جواد أبيض رائع ، هاديء ، خصص منذ زمن طويل
لركوبه وحده ، مزين تزييناً نفيساً . ويمسك أحد الضباط وهو راكب
جواداً بديع العدة ، بمظلة فوق رأس الملك تحميه حرارة الشمس المحرقة ،

ويتقدم الملك مباشرة أحد الضباط حاملاً قرآناً موضوعاً في كيس من القماش الأحمر نقشت عليه بعض الأحرف العربية البارزة وأحيط بأهداب ذهبية . ويتبع الملك أحد الضباط على متن جواده ، حاملاً سيفه الذي زين غمده وقبضته تزييناً بديعاً . ويستمر قرع الطبول ، والصنوج ، والنفخ في المزامير ، ما دام الموكب الملكي سائراً .

« وفيما الملك سائر في موكبه الفخم ، يجد في طريقه خمسين جواداً من خيرة جياده ذات سروج رائعة النقوش ، وأعنة مزينة بالذهب والفضة ، علق إلى أحد جانبي سروجها سيف جميل جداً ، وإلى الجانب الآخر فأس قتال ، وقد جيء بهذه الجياد من ذمار حيث اسطبل الملك الرئيسي . ويتبع هذه الجياد عدد بمائل من الجمال لا تقل تجهيزاً عن الجياد وضعت على ظهورها جلال ذات قبضات من الفضة ، وزينت رؤوسها بياقات من ريش النعام الأسود . ولم يؤت بهذه الجياد والجمال الرائعة التجهيز إلا لجرد التزيين والتظاهر بالأبهة .

« يدخل الملك وحده الخيمة التي تقوم مقام المسجد ، ويبقى فيها ساعة كاملة يتم خلالها ما يفرضه عليه مقامه الديني بوصفه اماماً ، من تلاوة بعض الصلوات الجهرية ثملقاء الخطاب الذي يستهله بحمد الله ، ويشد فيه بذكر النبي محمد ، ويختم بالدعاء للأمير الحاكم ، ويتلو الأمراء وجميع الحضور الصلاة لدى تلاوة الملك لها ، ويحذون حذوه في كل ما يقوم به ، لأن الخيمة مفتوحة جيداً ، ويستطيع الناس جميعاً ان يشاهدوا الامام .

« وبعد الفراغ من الصلاة ، يمتطي الملك جواده على رنين الصنوج ، وقرع الطبول ، وانغام المزامير ، ولعلمة الرصاص الذي يطلقه الجند لدى خروج الملك من الخيمة ، ويعود موكب الملك الى القصر في ذات النظام الذي جاء فيه ، بين هتافات الشعب وأدعيته له .

« ولدى وصول الموكب الى مؤاب ، يدخل قسم من الحياطة باحة القصر ويظل القسم الآخر في الخارج ، وبعد أن يدخل الملك ، تجري مباريات

كثيرة في سباق الخيل ، وفي استبائك فريق من الفرسان بفريق آخر في معركة حربية تمثل تمثيلاً .

وبما يستحق ذكره للتاريخ ان الفرنسيين شاهدوا وصول سفراء من قبل سيد القسطنطينية الاكبر ، جاؤوا بوصفهم اصدقاء في هذه المرة ، ولكن ذلك لم يحل دون احتجاجهم على بيع الاوروبيين كميات كبيرة من البن في الموانئ العربية ، الامر الذي أحدث ارتفاعاً فاحشاً في سعره ، وسبب الكساد للتجارة في الموانئ التركية . فاستقبل الامام رسل مستعمري الامس استقبالاً حسناً سريعاً ، ولكنه لم يغير موقفه الودي من الفرنسيين الذين كان يلتذ بسؤالهم عن بلادهم ، وملكهم ، وفرساي ، والبلات ، والادارة ، والجيش .

لقد كان لاغرولودير وباريه اول اوروبيين رسميا صورة لمختلف الطبقات الاهلية والاجتماعية في جنوبي شبه جزيرة العرب . فقد ذكروا ان في العاصمة حياً يقطنه اليهود وهم يجبرون على الانسحاب إليه كل مساء ، لأنه لا يحق لهم ان يبيتوا في المدينة . وان أشد الطبقات غرابة طبقة البانيانيين ، الذين يقومون في هذا الجزء من بلاد العرب بجميع الأعمال التي يقوم بها اليهود في تركيا ، والسماصرة في أوروبا ، ولا سيما السمسة في تجارة البن ، انهم أصلاً من بلاد الهند ، وخاصة من جزيرة « ديو » الواقعة في مملكة كامباي القريبة من صوراء ، باتون بلاد العرب منذ نعومة اظفارهم ، للثراء عن طريق التجارة ، ولهذا الغاية ذاتها ينتشرون في جميع انحاء الهند الأخرى . من بينهم تجار دوو ثروات طائلة ، ووزانو ذهب وفضة ، وأناس يمتنون مهناً مختلفة .. وديانتهم ضرب من عبادة الأصنام غريب ، خشن ، لأنه يقال انهم يعبدون كل أنواع الحيوان ، ولا سيما البقرة التي يخصصونها بحبة فائقة ، وعبادة خاشعة . وقد رسخت في عقولهم عقيدة التقمص فلا يقدمون على ايداء أي كائن حي .. وأغلى أمنية لهم

عندما يحين أجلهم ، ويؤدوم الموت ان يتسكنوا من الأمساك بذيل بقرة ،
تعمل روحهم تدخل جسم هذا الحيوان الحبيب .. ومن عاداتهم الحسنة انهم
يفغفرون الاساءات بسهولة ، وانهم لا يقدمون على الاضرار بالغير ، وخلاصة
القول ان ظواهرهم تدل على طيب الخلق ، حتى يقال ان اسم البانيانيين
الذي يعرفون به يعني « الاناس السذج الأبرار » . ولهم لغة وكتابة
خاصتان ، لا أظنها الا لغة اعل ماليار وكتابتهم . أما ملابسهم فقريبة ،
ولا سيما غطاء الرأس وهو ضرب من عمامة من النسيج الأبيض ، يبدلون
جهدهم في جعلها شبيهة برأس البقرة وقرنيها ، يرتدون مدرعة طويلة من
نسيج القطن الأبيض ... ولكنهم لا يستعملون سراويل داخلية ، ومعظمهم
يمشون حفاة . ويستعمل وجهاؤهم بالاضافة إلى ما ذكر ، وشاحاً من الحرير
الأبيض طرزت جوانبه بالحرير المتعدد الألوان . ولا يسمح العرب لهؤلاء
البانيانيين بالزواج من بناتهم ، أو بانشاء علاقات مع النساء ، فيضطرون ،
عندما يجمعون بعض المال ، ويريدون الزواج ، الى العودة الى بلاد الهند
للبحث عن زوجات لهم .

كانت اليمن قد غدت السوق العالمية لتجارة البن . ولم تكن سوق
البن تقام في الحما ، بل في بيت الفقيه التي كانت تبعد عنها مسيرة
يومين ، والتي كانت بقلعتها ومساجدها ، أكبر من الحما . تقام
سوق البن في بقعة تجارية تشمل فناءين كبيرين قامت على جوانبها أروقة
مسقوفة ، يأتيها العرب من الريف ، حاملين البن في خروج كبيرة من
الحصير ، يحمل الجمل خرجاً واحداً منها . ويتم شراء البن عن طريق السمسرة
البانيانيين .. فقد وضع في صدر السوق أريكة يبلغ ارتفاعها أربع أقدام ،
فرشت بالسجاد يجلس عليها ضباط الجرك والحاكم نفسه في بعض الأحيان .
ويقوم هؤلاء الضباط بتسجيل وزن البن الذي يجري وزنه أمامهم ، وثن
البن الذي يتم بيعه ليصار الى استيفاء حصة الملك منه ، ويستخدم الوزانون
موازين كبيرة ، وعيارات ليست سوى أحجار ضخمة ملفوفة بالقماش ..

يؤتى بالبن يومياً إلى بيت الفقيه من الجبل الذي لا يبعد عنها أكثر من ثلاثة فراسخ . وفيها يجري شراء كميات البن لحساب تركية ومصر ، وتشحن على ظهور الجمال إلى أقرب ميناء ، ومنه بجراً إلى جدة التي كانت مارتال في أيدي الأتراك ، ومنها إلى السويس حيث تقوم قوافل الجمال بتوزيعها على جميع أنحاء مصر ، أو السفن بنقلها إلى موانئ البحر الأبيض المتوسط الواقعة تحت حكم الأتراك .

لقد لفت نظر هذين الرحالين طريقة زراعة البن . فذكر أنه إذا ما زرع على ارتفاع يقل عن ألف متر عن سطح البحر ، وجب زروعه تحت نوع من أشجار الحور . أما إذا زرع في أماكن يفوق ارتفاعها ألف متر ، وتبلغ أعلى قسم البن ثلاثة آلاف متر من الارتفاع ، فلا حاجة إلى حمايته . ويجري ديه ، وفقاً لمراحل ازهاره ، بواسطة حفرة تحفر حول جذوره . ويمكن أن تحمل شجيرة البن في آن واحد ازهاراً ، وأثماراً حمراء ، وأثماراً جافة ، ولكي تجمع الجيوب الجافة . تفرش حصر تحت الشجيرات ، وتهز هذه الشجيرات فتساقط عليها حبوبها الجافة ، وأراد لاغرولودير وباربيه أن يعطيا مواطنيها فكرة واضحة عن شجيرات البن ، فقاما برسم بعض الشجيرات وما عليها من الأزهار ، والأثمار الحمراء ، والأثمار الجافة . ولكن بعض الباربيين ، تمكنوا من أن يشهدوا بأمر العين شجيرة بن تحمل ثماراً ، كان قد جاء بها بعض المولنديين ، واهدتها مدينة أمستردام إلى الملك لويس الخامس عشر الذي عرضها في حديقة قصره .

لا شك في أن رحلة دي لاغرولودير وباربيه لم تزد من غنى المعلومات الجغرافية عن جزيرة العرب ، لأن الطريق التي سلكها كان قد سلكها غيرهما من قبل ، ولأنها لم يرسم أي مخطط لها . ولكن الناس كانوا ما يزالون في حاجة إلى الكثير من المعلومات غير المعلومات الجغرافية ، ففضل هذين الرجلين كامن في أنها عاشا مع العرب ، مظهرين لهم كل بجمالة واحترام ومحبة . ولكن مساهمتها لمضيفيها العرب لم تبلغ حد

قبولها بخلق حذاءها عند دخول قاعة المقابلات الملكية في القصر . وقد وجه إليها نيبور فيما بعد اللوم على ذلك . ولكن اذا كانت هذه العادة لا تؤثر أي تأثير على كرامة الناس الذين اعتادوا استعمال البابوج ، فهي تؤثر اشد التأثير على كرامة من اعتادوا استعمال الأحذية والجوارب .



من وجهة النظر الدبلوماسية ، لم يكن مقدراً للاتفاق الذي عقد في اشأم الأوقات ألا تشوب جوه الغيوم . فقد خالف حاكم النحا الاتفاقية فيما بعد ، سنة ١٧٠٩ ، فأرسلت شركة الهند الفرنسية قطعة من الاسطول للسؤال عن سبب تلك المخالفة التي اعتبرتها خيانة . وقد وصلت قطعة الاسطول هذه إلى النحا في شهر كانون الثاني (يناير) من سنة ١٧٣٧ بقيادة لا غارد جازيه ، وحاولت بادئ ذي بدء سلوك سبل المصالحة ، ولكنها حين رأت ألا فائدة من ذلك اضطرت الى قذف القلاع ببعض القنابل ، ولا حاجة الى القول انه حصل على ترضية بنتيجة ذلك .

وقد قام دي لاروك في كتابه بتسجيل النتائج التجارية لحملة بحارة سانت مالو ، وكانت ولا ريب شديدة الخطورة . وقد رسم هذا الكتاب النابض بالحياة صرورة عن اليمن في القرن الثامن عشر ، في ظل حكم عربي أقيم من جديد بعد زوال عهد الاتراك ، لم يره فان دن بروكه ، وفي زمن لا غد له ، كانت اليمن فيه واحد من أشهر الأسواق العالمية .

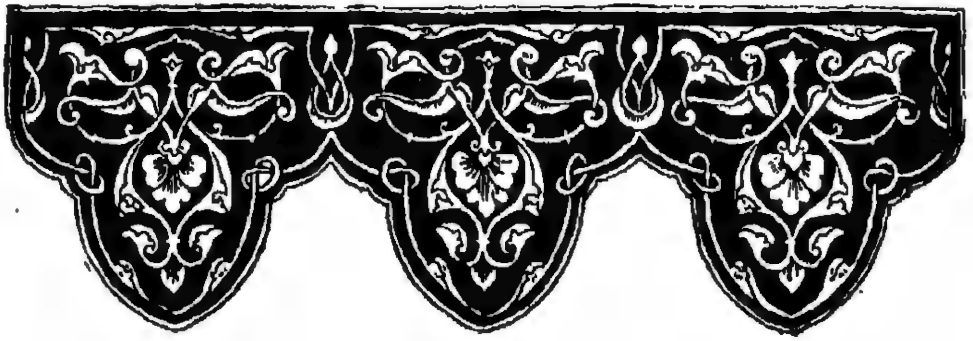
ولم يلبث الهولنديون في الواقع ، أن نجحوا في زراعة شجيرات البن في بلاد جاوه ، بانتظار اليوم الذي ثبت فيه ان بلاد البرازيل قادرة على انتاجه بكميات هائلة ، فقل طلب البن العربي شيئاً فشيئاً ، وأخذ عهد البن الزاهر في شبه جزيرة العرب يميل نحو الزوال .

ان ذلك الميناء الذي رأى فان دن بروكه ثروات الشرق تتدفق عليه ، والذي كان أعظم مركز في العالم للاتجار بالبن ، كما وصفه بحارة سانت مالو ، قد تحول منذ ذلك الحين ، خلال قرنين ليس إلا ، إلى ذلك

الخليج الكسول الذي أتت قصة هنري دي مونفريد على ذكره . ولكن ،
على الرغم من ان الخفا قد درج اسمها في طيات النسيان والاعمال ، يكفيها
فخراً أنها أعطت اسمها لأفخر نوع من أنواع البن في العالم ، هذا النوع
الذي ينبت في أعالي جبال اليمن .

ان فضل دي لاغرولودير وباربيه كامن في أنها خلقتا لنا صورة من
ماضي شبه الجزيرة العربية الذي لا تستطيع الحدثان ، على ما يبدو ، ان
تغير شيئاً منه .





قنصل فرنسي لدى البدو

اقتضى اكتشاف العربية السعيدة ، اعني الجزء الجنوبي من شبه جزيرة العرب اجتياز رأس الرجاء الصالح ، اما العربية الفقراء فقد كانت على مقربة من البحر الابيض المتوسط . كان يكفي اجتياز منخفض الاردن ، وقطع المرتفعات المشرفة عليه من جهة الشرق ، للاطلاع على المساحات الشاسعة الواسعة من الاراضي القاحلة التي يحيم عليها الصمت ، صحراء من المقذوفات البركانية السوداء ، او قفار تشرف فيها بعض المرتفعات الطبيعية على الاراضي المنسية الممتدة جنوباً الى ابعد من مدى النظر .

على هذه المرتفعات ترقد الآن خرائب القلاع الرومانية ، وعلى تخوم هذه البقعة الخاوية تمتد نصب الحدود العسكرية التي تحمل كتابات رومانية ، إذ كانت رومة قد انشأت على حدود المنطقة المتحضرة ، منطقة عسكرية تواجه المنطقة الصحراوية .

فهل هجر الناس هذه المنطقة لان متاريسها الدفاعية لم تكن ذات فائدة في صد الهجمات ؟ يظهر ان الواقع كان على خلاف ذلك . ففي تلك المناطق الصحراوية القاسية يبدو ان اناساً كانوا يقيمون ، عرفوا بالبدو ، أي سكان البادية .

عندما تسقط أخف الامطار ، او ينزل ندى الشتاء على الارض ،
تقبت الاعشاب القصيرة ، يظل البدو في هذه الصحارى حيث تجد جمالهم
ما يكفيها من الاعشاب والنباتات . اما إذا أقبل الصيف ، فأحرق
الاعشاب والرمال ، وجعل من هذه الصحارى اماكن تتعذر الإقامة
فيها ، فان البدو ينزحون الى تخوم المنطقة المعمورة ، فلسطين وسورية ،
وبتزودون منها إما عن طريق الغزو ، او عن طريق التبادل بينهم وبين
الحضر . وكان لا بد من مراقبة هذا التسلل الموسمي الذي يقوم به
البدو ، ولهذا الغاية أنشئت منطقة الحدود العسكرية المحصنة ، ولكن ،
لم يكد الرومان ينسحبون ، حتى تهدمت حصونهم ولم يبقَ للرقابة من
أثر ، واصبح تسلل البدو حراً الى درجة ان المناطق السورية والفلسطينية
المتاخمة للصحراء غدت شديدة الخطورة ، ولم يعد باستطاعة احد ان يخاطر
بالسفر إليها من غير ان يخشى التعرض للسلب .

لم يعد أي حضري يغامر بالدنو من هذه المنطقة ، ولهذا كان اجتياز
الحدود الشمالية لشبه الجزيرة العربية التي لم تكن تبعد سوى مائة وخمسين
كيلومتراً عن سواحل البحر الابيض المتوسط - على خط مستقيم - أشد
تعذراً من بلوغ حدود العربية السعيدة النائية .

ومنذ ان قام رينو دي شاتيون برحلته لم يحاول أي اوروبي ان
يدخل بلاد العرب من حدودها الشمالية .

غير ان البدو كانوا قد بسطوا سلطتهم على رقعة واسعة الى درجة
انهم احتلوا في القرن السابع عشر ، شبه جزيرة سيناء بكاملها ، وطردوا
الرهبان الكرملين الذين كانوا ينتعلون احذية من غير جوارب والذين
كانوا يقيمون في دير جبل الكرمل العريق في القدم . وقد طلب الى
الملك لويس الرابع عشر ان يتدخل لدى اميرم للساح بعودة الرهبان الى
ديرهم ، فأوعز الى سفيره الذي كان يقيم في صيداء في فلسطين ، ان
يقوم بهذه المهمة . ولم يكن السفير المعجوز قادراً على القيام بمثل هذه

المهمة الشاقة ، ولكنه كان قد تبنى رتيلاً من أمرته يدعى لويس دارفيو ،
ذكياً الى درجة انه تعلم خمس لغات اثناء وجوده في بلاد الشرق ، من بينها
العربية والتركية والفارسية ، فطلب منه ان يقوم بذلك . فتزوا لويس
دارفيو بزي وجيه تركي ، وامتلى جواده الأصيل ، في سنة ١٦٦٠ ،
واتجه نحو منطقة البدو التي كان يخشى الناس دخولها ، ليحمل الى امير
البدو طلب ملكه . وهكذا قدر لأوروبية للمرة الاولى ان تطلع على
تقرير نثر يروي حقيقة غزاة الصعراء اولئك .

لم يدون لويس دارفيو مذكراته إلا بعد ان قام بمهمة مفاوضات ناجح
لعقد معاهدة تونس في سنة ١٦٦٨ ، وبمهمة سفير لدى الباب العالي العثماني
في سنة ١٦٧٤ ، وبوظيفة قنصل في مدينة الجزائر (١٦٧٤) ثم في حلب في
سني ١٦٧٩ و ١٦٨٦ ، ثم انسحب الى مرسيليا ، وتزوج من سيدة ذات
مؤهلات رفيعة . وقد شغل اوقاته بالتفكير في الكتب المقدسة التي كان
يراهها في اللغة العبرية ، وفي الآباء الرسل . ولكنه بالاضافة الى ذلك ،
دوّن مذكراته عن الرحلات التي قام بها ، وعما رآه في اثناها .

ولم يقدم دي لاروك على نشر المعلومات التي دوّنها الفارس دارفيو
عن جماعات البدو ، إلا بعد أن أدركت المنية هذا الأخير . فأصدر في
سنة ١٧١٧ كتاب « رحلة في فلسطين نحو الامير الكبير زعيم امراء البادية
العرب المعروفين بالبدو » .

ومن الخطأ الفادح الحكم من هذا العنوان ان لا علاقة لهذا الكتاب
باكتشاف بلاد العرب . ولم يخطئ نيبور الذي قرأه وذكر اسمه بعد
انقضاء خمسين عاماً على ذلك ، في صدد كتابته عن شبه جزيرة العرب .
وربما كان من علامات الضعف في التاريخ ، عدم اظهار الاهمية الفعلية
التي كانت لهذا الكتاب في تطوير المعارف الخاصة ببلاد العرب .

وبكفي ، في الحقيقة ، ان يقرأ المرء كي يدرك ان البدو الذين يسميهم
بدواً عرباً ، خرجوا بعض الوقت الى خارج حدودهم ، ولكنهم كانوا
قد عادوا الى داخلها تاركين سبنا للأتراك ، حين وضع دي لاروك

كتابه . لقد كانوا بدواً عرباً اتسم غط معيشة اميهم وكبار زعمائهم بطابع التاثير التركي . وكان الامير ، فعلاً ، معترفاً به لدى سيد القسطنطينية الأعظم الذي كان قد منحه « حق استيفاء الضريبة من قرى شبه جزيرة سيناء وموانئها شريطة تأمين حرية الطريق » وخفر البريد ، والقوافل التجارية التي تمر ببلاده . وإقراراً بذلك كان قد مُنح لقب باشا والامتيازات التي يتمتع بها حامله .

لذا فقد كان من الطبيعي ان يرى الإنسان طابعاً تركياً في ثياب الأمير وزوجته وبناته ، وفي الأثاث الذي تحتويه خيام كبار القوم عنده . ولكن دارفيو رأى فيهم ، باستثناء ذلك ، بدواً حقيقيين فاستحق التقدير لكونه اول من استطاع ان يفهم هذا المجتمع الخاص ويصفه . ولا يسع المرء الا ان يعجب بالطريقة التي عرف بها ، قبل عصر بوركهاتر وستون بقرن كامل ، كيف يفهم روح ذلك المجتمع ومبادئه فهماً عميقاً هادئاً مدركاً ، محيياً الى النفس .

لقد تمكن دارفيو بفضل أدبه وكياسته ان يدرك الامير ، ويكتسب محبته ، ففضى الاسابيع الطويلة في خيم العرب البدو ضيفاً معزواً مكرماً . فقد دعي الى الحيام المختلفة ، والى حفلات القمص ، والى مباريات سباق الخيل ، وجلسات المنادمة ، فعاش معهم ، ولم يقصّر عن بذل الجهد للتعلم منهم .

ان انتهى من كتابة قصة إقامته بينهم وضع بحثاً حقيقياً في « أخلاق عرب البادية وعاداتهم » . وليس العمل الذي قام به مجرد جمع معلومات ، بل عملاً فتح به عيون أبناء الغرب على حقيقة غير قابلة للتصديق ، وهي ان اولئك القوم الذين يقومون بالغزو ، هم رغم ذلك ، على جانب من الأخلاق السامية ، يحفظون الذمام ، ويكرمون الضيف الى اقصى حدود الكرم ، يغارون على العرض ، ويتحلون بالإباء والشهم . فكيف يمكن التوفيق بين كل ذلك ؟

لا شك في ان دارفيو قد ترك للخلف أموراً كثيرة كي يقوم بدراستها درساً عميقاً ، ويفسرهما ، ولكنه احسن فهم عقدة المبادئ التي تربط ما بين العناصر المختلفة لهذه العقلية البدوية والمجتمع البدوي ، الذين لا مثيل لهما في العالم كله .

أكانوا غزاة ؟ نعم . وقد جعلت منهم أعمال الغزو التي انصرفوا إليها أعداء لكثير من شعوب الأرض . فليس لهم ، خلا العناية بقطعان الماشية ، عمل آخر غير التعرض لمن يسلكون الطرق الصحراوية . وهم لا يكادون يرون احد المارة هناك حتى يغطوا بمعائم القسم الأسفل من وجوههم كي لا يُعرفوا ، ويرفعوا الرمح عالياً في ايديهم ، وينقضوا عليه ، ويبدأوه بالعربية بالجملة التالية : « انزع ثيابك ايها اللعين ، فخالتك عارية - يعني بها قائلها ان زوجته في حاجة الى ما تلبسه - أمن العدل ان يكون ملبسك أحسن من ملبسها ؟ » ولا ينفكون يوجهون أسنة الرماح الى صدر العابر المسكين حتى ينالوا منه ما يريدون . وهم يدعون له في بعض الاحيان سروالاً صغيراً او قميصاً ، بعد ان يكون قد نضا ثيابه طوعاً ، ورجاماً ألا يرجعوه الى اهل عاريه . كما انهم يتروكون له ساعته ، لأنهم لا يريدون ان يدعوا احداً في الطريق ، وقد جرد من كل شيء ، واصبح لا يملك اجرة عودته الى بيته .

ثم انهم يعتبرون امراً طبعياً قيامهم بسلب السفن التي تكون قد جُرُفت الى سواحلهم . ويذكر تميزه وغيره انهم لا يتوددون عن تضليل السفن في معابر البحر الاحمر الخطرة ، إذا ما رفض اصحابها اعطائهم شيئاً طوعاً واختياراً . ويفعلون بالقوافل مثلاً يفعلون بالسفن ، فهم يتروكون الناس عراة ويتقاسمون الأسلاب .

ويروي دارفيو بصورة ممتعة ، قصة وقوع الأخ الفونس وسفينته المحملة بالمسابع الى اسبانيا ، في ايدي البدو ، وعودة هذا الكاهن كما

خلق الله آدم الى جماعة المسافرين من الجنسين ، الذين كانوا قد تركوا في وضع لا يختلف عن وضعه ، وكيف انه لم يبق في تلك الليلة أية بدوية لم نحل ذراعها بعدد كبير من المسابح ، ولم يبق أي بدوي لم يتله بصوت خشخشها بين اصابعه وهو يحتسي القهوة .

وليس الغزو حرباً ، لأنهم لا يهاجرون إلا إذا وثقوا من تفوق قوتهم . اما إذا غلبوا على امرهم ، فإنهم لا يسددون الرماية للقتل ، رغم ان الغيظ يتسللهم إذا لقوا مقاومة أو جرحوا ، لأن الهدف الذي يرمون إليه ليس سوى الحصول على الغنيمة . وقد وجد دارفيو ان البدو لا يعتبرون الغزو وسلب المارة جريمة ، كما لا يعتبر الاوروبيون القنص جريمة .

ويعتقد البدو انهم من نسل اسماعيل الذي ظلمه اخوته ، وهم إذ يقومون بأعمال الغزو إنما يثأرون له .

ان قصص التوراة تروي ان سارة زوجة ابراهيم ، لما رأت انها قد شاخت ولم تنجب ولداً ، قدّمت لزوجها خادمتها المصرية هاجر ليضاجعها بدلاً منها ، قائلة له : « اوجوك ان تضاجع خادمتي ، لعل الله يرزقني منها اولاداً » (تكوين ١ ص ١٦ عدد ٢) الا ان هاجر اخذت تحتقر سيدتها بعد ان حملت من ابراهيم . ولكن سارة نفسها ، حسب وعد رسول خفي أرسل إليها ، وزقت ولداً ، بعد انقضاء بضع سنوات على ذلك أسمته اسحق ، وعده الملاك ان الله سيقم معه ومع نسله حلفاً أبدياً (تكوين ١ ص ١٧ عدد ١٩) وقد أقام ابراهيم وليمة كبرى بمناسبة فطام اسحق . ورات سارة ابن هاجر المصرية يضعك فقالت لابراهيم : « اطرد هذه الأمة وابنها ، لأن ابن الأمة يجب ألا يورث مع ابني اسحق » فلم يرق ذلك لابراهيم بسبب ابنه اسماعيل . ولكن الله قال له : « لا تهتم بشأن الولد وبسبب أمك . افعل ما تطلبه منك سارة ، لأن من

اسحق سيخرج النسل الذي سيعمل اسمك ولكنني ، مع هذا ، سأخرج أمة من ابن الأمة ، لأنه من صلبك .

فأخذ ابراهيم في اليوم التالي ، شيئاً من الخبز وقربة ماء أعطاهما هاجر .. ثم طردها وابنها . فتاهت في صحراء برسابا . وعندما نفذ الماء من القربة ، وضعت الولد تحت عوسجة ، وابتعدت عنه مرمى قوس وجلست .. لأنها قالت انها لا تريد ان ترى الولد يموت . واخذت تبكي .. فسمع الله صوت الولد ، فنادى ملاك الله هاجر من السماء قائلاً ، « ما بالك يا هاجر ؟ لا تخافي شيئاً .. انهضي وخذي الولد ثانية لانني سأخرج من نسله أمة عظيمة . » وفتح الله عينها ، فرأت بشراً ، ملأت منه القربة وسقت الولد .

وكان الله مع هذا الولد فكبر ، وسكن الصحراء ، وأصبح من الرماة بالقوس (تكوين ١ ص ٢١ عدد ٨ - ٢٠) وكان الله قد أنبا هاجر مقدماً ان « هذا الولد سيكون كالخار المتوحش ، وانه سيرفع يده في وجه الجميع ، وان أيدي الجميع سترفع في وجهه ، وانه سينصب خيمته قبالة جميع اخوته . » (تكوين ١ ص ١٦ عدد ١٢)

وقد لمس دارفيو لدى البدو ايماناً لا يتزعزع بأنهم نسل اسماعيل . ولكنهم لا يرون فيه كما ترى التوراة « ابن الخادم » بل ابن ابراهيم البكر ، الذي أصابه من الوراثة بلاد العرب بكاملها ، وهي في نظرهم أفضل بكثير من ارض كنعان التي أصابت اسحق ويقول دارفيو : « ان العرب البدو رغم ذلك يعتقدون انهم قد غبنوا ، وأسيت معاملتهم ، ولذلك يعرضون انفسهم عما أصابهم من حيف بإلحاق ما أمكنهم من الضرر بنسل اسحق والناس قاطبة . » وهنا يكمن تفسير ما يعنيه الأمر الذي يصدر عنه الى من يريدون سلبه من طلب استرداد الحق السليب : « اخلع ثيابك ايها اللعين ، فخالتك عارية تماماً . » فالبدوي إذ يسلب

للأمة لا يقوم إلا باسترداد الحق الذي حرمه إياه اسحق .

« انهم يورون نخط الحياة التي يحبون باقتناعهم بأنهم من سلالة اسماعيل .
فهذا الأصل الرفيع الذي يُغالون بالتباهي به ، لا يسمح لهم بتعاطي
الصناعات الميكانيكية ، او بحراثة الارض . انهم لا يقومون بأي عمل ،
ولا عمل لهم سوى ركوب الخيل ورعاية المواشي ، ومراقبة الطرق
الكبيرة » .

« انهم يعتبرون جميع المسلمين من غير البدو (أي من غير المنحدرين
من أرومة عربية أصيلة ^١) ، كأولاد غير شرعيين لهم ، او كمفتصبين
لحقوقهم في الوراثة ، ويمعدون من العار الارتباط برباط المصاهرة معهم ،
الامر الذي يشين أصلهم الشريف » .

ولو قرأ تأمليه ، الذي سنراه في جدة سنة ١٨٣٤ ، كتاب دارفيو ،
لما أدهشه ان يسمع احدى البدويات من ربات الحسن الرائع تقول انها
تؤثر حياة الفقر التي تعيشها على أية حياة قد يمنحها زواج بالغ للتوفيق
من احد ابناء المدن قد تطمح إليه ولكنها تعتبره انحطاطاً عن مقامها .
يجب ان يفهم المرء معنى ما كتبه دارفيو كي يدرك مقدار الفخار
لدى هذا الشعب .

والبدو متدينون ولا ريب ، ولكنهم يأتون في غالب الاحيان على
ذكر الله ولا يقرنون بذكره الا القليل من الدين ، لأن احداً لم
يلقنهم إياه .

ان الشعور بالشرف ، شرف الأسرة والسلالة ، هو المسيطر لديهم ،
وهم يحمون ويغارون عليه غيرة رهبة . ويلاحظ دارفيو ان الزوج ليس
المكلف بحماية شرف العرض ، إذ يكفي ان يفترق عن المرأة الآثمة .

١ - تعني كلمة عرب او اعراب في النصوص السابقة للاسلام . سكان البادية الرحل بخلاف
أبناء الحضر .

كبي يتبرأ من كل عاد . ولكن الأب ، والأخ في حال عدم وجود الأب ، هو المسؤول عن حماية هذا العرض . ويذكر الفارس دارفيو ان والدآ أحس ان ابنته قد حملت ، فجمع جميع اقربائه في مأدبة عشاء ، وأراهم عند تناول القهوة رأس ابنته التي قتلها إنقاذاً لشرف الأسرة .

لم يستطع دارفيو ان يعرف الى اية درجة يخضع البدو لقانون شرف حقيق ، مقدّر للظروف ، ينظر في قضايا السرقة ، كما ينظر في الشار والمفرو ، إذ ان ذلك كان قد استبقي لمن يأتون من بعده . ولم يلاحظ ايضاً ان الكرم الذي يظهرونه نحو الضيف لا يتأتى عن حبهم للضيافة فقط ، بل هو التزام شرف عندهم : « عندما يقوم المرء بزيارتهم بدافع من سلامة النية ، يرى لديهم اموراً تستطيع إخماع أهم اوروبية التي لا يقدر الانسان ان يعيش بينها الا بقوة المال . فالأمر عند هؤلاء البدو يختلف كل الاختلاف عما هو عليه في اوروبية ، إذ لا يكاد الإنسان يصل الى مخيمهم حتى يُستقبل في خيمة ، ولا يستطيع البدوي ان يقدم له إلا حصيرة يجلس وينام عليها ، لانه لا يملك أثاثاً أكثر إراحة وأمن منها .. ولكن لا ينقصه شيء لحسن الاستقبال ، ولتقديم جيد الطعام . ولا ينفق الضيف النازل عليهم شيئاً ، بل يحيطون خدمه ومرافقيه بمثل ما يحيطونه به من عناية ، من غير ان يكلفه كل ذلك شيئاً سوى عبارة « عوضكم الله ، يتلفظ بها وهو يودعهم لاستئناف سفره . وإذا ما رغب في المكوث بضعة ايام بين ظهرانهم كان من حقه ان يستقبل الزائرين ، ويدعى الى رحلات قنص ، ومباريات رمي الرمح في غنجات امراء آخرين ، والى أي مكان آخر يمكن ان يجد فيه ترفيحاً ، ويجد في كل مكان أناساً يحضونه الود . وعندما يريد متابعة طريقه ، ليس عليه الا امتطاء جواده ، والانصراف مع رفاقه من غير ان يتكلف شيئاً .

ومع ذلك يعيش هؤلاء الأسياد العظام الكرماء عبثة تقشف ، رغم ان هؤلاء البدو كانوا ينعمون بمخالفة الاتراك ، ويتمتعون بأشياء غير معروفة في البادية ، إذ كانت تُرى في خيمة الامير بعض النارق ، والأواني الخزفية الصينية . ولكن البدوي لا يملك إلا الحصر ينسجم عليها متوسداً حجراً . ويقوم الكلاب بحراسة الخيم ليلاً . اما الأفراس - لأن البدو يبيعون الاتراك الفحول من الخيل - فان البدو مغرمون بها ، وتعد من افراد الأسرة ، فتوقد في الخيمة حيث يُرى الاولاد نائمين منبطحين على البطون على رقبة الأفراس أو المهور من غير ان تزعجهم هذه الحيوانات ، وكأنهم لا يحسرون على التحرك خشية ان يؤذوها .

ان العرب الذين يصورهم لنا دارفيو ذور وقار ، ووزانة ، واعتدال ، كثيرو الضحك ، قليو الكلام ، يتحدثون في موضوعات شريفة ، يتلهون بالعباب جماعية كالشطرنج والدامة ، لا يلعبون قط على مال ، ولا يتحدثون عن النساء أبداً .

وترتبن النساء على هواهن : « يشمن أذرعهن بأشتات الاشكال ، يضعن الازهار على رؤوسهن ، ويصبغن أقدامهن وأيديهن صباغاً سيئاً بنوع من الحبر ديفي اللون ، ويخضبن اظافرهن بصباغ مائل الى الحمرة ، يصنعنه من تراب اخضر يدعي الحناء ، وينقطن وجوههن بنقاط زرقاء لا للتجميل فحسب ، بل لإيقاف الانظار ايضاً عند هذه النقاط لئلا يتجاوزها خبث السحرة الى اشخاصهن فيؤذيهن . »

فالبدو يخشون ، بالفعل ، عين السوء ، لذا وجب على من يكون بينهم ألا يطري أبداً جمال طفل أو حسن صحته ، لئلا يسبب له الاطراء عاهة أو مرضاً ، ولا يتحدث البدوي عن زوجته الا ويدعوها « عجوزة » ولا سيما إذا كانت شابة جميلة .

لا شك في ان طريقة الأكل لدى البدو ، وهي تبذر غريبة في عين الأوروبي ، قد أدهشت دارفيو ، فلأمير مائدة ، أعني قطعة جلد كبيرة مستديرة على الطراز التركي ، موضوعة على الأرض . ولكن البدوي العادي لا مائدة له ولا سباط . فالطعام يُقدم عند البدو العاديين في ثلاث أو أربع جفان ، وصحاف خشبية ، خشنة الصنع ، ملى بعضها لحماً وشرقا ، والبعض برغلا أو أرزاً ، والبعض الآخر أنواعاً من الاطعمة المتبلة . ويجلس البدو لتناول الطعام متعلقين ، بحيث توجه كف الواحد منهم الى صدر جاره ، وتجه الأيدي اليمنى كلها نحو الصحاف ، اما الأيدي اليسرى فتجعل الى وراء خارج الحلقة ، ولا تستعمل إلا للاستناد إليها فيما إذا تكاثرت عدد الطاعمين وازدحموا في جلستهم . يأكلون المرق أو الحساء بباطن اليد ، والبرغل والأرز بملء اليد ، ويعصرونه في راحتهم ، ويعملون منه كبة تملأ فمهم كلياً ، وإذا ما تبقى منها شيء في يدهم أو على لحيتهم نفضوه بدون تكلف . وإذا نهض احد الطاعمين حل محله احد الجالسين وراه بمن ينتظرون دورهم ، والخدم يأكلون بعد الجميع ثم يضعون الصحاف بعضها فوق بعض ويحملونها الى بيت الأمير . ويذهب الذين تناولوا الطعام فيعبون من ابريق كبير متناوين . . . ويغسلون ايديهم بالتراب والماء ، عندما لا يجدون صابوناً .

لقد ذكر دارفيو كثيراً من المعلومات عن اخلاقهم وعاداتهم ، وعن القضاء والزواج ، والطعام ، والسلاح ، والطب لديهم ، ولكن إليه يعود الفضل بالدرجة الاولى في اظهاره مزاجهم المركب الذي يدفعهم الى اعمال الغزو ولكنه يأمرهم بالجود ، والأمانة ، وكبر النفس ، والتباهي بأصلهم الذي يجعلهم ، في نظر انفسهم فوق مستوى سائر الشعوب ، ويعطيهم الحق في امتلاك اموال الغير . وهكذا خطا دارفيو الخطوة الأولى بذكاء فائق نحو معرفة الخلق العربي ، لان كل عربي حقيقي يملك خلق البدوي ، وفضائله ، وعقليته .

وقد قام القبطان بلايستد وايليوت اللذان كانا يعملان في شركة الهند في لندن ، بعد قرن من ذلك (١٧٥٧) ومن بعدهما الرحالة الانكليزي غريفيز في سنة ١٧٨٦ ، بوصف جزء آخر من البادية ، وهو الجزء الشمالي الشرقي الواقع على تخوم ما بين النهرين حيث تمر القوافل النظامية بين البصرة (على مصب دجلة والفرات) وحلب في سورية . وتعتبر الملاحظات التي دونوها من وجهة نظر علم خصائص الاجناس البشرية لا اهمية لها ، لانهم كانوا مجرد مسافرين عابرين . فاذا كان غريفيز ، قد أظهر بعض الاهتمام بالحياة في الخيمات ، وبعادات العرب اصحاب القوافل في مواقعهم من البدو الغزاة ، لم يبدِ بلايستد وايليوت تجاه اهالي تلك البقعة الا عدم الاكتراث والاحتقار ، وقد كثرت المشاجرات فيما بينها وبين من استأجروا من الاعراب ليدلوها على الطريق .

فهل يُعد موقفهم هذا جنوناً منهم ؟ ان هذا الجنون لدى الفرنسيين ، على كل حال ، لا يمكن اصلاحه كما تثبت ذلك القصة التالية التي رواها بلايستد : « ابتعد عن القافلة شاب فرنسي كان يساكنني خيمتي ، وجرى ، على ما اظن ، نحو خيام العرب مدفوعاً بدافع الفضول .. ولما لم يعد في وقت العشاء ، ظننت انه لم يبتعد عنا الا للقيام بزيارة الاوروبيين الآخرين الذين كانوا يجيئون على مقربة منا . فأرسلت من يسأل عنه لدى الهولنديين فلم يُعثر عليه . فأرسلت ثلاثة من العرب على جمال سبعة للبحث عنه ، فلم يجدوا له اثرأ . واخيراً شوهد في خيمة من خيام العشيرة التي لم تكن تبعد عنا كثيراً ، وقد احتدم النزاع بينه وبين افرادها بعد ان سلبوه كل ما كان بحمله وأوشكوا ان يقضوا على حياته . وقد عانينا صعوبة كبرى في انقاذه ، ولم يفدنا الوعيد شيئاً ، ولم تتمكن من استرجاعه الا بعد ان دفعنا فدية عنه . ولم أجسر على ان اقول له شيئاً ، لأنه كان ما يزال يعتقد انه محق وانهم مخطئون » .

ولكن هؤلاء الرحالة لم يكونوا ليهتموا بإضافة مكاسب جديدة الى

علم خصائص الاجناس البشرية (الاتنوغرافيا) بل كان كل ما يفتونه
بما كتبوه ان يستفيد من تجاربهم غيرهم من يريدون ان يسلكوا الطريق
التي سلكوها . وهكذا يقدم ايليوت هذه النصائح : « تزيوا بالزي التركي ،
وتسلحوا ببندقية وسيف ، وزوج من الطبنجات ، لتعملوا منها ما
تريدون » .

أما بلايستد فأبرع في الوصف ، وهو يعطي فكرة عن مظاهر البادية
المختلفة ، هذه البادية الرملية المليئة بالحصى في بادية الأمر ، مع بعض
الاشواك ، ثم ذات الارض الرخوة ، الاسفنجية ، المليئة بالرمال ،
وادغال الشجيرات البرية ، ثم ذات المرتفعات والمنخفضات ، مع بعض
الادغال هنا وهناك ، وتلال الرمال التي كونتها الرياح . هكذا يصف
منطقة الرمال في ضواحي تدمر .

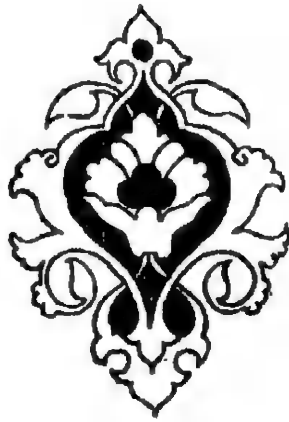
اما غريفر الذي سلك تلك الطريق من وجهة معاكسة ، فان
ملاحظاته أدق وقد عني بتدوين درجات الحرارة . وكان وآلان مزماً ان
يعطي فيما بعد ، صورة جغرافية قبة في الحقيقة .

ولكن أهم ما أضيف من المعلومات بالنسبة الى ذلك العصر ، كانت
المعلومات المتعلقة بسكان البادية ، اكثر منها بالبادية ذاتها ، التي دونها
دارفيو في شبه جزيرة سيناء .

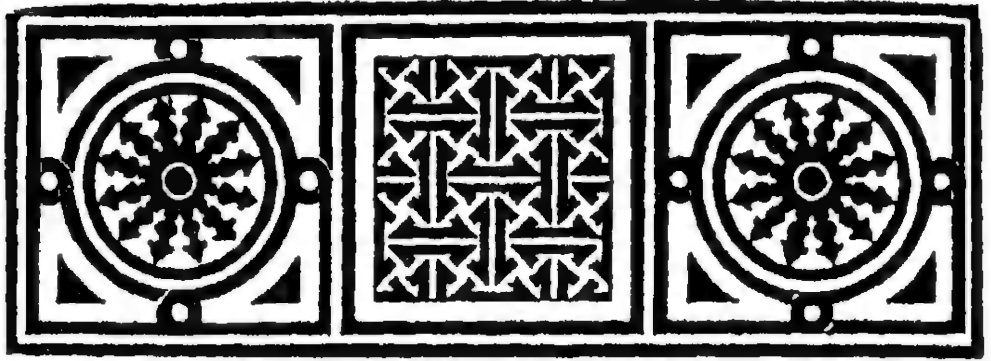
وصفوة القول ، لقد توافرت لدى الغربيين في نهاية القرن السابع
عشر معلومات اساسية ، في جميع الابواب : العربية السعيدة ، والمدن
المقدسة ، وعالم البادية . ولكن باستثناء دي فارتيا الذي كان وحده
رائداً مطلعاً ، تزيهاً ، كان الآخرون جميعاً رواد مصادفة .

ان كتابتي دي لاروك الذين يرويان قصتي رحلتي الخاطفتين ، كما
قد اخذا يتسمان بسمة النهج والاهتمام العلميين اللذين كانا مزعمين ان يجعلنا
من السفر ، اعتباراً من القرن الثامن عشر ، اوتباداً بكل ما في الكلمة
من مدلول .

ان الارتداد سيهدف ، منذ ذلك الحين ، إلا إذا كانت تقصد من ورائه أغراض سياسية ، الى زيادة المعلومات عن شبه الجزيرة العربية في باب من الابواب . ولكن لدى البعض ، لم يكن حب المغامرة ، والرغبة في رؤية ما لم يُنشر عنه شيء ، ليتغلبا عن مكانها الاول ، لأي غرض آخر . وسيعرف البعض معرفة تامة على وجه التقريب كيف يكونون رواداً ، ويظل الآخرون ، تقريباً ، مغامرين وحسب . على ان البلاد العربية كانت من الغرابة بحيث انها فرضت على كل رجل من هؤلاء المصممين على السعي وراء المعرفة ، حتى على العلماء غير المغمرين بالمخاطرة ، ضرورة العيش عبثة خطيرة .



المجلد الثالث
مولد الريادة



فجر العلم

خلال هذه القرون كانت المعارف العلمية قد نمت في أوروبا . وكان ارتياد ما وراء حدود القارة الأوروبية مزمعاً ان يغدو أخصب ، فتنير سبل الرحالين معرفة جديدة . إذ لا يكفي الانسان في الحقيقة ، المرور بـ مكان ما ، والنظر إليه ، والكتابة عنه ، ليغدو رائداً حسناً . فبقدر ما يكون الانسان مطالعاً ، يزداد فهمه لما يرى ، ويدرك مغزى ما يتعلمه . هكذا كان عمل رجال العلم مزمعاً ، طوال العصور التالية ، ان يهدي سبيل الرائدین ، ويسخر اكتشافاتهم لتزويد من يعقبونهم في مهام الارتیاد ، بالجدید من المعرفة .

. وكان العلم الذي تقدم بنسبة طردية مع الملاحاة والارتیاد ، هو بلا مشاحة علم الجغرافية ، ولا سيما علم رسم الخرائط الجغرافية .

قبل عهد فاسكو دي غاما واكتشاف الدورة حول إفريقيا عن طريق الرجاء الصالح ، لم يكن في الإمكان رسم شبه الجزيرة العربية على الخرائط العالمية الا استناداً الى معطيات بطليموس . لذا لم ترسم الخرائط المسطحة

الاولى للكرة الأرضية كخرائط فرامورد في سنة ١٤٦٠ ، وجوان دي لا كوزا في سنة ١٥٠٠ ، وكاتينيو في سنة ١٥٠٢ ، الا صورة الجزيرة العربية كما تتجلى في كتب الجغرافي اليوناني .

ولكن القراء يذكرون وصول فاسكو دي غاما الى سواحل جنوبي شبه جزيرة العرب في سنة ١٤٩٨ ، ووصول لويس دي فارتيا الى اليمن عن طريق البحر الاحمر في آن واحد على وجه التقريب . فقد مكنت المعلومات الجديدة التي زود بها العلم هذان الرحالتان رسامي الخرائط في ايامها من رسمها على خرائطها . فقد طبع راسم خرائط كبير كان يشتغل في سان ديه خريطين مسطحتين للكرة الأرضية ، احدهما سنة ١٥٠٧ والثانية سنة ١٥١٦ . ولا يُرى على الخريطة الاولى اي جديد عن شبه جزيرة العرب ، اما على الخريطة الثانية فقد ظهر تخطيط ساحلي جديد - رغم كونه مغلوطاً - واسماء مدن جديدة كصنعاء ، وتعز ، وزبيد ، والمقارنة . ولا شك في ان هذا الاسم الاخير يدلنا على المصدر الذي استقى منه راسم الخرائط هذا معلوماته الجديدة ، وهو قصة رحلة لويس دي فارتيا التي ظهرت سنة ١٥١٠ ، لأن قصر المقارنة الشهير الذي أورد وصفه لم يذكر اسمه بهذا الشكل لا في الكتب العربية ، ولا في كتب الرحالة المتخلفين عنه .

وقد أفاد والدسيمولر ، في الوقت نفسه ، من المعلومات التي أوردتها الملاحون البرتغاليون عن السواحل . فالعلم الجغرافي ، بالفعل ، مدين خلفاء فاسكو دي غاما بالشكل الجديد لوضع الخرائط ، اذ لم يهتموا بأن يرسموا على الخرائط الاماكن التي لم يحصلوا على أية معلومات عنها ، بل بتحديد خطوط السواحل قدر الامكان ، ومواقع الموانئ . وسوف تتمكن المعرفة الدقيقة بشكل السواحل من ان تنسج بفضل وضع هذه الخرائط المعروفة باسم « بورتولان » . لقد وضع برتغالي مجهول في سنة ١٥١٠ ، خريطة حفظت في دار الكتب في وولفنبوتل ، ولم تصدر عنها

نسغ جديدة الا اعتباراً من سنة ١٩٢٩ ، وقد حولت تلك الخريطة المعلومات التي حصل عليها خلفاء فاسكو دي غاما الى مخطط للمحيط الهندي والبحر الاحمر . وكان البحار البرتغالي فرانسيسكو رودريغز قد قام في الفترة الواقعة ما بين ١٥٢٤ و ١٥٣٠ برسم سواحل المحيط الهندي والشرق الاقصى .

ولكن الخريطة التي حددت بصورة نهائية شكل المحيط الهندي الغربي ، وحسنت تحسناً بيناً رسم شبه الجزيرة العربية ، والخليج العربي ، إنما هي خريطة بدرو وجورج رينل الموضوعة بين سنتي ١٥١٩ و ١٥٢١ . ويتضح ذلك بسهولة عند مقارنتها بالخرائط التي وضعت استناداً الى المعلومات المستقاة من بطليموس اليوناني .

ولكن السواحل ليست وحدها ما يجب رسمه على الخرائط . وعلى الرغم من ان خريطة الاخوين رينل منسقة تنسيقاً حسناً بالموضوعات الجديرة بالتصوير ، نراها خالية من المعلومات عن داخل البلاد .

قام جاكو بوغاستالدي في سنة ١٥٦١ بوضع خريطة انتشرت انتشاراً واسعاً ، فقد بدت فيها شبه جزيرة العرب لمن يلقى عليها اول نظرة مليئة تماماً ، ولكنها في الحقيقة تكاد تكون خالية من كل معلومات جدية . فقد ابدى آ. كامرر ملاحظة عنها فقال انها باستثناء السواحل وموانئها لا تحتوي إلا على المدينة ، ومكة ، وصنعاء ، ونجرات ، ومارب ، وشبام ، وفرنو ، وذمار ، ورضى كأسماء صحيحة ، ولكن ما تبقى فيها لا يبدو كونه من صنع الخيال . ولكننا نجد لهذا تفسيراً صحيحاً عندما نعلم ان « كتاب رحلات السيد فنان بلان الشهيرة ، الذي خدوت منه اول طبعة في سنة ١٦٤٨ » ، أورد هذه الاسماء الخيالية الى جانب الاسماء الحقيقية . وكان كل ما فعله راسم الخريطة ان اعتمد الاكتشافات ببيروجرون . وهكذا نرى الى اية درجة تخدم تقاريير

الارتداد الصحيحة المعرفة ، والى اية درجة يؤخرها ويضلها الغش حتى غير المقصود .

ولم تلبث ان عرضت خرائط منقحة لشبه الجزيرة العربية استناداً الى معلومات أدلى بها الرواد . وهكذا في وسعنا ان نجد بين محفوظات الجغرافي دانفيل المودعة في دار الكتب الوطنية في باريس خريطة من صنع الجغرافي الهولندي فان در آ ، منشورة في سنة ١٧١٣ ، رسمت عليها الطريق التي سلكها هنري ميدلتن . وقد رأينا ان لاروك حاول ان يقدم خريطة لليمن رسمت عليها الطريق التي سلكها لاغرولودير وباريه . ولكن الفضل في وضع خريطة لشبه الجزيرة العربية وهي الخريطة الاولى الصحيحة على وجه التقريب والخريطة الاولى التي تتبين فيها من اول نظرة صناعة عصرية يعود الى دانفيل جغرافي لويس الخامس عشر ، وقد اصدرها سنة ١٧٥٥ . والواقع ان القرن الثامن عشر كان قد سجل نهضة عقلية علمية جديدة .

وليس عمل دانفيل هذا بعيداً عن الاخطاء ، فقد خلا من الخليج العربي وشبه جزيرة قطر ، وخليج الكويت . ولن يدهش المرء ان يجد في داخل البلاد ، اخطاء في المواقع العرضية بالنسبة الى خط الاستواء ، ونواقص ، لأنه لم يكن اي اوروبي قد تعرف الى هذه الاماكن . ومن المدهش بالاحرى ان يكون دانفيل قد توصل الى فكرة صحيحة ولو إجمالية عن مجموعة شبه الجزيرة العربية . وما ذلك إلا لأنه أطال تمحيص قصص الرواد ، والخرائط الموضوعية سابقاً ، وكتب الجغرافيين العرب التي كانت قد اكتشفت وترجمت . كان العلم في الحقيقة قد أحرز ايضاً تقدماً في مجالات اخرى .

بينما كان البرتغاليون ، والهولنديون والانكليز ينزلون مراكزهم الى الشواطئ العربية ، كان العلماء بالآداب القديمة قد اخذوا بشعرون بفوائد الاطلاع على مؤلفات الكتاب المسلمين . فقد صدر من مطبعة آل مديشي

في سنة ١٥٩٢ مختصر كتاب جغرافي للإدريسي الذي عاش في بلاط ملك
حقلية في القرن الثاني عشر ، واستخدم مؤلفات بطليموس والمسعودي
وغيرهما من الكتاب ، وقام هو بنفسه بعدة رحلات . ولكنه كان قد
اهتم بوضع مؤلف تناول فيه البحث عن المناطق المناخية في العالم . وهكذا ،
نراه لا يتوقف عند ذكر معلومات مفصلة عن شكل البلاد . اما بالنسبة
لشبه الجزيرة العربية فهو لا يعطي سوى معلومات طوبوغرافية عامة عن
الجزأين الغربي ، والجنوبي الغربي منها ، وهو يقتبس معلومات بطليموس
فيما يتعلق بما تبقى من شبه الجزيرة العربية ، او بعض المعلومات التي وصلته
عن طريق السماع ، ولكنه لا يعرف البلاد بنفسه . فهو يتحدث عن
حضر موت في جملة ، وعن الصحراء الوسطى في جملة اخرى

قام بترجمة هذا المختصر راهبان مارونيان ، ونشر في باريس سنة ١٦١٩
تحت عنوان « جغرافية فيوبنديس » .

ان القارئ الغربي ، حين يتأمل الخرائط المرفقة بذلك الكتاب ،
ليحس وكأنه امام لوحة فنية مجردة يصعب فهمها . فقد رسمت حدود
شبه الجزيرة العربية بخط عدسي شديد التكسير ، محاط بهلال نير ، وتبدو
في المساحة المحدودة القائمة التي تمثل شبه الجزيرة خطوط مستقيمة منفصل
بعضها عن بعض متداخلة في نوع من الأقراص الملونة الكبيرة المزينة
بأسماء عربية .

إنه مفهوم " لعلم وضع الخرائط يوقعنا في حيرة ، غير ان الأطلسين «
اطلس الإدريسي الصغير في سنة ١١٩٢ واطلس الإدريسي الكبير في سنة
سنة ١١٩٤ ، عمل كبير ، يعجب المرء بقيمته ، إذا ما علم انه كان في
وسع من يتأملها في القرن الثاني عشر ان يأخذ عن شبه جزيرة العرب
الفكرة التي تعطيها عنها الخريطة التي ذكرنا ان ك . ميلر قام بنسخها
وان يتعرف فيها الى فرنسا وهي لا تفوق شبه جزيرة العرب تشويهاً .
على ان الغرب ، عندما اطلع على هذا العمل في أواخر القرن السادس

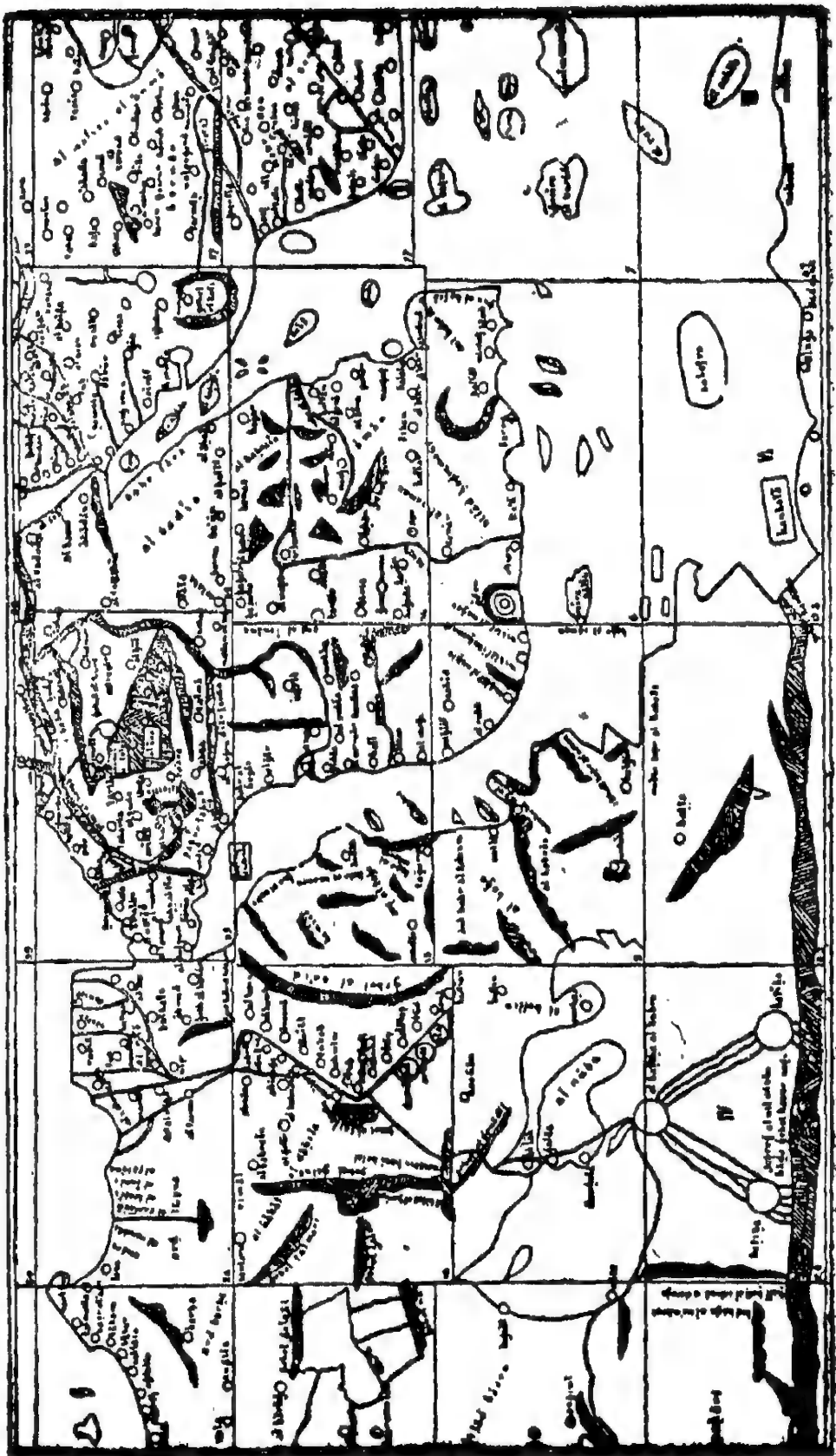
عشر كان قد رأى خرائط مسطحة للكرة الأرضية تمثل شكل السواحل الحقيقي،
وهيئة الأراضي . ولم يكن قد تبقي الا التقاط معلومات عن داخل شبه
الجزيرة العربية . فعدا عمل الإدريسي ، والحالة هذه ، لا يعطي الا
شيئاً قليلاً .

وقد كان لمؤلف الجغرافي المسلم المعروف بأبي الفداء (١٢٧١ - ١٣٣١)
فوائد أعم . ولكنه ، هو بدوره ، لم يكن يعرف من شبه الجزيرة
العربية الا طريق الحج ، ولا يعطي الا معلومات عامة جداً عن الجزأين
الغربي والجنوبي الغربي منها .

وكان لاروك اول من أصدر ، عقب صدور قصة دارفيو ، ترجمة
فرنسية لكتاب أبي الفداء المعروف « وصف شبه جزيرة العرب » في
سنة ١٧١٧ ، ولكن ترجمة لاتينية عنه كانت قد صدرت في لندن منذ
سنة ١٦٥٠ .

ولا يكتب ابو الفداء بدوره ، في علم الجغرافية ، على الطريقة
الاوربية . فهو يقوم بدراسة اشتقاق اسماء الاماكن ، ويضع لوائح
باسماء المدن والمقاطعات ، مورداً عنها المعلومات التي تمكن من جمعها ،
فيسرد أبياتاً شعرية ، وروايات تناقلها الناس ، ويذكر المسافات بين
نقطة وأخرى عندما يمكنه ذلك مقدراً إياها بمسيرة أيام .

ها هي ذي مثلاً إحدى اللغات الأشد طولاً « اللمة الخاصة بالحيجر ،
حيث رأى دي فارتيا خرائب مدن حلت عليها اللمة » وقد حاول غيره
من الرواد الوصول إليها في مطلع القرن التاسع عشر ، يقول ابو الفداء
ان الحجر تقع استناداً الى ابن حوقل في الجبال التي تبعد مسيرة يوم
واحد عن وادي القرى ، ويضيف ان ذلك ليس صحيحاً ، وانه يعرف
ان المسافة تتجاوز مسيرة خمسة أيام ، ويقول ان منطقة حجر كانت
تسكنها قبيلة ثمود التي قال الله عنها : « وعود الذين جاؤوا الصخر
بالواد ، وفرعون ذي الأوتاد » الذين طغوا في البلاد ، فأكثروا فيها



الفساد ، فصب عليهم ربك سوط عذاب ، ، ويضيف انه رأى جبلاً
وفيها مغاور ومياه ، وهذا ايضاً ما عبر الله عنه بهذه الكلمات :
« وتحتون من الجبال بيوتاً فارحين ، . تسمى هذه الجبال « الأثاب »
ويتوقف فيها الحجاج من سورية وهم في طريقهم الى مكة ، ويقال ان
النبي قد حرم شرب مياه هذه الجبال .

اما عن موقع منطقة كبيرة كالدهناء فيكتفي بأن يقول انها ارض
متراصة الأطراف تبدأ من بلاد نجد ، وتمتد حتى منطقة عشيرة نيم .
ومن المفهوم ان دانفيل ، الذي عني بالإفادة من هذه الاشارات ، لم
يتوصل الى تعيين موقع المنطقة بدقة تامة . ويبلغ أبو الفداء الذي يكتب
على هواه ، في عدم الدقة احياناً ، درجة الخطأ ، وهكذا يقول : وتقع
في بلاد اليمن ايضاً حضرموت البلاد المزدهرة التي يقيم فيها ابناء قبيلة
ثمود ، وهي تبعد عن الشمر مسيرة اربعة ايام .

والمعروف ان حضرموت ليست في بلاد اليمن^١ . ويمكننا إدراك خطأ
هذه اللبسة القادح عندما تتبع فون وريده الى قلب هذه البلاد كما سنرى
في الفصل الاخير من هذا الكتاب . ولن يدهشنا بعد ذلك ان يكون
دانفيل قد أغفل في خريطته ذكر شبكة الطرق ما بين الأودية الثلاثة
التي تؤلف وسط هذه المنطقة . .

ويخضع احياناً أبو الفداء الذي يعتمد الى مجرد ترتيب المعلومات تحت
اسماء الاماكن ، بنشابه ألفاظ الاسماء فتحت اسم « شبام » بخلط المعلومات
المعطاة عن شبام اليمن بالمعلومات عن شبام حضرموت . ونحن نشمر بهذا
الخلط اليوم ، لكن دانفيل ومعاصريه لم يكن في وسعهم تقادي الوقوع
في مثل ذلك الخطأ . واليك ما كتبه أبو الفداء : شبام احد جبال

١ - جغرافيتو العرب القدماء ، يدون حضرموت جزءاً من اليمن الذي يتد من
جبال الحجاز جنوباً ، حتى عمان شرقاً .

لليمن الشهيرة ، وقد شيدت عليه قلعة . وشبام مثل عاصمة بلاد حضرموت
بينها وبين صنعاء واحد وستون فرسغاً ، واحدى عشرة محطة ، ومحطة
واحدة بين شبام وذمار .

ويبدو أن هذا الخلط هو الذي دفعه الى ان يضع حضرموت في
بلاد اليمن .

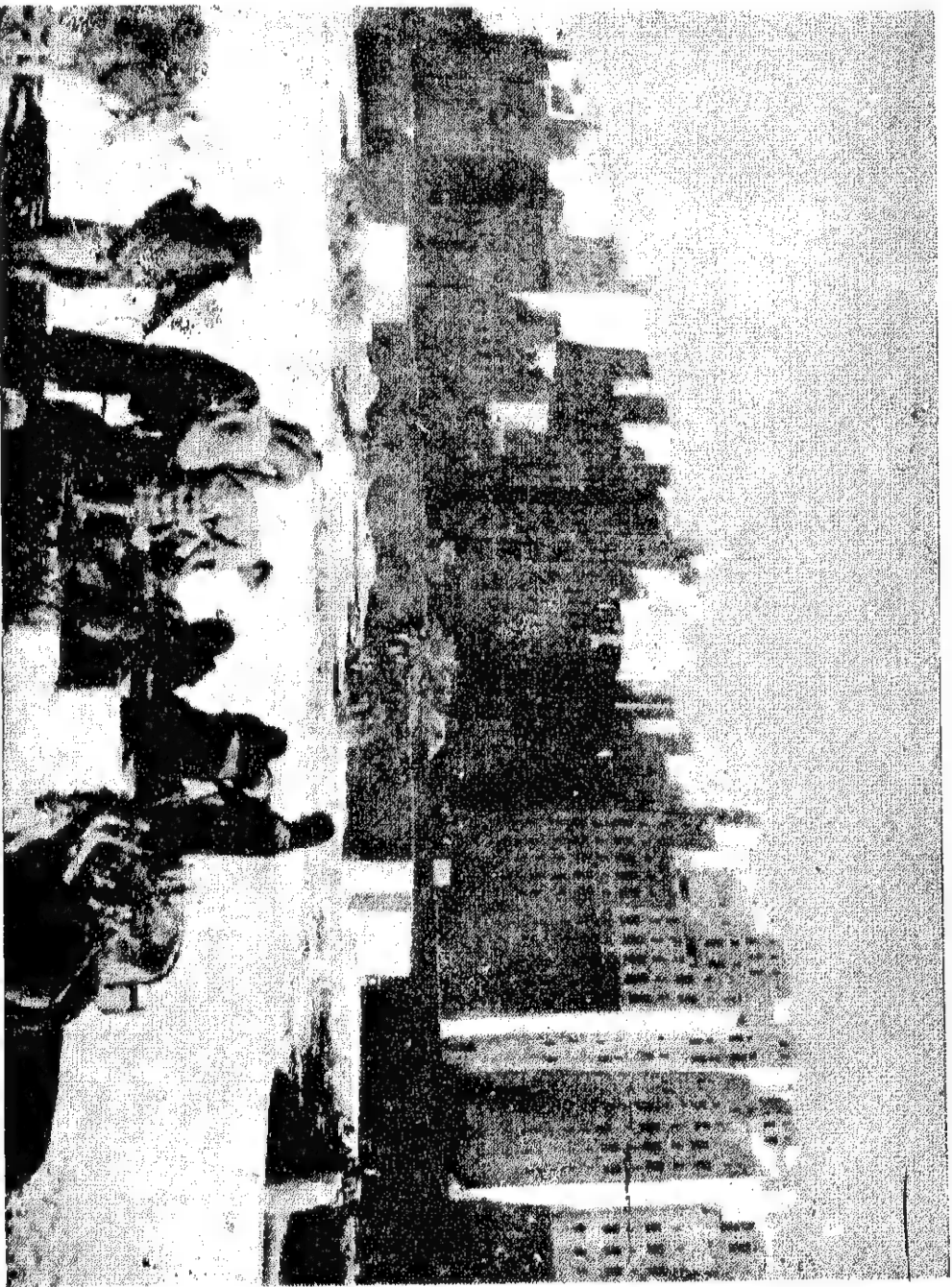
وهكذا يتضح ان لمحات ابي الفداء الاثنتين والاربعين الخاصة بالاماكن
الواقعة في شبه الجزيرة العربية ، ليس من السهل الاستعانة بها لوضع
خريطة .

*

كان من المقدر للعناية الموجهة الى الكتب العربية ان تنمو شيئاً
فشيئاً ، وإننا لمدينون للمستشرق الفرنسي الكبير دهربلوت بكونه اول
من قام بمحاولة نشر إجمالي للكتب الاسلامية ، فقد أورد في مؤلفه
المعروف « بالمكتبة الشرقية » مقتطفات من ياقوت وابن خلدون وحاجي
خليفة^١ . ولكن حركة الدراسات العربية التي نشطت في القرن التاسع
عشر ، هي التي كانت الدافع الى نشر جميع كتب هؤلاء المؤلفين وغيرهم
من الجغرافيين المسلمين كالاصطفري ، والمقدسي ، وابن بطوطة ، وترجمتها .
على ان الغرب كان قد توغل بعيداً في ارتياد شبه الجزيرة العربية نفسها ،
فقدت المعلومات المعطاة في كتب هؤلاء المؤلفين القدماء ، عديمة النفع
تقريباً بالنسبة إليه .

منذ النهضة التي دفع فيها ابرامم بالغرب الى الامام ، بانشائه في
جامعة لوفان « كلية اللغات الثلاث : اللاتينية واليونانية والعبرية » ،

١ - حاجي خليفة هو مؤلف كتاب « كشف الظنون في اسامي الكتب
والفنون » .



•
 بلدة شام
 في وادي
 حفروت
 (تصوير :
 • • فون
 ويساك) .

كانت دراسة اللغات السامية قد تقدمت تقدماً محسوساً . وكانت الابحاث في نصوص التوراة تقتضي معرفة اللغة العبرية ، وكانت في اسبانية التي خضعت زمناً طويلاً لحكم المسلمين ، عدد كبير من الاساتذة في اللغة العربية . وقد اكتشفت الفائدة الكامنة في مقارنة ألفاظ من لغات سامية مختلفة بعضها ببعض تربط بينها قرابة ، كالقاربة الموجودة بين اللغتين الايطالية والفرنسية من اصل اللغات الرومانية . إذ كان من المحتمل ان تلقى هذه المقارنة ضوءاً على معاني ألفاظها وعلى فهم قواعدها . وكان مزماً ان يولد علم اللغات المقارن للغات السامية في مطلع القرن الثامن عشر .

كان العالم الايرلندي ادورد بوكوك قد انكب على كتابة تاريخ العرب حسباً كان يمكن استنتاجه من المصادر الادبية . وقد اصبح كتابه المعروف « نموذج من تاريخ العرب » ، الذي صدر في سنة ١٦٥٠ حجة بحيث ان ص دي سامي كان سيهتم بإعادة طبعه في مطلع القرن التاسع عشر .

ولكن الناس كانوا قد اخذوا يشعرون بحاجة الى نهج تاريخي موضوعي ، مؤسس على استعمال الوثائق الحطية الباقية من العصور السالفة ، لذلك لم تكن الجهود تبذل لقراءة المخطوطات العربية فحسب ، بل لقراءة الكتابات المنقوشة على الحجارة في اوائل الاسلام . وسنرى ان علماء أوروبا ، سيتمكنون ، في القرن الثامن عشر ، من قراءة الكتابات الاثرية بالخط الكوفي الذي كان مثقفو اليمن قد عجزوا عن ترجمته .

وكانت دراسة وثائق الماضي الاصلية قد اعتبرت في ذلك العصر أمراً أساسياً الى درجة انه اسس في باريس في عام ١٦٦٣ مع الاكاديمية الفرنسية ، واكاديمية العلوم ، اكااديمية للآداب والمخطوط الاثرية ، لم تول موجوده في مؤسسة المجمع العلمي الفرنسي حتى يومنا هذا .

واخيراً كان قد اخذ الناس يلغنون على طلب الموضوعية العلمية فيما يختص بمعرفة الناس ، والبلدان ، والحضارات العربية ، فقد زحرت صدور اصحاب العقول النيرة في القرن الثامن عشر ، الذين أطلق عليهم آتئذ اسم « فلاسفة » وصدور واضعي الموسوعات غير الضالين في تيه الجدل الديني المخالف لروح التسامح الذي كانوا يعطون التعلي به ، برغبة جديدة واعية ، في معرفة اخلاق الشعوب النائية وشؤونها . وكان التسامح ضماناً للفهم السليم لعقليات تختلف عن عقليتهم .

ان العلماء ، سواء منهم الجغرافيون ، وعلماء اللغات ، والمؤرخون ، والفلاسفة ، أو أساتذة العلوم الطبيعية ، قد شعروا برغبة ملحة في أن يدرسوا في كل البلدان غير المعروفة جيداً ما تستطيع هذه البلدان ان تعلمهم اياه .

هكذا ولدت الرغبة العلمية الحارة ، القادرة على دفع العلماء الى القيام بأخطر المغامرات ، وكانت مزمنة منذ ذلك الحين على أن توقد نارها في اقنعة ابطالها ، وفي صدور شهدائها في بعض الاحيان .

وفيما يختص بشبه الجزيرة العربية ، فكر ميخائيلس استاذ علم اللغات في جامعة غوتنجن ، في ان يقترح ارسال بعثة علمية الى هذه البلاد . فتحدث في ذلك الى احد وزراء فريدريك الخامس ملك الدانمارك . وقد لقي هذا الاقتراح قبولاً حماسياً لدى الملك الذي عين خمسة علماء للقيام بهذه المهمة ، وأصدر تعليماته بشأن اولئك الرواد ، ونشر في الوقت ذاته لائحة بالأسئلة والمعضلات التي اقترح عليهم ميخائيلس السمي للاجابة عليها وايضاها ، وطلب الى العلماء الاجانب ان يضيفوا إليها أسئلتهم ، وقد تلقت البعثة من هؤلاء العلماء اسئلة عديدة قبل سفرها ، وكان أبرزها كما يذكر نيور اسئلة الجمعية الملكية الفرنسية للآداب والخطوط الاثرية ، ولم تترك البعثة الاسئلة التي ارسلها الانكليز إليها إلا

في بومباي . وكانت هذه الاسئلة تتعلق بعلم اللغات ، والجغرافية ،
والعلوم الطبيعية ، والطب ، والدين ، والاجتماع ، والقضاء ، والعادات .

وهكذا ركب البحر في كانون الثاني (يناير) من سنة ١٧٦١ ،
باتجاه اليمن خمسة مندوبين من علماء أوروبا ، عهد إليهم بمجموع رغبات هذه
القارة المختلفة في المعرفة ، وزودوا بكل المعلومات والمعارف التي كانت
قد اكتسبت حتى ذلك الحين : « قصص الرحالة » (ولا سيما دي فارتينا
ودي لاروك) وكتاب ابي الفداء باللغة العربية ، وخريطة دانفيل .





كارستن نيبور

النموذج الكامل للرائد العالم ذي النزعة الإنسانية

وصل أعضاء البعثة العلمية التي أرسلها ملك الدانمارك الى مرفأ القنفذة العربي الصغير في التاسع والعشرين من شهر تشرين الاول (اكتوبر) من سنة ١٧٦٢ وكانوا خمسة : الاستاذ فردريك فون هافن الاخصائي في اللغات الشرقية ، والاستاذ بيتر فورسكال الاسوجي المولد وتلميذ عالم النباتات الكبير لينه ، المكلف بتدوين الملاحظات الخاصة بعلم الحيوان ، وجورج غيوم بوردنفايد الفنان المكلف بتصوير الناذج التي يجمعها علماء العلوم الطبيعية ، والمناظر الطبيعية ، والملابس ، واخيراً كارستن نيبور المهندس المكلف بتدوين المعلومات الجغرافية ، ومعهم احد خدم الملك الاسوجي . وشاءت الاقدار ألا يعود من هؤلاء الرجال الستة الذين نزلوا الى البر العربي في ذلك اليوم من تشرين الاول (اكتوبر) من سنة ١٧٦٢ إلا رجل واحد ، هو نيبور ، رغم ان أية فاجعة لم تكن سبباً لذلك . وقد كان رأي نيبور الذي بقي على قيد الحياة ان الاجهاد الذي سبب الموت لرفاقه كان ناتجاً عن تسرعهم المفرط في رؤية البلاد ، دون ان



کارستن نیور

تدفعهم الحرارة المحرقة عن ذلك ، فتمرضوا لتعب مضن . اخف الى ذلك ، انهم لم يعتقدوا ان من الواجب عليهم اقتباس غط المبيشة اليمنية ، بل ظلوا ، في مجتمعهم الصغير ، محتفظين بعاداتهم الاوروبية ، يتناولون كثيراً من اللحوم ، ويستمتعون طويلاً بهواء الليل البارد ، ولا يحتاجون للاختلاف الشديد ما بين مناخ الليل ومناخ النهار ، ولا يحتاجون من ندى الصباح الذي كان العرب يحتاجون منه ، فلا ينامون بدون غطاء . ولما ظل نييور وحده ، قرر ان يتعود طريقة المعيشة الشرقية ، وذلك ما اكبه صحة ممتازة . وبعمله هذا لم يعد يلاقي أية صعوبة مع سكان هذه البلاد . ان هذا الدرس جدير بأن يحفظ وكذلك بجمل السلوك الذي سلكه .

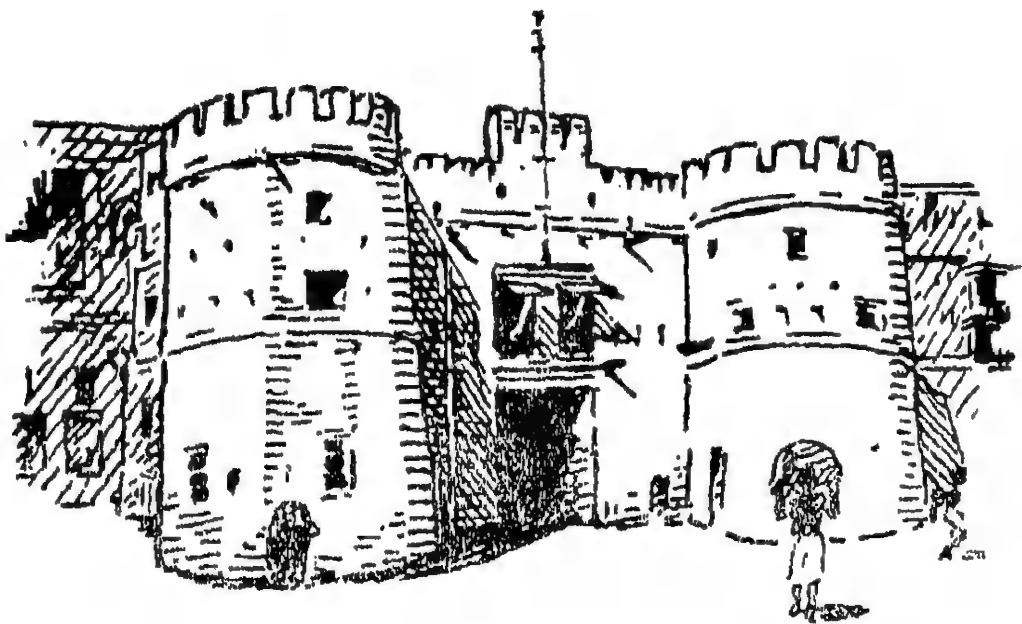
لم يحس بأي شعور من التعالي والازدراء تجاه اهالي البلاد ، وعرف كيف يؤدي واجب الاجلال للملك اليين كأنه ملك بلاده ، ولا شك في ان لاغرو لوديير وباريه كانا قد سلكا هذا السلوك ذاته . على ان نييور تجاوز الحد في سلوكه بالنسبة الى الاهلين واستحق بذلك اللثناء . فقد ذكر ان السكان كانوا يسيبون لهم كدراً في غالب الاحيان ، ولكنه قبل ان يحكم عليهم ، ويشعر بالاهانة من أي شيء ، توسل كل ذكاته لفهم هؤلاء الناس . وهكذا لا يلبث ان يقول مدققاً : « لقد اعتقدنا أننا مصيبون في التذمر من مضايقتهم بسبب عدم معرفة البلاد وسكانها ، وغاب عن بالنا ان الانسان لا يمكن ان يسافر نحتي في بلاده دون ان يلاقي ازعاجاً . فاذا كان هناك من حاول سرقة في بعض النزل الخاصة بالمسافرين ، وإذا كان رجال الجمارك قد أظهرنا استبداداً ، ألا يمكن ان يحدث مثل ذلك في أوروبا ؟ »

ويثور نييور على الرأي المتسرع الذي كوّنه مواطنوه عن العرب ، فقد أدرك ، وكان قد أفاد من مطالعة كتاب دارفيو ، ان في شبه الجزيرة العربية لصوصاً ، كما هي الحال في جميع بلدان العالم ، ولكنهم اكثر

لصوص العالم قديماً ، لأنهم عوضاً عن ان يجذوا حذر اللصوص في تركية
 الاوروبية الذين يقتلون من يريدون سلبهم ، لا يقدمون ، الا فيما ندر ،
 على قتل من يسلبونهم ، إلا إذا أبدوا مقاومة شديدة او جرحوا احدهم ،
 حتى انهم يقومون بإضافة بعض من يسلبونهم ، والإحسان اليهم ، فيردون
 إليهم بعض المأكولات والثياب العتيقة ، ويرافقونهم في بعض الأحيان
 خوفاً من ان يلقوا حتفهم في الصحراء . « ويضيف الى هذا قوله : « ان
 من الخطأ اطلاق اسم عصابة من اللصوص على هؤلاء القوم الذين يرأسهم
 مثل هؤلاء الشيوخ العظام ، الذين يعتبرون اسياداً لا منازع لهم على
 الصحراء ، والذين لهم كل الحق في التصدي لمن يريدون ان يشقوا لأنفسهم
 طريقاً في اراضيهم بالقوة ، والذين يعتقدون اعتقاداً راسخاً بأن لهم الحق
 في تلقي الهدايا ورسم المرور والرسوم الجمركية مثل سائر الشعوب التي
 تقرض رسوماً جمركية على المسافرين والبضائع »

وهو لم يلمس لدى الناس الذين التقى بهم عداوة تجاه الاوروبيين
 فقال : « ان سكان اليمن مهذبون ازاء الاجانب ، وفي وسع الانسان ان
 يسافر في امباطورية الإمام حراً ، آمناً كما يفعل في اوروبا . ولكن يجب
 على الاوروبيين ألا يمسوا إحساس سكان البلاد . وفي الامكان ، بسهولة
 تامة ، اكتساب صداقة السكان بإطلاعهم على المعارف ، لأن العرب
 بعكس الاتراك ، لا ينجحون التعلم من الاوروبيين . يجب على المسافرين
 يتجنب انتقاد ما لا يعجبهم ، مع العلم انه يجب ألا يتوسل الخداع
 لاستمالة العرب ، لأنهم يحبون الصدق ، وهم يعرفون انهم لا يخلون من
 النقائص ، ولكنهم لا يريدون ان يهزأ الغير من نقائصهم هذه ، وهو
 يظهرهم ولديهم هذه العادة التي لا وجود لها في أمم اوروبا وهي
 « محاولة مساعدة الاجنبي الذي يريد تعلم لغتهم ، وعدم السماح لأنفسهم
 بالسخرية منه إذا اخطأ التعبير » .

واخيراً يجذونا نيبور من اعتبار الرحلة الى شبه الجزيرة العربية ، رحلة



باب قديم في الحديدية

لهو ومتعة : « فالشبان الذين يحبون الرفاهية ، والموائد الشهية ، ومعاشرة النساء يجب ألا يذهبوا الى بلاد العرب ، يجب ان يكون معلوماً انه إذا كان هنالك كثيرون من العرب يتناولون المأكـل الشهية ، فعلى المسافر ان يكتفي بالحلـول في الخـان حيث يعد طعامه بنفسه ، وان يحمل فراشه ، وأدوات المطبخ الخاصة به ، ان من أراد ان يجاري سكان البلاد في عبثـة الرفاهية التي يجيئونها ، تعرض لنفقات باهظة ، اما معاشرة النساء فهي بمنوعة بتاتاً . »

*

ان يحمل هذا الموقف إزاء الاجنبي ، مهما كان الاجنبي شديد الغرابة ، لأحسن ما حققته النزعة الانسانية في القرن الثامن عشر ، فروسو يبذل جهداً لتفهم « المتوحشين » الى درجة يحاول إيجاد تبرير لأعمالهم ، ومونتسكيو يصب جام غضبه على رؤوس الناس الحدودي العقول الذين

كانوا يتساءلون : هل يمكن للمرء ان يكون فارسياً ؟ لقد اصبح مقرواً ان العادات هي التي تميز الشعوب بعضها عن بعض ، وليس على المرء إلا ان يفهم هذه العادات ليجد في كل اجنبي رجلاً له فضائله ونقائصه ، وربما اخطاؤه ، ولكن على كل حال له شرفه وكرامته اللذان يجب ان يكونا محترمين .

ليست تلك النزعة شبيهة بأخوة اليوم ، التي يقتضي ترسيخها شيئاً من المحبة وفي بعض الاحيان شيئاً من نقيضها : البغض . وانما هي اخوة مؤسسة على الوعي ، والعقل النير ، والافتناع بأن في كل انسان قيمة وكرامة انسانية يكفي المرء ان يحسن تبينها . وهذا هو موقف نيبور . كان الاختبار سيرهن على ان ذلك السلوك هو السلوك الأنجع لبلوغ الهدف والحصول على المعارف . وقد تقلد اعضاء البعثة بهذا السلوك ماثقاق وتعاون في بادىء الامر . فتوجه العلماء الخمسة من القنفذة الى الشعبة ، وكانوا يقولون فيما بينهم انهم في طريقهم الى الهند ، ولكنهم اخذوا يتجولون في الاماكن المجاورة لها . كأنهم تلامذة يقومون بنزهة عوضاً عن الذهاب الى المدرسة . فذهبوا بادىء ذي بدء الى بيت الفقيه ، سوق البن الكبيرة . وعندما رأوا ان سفرهم لا يثير اية صعوبة ، طابت لهم المغامرة فذهب كل منهم الى جهة . ففقد فورسكال الجبال بحثاً عن النباتات ، وقرر نيبور اتياد المنطقة الساحلية ، منطقة تهامة المنخفضة ، الشديدة الحرارة . وأوغل الآخرون في الجبل حتى تعز وزيد . وعند ابتداء فصل الصيف اجتمعوا في بيت الفقيه ثانية وعادوا منها الى الحجاز .

هناك اعترضتهم متاعب شديدة في الجمر . فلدى تفتيش امتعتهم وجد معهم أفاعٍ محفوظة في آنية مليئة بالكحول « فاتهموا بأنهم يريدون إسكار الناس وتسميمهم » واحتجزت امتعتهم في دائرة الجمر ، وألقي الى الشارع ما كان في مسكنهم من كتب وأوراق ولم يتمكنوا من الحصول على مسكن آخر . واخيراً تبرع احد ابنا المدينة ، لحسن حظهم ، بقبولهم

في منزله ، وعرض عليهم تاجر انكليزي مساعدته . واخذ الحاكم يشعر
نحوم شعوراً افضل من ذي قبل حين عالج الدكتور كامر رجله وتمكن
من شفاها .

على ان الحرارة المؤذية في المنطقة المنخفضة كانت قد أثرت في صحتهم جميعاً
تأثيراً سيئاً . فكان فون هافن أول من توفي منهم ، عندئذ قرروا ان
يرحلوا من النجا الى تعز ، انتجاعاً لمناخها الجبلي الأكثر ملاءمة للصحة .
وبما ان سكان تعز لم يظهروا لهم من الاعتبار مثل ما لقوه من سكان
النجا ، حيث كان الناس قد اعتادوا رؤية الاجانب ، استعدوا للعودة الى
النجا ، ولكنهم تلقوا دعوة من الإمام لزيارته في صنعاء وانجبروا
نظرها .

ولم يكونوا قد قطعوا نصف المسافة حين اضطروا الى التوقف في
بريم لتؤدي صحة فورسكال ، الذي لم يلبث ان فارق الحياة بعد بضعة ايام .
فاستأنفت الجماعة التي قل عددها ، السير في طريق صنعاء مروراً بدمار ،
والحدفة ، فوصلوها في السادس عشر من شهر تموز (يوليو) .
استقبلهم الإمام باللطف الذي استقبل به سلفه الفرنسيين . فتمكنوا
من ان يقوموا بالزيارات التي أرادوها ، وعنوا بصورة خاصة بالجالية
اليهودية في العاصمة .

ولكنهم سلكوا طريق العودة بعد انقضاء عشرة ايام على وصولهم
لشعورهم بالإعياء ، مارين بيت الفقيه وزيد الى النجا . وقد وافق تاجر
انكليزي على إيصالهم الى بلاد الهند على ظهر مركبه . فتوفي بورنغانيد
والخادم في اثناء الرحلة ، ثم توفي كامر بعد وصول المركب الى بلاد
الهند بأيام قلائل ، وبقي نيور وحده في قيد الحياة .

*

قرر نيور العودة الى شبه الجزيرة العربية لانعام مهيته ، وتوجه في



مشهد من جبل اللين في اليمن ، من كتاب رحلة نيور عام ١٧٦٥ .

هذه المرة الى عمان ، وبلغ مسقط في شهر كانون الثاني (يناير) من سنة ١٧٦٥ . وعوضاً عن ان يطيل البقاء في هذه المقاطعة لزيارة جميع المحام ، قرر اتباع التعليمات التي كان قد أصدرها إليهم الملك عند خروجهم من بلاد الدانمارك ، والقاضية بعودتهم عن طريق بلاد القرس ، وبين النهرين ، وقبرص ، وآسية الصغرى .

وقد نشرت قصة هذه الرحلات باللغة الالمانية في سنة ١٧٧٢ ، وباللغة الفرنسية في السنة التالية ، ولكن بالنظر الى ان هذه الطبعة اعتبرت ناقصة ، اتبعت في سنة ١٧٧٩ بطبعة ثانية مراجعة ومنقحة^١ . وظهرت عنها ترجمة باللغة الانكليزية في سنة ١٧٩٢ ، ثم صدرت منها طبعة نهائية الشكل في الالمانية سنة ١٨٣٧ . وقد نشر نيور ملاحظات فورسكال عن انواع النباتات والحيوان على حدة في سنة ١٧٧٥ .

عوضاً عن السنوات الثلاث التي كان الملك قد حددتها لتقصيها البعثة في رحلتها ، لم يمكث نيور في شبه الجزيرة العربية سوى اثني عشر شهراً . ولم يزر إلا جزءاً يسيراً منها ، وكان الجزء الذي يعرفه الاوربيون اكثر من غيره ، وهو موطن البن من المحا الى صنعاء .

ومع ذلك ، وهذا ما سيتيح لنا قياس فعالية طريقته ، زادت هذه الرحلة التي لم يشعر بها الناس آنشد ، في المعلومات عن شبه الجزيرة العربية زيادة عظيمة لا بكية المعلومات فماسب بل بنوعيتها ايضاً .

ان رؤية الأشياء والمروور بها ليس بالأمر الهام ، ولا يمكن التعلم منها ، الا اذا تأملها المرء ملقياً على نفسه الأسئلة ، مدركاً الفوائد التي يمكن ان تكون لها من وجهة النظر هذه أو تلك . وقد رأينا ان هؤلاء العلماء قاموا برحلتهم مزودين بأسئلة الملك ، والجمعيات العلمية ، ولم يكن أي شيء

١ - رجعتنا الى هذا الكتاب للتوسع في هذا الفصل بالاضافة الى ما اقتبست المؤلفة منه .

فأنسب منها لمساعدتهم على الملاحظة . وإذا كانت المعلومات التي جمعت تشمل
هذلك العدد الكبير من الموضوعات المختلفة ، من بعض التوضيحات عن مقاطع
وردت في التوراة ، او عن بعض الألفاظ العبرية ، الى تجهيز الجمل ، إلى
الرياح الصحراوية ، فالجراد ، فالأمراض ، فالقضاء ، فالفضل في ذلك يرجع
إلى وعي الاهتمام الذي اثارته في عقولهم الاسئلة المطروحة ، حول
كل شيء .

على انه كان لا بد ، جواباً على تلك الرغبة الحارة الواسعة المدى ،
من جمع معلومات صحيحة قدر الامكان . وقد أحسن نيبور القيام بذلك
بشكل يثير الإعجاب .

لقد كان نيبور يسافر راكباً حملاً كسافر عادي ، ومتزياً بالزي
التركي من عمامة الى رداء بدون اكمام فوق قميص من الكتان الى زوج
من البوابيج . وكان يستخدم سجادة صغيرة كبودعة لحماره ، وسفرة
لطعامه ، وفراشاً لنومه ، ويحمل معه معطفاً يتغطى به ليلاً ، وقربة ماء ،
وآلات للقياس : كالبوصلة ، والساعة ، وربع الدائرة الخاصة بعلم الفلك
التي كان قد صنعها استاذ من غوتنجن ، والمنظار لمراقبة الكواكب ، وبعض
الكتب . وكان قد تعود الاستغناء عن كل رفاهية ، وأكل الخبز الرديء .
بهذا الزي لم يكن يلفت الأنظار اليه ، ولم يكن يحاول مقابلة
الشخصيات الهامة اذ كان قد شعر ان هؤلاء لا يعرفون عادة إلا الشيء
القليل ، ولا يكلفون أنفسهم عناء تلقينهم رجلاً أجنبياً . كان يتكلم من
العربية ما فيه الكفاية ، فقد بدأ يتعلمها قبل قيامه بالرحلة واتفق منذ
وصوله مع رجل ماروني كان يتكلم الايطالية ، على أن يعلمه لغة البلاد العامة .
وكان يبذل جهوده للتعرف إلى التجار ، أو العلماء ، أو أي شخص سواء
أكان يهودياً أم بدوياً أم اوروبياً مارقاً من دينه ، شريطة أن يكون
قادراً على الاجابة على اسئلته ، فان لديه من الاسئلة ما يستطيع أن يلقبه
حول كل شيء ، وكان باستطاعة كل انسان ان ينيره عن أمر من الأمور



أعرابي في ملابس الرجال التقليدية في اليمن ، من كتاب رحلة ايور عام ١٧٦٥

فكان يسأل الحاخام عن الكلمات العبرانية ، والفقيه العربي عن الشريعة الإسلامية ، وأي انسان كان ، عن الأماكن والعادات ، والأمور المختلفة . وقد علم كيف يستفيد من المعرفة التي كان قد جمعها رجل هولندي اعتنق للإسلام ، وأولع بتاريخ الامراء الحاكمين وقضى بضع سنوات في إعدادة . لم يكن يحسن الاستفهام عن رويّة فحسب ، بل كان يغربل المعلومات التي يحصل عليها بغربال عقل نقاد . وكان يلقي الأسئلة ذاتها على عدة أشخاص ، قدر ما يستطيع ، فيتمكن من مراقبة أصلح الأجوبة والحكم عليها . وعندما لا يتمكن من التثبت من صحة رواية ما ، كان ينقلها على علائها ، منبهاً القارئ الى أنه تركها لحكمه . وهكذا كانت المعلومات التي يحصل عليها دقيقة بمتازة .



عندما يقرأ الانسان وصف نيبور لنسب الجزيرة العربية ، يطلع على الكثير من شؤون العرب ، طبقاتهم الاجتماعية ، وسلاسل الانساب ، وطبقة الأشراف ، والدين ، والخلافات المذهبية القائمة بين الفرق الإسلامية المختلفة : السنية ، والشيعة ، والزيدية ، والتأثر للدم ، والاجراءات القانونية الصحيحة للتأثر الذي يسبب الكثير من النزاع الدامي بين العشائر . ويطلع على عادات المأكل ، والمسكن ، والاستقبال ، والتحية ، والملبس ، والزواج ، والحصاء ، والختانة ، وعلى سير الشعراء والخطباء ذوي الشأن العظيم لدى العرب ، ويحصل على معلومات عن المدارس والجامعات القرآنية ، وعلم تاريخ الأحداث عند العرب ، والفلك ، وعلوم السحر والتنجيم ، وعن عادات الدارويش الشديدة الغرابة ، والطب ، والأمراض ، وقد استعمل الملاحظات التي دونها زملاؤه فبحث في منتوجات الجزيرة العربية وللمعادن والحجارة الكريمة ، وفي الأشجار والنباتات ، والزراعة ، والحيوانات . وبما أن مخطوطات عربية عرضت عليه فقد لهنم بوضع لائحة مقارنة بين مختلف أنواع الخطوط . ولهنم بإظهار جميع الكتابات التي شاهدها على الحفاوة

بالخط الكوفي ناقلاً عنها صورة طبق الأصل ، وكذلك فعل بالنسبة إلى
التقود .

على ان مهمته الأساسية كانت الجغرافية . ومن البدهي أنه لم يستطع
رسم خارطة كاملة لشبه الجزيرة العربية ، إذ أنه لم يتجول فيها كلها
مستعملاً أدوات القياس ، ولكنه رسم خرائط خاصة بكل منطقة زارها
أدخلت تحسيناً كلياً على المعلومات التي كانت قد جمعت حتى ذلك الحين .
على الرغم من أنه لم يصحح كل الأخطاء التي وردت في خارطة دانفيل .
وعلى الرغم من أنه لم يتمكن من رسم خارطة كاملة لشبه الجزيرة
العربية بذل قصارى جهده في جمع المعلومات عن طبيعة مناطقها المختلفة ،
وكان أول من وصفها للقراء الأوروبيين .

ولا شك في أنه عرف اليمن أكثر من غيرها . فقد أظهرها بمناطقها
المزروعة ، والفقيرة ، ودساكرها وأسواقها ، وقلاعها ، وقراها الزراعية .
ففي لغة الشعراء تختصر أربع مدن تاريخ الحضارة اليمنية وهي صنعاء
الملقبة بالمدينة ، وتغز المعروفة بالروضة لاستنادها إلى جبل صَبِير الذي تعد
سفوحه المتراوح ارتفاعها فوق سطح البحر بين ٢٠٠٠ و ٣٠٠٠ متر من
أخصب بقاع الجزيرة العربية وأغناها مزروعات ، وزبيد التي تكنى
بالمدرسة لوجود جامعة قرآنية فيها ، وأخيراً ذمار المعروفة بالجواد إذ أن
فيها تربي أجود الحيول اليمنية من سلالة الحيول العربية الشهيرة .

وقد كان نيبور أول من كون فكرة عن تجزئة اليمن السياسية ،
بحيث غدت قطعة سيفساء من الإمارات المستقلة في ذلك العهد ، فقد كان
فيها منطقة صنعاء التي كان يحكمها الامام ويبلغ طولها ثمانية وأربعين
فرسغاً ، وعرضها عشرين فرساً ، يضاف إليها الموانئ الواقعة على البحر
الأحمر ومنطقة تهامة الساحلية ، وفي الجنوب امارة عدن التي كانت
يحكمها شيخ مستقل ، وفي الشمال الغربي منطقة ابي عريش التي كان
يحكمها شريف ، وفي أعلاها باتجاه الحجاز منطقة كبيرة يسكنها البدو ،

وفي الشمال الشرقي بلاد حاشد وبكيل التي تقطنها مجموعة قبائل يحكمها عدة شيوخ ، تقع في شمالها اماره نجران ، وفي الشرق مقاطعه الجوف الكبيره حيث مدينة مأرب التي يحكمها شريف ، وحيث يحكم القرى والصعراء عدد من الشيوخ المستقلين .

وتقع ما بين الامارات والمناطق الآتفة الذكر مناطق أصغر منها ، مثل نهم وخولان ، وجفا ، يحكم كلاً منها شيخ او اكثر ، وكوكبان التي يحكمها سيد . ويذكر نيور ان كوكبان كانت قد حافظت على استقلالها في عهد الاحتلال التركي ، وان حاكمها كان يحمل لقب امام . ولكن أحد جدد امام صنعاء كان قد طرد الأتراك ، وبسط سلطانه على معظم انحاء اليمن ، وخفض رتبة إمامها الى رتبة سيد .

ويعيد نيور هذه الامارات إلى أصلها فيقول ان حاشد وبكيل منطقة عشائر ذات مزاج مبال إلى القتال ، تقدم جيوشاً لامام صنعاء ، وهي ترجع أصلها إلى زواج شبه خيالي بين أميرة وحبيبهها رغماً عن أبيها الغضوب ، الا انه يضيف إلى ذلك قوله « اخشى ان تكون هذه القصة مجرد خرافة ركبت لتروى في المقاهي . » ولا شك في أن هذه الرواية عريقة في القدم ، ان صحت ، لأن عشائر حاشد وبكيل وارد ذكرها في الكتابات الأثرية التي نعرفها اليوم .

وهناك منطقة اخرى مميزة هي منطقة الجوف ، السهل الفسيح الذي تتناوب فيه الأراضي الرملية والصحراوية والأراضي المزروعة ، والذي يحده حاشد وبكيل من الشمال ، وحضرموت من الجنوب الشرقي ، ومنطقة صنعاء من الشرق ، وتحدها الصعراء في الشمال الشرقي . والمدينة الرئيسية في هذه المنطقة مأرب التي لا تضم سوى ثلاثمائة بيت متواضع . ويضيف نيور إلى ذلك قوله : « يزعم السكان أنه قد عثر فيها على خرائب قصر للملكة بلقيس او ملكة سبأ ، ولكن ليس فيها أية كتابات اثرية على

الحجارة ، ولذلك لا تستحق عناء القاء نظرة عليها . ولكنه قد اخطأ بذلك خطأ فادحاً .

وقد تحدث إليه الناس عن سد سبأ الذي كان يسد مجرى أحد الأنهر ، وبشكل حوضاً لري السهل كله ، فقال : « كان ارتفاع الجدار متوارحاً بين أربعين وخمسين قدماً ، مبنياً بالحجارة المنحوتة ، وما تزال آثاره باقية من الجانبين . ولكنه لا يحتجز المياه التي تجري في السهل .. » ويستنتج : « وهكذا ليس في الحوض الكبير القريب من مأرب ما يدهش . »

هنا ير نيور الذي أولى اهتمامه مختلف الأمور ، دون اكتشاف باكتشاف مثير من غير أن يدرك أهميته . انه لمن الصحة بمقدار ، ان لا فائدة من رؤية معطى عملي إذا لم تدرك الفائدة التي يمثلها ، والمعرفة التي يمكن الحصول عليها منه . فلم يكن نيور وحده الذي لم يستطع ان يكتشف أن في الامكان الحصول على معلومات عن التاريخ من مجرد تفحص حجارة الآثار القديمة الحربية ، بل شاركه في ذلك عصره كله ، لأن علم الآثار قد نشأ فيما بعد ، ولم يكن الاهتمام يوجه إلا الى الكتابات الأثرية ، لأمكانية اعتبار النصوص الواردة فيها كوثيقة خطية ، لذا كانت الحرائب التي لا كتابات أثرية فيها ، والسد الذي لم يعد قادراً حتى على احتجاز الماء ، من الأمور الجديرة بالإهمال في نظر نيور . وكان لا بد من انقضاء عصر كامل حتى يتعلم الناس ان يكونوا رأياً غير هذا الرأي ، وحتى يقوم بعض العلماء بمغامرة الذهاب الى اليمن لمشاهدة هذه الجدران القديمة المتداعية ودراستها .

أما ما تبقى من شبه الجزيرة العربية فقد أعطى نيور فكرة واضحة . فقد ذكر كل شيء عن حضرموت ، وعشائر البدو المستقلة فيها ، ومدنها ، وبحورها وتجارتها التي تضاهل شأنها منذ ان قام الأوروبيون بالتجارة بمنتجات الشرق .



سیدنان من القسم الداخلي لليمن ، من كتاب رحلة نيپور عام ١٧٦٥

ولم يرح من عمان الا مسقط ، ولكنه سمع ان جبالها غنية بأنواع
الفواكه ، وان كميات كبيرة من التمور تصدر منها ، وان مياه بحرها
غنية جداً بالاسماك . وهو يذكر شيئاً عن تاريخ انتمها الحاكمين ، وعن
التقلبات التي طرأت على هذه البلاد التي اجتاحتها الفرس بسبب النزاع
الذي كان قائماً بين امرائها ، ثم انقذها من ايديهم بطل بارع همام .

وفي حدد الخليج العربي ، يتحدث إلينا نيور عن الهولنديين ، وعن
تاريخ انشاء مراكز لهم في جزيرة خارج الواقعة تجاه الساحل الفارسي ،
وعن قصة صراعهم مع الفرس فيقول : « كان الهولنديون يقومون بتجارة
واسعة النطاق مع البصرة ، حيث كان يدير مركزهم التجاري البارون
كنيفوس متمتعاً بقدر عظيم من الاجلال . وقد ألقي هذا الرجل الالماني
في السجن على اثر نزاع نشب بينه وبين حاكم المدينة بسبب قضية تختص
بأصول اللياقة ، وأوشك ان يحز عنقه لو لم يفتد نفسه بمبلغ طائل من
المال . وقد حصل قبل إبحاره الى باقافيا على شهادة من المركز التجاري
في البصرة تبور تصرفه ، فوافقت شركة الهند الشرقية الهولندية على كل
ما صدر عنه من اعمال .

« وكان السيد كنيفوس ، على اثر الخلاف الذي نشب بينه وبين
حاكم البصرة ، قد اتفق مع فافر ، امير بندر رجق الذي كان يملك
خارج ، على نقل المركز التجاري الهولندي الى هذه الجزيرة مقابل
جعالة سنوية يقبضها منه . فاستحسنّت الحكومة في باقافيا هذه الخطة التي
كانت بمثابة في الحقيقة ، وأرسلت البارون ومعه سفينتان كبيرتان
لتنفيذها .

ولم يكذب يبلغ جزيرة خارج حتى استولى على بعض مراكز البصرة
واحتجزها حتى يستعيد المبلغ الذي افتدى به نفسه . وانشأ مستودعاً
مربعاً على البر ، أقام على أركانه الأربعة تدرجاً أربعة أبراج زود كلا
منها بستة مدافع . ولكن الأمير فافر الذي ساءه اقدام الهولنديين على

هذا العمل ، قام بمهاجرتهم . فهاجموه بدورهم إلا انهم لم يتمكنوا من إدراكه لسرعته . بيد ان هذه الحرب الصغيرة كانت مزمنة ان تكلف الشركة شيئاً كثيراً .

وبعد ان حكم البارون كنيغوس جزيرة خارج حكماً مطلقاً طوال خمس سنوات حل محله السيد فاندروهلست الذي كان قد خبر العرب لاشغاله فيما مضى وظيفته في البصرة ، واعتقد ان من واجبه ان يواصل مع الامير منها الحرب التي كانت قد أثبتت على والده . ولجأ الامير منها إلى الحيلة فاستولى على مركبين هولنديين مسلحين ، وحاول عبثاً النزول الى البر . عندئذ وسع السيد فاندروهلست تحصيناته ، ورسم مخططاً لمدينة لم تلبث ان اصبحت آهلة بالسكان الفرس والعرب .

من المحتمل ان هذه المستعمرة كانت كثيرة المرباح بالنسبة الى المستخدمين فيها ، ولكن نفقات الحرب والحاميات استنفدت ارباح الشركة ، الا ان توقع ازدهار التجارة في المستقبل أغرى الشركة على الاحتفاظ بها مدة اطول . لذا فان السيد بوخن ، الحاكم الجديد ، عقد صلحاً مع الامير منها ، فلم يعد هنالك ما يعرقل الحركة التجارية .

إلا ان خلفه السيد فان هاوتنغ الذي كان يحمل عقلية العرب واخلاقهم ، والذي لم يكن لديه موظفون ذوو خبرة ، لم يبرهن عن تبصر في تصرفه ، فلم يهتم بالمحافظة على الجياد في النزاع القائم ما بين امير ابي شهر والامير منها . بل اتفق مع الأول فهاجم الثاني في جزيرة خونري التي كان قد لجأ إليها وقد ترك الامير منها اعداءه يقتربون ، ولما وجدهم آمنين ، انقض عليهم بخياله وأنزله الهولنديين وقوات ابي شهر هزيمة نكراء . وشجعه النصر فانزله قواته الى جزيرة خارج وحاصر مدينة خارج . وقد سمح السيد فان هاوتنغ لنفسه بالانقياد الى نصيحة رجل فارسي له ، فأذن للامير منها واتباعه بدخول المدينة للتفاوض في شروط تسوية .

عندئذ أسر العرب الهولنديين وأرسلوهم الى باتافيا . وقد حدث ذلك في
اواخر كانون الاول (ديسمبر) من سنة ١٧٦٥ .

ولم يكن في حكم المحتمل ان تزجج الشركة الهولندية للهند الشرقية
نفسها بالإقدام على إخراج الأمير منها وقواته من خارج وتجديد
مستعمرهم فيها .

ويقول نيبور ان على طول الساحل العربي قبائل مستقلة ، وانه « ما
من قبيلة تعيش بسلام مع غيرها من القبائل » وان جزيرة البحرين التي
كانت تضم فيما مضى ثلاثمائة وخمساً وستين مدينة وقرية ، لم يبقَ منها
سوى مدينة واحدة محصنة وأربعين أو خمسين قرية ، إذ أت الحروب
المستمرة دمرت ما تبقى من تلك المدن والقرى ، وان صيد اللؤلؤ
يعطي البحرين شهرة خاصة .

وتنتج هذه الجزيرة البلع بكثرة ، ولكن اعتمادها في الدرجة الأولى
على صيد اللؤلؤ ، ويدخل على حاكمها سنوياً من الرسوم على هذين
الصنفين ما يقدر بثلاثمائة ألف ليرة فرنسية يستعين ببعضها لتأمين حامية
للمدينة .

ويذكر نيبور الكويت فيقول :

« الكويت او القرن كما يسميها الأعجام والأوروبيون ، ميناء بحري يبعد
مسيرة ثلاثة ايام عن بلدة الزبير او البصرة القديمة ، يعيش سكانها على
صيد اللؤلؤ والاسماك . ويقال انهم يستخدمون في صيد هذين الصنفين
البحريين ما ينيف على الثمانمائة قارب . وتكاد هذه البلدة تقفر من السكان
في الاشهر الثلاثة من السنة ، لخروج الجميع إما للصيد او الاتجار . »

ويضيف نيبور ان النزاع يدور بين الكويتيين المتسكنين بالاستقلال
وشيخ الحما الطامع في احتلال الكويت ، وإذا ما وجه هذا الشيخ
جيشه إلى الكويت لاختضاعها ، هجرها أهلها إلى جزيرة فيلكة الصغيرة

حاملين معهم امتعتهم . ولا تزال ثمة خرائب قلعة برتغالية بادية للعيان على مقربة من الكويت .

ويتحدث نيبور عن الامارات والمشيجات الصغيرة المنتشرة على الساحل العربي للخليج ، فيذكر امانة الحسا التي تُعرف ايضاً بهجر التي تصدر الجير والجمال ، ويعيش سكان الاجزاء الداخلية منها على البلخ وسكان سواحلها على صيد اللؤلؤ والاتجار بالسلع الاجنبية على نطاق واسع .

ويقول نيبور : « وينقسم سكان الحسا ، فيما يختص بالدين ، الى شيعيين وهم سكان المدن ، وسنيين وهم القرويون والبدو الرحل . إلا ان عدداً من اليهود ، وعدداً اكبر من الصابئين او المسيحيين المعروفين بطائفة القديس يوحنا ، يقيم فيها » .

« وكانت الحسا في ما مضى احدى ولايات الامبراطورية العثمانية . ومع ان العرب حطموا نير الاستعمار العثماني منذ زمن بعيد ، ما يزال يقطنها عدد من سلالة الباشوات القدماء ، متمتعين بأملاكهم الواسعة إلا انهم لا يشركون في الحكم .

« ويحكم امانة الحسا في الوقت الحاضر شيخ عشيرة بني خالد العربية ، وكان اسم الشيخ الذي يحكمها في سنة ١٧٦٥ عَرَّعَر . وعشيرة بني خالد من أقوى العشائر العربية ، وهي منتشرة في الصحراء انتشاراً يتيح لها انذاك القوافل التي تسلك الطريق الواقعة بين بغداد وكالاب . ويسكن معظم انحاء الحسا البدو وغيرهم من العشائر الصغيرة ، ولكنهم يخضعون جميعاً لشيخ بني خالد . »

ويتحدث عن القطيف فيقول انها مدينة ساحلية متوسطة تبعد خمسة

١ - لم يُعرف في التاريخ ان الاحياء (الحسا) سكنها أحد من غير المسلمين بعد ان ظهر الاسلام وزالت الجوسية منها .

ميال المانية عن جزيرة البحرين ، يعيش سكانها على صيد اللؤلؤ . ومن يعجز منهم عن صيده لحسابه الخاص ، يعمل لحساب مغامرين من الاجانب يؤمنونها في الاشهر القاطنة من السنة التي تؤلف موسم الصيد . ويقال ان مناخ هذه المدينة غير صحي في فصل الصيف . وما تزال خرائب قلعة برتغالية قديمة ظاهرة لآيمان على مقربة منها .

اما الساحل الفارسي للخليج فيقول بصدده :

« لقد أخطأ جغرافيونا ، على ما اعتقد ، حين صوروا لنا جزءاً من الجزيرة العربية خاضعاً لحكم الفرس . لأن العرب ، هم الذين يمتلكون ، خلافاً لذلك ، جميع السواحل البحرية للإمبراطورية الفارسية من مصب الفرات الى مصب الاندوس على وجه التقريب .

« صحيح ان المستعمرات الواقعة على السواحل الفارسية لا تخص الجزيرة العربية ذاتها ، ولكن ، بالنظر الى انها مستقلة عن بلاد الفرس ، وان لأهلها لسان العرب وعاداتهم فقد عنيت بإيراد نبذة موجزة عنهم . يستحيل تحديد الوقت الذي أنشأ فيه العرب هذه المستعمرات على هذا الساحل . وقد جاء في السير القديمة انهم أنشأوها منذ عدة عصور سلفت . واذا استعنا باللمحات القليلة التي وردت في التاريخ القديم ، أمكن التخمين بأن هذه المستعمرات العربية نشأت في عهد اول ملوك الفرس . فهناك تشابه بين عادات الابدشتيوفاجيين القدماء وعادات هؤلاء العرب .

« انهم يعيشون جميعاً على غط واحد ، متبدلين ، منصرفين الى الحروب والمنازعات ، يصطادون اللؤلؤ ، ولا يأكلون سوى البلع والسك ، ويطعمون ماشيتهم بدورها سمكاً .

« وهم يتعشقون الحرية الى درجة قصوى شأن اخوانهم في البادية . ويكاد يكون لكل بلدة شيخها ، وهو لا يتقاضى شيئاً من رعاياه . وإذا كان لا يملك ثروة ، فوجب عليه ان يكسب رزقه بمجده ، كما يفعل رعاياه .

إما بنقل البضائع أو بالصيد . وإذا حدث ولم يرضَ القوم عن الشيخ الحاكم ، خلموه وانتخبوا من أسرته من يجلس محله .

« سلاحهم بندقية ذات فتيل ، وسيف قصير عريض ، وترس . وجميع مراكب الصيد عندهم قابلة التحويل الى مراكب حربية . ولكن اسطولاً يتوقف غالباً كهذا الاسطول لصيد السمك للطعام ، ويجب عليه في الوقت نفسه مطاردة العدو ، لا يمكنه القيام بأي عمل ذي أهمية كبرى . ان معاركهم مجرد مناوشات ، وغارات لا نهاية حاصمة لها ابداً ، ولكنها تسفر عن نزاعات مستمرة ، وعداء دائم .

« اما مساكنهم فتواضعة الى درجة ان العدو لا يكتوث بهدمها . وهكذا لا يملك هؤلاء القوم شيئاً يخسرونه على اليابسة ، فتراهم يلجأون الى متون مراكبهم عند اقتراب العدو ، ويختبئون في بعض جزر الخليج ، حتى ينسحب وهم على يقين ان الفرس لا يمكن ان يفكروا في الاستقرار على الساحل المجذب ، والتعرض لغزوات العرب الذين يرتادون البحار المجاورة .

« وكان نادرشاه قد رسم خطة في أواخر أيامه تقضي بإلقاء القبض على هؤلاء العرب ، ونقلهم الى سواحل بحر قزوين ، وإحلال فرس محلهم . ولكن مصرعه الفاجع حال دون تنفيذ هذه الخطة ، وحالت الاضطرابات المستمرة في بلاد الفرس منذئذ ، دون اعتدائهم على حرية هؤلاء العرب .

« وطريقة الحكم عندهم ، ووضعهم السياسي ، يبدو ان لي شديدي الشبه بما كانت عليه بلاد الاغريق القديمة . والاصطدامات الدامية ، والثورات الخطيرة ، لا تفك تجري على سواحل الخليج ، ولكن العرب لا مؤرخين لديهم يذيعون شهرتهم في ما وراء حدودهم الضيقة . »

ويتحدث نيبور بإسهاب عن العشائر والاقوام العربية التي تقطن الساحل الفارسي للخليج ، فذكر ان الـ ١٧٠٠ قبيلة ، تملكها عشيرة المؤلة الغفيرة

العدد تمتد من بندر عباس الى رأس بردستان ، ويملك جميع الموانئ الواقعة في هذا القسم من الساحل . بعض هذه الاراضي منحرق الوجه ، أجذب ، ولكن فيها صفا من التلال كضهر عصبان ، يمتدأ حتى البحر ، مكسواً بالأشجار التي تقطع وتصدر الى الخارج .

وعلى الرغم من هذه الخيرات الطبيعية ، لا يتعاطى افراد عشيرة الهوكلة الزراعة بل يعيشون على القنص والصيد ، وهم سنيون يعرفون بين جيرانهم بشدة البأس . ولو وُحِدت قواهم لتمكنوا من الاستيلاء على جميع المدن الواقعة على الخليج ، ولكن لكل مدينة تقريباً شيخها ، وعلى الرغم من ان شيوخها جميعاً ينتمون الى أسرة واحدة ، فهم يؤثرون الشظف والفر مع الحرية ، على الجاه والثروة تحت سلطة شيخ كبير .

وأبرز شيوخ الهوكلة في ذلك العهد شيخ سير وهو من أبناء هذه البلاد ومن عشيرة الهوكلة ، ويملك مدن كوندك ونبجة ورأس حني المجاورة لغامبرون ، ويقوم وعيابه بتصدير الحطب للوقود والنفخ . وشيوخ موغو وتجيرق ، ويقال ان أبناء هذه المقاطعة الثانية أشجع افراد عشيرة الهوكلة . وسكان المقاطعتين معاً يقومون بتصدير الأخشاب . واخيراً شيوخ بندر نجيلو ، ونبند ، وعلو ، وتيجري ، وشيلو ، وكنكون ، وقد اشتهر أبناء بندر نجيلو بكونهم غواصين ماهرين . ويقم يهود وبانيانيون في مدينة كيكون التي عرف سكانها بكونهم مسلمين اكثر من سائر افخاذ عشيرة الهوكلة .

اما الفرس الذين لا يملكون مفنأ ويعيشون على الزراعة فإنهم يشغلون المنطقة الواقعة ما بين بو شهر ورأس بردستان .

ولمدينة بو شهر ، عاصمة الامارة التي تحمل الاسم ذاته ، ميناء لا بأس به ، تستطيع السفن ان تدنو فيه من البيوت . وقد دفع وضعه هذا ملك الفرس نادرشاه الى وضع اسطول فيه مائتا قارب بقايا مائة للبيان .

ومنذ ذلك الحين ازدادت شهرة هذه المدينة واتسعت رقعتها ، وهي ميناء
شيراز ، والانكليز وهم الشعب الاوروبي الوحيد الذي يتاجر مع بلاد
الفرس يملكون فيه مصنعاً .

ان العرب الذين يقيمون في اماره ابي شهر لا ينتمون الى عشيرة
المولة ، بل هم افراد ثلاث أسر كبيرة بارزة ، استقرت اثنتان منها
في هذه البلاد منذ زمن بعيد ، اما الأسرة الثالثة وهي تعرف باسم
المطارفة ، فقد تحالفت والأسرتين الاخرين ، وتوصلت الأسر الثلاث الى
الاستيلاء على الحكم . وها هم اليوم قد انقضى على حكمهم البلاد
عدة سنوات

ويملك نافر ، الشيخ الحالي ، وهو من أسرة المطارفة ، جزيرة البحرين.
ايضاً الواقعة على الساحل العربي ، والتي تمكنه من نسيير بعض السفن .
وله ايضاً ممتلكات واسعة في خرام شهر أعطاه إياها الملك كريم خان الذي
يحفظ بأولاد نافر كرهائن لديه تأميناً لولائه .

لقد كان الشيخ نافر سنياً ، ولكنه اعتنق المذهب الشيعي وتزوج من
امراة فارسية رغبة في ان يعين اميراً للأسطول الفارسي . وقد أغاظ هذان
العمالان أسرته ، وسببا له كرهاً لدى جيرانه ورعاياه ، ولم يعد العرب
يعتبرون اولاده في عداد اشرافهم .

اما بندر ديك فهي مركز الأمير الذي يدعى بهذا الاسم ، وهي
مدينة محاطة بالاسوار ، تقع الى شمالي بو شهر . وهي عاصمة الدولة
الصغيرة التي تضم عدة اماكن اخرى في خرام شهر ، لذا كان اميرها
الحاكم تابعاً نوعاً ما لكريم خان . ان عرب هذه الامارة يقضون
حياتهم في البعار ، اما الفرس الذين يقيمون في اجزائها النائية فيتعاطون
الزراعة والفلحة .

وافراد الأسرة الحاكمة في بندر ديك من عشيرة بني كعب العربية .



امراة من الخليج العربي بيع خبزاً، من كتاب رحلة فيبور عام ١٧٦٥

وأصلهم من عمان ، ولكن بالنظر الى ان جد الامير الحالي اعتنق المذهب
الشيعي وتزوج من امرأة فارسية ، لم يعد العرب يعتبرون هذه الاسرة
في عداد الأسر العربية العريقة الشرف .

ويشتهر حاكم بندر بك الامير منها ، في طول البلاد وعرضها بقسوته ،
فقد قضى على عدد من اقربائه ليتربع على العرش دون اي منازع ،
وأغرق شقيقتين له لأن احد الاسراء المجاورين لامارته تقدم إليه بطلب يد
احدهما ، وقضى على حياة كل مولودة رزقها . وكان هذا الحاكم قد بلغ
الثلاثين من عمره في سنة ١٧٦٥ .

وقع الامير منها مرتين في يد الشاه كريم خان . وقد فر من الأسر
الأول الذي وقع فيه ، على اثر هزيمة اصيبت بها الحكومة الفارسية .
وتقدم في المرة الثانية بطلب للافراج عنه بوساطة شقيقة له متزوجة من
ضابط في الجيش الفارسي . ولم تكد قدماه تطآن بلاده ، حتى أعلن
تمرده ، وأخذ يقوم بغزو القوافل ما بين شيراز وبوشهر ، ويتعاطى
اعمال القرصنة ، فأمر كريم خان بمعاقبته ، وفرض حصاراً على عاصمته ،
ولكن دون ما جدوى .

وفي سنة ١٧٦٥ أرسل كريم خان يطلب عائدات املاكه الواقعة في
خرام شهر ، ولكن الامير منها أساء معاملة رسوله وأمر بخلق لحيته .
فوجه كريم خان جيشاً قوياً احتل بندر بك وجميع الاملاك التي تخصه .
الا ان الامير منها كان من الفطنة بحيث انه انسحب وجيوشه وعدد من
وعاباه ، قبل فوات الأوان ، الى جزيرة مقفرة تدعى الخويري ، حيث
اخذ ينتظر انسحاب الجيوش الفارسية . ولم تكد هذه الجيوش تتسحب ،
حتى خرج من الجزيرة ، وطرده الحامية الفارسية من بندر بك ، واستعاد
ممتلكاته .

وتقيم عشيرة بني كعب في اقصى طرف من سواحل الخليج . وقد

لمع اسمها في عهد سلمان بن سلطان بن ناصر شيخها الحالي ، الذي بلغت شهرته حتى أوروبا على اثر معركة نشبت بينه وبين الانكليز استولى فيها على بعض سفنهم .

اغتم الشيخ سلمان فرصة الاضطرابات التي كانت ناشبة في بلاد الفرس ، ومساوىء الحكم في البصرة ، فأخذ يخضع جيرانه الصغار لسلطته ، ثم استولى على مقاطعات كبيرة واقعة في بلاد العجم ، واعداء الملوك الذين كانوا يتنازحون العرش فيما بينهم بأن يدفع لهم الجزية . ولم يفكر أي منهم بطلب الجزية عدا كريماً ، بل كانوا يقنعون بالمبلغ الزهيد الذي يرسله سلمان إليهم . عندئذ وجه سلمان فتوحاته نحو البصرة . وقد أنشأ علاقات صداقة متينة مع سلطان تلك البلاد ، واستولى أخيراً على جميع الجزر الواقعة بين مصبات الفرات المعروفة ببلاد شط العرب . ولما بلغت فتوحاته الأنهر الصالحة للملاحة بذل قصارى جهده لإنشاء قوة بحرية . فبنى مركبه الاول في سنة ١٧٥٨ وكان عنده في سنة ١٧٦٥ عشرة مراكب كبيرة وسبعة صغيرة .

وجه كريم خان في سنة ١٧٦٥ ذاتها لمحاربة الشيخ سلمان جيشاً اقوى من ان يتمكن من مقاومته . فنقل كنوزه وجيوشه من جزيرة إلى جزيرة هرباً من العدو المهاجم حتى أوصلها الى غربي شط العرب ، حيث تعذر على جيوش الفرس ادراكه لافتقارهم الى السفن ، فاضطرت الى النكوص على أعقابها . عندئذ أمر باشا بغداد قواته ان تهاجم سلمان ، ولكنه انسحب الى ما بين الجزر ، ونجا في هذه المرة من الاتراك مثلما نجا قبل ذلك من الفرس .

وتتد بلاد عشيرة بني كعب من صحراء بلاد العرب الى بلاد هندية ، ومن جهة الشمال الى اماره هويفه ، وتروي تربتها عدة أنهر بين صغيرة وكبيرة ، وهي غنية بالبلح ، والأرز ، والحبوب ، والمراعي . مدنها

الرئيسية دامك الواقعة ضمن بلاد الفرس ، وحر ، وغوبان الواقعة عند
أحد مصبات نهر الفرات ومركز أحد الشيوخ .



ويعود نيور أخيراً الى نجد ، المنطقة الكبرى الواقعة في اواسط شبه
الجزيرة العربية ، والحجاز المنطقة الواقعة على سواحل البحر الاحمر ، والتي
تضم المدينتين المقدستين : مكة والمدينة . وعلى الرغم من انه حصل على
معلومات دقيقة عن هاتين المدينتين ، تسمح له أن يرسم صورة لا بأس
بها لمسجد مكة ، فهو لا يضيف شيئاً الى المعلومات التي أوردتها
دي فارتيا .

أما اواسط شبه الجزيرة العربية العربية فهي المنطقة الخاصة بالبدو
الرحل . وهي محرومة من الانهر ، ولا ماء فيها إلا من الآبار ، ولكن
نجداً تؤلف فيها بقعة اوفر حظاً من غيرها ، يجبالها ، وقرائها ، ومدنها ،
حيث يحكم شيوخ من أبناء البلاد . ويذكر نيور ، في عداد المدن
الدرعية الواقعة في وادي حنيفة ، والمدينة ، وهذه المدينة الاخيرة كانت
مكان ولادة محمد بن عبد الوهاب ابن قاضي المدينة في سنة ١٧٠٢ ، الذي
أسس المذهب الوهابي . وكان ما يزال حياً لما كان نيور يزور منطقة
الخليج العربي ، لجمع المعلومات عن هذه الحركة الدينية التي كانت مزمنة
ان تغدو أساساً لتشكيل الدولة السعودية الحالية .

كانت الدرعية ، في الحقيقة ، البلدة التي كان يحكمها آنئذ محمد ابن
سعود ، وقد اعتنق المذهب الاصلاحى الذي كان يبشر به محمد بن عبد
الوهاب اللاجئ الى الاراضي الواقعة تحت حكمه ، فعال المصلح الجديد
علناً ، وتعهد بنشر المذهب الوهابي بقوة السلاح والفتح . وهكذا تعهد
ابن عبد الوهاب في سنة ١٧٤٥ لابن سعود الذي أقسم له ان يضع جيوشه
وما يملكه من نفوذ في خدمة قضيتيه ، بأن يفتح له الجزيرة العربية .



كارستن نيبور في أعوامه الاخيرة

وحين اجتاز نيبور شبه الجزيرة الى ما بين النهرين ، كان قد انقضى
عشرون عاماً على شروع مصالح الدرعية وشيخها ، بالقتال جنباً الى جنب
لاخضاع المدن المجاورة والقبائل البدوية للسلطة السعودية الزمنية ، والمذهب
الوهابي الاصلاحى .

في هذا الفصل عن نجد يقدر القارىء فطنة نيبور ، وأمانة معلوماته ،
فقد أحسن تصوير الحالة المؤسفة التي آلت إليها المدينتان المقدستان ،
تلك الحالة التي أثارت سخط محمد بن عبد الوهاب ودفعته الى الإقدام على
الاصلاح . وهو يقول ان شريف مكة لم يعد سوى امير ذي سلطة
زمنية ، وقد فقد ساطته الروحية في نظر المسلمين . وهو يحصل على
إيراد ضخم من الحج . وبما ان المدعين الشرعيين لحكم البلدة ، وهم فرع
من سلالة النبي محمد ، المتحدرة من الحسن بن علي صهر النبي ، يبلغ
عددهم نحو الثلاثمائة غدت السلطة مثار نزاع لا نهاية له ، يفرض أقوام
نفسه على الآخرين ، ويتدخل السلطان التركي احياناً في النزاع ليجلس
على العرش احد الاخصام . ولا يتورع هؤلاء الامراء المتنازعون عن
ان يصلوا بعاركهم الى قلب الاماكن المقدسة ، مخالفين بذلك نصوص
القرآن .

ولكن نيبور تمكن ايضاً من استخلاص فكرة صحيحة عن عقيدة المصلحين
الذين كان يسع ما يحكى عنهم ، وهي ولا ريب ، شهادات مفروضة ، فقال
ان اعداءهم يجادلون عادة ان يظهروا مذهبهم بظهر سيء ، وان يعملوا
على تبغيضه بتصويره على غير حقيقته وان ينسبوا إليه ما لا يقول به او
يدعوا إليه .

وعلى الرغم من ان محمد بن سعود كان قد أخضع الكثيرين من
الشيوخ لسلطته ، وألحقهم بحركة الاصلاح الوهابية فإن نيبور لا يظهر أي
الامام خاص بشؤون المعامل السعودية ، ففي رأيه (وربما كانت تلك هي

وجهة النظر الاكثر مطابقة للحقائق ، آنذاك) ان الدول الصغيرة بحكمها
شيوخها اسماً وظاهراً ، وان محمد بن عبد الوهاب هو الزعيم الحقيقي
لبلاد . فهو يتقاضى من جميع رعاياه بعض الضرائب باسم الزكاة وهي
مساعدة لإعالة المساكين ومساندة الدين في وجه الخصوم .

ويذكر شيئاً عن المارك التي كانت ناشئة آنثذ بين الجيوش الخاضعة
للوهابيين والزملاء المجاورين الذين كانوا يقاومون انتشار المذهب الوهابي
اقتناعاً منهم بصحة مذهبهم ، وخوفاً سياسياً من هذه القوة الجديدة .
وهو يعطينا فكرة عن رد الفعل التلقائي لدى بعض الناس لآزاء الحركة
الاصلاحية ، فيقول ان بعض الذين عارضوا المذهب الجديد قد تزحوا عن
مواطنهم الى اماكن اخرى . ففي دسكرة الزبيتر ، التي تقع في المكان
الذي كانت تقوم عليه مدينة البصرة القديمة ، لم يكن فيما مضى سوى
عدد قليل من البيوت ، ولكنها قد اتسعت وكبرت بصورة محسوسة
لكثرة النازحين السعوديين إليها :

وتكمن احدى مآثر نيبور العديدة في انه أدرك الامة التي كانت
الحركة الوهابية مزمنة ان تحرزها ، وهي ما تزال آنثذ في مهدها ، وفي
انه أعطى أوروبا عنها معلومات صحيحة وقد امرها بفربال حكمه
الموضوعي الدقيق ، وتزها عن كل هوى .

كان مؤلف نيبور سيفدر مثلاً تقندي به الجمعية العلمية الفرنسية ،
عندما عهد إليها نابوليون ، وهو في طريقه الى مصر ، بتشكيل فرقة
من العلماء تصحبه إليها . ولكن لم يكن الكتاب وحده هو الذي يصلح
لأن يتخذ قدوة . فعلى صعيد العلاقات مع العرب ، وعلى صعيد الاستقصاء
العلمي ، كان نيبور قد عرف ان يتخذ موقفاً ، ويحدد منهج عمل ،
ما يزالان خليقين حتى الآن بأن يكونا قدوة ومثلاً .

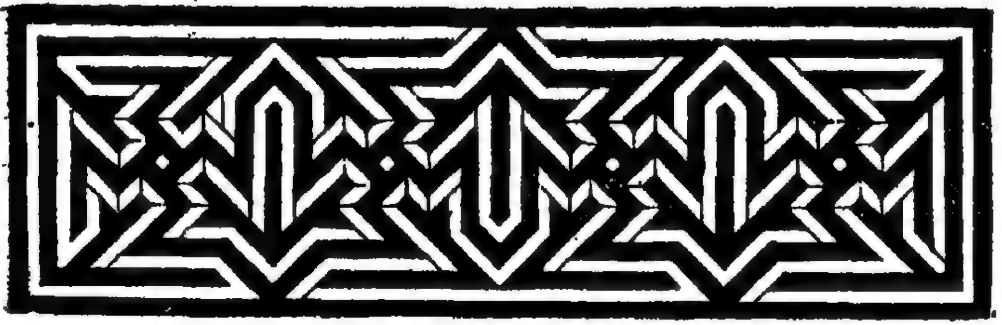
لا ريب في انه بحكم تربيته ، وبفضل دقة البيانات الجغرافية التي

تمكن من وضعها بواسطة الادوات التي كان يحملها ، كان عالماً حقاً ، ولكن هذا العالم وجد نفسه في ظروف من الحياة والاستقصاء العلمي لا تناسب بينها وبين الحياة العادية التي اعتاد ان يجيهاها نيفيل دانفري مثله ، وبين العمل العادي الذي يقوم به المهندس . وكان التكيف وهذه الظروف صعباً الى درجة ان رفاقه لقوا حتفهم .

ولكن بالرغم من ذلك بقي المؤمن الوحيد على لائحة الاسئلة التي أعدها له مليكه وجمعيات أوروبا العلمية ، والتي كانت تحتوي على مجموع الرغبات العلمية الحارة في معرفة كل ما يمكن معرفته عن شبه الجزيرة العربية . لقد كان متوجهاً عليه ان يعبر ليؤدي مهنته . فعرف ان يتكيف ، وان ينظم غط معيشته ، وطريقة استقصائه ، وأوجد قدوة ما تزال مثالية .

نيبور ، التاجر التركي الصغير ، المسافر على ظهر حماره ، المتجنب العظماء ، السامي الى مصاحبة جميع الآخرين ، المجامل ، العارف كيف يقدر الانسان في الفرد العربي مثلاً يقدره في كل مخلوق بشري غيره ، المطلع غيره على ما حصل عليه من معرفة بل اختباره ، الرامي الى هدف واحد بكل إرادته . نيبور الذي يستفهم ، ويجمع المعلومات ، ويتخيرها ، ويزنها ، ويدقق فيها ، حتى يتأكد من أنه حصل لمواطنيه على معلومات مسلّم بها ، صحيحة ، متبينة ، قدر الامكان . نيبور هذا ، ألم يكن أول وأفضل من جسد الخبر المثالي ؟ الكامل ، وهل ما أراد أن يفعله ، وما حققه ، شيء غير نقل الاخبار وتصور الوقائع ؟ ولكنه برهن ، بالقدرة التي أصبحها ، ان هذه الدعوة ، تتطلب فضائل النساك ، وكلفاً بالمعرفة الصحيحة ، التي يدرك بوساطتها اية زيادة حاسمة يمكن إضافتها الى المعارف الانسانية .

المجلد الرابع
العربية الفصحى والعربية البنية



على بك في مكة والوهابييون الاول

منذ رحلة نيبور أصبح الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة العربية معروفاً ،
اكثر على كل حال من جزئها الاوسط الذي لم يكن أي أوروبي قد
اجتازه بعد . فعلى هذا الجزء كان اهتمام الغربيين مزمعاً ان يتركز خلال
النصف الاول من القرن التاسع عشر على وجه التقريب .

وكانت الاسباب الايجابية لهذه الرغبة الحارة في الاطلاع على شؤون
الجزء الاوسط من شبه الجزيرة تكمن في السلطة الناشئة ، سلطة الملوك
الوهابيين من سلالة سعود التي لم تنفك تبسط سيطرتها على قلب شبه الجزيرة
العربية . فمذ حملة نابوليون على مصر التي برهنت للعرب عن الأهمية
السياسية التي يمكن ان تكون لبلدان الشرق الادنى ، لم تعد الجزيرة
العربية بيدقاً عديم الأهمية على رقعة الشطرنج في عالم السياسة . كانت
القوة الوهابية على وشك ان تحدث تغييراً في اوضاع نابوليون من جهة ،
واوضاع الاتراك من جهة اخرى ، الذين لم يكونوا غير مكتئبين لما
يجري .

حتى ذلك الحين ، لم تكن سلطة شيوخ نجد والجلوف قد عدت كونها

حكم مدينة صغيرة يسكنها بعض الحضر ، أو إحدى القبائل ، وبما ان اقتسامهم لم يكن له انقطاع ، فقد كانوا يقيسون فيما بينهم توازناً سياسياً تبطل فيه قواتهم بعضها مفعول بعض . في تلك الظروف ، لم يكن اي خطر يتهدد السلطات المجاورة ، إذ كان الاتراك ما زالوا محتفظين بالسيطرة على طريق الحج من دمشق الى مكة ، وكان حاكم المدينة المقدسة خاضعاً لسلطانهم .

ولكن التحالف ما بين المصلح الوهابي والملك السعودي ، الذي كان له مفعول القنبلة ، أدخل بهذا التوازن الثابت ، كما كان نيور قد توقع . بفضل فيليبي الذي قدم للغرب تاريخ الرهايين ، كما ورد في تقاليد الخاصة يمكننا ان نتبع ، سنة فسنة ، تعاقب الحملات التي قام بها محمد ابن سعود ، ثم ابنه عبدالعزيز ، على مدن نجد الصغيرة ، وقبائل البدو ، واستطاعت الغزوات ، وأعمال الحصار والمذابح ، والحملات التأديبية على العصاة ، ان تفرض السلطة على البلاد بكاملها .

ان الصورة المحسوسة لهذه الأحداث من شأنها ، في الحقيقة ، ان تثير دهشة القراء . فقد فرض الملك والداعية الى الإصلاح ، العقيدة الجديدة بقوة السيف . فكل مدينة لم تفتح ابوابها لاستقبال حاكم ومبشر بالمذهب الوهابي في آن واحد ، إلا بعد ان حوصرت وجوعت ، فأرغمت على التسليم . وإذا ما حاولت إحدى المدن جمع شتات قواتها ، وثارت على الحاكم الوهابي ، فإن عقابها لشديد .

وقد استمر الصراع سنين طويلة ، وخلال هذا الصراع أتلقت أشجار النخيل والمزروعات في كل جزء من هذه البلاد ، حيث تعد الواحة كل شيء في حياة السكان .

وحوالي سنة ١٨٠٠ كانت بلاد نجد بكاملها قد اعتنقت المذهب الوهابي ، وخضعت لحكم عبد العزيز الذي كان ابنه سعود يقود الحملات العسكرية .

وكانت هذه الفتوح قد بقيت حتى ذلك قصة محمية ، لا يتم بها الناس ابداً ، خارج اواسط الجزيرة العربية .

على ان الوهابيين كانوا قد أوغلوا حتى الخليج العربي ، واشتبكوا مع سفينة حربية انكليزية على مقربة من الكويت .

كان ذلك فرصة سانحة للمقيم الانكليزي في البصرة ، ليوجه رسولا الى الامير السموذي طلباً للمصالحة . وقد خرج الرسول ، وكان يدعى رينو ، سنة ١٧٩٩ من بلدة القطيف ، ومر بالمحفوظ ، قاصداً الدرعية عاصمة عبد العزيز ، حيث مكث اسبوعاً ، وقد نشر التقرير الوحيد الذي وضعه عن رحلته ، وانطباعاته ، في سنة ١٨٠٥ ، وكان رسالة منه . لقد ذهل لرؤيته المدينة بالغة الصغر ، رغم ان موقعها كان لطيفاً ، كما ذهل لبساطة معيشة الامير الشديدة التناقض وسلطته الواسعة الانتشار .

*

ولكن سعود لفت انظار الاتراك والعالم اجمع ، بإقدامه فجأة على مهاجمة كربلاء والحدود العراقية بين سنتي ١٨٠١ و ١٨٠٢ . في هذه المدينة المقدسة في نظر الشيعة يقوم مسجد رائع ، يحوي كنوز تركية والمعجم ، وهو يضم قبر الحسين حفيد النبي محمد ، ولكن عناصر الايمان هذه تعد مرطقة في نظر الوهابيين الذين يعتقدون انه لا يجب تعجيل احد ، حتى محمد نفسه ، بحيث ينزع من الله جزءاً من العبادة الواجبة كلها له وحده .

بعد حصار لم يدم طويلاً ، فتحت المدينة ، وتناقص القتلى من جميع الأعمار في الشوارع والبيوت ، وهدم قبر الحسين ، وسلبت الجواهر التي كانت تزينه ، واقتسمها المحاربون كما اقتسموا كل نفيس في المدينة ، فأثار هذا العمل سخط بلاد المعجم وتركيا حيث يقلب المذهب الشيعي ، وسخط للعالم اجمع ، وعاد سعود الى عاصمته الدرعية فخوراً بنصره المذهبي ، وغنيته التي لا تقلد بشئ .

كان سعود مزمماً أن يثير القلق العالمي من جديد فيما يختص بالبلاد الواقعة على جانبي ممتلكاته . فقد تمكن أحد الزعماء الذي كان قد شق عصا الطاعة على شريف مكة والحجاز الى جانب الامير السعودي ، من ان يكسبه اراضي جديدة باتجاه مكة ، بعد ان أخفق شريف مكة في حملته الدفاعية . واعتزم سعود ، في سبيل الاستيلاء على المدينة المقدسة ، ان ينجع قافلة الحجاج القادمة من دمشق بحراسة الجنود الاتراك ، من الوصول إليها ، ونفذ ما اعتزم . فهلع شريف مكة ، ولجأ الى جدة بأسلحته وأمتعته ، ودخل سعود وقواته مكة ، معلناً عفواً عاماً ، موزعاً الصدقات الضرورية ، للقيام بفريضة الحج . وهكذا أصبحت مكة وهابية .

ورأى الخليفة التركي انه قد نيل من سلطته الزمنية والدينية . وخشي الغرب وقوع اضطراب في الشرق الاوسط ، قد يؤثر عليه . في هذه الاحوال جاء مكة في سنة ١٨٠٧ حاج رفيع الشأن ، تصعبه حاشية كبيرة من الخدم ، اعتادوا ان يبسطوا سجاداً سيدهم قرب سجادة الإمام في المسجد . كان هذا الحاج ، علي بك العباسي ، سليل العباسيين ، ولم يدُر في خلد أحد من العرب ان يشك في أمر هذا الحاج المسلم الشريف النسب ، المتضلع من المعارف الغربية ، الذي يتقن التكلم بعدة لغات أوروبية ، منها الفرنسية ، ولا سيما الابطالية والاسبانية . وقدر الحاكم الذي كان على استعداد لجميع انواع الريب ، ان الطريقة التي يتكلم بها العربية لا تدعو الى الشك في امره . وكان ثمة شاب وسم ، يشغل منصب سيد بشر زمزم ، ويقدم بصفته هذه ، الماء المقدس للحجاج البارزين ، فلم يتلق امراً بالقضاء على هذا الحاج الشريف ، وان كان علي بك قد احتاط للأمر فتزود بعلاج مقيم شديد لاستعماله في حالة التعرض للسم .

كان ذلك العربي الشريف ، في الحقيقة ، الرحالة الاسباني دومنغو باديا اي لبلينخ

الذي غادر قادس في سنة ١٨٠٣ بعد ان أجرى محادثات مع مختلف الشخصيات البارزة في باريس ولندن . وقد سافر من مراكش باتجاه الاسكندرية فوصلها في سنة ١٨٠٦ ، وقابل فيها شاتوبريان .

اعتقد البعض ان علي بك ، كان في الحقيقة جاسوساً اسبانياً لنابوليون ، ومن المحتمل ان يكون الامبراطور قد رغب في ان يعلم شيئاً عن موقف مسلمي الشرق الادنى من الحركة الروايلية ، وان يكون قد فكر في استخدام هذه الحركة الجديدة لتحقيق مخططاته في الشرق .

وقيل ايضاً انه احد موظفي امارة البحر الفرنسية ، أرسل الى البحر الاحمر لتدوين ملاحظات فلكية . فهل يمكن معرفة حقيقته ؟ على كل حال ، لقد كان عالماً ولا ريب ، وكان مزوداً بآلات قياس دقيقة جداً : كقياس الرطوبة الجوية ، وآلة السدس ، والمرقب . وقد زود علم الجغرافية بمعلومات قيمة ، محدداً بوساطة الملاحظات الفلكية مواقع الأماكن المختلفة التي زارها على ساحل البحر الاحمر بالنسبة الى متوازيات العرض الاستوائية ، مثل ينبع وجدة وغيرها ، ومحدداً بصورة تقريبية موقع المدينة التي لم يبلغها ، وموقع مكة بصورة صحيحة . ولأول مرة أمكن تحديد الموقع العرضي لأحد الأماكن داخل شبه الجزيرة العربية بالنسبة الى خط الاستواء . وقد وصف التكوين الجيولوجي للجبال التي اجتازها بين ينبع والمدينة ، ورأى متشققة قارة ، وبركانية أحياناً ، وجمع النباتات والحشرات . ومن المؤسف انه اضطر فيما بعد الى اتلاف مجموعته كلها كي لا يثير الشكوك في الظروف الخطيرة التي مر بها .

*

قام علي بك بنشر قصة سفراته في باريس سنة ١٨١٤ ، وفي لندن عام ١٨١٦ .

وغادر دمشق في سنة ١٨١٨ ليعود ثانية الى مكة ، حين فاجأته

المنية وهو على بعد مائة وعشرين ميلاً عن دمشق . فهل كانت الزحار سبباً في وفاته ، أم ان احد العملاء الانكليز قام بتسميمه ظناً منه انه جاسوس فرنسي ؟ هذا ما بقي سرّاً من الاسرار .

وبحوم حوله مر آخر شديد الغموض . فهل كان مسلماً عن اقتناع ، كما كان بصرح علناً ؟ أم ظل كما قيل محافظاً على نصرانيته وان صليباً وجد عند وفاته مخفياً تحت ثيابه ؟ ولكن كيف السبيل الى التأكد من هذا او ذاك ؟

لقد أظهر علي بك ، في الحقيقة ، في قصة رحلاته انه مسلم ممتاز ، يحترم الفرائض والمعتقدات ، إلا انه أبدى بعض الملاحظات التي أثارت الشك في صحة معتقده ، وحملت على الاعتقاد بتظاهره بالاسلام . فبصفته رجلاً مدققاً وعالماً ، لاحظ ان المستوى القديم للأرض التي تجاور الكعبة لا يتناسب ومستوى الحجرة الداخلية التي يوصل إليها الآن بسلم قابل للطلي ، موضوع امام الباب . لا شك في ان ارض الكعبة كانت على استواء واحد فيما مضى « صحيح انه يجب ، في هذه الحالة ، افتراض ان الحجر الاسود كان موضوعاً في مكان غير المكان الذي يُرى فيه الآن ، لأنها أدنى من مستوى الباب بمقدار قدمين . وقد يقول احد الكفار انه لم يكن موجوداً ، او انه كان في باطن الأرض . اما أنا فلا يمكن ان تخطر ببالي فكرة كهذه عن هذا العهد الإلهي القيم . »

ويضيف الى ذلك ، قوله ، بعد ان يعطي أبعاد الحجر الأسود الدقيقة : « نحن نعتقد ان هذا الحجر المجيب ياقوتة شفاقة حملها من السماء الملك جبرائيل الى ابراهيم كعهد إلهي ، وانها تحولت الى حجر أسود كثيف اثر لمسها من قبل امرأة جنب ، انه من وجهة نظر علم التعدين كتلة صخر بركانية ، محاطة برؤوس بلورية صغيرة معينة الشكل ، وبفلسبات قرميدي اللون ، على أسود قائم كالحمل او الفحم » باستثناء

أحد بتوابعه الذي يبدو احمر اللون بعض الشيء .

واخيراً قام بفحص آبار مكة المختلفة : « لقد قمت بفحص كل بئر على حدة ، فوجدت انها متساوية في العمق ، وأن لياها درجة حرارة ، وطعم ، وشفافية مياه بئر زمزم ، ففي الشوارع المجاورة للكعبة ، اربعة آبار متشابهة تماماً ، ويمكن رؤية آبار مثلها في أقصى انحاء المدينة ، فاقنعت من فحص أدق أجريته لعمق الآبار ، ونوع مياهها ، ودرجة حرارتها ، وطعمها ، انها تأتي من مخزون جوفي يبعد عمقه خمساً وخمسين قدماً عن سطح الارض تكون من ترشح مياه الامطار . وتعود ملوثة هذه المياه الى تحلل الطبقة الجبسية واختلاطها بالتربة ، ومن ثم تشابه كل الآبار لكونها من مصدر مياه زمزم نفسها ، إلا انها لا تقبل شاربها بركة السماء ، كماء هذه البئر العجيبة . فليكن اسم الله مجداً . »

ولكنه يعنى هو نفسه باعطائنا خلاصة عقيدته الاسلامية ، إذ يصف مرحلة الحج في صعود جبل عرفات فيكتب : « يقول الكثيرون من علماء الدين انه في حالة انعدام وجود بيت الله ، سيظل للحج الى جبل عرفات قيمته ، كما لو كان الحاج يطوف سبع مرات حول الكعبة ، وهذا ما اعتقده انا بدوري . »

« لا يستطيع المرء ان يكون فكرة عن المشهد المهيب الذي يمثله حج المسلمين إلا في جبل عرفات . جوع غفيرة من أبناء جميع الأمم ، من جميع الألوان ، تأتي من أقاصي المسكونة عبر ألوف الاخطار والمشقات ، ليعبدوا معاً إلهاً واحداً ، إله الطبيعة ، يد القوازي يد الصداقة الى الحبشي او الزنجي الفيني ، ويتآخى الهندي والفارسي ، والبربري والمراكشي ، ينظر الجميع بعضهم الى بعض كأخوة ، وكأفراد أسرة واحدة ، تصل ما بين قلوبهم أواصر الدين ، يتكلم معظمهم او على الأقل يفهمون لغة واحدة ، اللغة العربية المقدسة . كلا ، ما من

دين آخر يستطيع ان يقدم للحواس مشهداً أبسط ، وأشد تأثيراً ، وأعظم من هذا المشهد . فيا فلاسفة الارض اسبحوا لعلي بك ان يدافع عن دينه ، كما تدافعون انتم عن مذهب الروحانية او مذهب المادية ، والفراغ والامتلاء ، وضرورة الوجود او الخلق لا وسيط هنا بين المخلوق والخالق مثلما ذكرت في قصة رحلتي إلى مراکش ، الجميع متساوون امام الخلق ، والكل مقتنعون بأن اعمالهم وحدها هي التي تقربهم من الواحد العلي أو تبعدهم عنه ، دون ان تستطيع يد غريبة تغيير نظام هذه العدالة التي لا يمكن ان تتبدل . ياله من مكبح يحول دون الاجرام ! ويا له من تشجيع على سلوك سبيل الفضيلة !.. ولكن ، ياله من أسف ، ألا نكون ، وفي حوزتنا كل هذه الميزات ، افضل من أبناء الاديان الاخرى ! ... »

ان في هذا نوعاً من الفلسفة الدينية المطابقة لأفكار القرن الثامن عشر . إذا حكمنا على علي بك من شهادته الخاصة ، وجدنا انه ذو عقل واجع لا تقهره التقاليد الخرافية ، ولكنه فيلسوف ، وهو من صادق بوجود الله .

لقد أثرت فيه الكعبة تأثيراً عميقاً في الزيارة الاولى التي قام بها إليها ، لاسيما وان انطباعه لم يكن قد تخلص بعد من الرومنطقية . فقد قال : « يجب على الحجاج أن يدخلوا مكة حفاة ، ولكنني بقيت معتلياً ظهر جملي بسبب انحراف صحي ، حتى بلغت المكان الذي حلت فيه . وما ان دخلته حتى توضأت وضوءاً عاماً ، وصرنا في موكب مع جميع الناس الى الكعبة . وكان الرجل الذي عهد إليه بأن يقودنا ، يتلو الصلوات المختلفة بصوت مرتفع وهو سائر ، ونرددها نحن من بعده كلمة فكلمة بالنغم ذاته . وكان ضعفي ما يزال شديداً الى درجة انني اضطرت الى أن استند الى اذرع اثنين من وجالي .

« هكذا وصلت الى المسجد من الشارع الرئيسي لأجله من باب السلام »
 الامر الذي يعتبر فالأ حسناً . وقد دخلت باب السعادة هذا بعد ان
 خلعت حذائي . واجتزنا الرواق ، وكنا على وشك دخول الفناء الكبير
 حيث يقع بيت الله ، حين أوقفنا دليلنا ، ورفع اصبعه نحو الكعبة قائلاً
 لي : « شوف ، شوف ، بيت الله الحرام » . ان الحاشية المحيطة بي ،
 والرواق ذا الاعمدة التي تبدو وكأنها لا نهاية لها ، وفناء المسجد الفسيح ،
 والكعبة المكسوة بالقماش من أعلاها الى أسفلها ، والمحاطة بدائرة من
 المصابيح ، والوقت غير العادي ، وصمت الليل ، ودليلنا الذي يتكلم
 وكأن الوحي قد هبط عليه ، كل ذلك ألّف في تلك اللحظة لوحة
 مهيبة لن نغى من ذاكرتي . »

ومها يكن من أمر شعوره القلبي ، فإن فضل علي بك كامن في انه
 قدم للغرب اول تقرير دقيق ، مفصل ، عن الحج الى مكة ، وآه وعاشه
 احد المسلمين . فقد ذكر فيه الاماكن بتفصيل ودقة . ومن يقرأ كتابه ،
 يجد ان المسجد والكعبة الوسطى كانا على ما هما عليه اليوم ، مع فارق
 واحد هو ان شمعانات كهربائية قد حلت محل المصابيح الخضراء التي
 كانت معلقة بقضبان حديدية تحملها أعمدة دقيقة ما تزال موجودة
 حتى الآن .

يصف المسجد الكبير فيقول انه مكان محوط ، مستطيل الشكل
 تقريباً ، مؤلف من أروقة بديعة التنسيق ، ذات ثلاثة صفوف من العقود ،
 فتوجت العقود المحاذية منها للفناء بقيب صغيرة تقوم كلها على أعمدة
 ذات تروج منقوشة .

تسعة عشر باباً توصل الى هذه الأروقة ، تعلوها سبع مآذن . باحة
 المسجد من الرمل ، غدت فيها الحصر للجلوس عليها ، ولكن ست ممرات
 مرتفعة ، مبلطة بالحجارة الصرانية المنحوتة ، تؤدي ، ابتداء من الأروقة

الى الوسط ، نحو باحة اولى مستديرة مرصوفة على شاكلة المرات «
شيدت عليها اربعة ابنية وهي أمكنة لإقامة الصلاة خصصت لاتباع المذاهب
السنية الاربعة ، فالبناءان الصغيران مخصصان لأبناء المذهبين المالكي
والحنبلي ، والبناءان المؤلف كل منهما من دورين مخصصان للأتراك المنتسبين
الى المذهب الحنفي . واخيراً يستعمل الشافعيون سطح البناء الاكبر
لإقامة الصلاة .

في هذا البناء الكبير تقع بشر زمزم ، وغرفة صغيرة جمعت فيها
الأباريق التي يسقى بها الحجاج من ماءها . هناك يُرى عدد كبير من الخدم
الذين يبذلون الكثير من النشاط تحت إشراف « سيد البشر » الذي سبق
لنا ان ذكرنا شيئاً عن بعض مهامه الخاصة عند ذكرنا لعلي بك .
وقد جعل على السطح الصغير ساعتان شمسيّتان أفقيّتان تعينان اوقات
الصلاة .

تقول التقاليد ان بشر زمزم هذه ، هي البشر التي أوجدها الله لانتقاذ
هاجر وابنها من الموت عطشاً ، بعد ان طردهما ابراهيم الى الصحراء .
والناس يكثرون الشرب من ماءها ، ويرتشون بها .

بؤدي باب السلام الذي تعلوه قوس منقوشة ، الى الباحة الوسطى
المبلطة بالرخام . الى يمين هذا القوس منبر مرتفع يقف عليه خطيب
الجمعة ، وإلى يسارها مقام ابراهيم المغطى بالقماش الذي يرتفع على ستة
أعمدة ، يحيط بالنصف المغطى منه حاجز من قضبان مشبكة ، فيه باب
مغلق بقفل من الفضة . ويقول علي بك : « ان هذا الحاجز من القضبان
المشبكة يحتوي احدى المقدسات ، مغطاة بقماش اسود فاخر موشى بالذهب .
والفضة ، ومزين بعقد كبيرة من الذهب ، وهي الحجر الذي استعمله
ابراهيم مقاماً لبناء الكعبة . ويقال ان هذا المقام كان يزداد ارتفاعاً كلما
ازداد البناء علواً تسهيلاً للأعمال ، في حين ان الحجارة كانت تخرج منحوتة »

مسواة من المكان الذي توجد فيه الحجر المقام اليوم ، لتنتقل من يد
اسماعيل الى يد ابيه .

وفي الوسط تقع الكعبة المكسوة حتى الاساس الرخامي بغطاء من
النسيج الاسود الموشى بالذهب ، وهو يُبدل كل سنة ، فيقطع الغطاء
القديم قطعاً صغيرة توزع كذخائر ، وتكسى الكعبة « بقميص » جديدة
تقدمها القاهرة في كل عام وترسلها مع قافلة الحجاج .

ان هذا البناء الذي كان في ايام النبي محمد معبداً للأوثان ، عريق في
القدم . وهو مؤلف من غرفة واحدة جعل بابها في علو قامة رجل ، تماماً
مثلاً رآه دي فارتيا . ويظن علي بك أن لها باباً آخر من الجهة المقابلة ،
ما تزال آثاره ظاهرة . وقد دمج الحجر الاسود في الزاوية الشرقية من
الجدار تحت مستوى الباب ، ورصع القسم النائي من الجدار بصفيحة
من الفضة .

قبالة المقدمة الشمالية الغربية للكعبة نوع من الحاجز يبلغ ارتفاعه
حوالي الخمس قدام ، وسماكته ثلاث اقدام ، يقرب بحجر اسماعيل .
ويحوي هذا الحاجز فسحة معشرة الاضلاع ، على شكل نصف دائرة
تقريباً مبلطة برخام رائع يرى بينه بعض البلاطات الخضراء النفيسة الثمن .
ويعتقد ان اسماعيل قد دفن في هذه الفسحة المسورة .

لقد كان علي بك الوحيد من زوار مكة الغربيين الذي حاز شرف
رؤية داخل الكعبة باسهامه في تنظيف المسجد ، هذا العمل الذي لا
يناط شرف القيام به إلا بشريف مكة نفسه وبعض الشخصيات البارزة
التي ينتقيها لهذه المهمة : « كان باب الكعبة قد فتح في التاسع والعشرين
من كانون الثاني (يناير) وازدحمت حوله جماهير غفيرة ، الا ان السلم
لم يكن قد وضع بعد .

« دخل الشريف الكعبة محمولاً على اكتاف بعض الناس ، ورؤوس

البعض الآخر ، يصعب كبار شيوخ القبائل ، وقد أراد الآخرون ان يدخلوا ، ولكن الحراس الزوج كانوا يمنعون الناس من الدخول بضربات العصي والنصب . وكنت واقفاً بعيداً عن الباب تجنباً للازدحام حين أشار إليّ « سيد زرم » بالتقدم : تنفيذاً لأمر الشريف ، ولكن كيف كان يمكنني شق طريق لي بين جماعة ينيف عدد افرادها على الألف ؟

« كان حمة الماء في مكة جميعاً يتقدمون حاملين قربهم الملقى ، يدفعون بها من يد الى يد حتى أیدی حراس الباب الزوج ، ويحملون عدداً كبيراً من المكانس الصغيرة المصنوعة من سعف النخيل .

واخذ الزوج يصبون الماء على ارض القاعة المبلطة بالرخام ، يتبعونه بصب ماء الورد . وكان المؤمنون يتهافون بلجم هذا الماء الذي كان يسيل من ثقب تحت عتبة الباب ، ولكن بما ان هذا الماء كان أقل من ان يشبع نهم الجوع ، وبالنظر الى ان اصوات البعدين عن الباب تعالت مطالبة بهذا الماء للشرب والاستحمام ، اخذ الحراس الزوج ينضحون الجوع بالطاسات والايدي نضحاً سخياً . وقد غنوا بإيصال جرة صغيرة إليّ فشربت منها ما أمكنتني ، وصيبت ما تبقى فيها على نفسي ، لأن هذا الماء ، رغم كل شيء يحمل بركة الله ، ثم انه معطر بماء الورد .

« ثم بذلت جهداً للتقدم ، فرفضني أناس كثيرون فوق الجميع ، فمرت على الرؤوس حتى بلغت الباب أخيراً ، حيث ساعدني الحراس على الدخول .

« كنت مستعداً لهذا العمل ، اذ لم اكن مرتدياً الا قميصاً من الصوف الأبيض ، بلا كبن ، ومعتماً بعمامة ، وملتقاً بحبك .

« كان شريف مكة يكنس ارض القاعة بنفسه ، وما كدت ادخل حتى انتزع الحراس حبي ، وقدموا لي عدداً من المكانس الصغيرة أمسكت ببعضها بكتنا اليمين . وفي تلك اللحظة صبوا كثيراً من الماء

على البلاط ، فأخذت اكنس بكلتا يدي بايمان حار رغم ان الارض كانت قد اصبحت نظيفة ، ملساء كالزجاج . وبينما كنا نقوم بهذا العمل ، كان الشريف قد فرغ من كنس القاعة وتعطيرها ، واخذ يصلي .

« ثم قدمت إليّ طاسة من الفضة ملئت عجينة مصنوعة من - نشارة خشب الصندل العطري ومن ماء الورد . فددت هذا العجين على اسفل الجدار المرصع بالرخام ، تحت السجادة التي تكسو أعلاه والسقف .

« عندئذ منحني السلطان الشريف لقب « خادم بيت الله الحرام » وقام الحضور بتقديم التهاني إليّ .

« ثم أدبت الصلاة في أركان القاعة الثلاثة كما فعلت في المرة الاولى ، وبهذا فرغت من القيام بالتزاماتي . وفيما كنت منصرفاً الى اداء الصلاة كان الشريف قد انسحب .

« كان عدد من النساء قد وقفن بمجمعات في الفناء بعيداً عن باب الكعبة يملن من وقت لآخر .

« قدم إليّ شيء من عجينة الصندل ومكنستان احتفظت بها كذخائر نفيسة جداً . وأنزلني الحراس على رؤوس الشعب الذي أنزلني بدوره أرضاً وهم يقدمون إليّ التهاني . فتوجهت من هناك الى مقام ابراهيم لتأدية الصلاة فيه ، ثم ألبست حبي من جديد ، وعدت الى مسكني مبتلاً كلياً . »

كان دي فارتيا قد لحظ تقليد الطواف سبع مرات حول الكعبة يقوم به الحجاج وهم يتلون الصلاة عند كل ركن ، ويقبلون الحجر الاسود ، بسرعة تدرجية . ولكن التقليد الذي فاتته ملاحظته هو قطع المسافة الفاصلة ما بين أكتفي الصفا والمروة المقدستين سبع مرات ، فور الفراغ من التطويق حول الكعبة ، ان هذين المكانين اللذين كانا واقعين خارج

المدينة في أيام النبي ، قد اصبحا ضمن حدودها ، نتيجة لاتساع رقعتها تدريجياً ، وتشكل الأكتان اللتان تكسوهما الآن المنازل ، شوارع واقعة داخل البلدة .

يقصد الحجاج أولاً الرواق الذي يتروج قمة الصفا ، وسطية المروة ، لتلاوة الصلاة المفروضة . وبما ان شارع مكة الرئيسي هو بالضبط الطريق المؤدية من الصفا الى المروة ، وهو الشارع الذي تقع فيه السوق العامة ، فإن الجموع التي تزدهم فيها تزعم الحجاج في سعيهم بين الأكتين ، الصفا والمروة .

وتقع في هذا الشارع حوائط الحلاقين ، اذ ان التقليد يقتضي ان يحلق الحجاج رؤوسهم .

ثم يتضمن الحج صعود جبل عرفات . وقد وصف علي بك الطريق التي بدأ سلوكها بعد الظهر ، فقال : « انها واد صغير بين جبال جرداء ذات حجارة صوانية » ويمر الحجاج في قرية منى ذات الشارع الوحيد الضيق . وأول ما يرى عند دخول القرية عين ماء يقوم قبالتها بناء قديم يقال ان الشيطان قد شاده .

عندما يبلغ الحجاج المسجد القائم في سهل صغير ، يجدون انفسهم مجبرين على الاستراحة فيه لان التقاليد تروي ان النبي الكريم كان يستريح فيه كلما ذهب الى عرفات ، وتزدهم الجماهير كلها في هذا الوادي الصغير ، وفي الصباح الباكر تستأنف السير . وبعد مسيرة ثلاث ساعات في مضيق محصور ، يبلغ الحجاج أسفل الجبل . وقد كان الوهابيون يقومون بهدم المبدع الصغير القائم في اعلاه . وكان اربعة عشر حوضاً قد رمت بأمر سعود ، تستعمل مياهها للشرب والوضوء .

على قمة عرفات ، عرف آدم ابو البشر امنا حواء بعد فراق طوبل ، لذا سمي عرفات . ويعتقد ان آدم نفسه هو الذي شاد

المعد الصغير الذي هدمه الرهبانيون .

بعد صلاة العصر التي يؤديها الحجاج في خيامهم ، وبعد ان يكون قد هبى كل شيء للرحيل : تقضي التقاليد بأن يتجه الحجاج نحو أسفل الجبل سيراً على الاقدام ، ليبلغوه قبل غروب الشمس . « وعندما يوشك موعد الغروب ان يحين ... يا له من اعصار ! ليتصور المرء ثمانين ألف رجل ، وألفي امرأة ، وألف ولد صغير ، مع ستين او سبعين ألف جمل ، وعدد من الحمير والحيل ، يريدون قبل هبوط الظلام ان يستعشوا خطام حسب التقاليد ، في واد ضيق ، يزحم بعضهم بعضاً ، في صحاب من الغبار ، وغابة من الرماح ، والبنادق ، والسيوف . »

وسبب هذا الاسراع الذي تأمر به التقاليد انه يجب ألا تؤدى صلاة المغرب في عرفات ولكن في المزدلفة حيث يجب أداء صلاة المغرب ، وصلاة العشاء ايضاً بعد انتضاء ساعة ونصف على غياب الشمس . وفي المزدلفة يحج الحجاج .

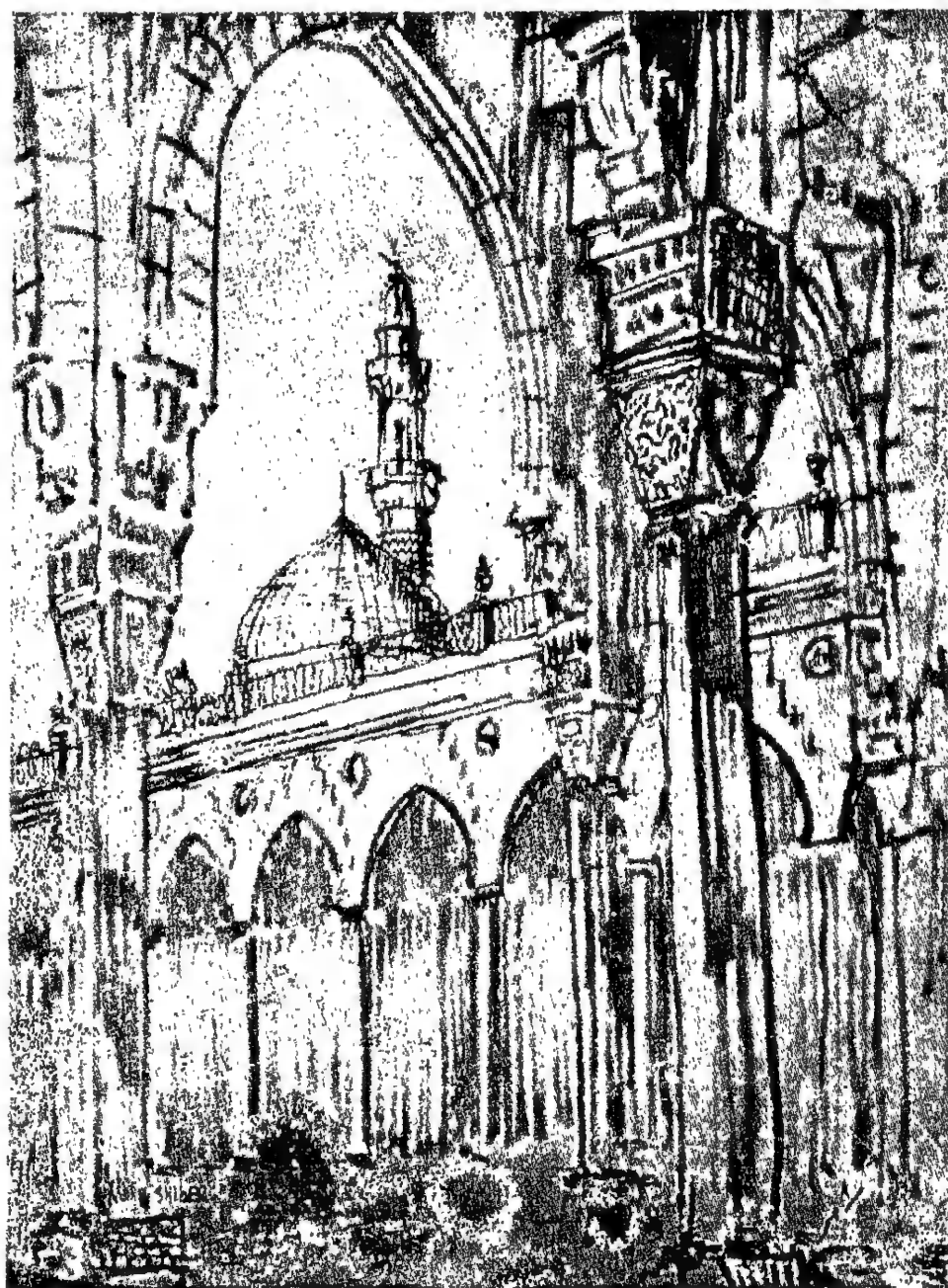
يستأنف الحجاج السير في الصباح الباكر من اليوم التالي للتخيم في منى هناك ، مثلما روى لنا دي فارتيا ، ويتوجه الحجاج نحو بيت الشيطان ، ويرجمونه بسبع احجار قائلين : « باسم الله . الله اكبر ! » ويضيف علي بك الى ذلك قوله : « وبما ان دهاء الشيطان قد دفعه الى إقامة بيته في مكان ضيق جداً لا يتجاوز عرضه اربعاً وثلاثين قدماً ، وتقوم في الطريق المؤدية إليه صفوف ضخمة يجب اجتيازها لتأمين رشتي الحجارة ، وبما ان جميع الحجاج يريدون اتمام هذا العمل المقدس حال عودتهم الى منى ، فإن المكان تسوده بلبلة غريبة . ولكنني اخيراً ، بمساعدة رجالي ، تمكنت رغم الازدحام والضوضاء ، من اتمام هذا الواجب المقدس ، ولم يكلفني ذلك إلا جرحين في ساق اليسرى . ثم انسحبت الى خيستي لأخذ قسطاً من الراحة بعد العناء الذي تكبدت .

في ذلك النهار يجب تقديم الذبائح . وفي اليوم التالي ، والحجاج ما يزالون في منى ، ذهب الجميع ، بعد صلاة الظهر ، لرجم عمود صغير بني من الحجارة والرحل يبلغ ارتفاعه ست اقدام ، ومساحة قاعدته قدمان مربعتان واقع في وسط شارع منى ، يقال ان الشيطان قد أقامه ، وهم يرمونه بسبعة احجار مغسولة بالماء ، وقد قت برشق عمود آخر أقامه الشيطان على بعد اربعين خطوة من الاول بسبع احجار اخرى ، ورميت اخيراً البيت الحقيق الآتف الذكر بسبع احجار مرة اخرى .

في اليوم الثالث من عيد الفطر ، بعد اجراء هذه الشعيرة تكراراً ، عاد علي بك الى مكة وهو يقول : « عند دخولي المدينة ، توجهت الى المعبد حيث طوّفت سبع مرات ثانية حول بيت الله ، ثم خرجت من باب الصفا بعد ان صليت وشربت من ماء زمزم ، لأكمل الحج بالرحلات السبع بين الصفا والمروة كما فعلت ليلة وصولي . »

كان هذا العمل الاحتفالي مصحوباً بزيارة عدة مزارات واعمال تقوية كثيرة اضافها الى المناسك مختلف الفقهاء او الاولياء ، لكن الوهابيين حذفوا كل هذه البدع باعتبارها مظاهر خرافية ، ولم يبق الآن سوى المنسك الذي اسجله في كل مداه .

توجه جميع الحجاج على وجه التقريب يوم الاحد المصادف الثاني والامشرين من شهر شباط (فبراير) الى مكان يقع في الجهة الغربية الشمالية الغربية من مكة حيث مسجد متداع يدعى العمرة . فأديت الصلاة في بادىء الأمر ، ثم وضع كل حاج ثلاث احجار الواحدة فوق الاخرى غير بعيد عن المسجد بورع كلي ، ثم توجه الجميع الى المكان الذي كان يسكن فيه ابوجهل الشرير عدو نبينا اللود ، وهناك قام كل حاج ، وقد اخذ منه الغيظ كل مأخذ ، يلغنه ويوشقه بسبع احجار . وعدنا الى المدينة فطوفنا سبع مرات حول بيت الله ، وقمنا



جامع في المدينة بريشة الدكتور جورج صابا شبر

بسبع رحلات ما بين الصفا والمروة ، فلم يبق عندئذ اي شيء نظيفه
الى مناسك الحج من اجل تطهرتها .

هكذا كشف علي بك مناسك الحج كاملة وحياة الحاج نفسها ، وتتفوق
قصته على قصص جميع الذين سبقوه من حيث الدقة . ولكن من حيث
وصف العقيلة الدينية لدى الحاج البسيط المؤمن ايماناً صادقاً تظل رواية
جوزف بيتس اشد اخلاصاً واكثر تفصيلاً .

ان علي بك لم ير سوى المناسك ، وقد شرح قيمتها الدينية من خلال
عقيلة الدين الفلسفي .

ولكن لقصته فائدة اخرى كبرى . فعلي بك هو الوحيد الذي رأى
كيف يعيش الراهبيون الأول . كان قد انقضى ، في الحقيقة ، عدة
ايام على وصول رحالته ، عندما دخل مكة قسم من الجيش الوهابي
لقيام بفريضة الحج ، واحتلال هذه المدينة المقدسة .

إذا ما راجعنا فيلي ، وقاربغ الوهابيين الذي يتابعه ، والذي يتلاقى
تماماً مع معطيات علي بك ، وجدنا ان الأمور قد ساءت مرة اخرى مع
الشريف غالب منذ الدخول الى مكة في سنة ١٨٠٣ . كان سعود قد
عهد الى حاكم اماره عسير الجبلية المدعو بأبي نقطة ان يدعو الشريف
ثانية الى خضوع اقل تردداً ، وبمهاجمة جدة ميناء مكة قبل اي شيء ،
ولكن الشريف كان قد استبق الهجوم ، وقابل أبا نقطة في الطريق ،
غدّحر وعاد الى مكة . وفي خريف سنة ١٨٠٥ أصدر سعود امراً الى
أبي نقطة بالاستيلاء على مكة ، ومنع قافلة الحجاج من الدخول إليها
مسلحة ، وكان ثمة مجاعة شديدة منتشرة منذ سنتي ١٨٠٤ - ١٨٠٥
عانت منها شبه جزيرة العرب الأمرين طوال ست سنوات . وهذا ما

يفسر ما لاحظته علي بك علي سكان مكة من هزال : « هياكل حقيقية متجولة مكسوة برفوف لاصقة بالعظام » .

اضطر قطع الارزاق عن المدينة ، واستعالة مقاومة مثل ذلك الجيش اللجب ، الشريف الى الاستسلام . فوصلت الارزاق حينئذ ، ودخلت قافلة الحجاج .

علي ان الشريف غالب كان يسعى الى استعادة مكة ، كما اتضح بعدئذ . في تلك الاثناء كانت « المدينة » قد سقطت في ايدي الوهابيين . فقد وجه سعود جيشاً قوياً الى المدينة في سنة ١٨٠٦ لإيقاف قافلة الحجاج ، لأنه خشي ان يجد الشريف الذي يدعو موقفه الى الشك ، امداداً في القافلة . ويشهد علي بك بالفعل ان الحجاج لم يصلوا واهم اضطروا الى النكوص على اعقابهم .

وهكذا ، بعد ان برهن سعود للشريف عن سيطرته على المدينتين المقدستين ، سار علي رأس جيشه الى مكة ليدخلها ثانية بقصد الحج . وهذا الدخول هو الذي شهدته علي بك .

« كنت في الشارع الرئيسي في الساعة التاسعة صباحاً عندما رأيت جماعة من الناس قادمين ... ليتصور المرء جمهوراً من الناس مزدحمين ، ليس لهم من اللباس سوى خرقه حول الحقلين ، وفوطه رضعها بعضهم على كتفه اليسرى وأمرها تحت ابطة اليمنى ، مسلحين ببنادق ذات قتائل وخناجر معقوفة في أحزمتهم .

« عندما رأى الناس هذا السيل من الرجال العراة المسلحين ، هربوا مخليين الشارع الذي كانوا يشغلونه كلياً . ولكنني أصررت على البقاء في مكاني ، واعتليت تلة من الانقاض لتسنى لي رؤية أفضل . رأيت ما يقرب من خمسة او ستة آلاف رجل يسرون على عرض الشارع متتابعين مزدحمين الى درجة أنه لم يكن في وسعهم ان يحركوا ايديهم . وكان

يتبع هذا الجحفل الذي يتقدمه اربعة من الحيلة حاملين رماحاً لا يتجاوز طولها القدمين ، كان يتبعه خمسة عشر وعشرون جحفلًا اخر من الحيلة والمهجاة ، يحملون في أيديهم رماحاً ، لكنهم لم يكونوا يرفعون ياربق ، ولا يحملون طبولاً ، ولا أية أداة اخرى ، ولا شعارات عسكرية . وفيما كانوا يسرون كانت تند من بعضهم صرخات قدسية البهجة ، وتسمع اصوات الآخرين رافعة الصلوات ، كل صوت على هوى صاحبه .

« وقد صعدوا في هذا النظام الى الجزء الأعلى من المدينة حيث اخذوا ينتظمون في كوكبات لدخول المسجد من باب السلام .

« وأقبل للقائهم عدد كبير من صبية المدينة الذين يعملون عادة كأدلاء للغرباء ، وقدموا لهم انفسهم ليقودوهم في الطقوس الدينية ، ولاحظت انه لم يكن بين هؤلاء الأدلاء اي رجل . كانت الكوكبات الاولى قد أخذت تطوف حول الكعبة وتقبل الحجر الاسود حين تقدمت كوكبات اخرى صاحبة وقد نقد صبرها ، واختلطت بالكوكبات الاولى ، فبلغت البلبلة أشدها فلم يعودوا يسمعون اصوات ادلائهم الاحداث . وعقبت البلبلة ضجة شديدة ، الجميع يريدون تقبيل الحجر الاسود ، ويزدحمون ، ويشق العديدون منهم طريقاً لهم بعصي يحملونها في ايديهم ، ولم يجد أية جدوى ، اعتلاء احد زعمائهم قاعدة قزبية من الحجر لاعادة النظام ، وذهبت صرخاته واساراته ادراج الرياح لأن روعة بيت الله المقدمة التي كانت تلتهمهم لم تسمع بسماع صوت المنطق ، ولا صوت زعيمهم . ازدادت الحركة الدائرية بالدفع المتبادل ، وغدوا شبه ما يكونون بمجاعة النحل المحوطة حول الحلية في بابل ، بطوفوف في غير ما نظام حول الكعبة .

« بعد اجراء مختلف المناسك حول المعبد ، كان على كل واحد ان يشرب من الماء العجيب ويرتش به ، ولكن بالنظر الى كثرة عدد

المتوجهين نحو البئر ، وإفراطهم في التسرع لم تلبث الجبال ، والسطول ،
والبكرات ، ان أصبحت قطعاً قطعاً ، وبقي الوهابيون وحدهم سادة البئر ،
فشكلوا حولها حلقة ، مسكين بعضهم بأيدي بعض ، ونزلوا الى قعرها
يتممون الماء قدر استطاعتهم .

« ان البئر لتطلب صدقات ، وبيت الله اضاحي ، والادلاء اجورم ،
ولكن معظم الوهابيين لم يكونوا يحملون مالا ، فوفوا ما عليهم باعطاه
عشرين او ثلاثين حبة كبيرة من البارود ، وقطع صغيرة من الرصاص ، او
بعض حبوب البن . »

« عندما عدت الى مسكني علمت ان فصائل اخرى من الجيش الوهابي
كانت ما تزال تتدفق على مكة لتأدية فريضة الحج . ماذا كان يعمل
شريف مكة في هذه الاثناء ؟ كان عجزه عن مقاومة هذه القوة القاهرة ،
وخوفه من ان يهاجم ، قد اضطره الى الاحتباس او الاختباء ، وكانت
الحصون مزودة بالذخائر ، مستعدة للدفاع ، وكان الجنود العرب ،
والأتراك ، والمغاربة ، والزنوج ، يلزمون مراكزهم ، وقد رأيت الحرس
في القلاع ، ورأيت أبواباً كثيرة تُسد بالحجارة ، وكان كل شيء قد هيء
استعداداً للهجوم . ولكن اعتدال الوهابيين ، ومفاويزات الشريف ، جعلت
هذه الاستعدادات غير ذات فائدة . »

لقد تمكن علي بك من مشاهدة الجيش بكامله عند النزول من جبل
عرفات لان « الوهابيين الذين كانوا قد خيموا بعيداً جداً » اخذوا
يقترّبون ، وعلى رأسهم الملك سعود والقائد ابو نقطة . ورأيت بعند
قليل من الوقت جيشاً مؤلفاً من خمسة وأربعين ألف وهابي يسير ، اكثر
افراده يركبون جمالاً ، يرافقهم ألف رجل تحمل الماء ، والحياض والحطب
للوقود والاعشاب الجافة لجمال القادة . وكانت فصيلة من مائتي خيال
ترفع بيارق من ألوان مختلفة على رؤوس الرماح ، وقد قيل لي ان فصيلة

الحياة هذه تخص القائد أبا نقطة . وقد لحظت سبعة او ثمانية يبارق بين راكبي الجمال ، لكن بدون طبول ، ولا ابواق ، ولا أية أداة عسكرية اخرى . وبما ان هؤلاء الرجال جميعهم كانوا في ثياب الاحرام ، وكذلك قادتهم ، تعذر عليّ تبين سمود وأبي نقطة . إلا أن شيئاً جليلاً ذا لحيّة بيضاء طويلة يتقدمه العلم الملكي بدا لي انه السلطان . وكان هذا العلم الاخضر يحمل الشهادة « لا إله إلا الله » منقوشة عليه بأحرف بيضاء ضخمة .

« وتبينت احد ابناء سمود من شعره الطويل المنسدل ، وكان ولداً في السابعة او الثامنة من عمره ، اسمر اللون ، يرتدي قميصاً طويلاً بيضاء ، محاطاً بحرس خاص ، متمطياً جواداً أبيض رائماً عليه لبادة بدون ركابين ، حسب عادة الوهايين الذين لم يكونوا يستعملون سرجاً سواها ، وكانت هذه اللبادة مغطاة بقطعة من القماش الاحمر الموشى الذي انتثرت عليه نجوم ذهبية .

« لم يلبث الجبل حتى اكنسى وما حوله من الارض بمجموع الوهايين وكان مشهدهم يملأ النفوس ذعراً . ولكن اذا ما تغلب الانسان على هذا الانطباع الاول ، وجد لديهم خصالاً حميدة : فهم لا يسرقون قط ، لا عن طريق القوة ، ولا عن طريق الحيلة ، الا اذا اعتقدوا ان المتاع يخص عدواً او كافراً ، وهم يؤدون ائمان كل ما يشترونه ، وأجور كل الخدمات التي تقدم إليهم ، بالعملة التي لديهم ، يطيعون زعماء طاعة عمياء ، ويتحملون صامتين كل انواع المشاق ، وهم على استعداد لأن يتبعوا قادتهم الى أقصى انحاء المعمورة .

« ان الحقيقة تفرض عليّ ان اعترف انني وجدت جميع الوهايين الذين تحدثت إليهم على جانب من التمثل والاعتدال . وقد استقيت منهم كل المعلومات التي أوردتها عن مذهبهم . ولكن على الرغم من اعتدالهم »

لا يستطيع السكان والحجاج سماع مجرد اسمهم دون ان تملك الرجفة قلوبهم ، ولا يتلفظون به إلا همساً . لذا غان الناس يهربون منهم ، ويتجنبون التعرض إليهم قدر الامكان ، وكلما أردت التحدث إليهم كان عليّ ان اتغلب على كثير من الصعوبات التي يخلقها لي من يحيطون بي .

والسبب الاول في هذه العداوة ان الناس لم يفهموا للهة الاول المعنى الاصلاحى لهدم المزارات وتقويض أضرحة الاولياء التي كان المؤمنون يؤدون لها واجب الإجلال ، وقد كاد هذا الإجلال يتحول الى نوع من العبادة التي لا نحب إلا لله وحده .

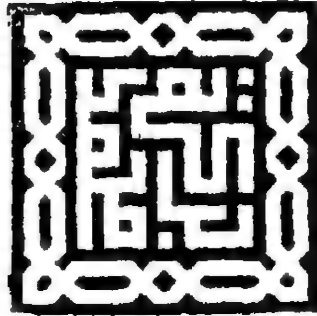


وألغيت بعض العادات التي كان يتبعها الحجاج ، كالبقاء على خصلة من الشعر عند حلاقة الرأس وفقاً للتقاليد ، وحظرت زيارة بعض الاماكن المقدسة التي دخلت من قبل في تقاليد الحج . وهكذا هدم مزار جبل البور الذي تقول التقاليد ان الملاك جبرائيل أملى فيه على النبي اول سورة من القرآن ، وأقيم حاجز كبير في أسفل الجبل للحيلولة دون صعود الحجاج إليه لاداء الصلاة فيه . وكذلك هدم مزار جبل عرفات نفسه .

وقد طبق الوهابيون ، على عكس ذلك ، نصوص الشريعة كما وردت في القرآن الكريم ، تطبيقاً مشدداً بجماسة كلية ، حتى ان احداً من الحجاج لم يجرؤ على التدخين . وأرسل سعود قاضياً وهابياً ليحل محل الحاكم الزنجي الذي كان قد عينه الشريف في مكة . ومنذ ذلك الحين ساد المدينة نظام جديد . فقد عهد الى الشرطة الخاصة بالحفاظة على مواعيد الصلاة ان تجوب المدينة لحل الناس على حضور الصلاة العامة خمس مرات في اليوم . وكان الصناعيون والتجار يجدون انفسهم مضطرين الى ترك مشاغلهم وحوانيتهم لاداء تلك الفريضة .

ولما عاد علي بك الى القاهرة خرج للاقائه عظماء المدينة ، واستقبلوه
استقبالاً حافلاً جديراً بمقامه الرفيع .

لقد عاد حاملاً لأوروبية معلومات جغرافية ثمينة ، وكشفاً دقيقاً
واعياً لسر الحج الى مكة ، واخيراً الشهادة التي كان في وسع احد ابناء
أوروبا ان يأتي بها عن وهابي تلك الحقبة ، حقبة بلوغهم أوج العز .
ولكن الايام لم تلبث ان قلبت لاهابيين ظهر المجن ، فمانوا
الاندحار ، وكان خلفاء علي بك الذين سيؤمنون شمالي الجزيرة العربية ،
سيلقونها خاضعة لسلطة مصر .





سيتزن وبوركهارت البدو والمدن المنقرضة في العربية البتراء

أخذت منطقة جديدة من شبه الجزيرة العربية تقرض على الأوروبيين
الالتفات إليها في أوائل القرن التاسع عشر ، لا على رجال السياسة منهم
بل على أعضاء الجمعيات العلمية والأدبية .

فقد قام فولني الأديب الشاب الذي كان يتوهم له بمستقبل باهر ،
برحلة إلى مصر وسورية بين سنتي ١٧٨٢ و ١٧٨٦ ، واعتبرت القصة التي
كتبها عنها أبرز ما كتبه . وكان قد فكر مثل غيره من المسافرين
بالتوغل في المنطقة السورية الفلسطينية المتاخمة لشبه جزيرة العرب ، التي لم
يكن أحد يجروء على المغامرة بدخولها خوفاً من البدو ، وهي العربية
البتراء التي كانت تمتد ما وراء الخط الروماني المحصن الذي عفا أثره .
ولكن الناس كانوا يعلمون ، وغم ذلك ، أن لا بد أن تكون فيها
أطلال مدن قديمة ، نشأت فيما مضى من حركة القوافل التجارية بين
جنوبي الجزيرة العربية والهلل الحبيب . وكان الناس يعرفون من المصادر
اليونانية واللاتينية أسماء هذه المدن التي ازدهرت في مطلع القرن الأول

الميلاد كجزايرة ، ولا سيما تدمر التي تمكنت ملكتها زنوبيا من تحدي السلطة الرومانية ، ومدت سلطانها من الفرات الى شواطئ البحر الابيض المتوسط ، ومن الصحارى العربية الى قلب آسيا الوسطى . ولكن فولني ، بالإضافة الى ذلك ، سمع العرب يقولون ان على مسيرة ثلاثة ايام من البحر الميت ، في تلك المنطقة التي تحمل على الحارطة اسم العربية البتراء ، ثلاثين مدينة خربة مقفرة كلياً من السكان . وقد قيل له ان بعض هذه الابنية ذات أعمدة ما تزال قائمة ، وان البدو يأخذون إليها مواشيهم في بعض الاحيان ، ولكنهم يتجنبونها لكثرة العقارب الضخمة فيها . فاستنتج فولني ان تلك الحرائب لا بد ان تكون اطلال مدن المنطقة التي اشتهرت في التوراة ، باسم آدوم ، وعرفها المؤلفون الاغريق باسم ابدومة .

فآدوم في العهد القديم موطن سلالة عيسو . وكان ايوب يقيم غير بعيد من هنالك ، بقطمان مواشيه العديدة المزدهرة ، فنكبت غزوات السبئين بالافلاس .

كانت ابدومة قد بلغت ذروة مجدها في العهد الروماني ، فقد تغنى فيرجيل ولوكان بنخيلها . ولكن ابدومة هذه ، او آدوم ، ليست سوى العربية البتراء كما اسمها الجغرافيان الاغريقيان سترابون وبطليموس . وقد خيل للبعض انها سميت بهذا الاسم لان لفظة « بترا » في اللاتينية معناها الحجارة ، ولكنها في الحقيقة دعت بهذا الاسم لأنها كانت محاطة بجبال صخرية كبيرة .

نجد الوصف التالي لها لدى المؤرخين ديوروس ، وبلين ، وسترابون :
 انها مدينة محاطة بأراضٍ صحراوية لا يجتازها إلا السكان المحليون دون التعرض للخطر ، لمعرفتهم بمخايب الآبار ، وهي محصنة تحصيناً طبيعياً مجاز من الصخور ، وهوات سحيقة ، غنية بنباتات الشرب وري البساتين معاً .

في الكتاب الذي أصدره الدكتور و. قنسان سنة ١٨٠٧ عن تجارة
الاقدمين في المحيط الهندي ، استنتج ان قوافل المعينين في داخل الجزيرة
العربية ، وجرة الواقعة على الخليج العربي ، وحضرموت الواقعة على
المحيط الهندي ، وسبشي اليمن ، كانت تتبعه طوال اجيال عديدة نحو بترا
كمركز مشترك لهم ، وان التجارة كانت تتفرع منها نحو مصر ، وفلسطين
وسوريا ، وعن طريق ارمينوه . (الفيوم) وغزة ، وصور ، ومقدس ،
ودمشق باتجاه البحر الابيض المتوسط .

وقد حاصرها القائدان بومبيوس وتراجان دون ما طائل لكونها مدينة
حصينة . ثم غدت مدينة ميتة ، اتخذت تحت احجارها المقارب الضخمة
مخابرء لها . ألا ما اكل ما تحققت لعنات الانبياء التي صبوها على
ايدوم المتكبرة :

هكذا تكلم الرب .
حين ترتقش الارض كلها ،
سأجعلك يابا
ستكتسح با جبل سمير
وكذلك ايدومي كلها .

(حزقيال ١٥ - ٢٥)

لأنني ما قد جعلتك صغيرة بين الامم
مقيدة بين الناس
لقد أضلك الذعر الذي كنت توحين به
وكبرياء قلبك ،
انت التي تقطنين تجاوبف الصخور
وتشغلين أعلى التلة
ولكن عندما تجعلين مقرك عالياً كمش النسر

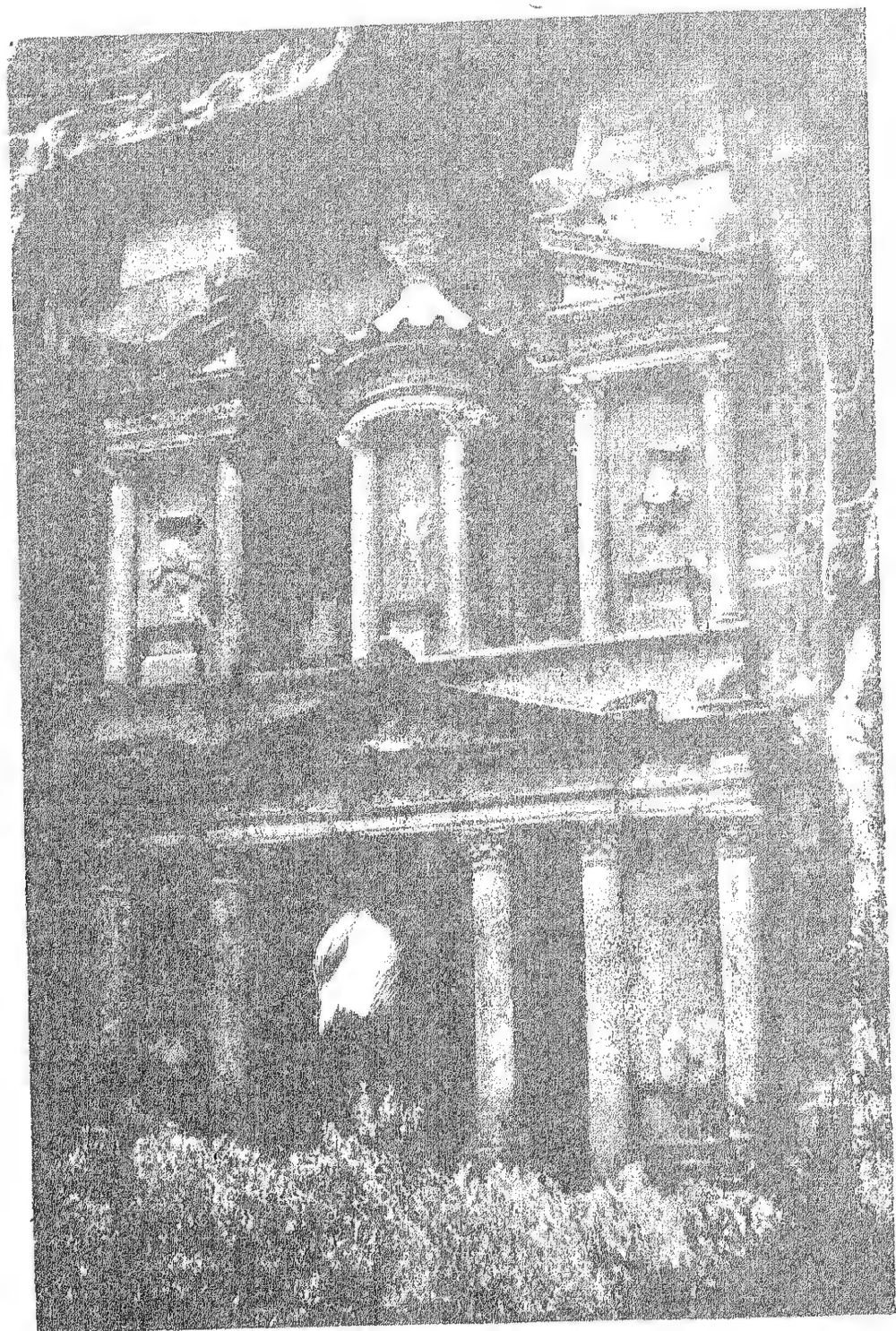
سأترك من هناك - هاتف من يوه :
ستستحيل آدم موضع ذهول ،
وسيصفر العابر المدهوش امام أطلالها ...
لن يسكنها أحد
لن يبيت فيها اي ابن بشر .

(ارميا ص ٦٩ ، ١٥ - ١٨)

من جبل الى جبل ستظل حزينة :
ولن يمر فيها أحد البتة .
ستصبح مقراً للبوم ومالك الحزين ،
وسيسكنها الصدى والغراب .
سينثر عليها يوه ،
جبل الخواء وميزان الفراغ
لن يكون فيها عظماء ينصب منهم ملك
وستقطع شاة الامراء جميعهم
ستنبث الاشواك في قصورها
والموسج وشوك الجبال في قلاعها ...
سيلتقي فيها الكلاب والمررة المتوحشة ،
وسيتنادى إليها متوحشو الغابات
هناك ستعشش الأفاعي وتبيض
وستترخم وتجمع صفارها في ظلها .

(إشعيا ص ٣٤ ، ٩ - ١٥)

ولن يبقى أحد حياً من بيت عيلسو
لأن يوه قد تكلم .
(عبدياس ص ١٨)



مشهد من آثار بترآ تصوير البعثة الأثرية الفرنسية سنة ١٩١٤

ما زلنا نجهل كيف أصاب الحراب بتراء الآدوميين بعد أيام الانبياء
بزمان قصير . ولكن من المعروف ان الانباط استقروا فيها في القرن
الخامس قبل الميلاد . وما هي ذي اللعنات تغدو حقيقة من جديد وإلى
ما شاء الله . ولم تكن هناك مدينة البتراء العاصمة وحدها ، بل كانت مدينة
ديدان في الجنوب على طريق القوافل الصاعدة الى العربية السعيدة ،
فالخرائب التي ظنها دي فارتيا اطلال سدوم وعمورة ، كانت خرائب مدن
القوم الذين « عاقبهم الله بأعجوبة منه » .

كانت هذه العربية البتراء مزمنة ان تجتذب منذئذ رغبة العلماء الحارة
في المعرفة . وقد جاء الى شواطئ سورية بالتتابع سنة ١٨٠٢ وسنة
١٨١٠ بقصد الدخول الى هذه المنطقة ، الرائدان ستيزن وبوركهارت .
والتطابق بين مصيريهما مدهش حقاً . لقد أنهى كل منهما دراسته في جامعة
غوتنجن ، وكتف كل منهما خصيصاً كي يغدو رائداً ، ولم تكن الرحلة
بالنسبة الى كل منهما إلا مقدمة الى اعمال اوتباد اوسع نطاقاً ، وقد
سعى كلاهما الى رؤية الاشياء ذاتها ، وقاما بإتمام منهج رحلات واحد .
على ان الموت الذي ترك لاحدهما بعض الوقت فقط ، لتدوين قصته ، لم
يجرمننا بما كان يتوقع الآخر من مستقبل لامع ، ومن كل الملاحظات التي
خطها عن رحلاته ، متيحاً بذلك لاحدهما ان يبرز الشهرة التي يحتمل ان
الآخر كان أجدر بها منه .

كان اولريخ باسبار ستيزن اول من قام منها برحلته . لقد رأى النور
في قرين الشرقية ، واصبح بعد انجاز دراسته ، مستشاراً مستمعاً في احدى
الامارات الالمانية الصغيرة التابعة آنئذ لقصر روسيا . ولكن بما أنه
كان يحلم بأن يغدو رائداً ، فقد جد في ان يحصل على الثقافة اللازمة
لذلك . وتمكن من ان يحصل على حماية فون زاخ القائد الأعلى في بلاط
ساكس غوتا ومحرم المجلة العلمية المعروفة بـ « الرسالة الجغرافية والفلكية » ،
لكونه عالماً نباتياً شهيراً ، ومدققاً ممتازاً ، ومتضلعا من اللغة العربية .

ولقي في الوقت ذاته تشجيعاً من الحكومة الروسية التي كانت خطته في زيارة آسية الوسطى ملائمة لمصالحها ، فغادر المانية قاصداً سورية في سنة ١٨٠٢ . لقد أراد بادىء ذي بدء ان يبلغ خرائب مدينة جزاره القديمة التي كانت تمر فيها القوافل . ولكن البدو ضلّوه بدافع الحذر ، قبل ان يبلغ هدفه . الا انه شاهد واجتاز تلك المناطق التي كانت تحبىء لعلماء الآثار الكثير من بقايا ذلك الازدهار العريق في القدم ، وتجارة القوافل التي كانت في عهد الرومان تملأ تلك المناطق الموحشة حياة ، مناطق اللجا ، وحرران ، حيث يلاحظ « ان كل قرية تحوي إما كتابات اثرية يونانية ، او اعمدة او بقايا اخرى من العصور المتقدمة العهد . » بلاد غريبة لا يظهر للعين فيها « الا الحجارة الصوانية المسامية في اغلب الاحيان ، التي تشكل في اماكن كثيرة صحارى شاسعة من الحجارة والقرى المتهمة واقعة ، على الغالب ، على سفوح صخرية ، ولون الحجارة الصوانية الاسود » والمنازل ، والكنائس ، والأبراج المتهمة ، وانعدام الاشجار والحضار الكلي ، يضفي على هذه المناطق مشهداً قائماً كثيباً يبعث في النفس الذعر .

في السنة التالية (١٨٠٦) وجد ستيزن دليلاً من اتباع المذهب الارثوذكسي كان قد عاش ابتداء من الخامسة عشرة من عمره ، ثلاثين عاماً بين افراد عشيرة عنزة ، يرافق احد تجار دمشق في بادىء الأمر ، ثم يتعاطى التجارة لحسابه الخاص .

خلال الجولات التي قام بها برفقة هذا الرفيق البارِع ، سأل ستيزن عن قبائل البدو في المنطقة كلها ، وكانت هذه المحادثات مشرة الى درجة انه ما كاد يصل الى القاهرة حتى أفاد من اوقات فراغه فدوّن لنا كتاب « بحث يصلح للتعرف الى قبائل البدو العربية في سورية ، والعربية الفقراء ، والعربية البتراء ، وهو المؤلف الوحيد الذي خلفه لنا بنتيجة رحلت الارتيادية .

لقد جال بصحبة دليله ، المنطقة الواقعة ما وراء البحر الميت ، وبلغ
حدر شبه الجزيرة العربية حيث كان يريد اكتشاف موقع مدينة
البتراء القديمة .

وتجول في المنطقة كلها غير وجل ، ولكنه ، على الرغم من قرب
الكل من البتراء لم يتمكن من الاهتداء إليها .

ولكي يفهم القارئ درجة الصعوبة التي قبلها العقبات التي تعترض مثل
هذه الرحالة ، يجب ألا يتذكر وحسب طبيعة منطقة آدوم الصحراوية في
الوقت الحاضر التي لا يستطيع المسافر ان يتعرض للغامرة فيها من غير
دليل ، بل يجب ان يدخل في حسابه ايضاً الافكار المسبقة التكوينية لدى
البدو الذين ينتقي من بينهم الدليل .

وقد وجد بوركهارت دليلاً كهذا بعد مرور بضع سنوات على ذلك
وكتب يقول : « من المؤسف ان فكرة الكنوز الدفينة في الابنية
القديمة ، راسخة عميقاً في اذهان العرب والأتراك . فهم لا يكتفون
بمراقبة كل خطوة يقوم بها المسافر ، بل يعتقدون انه يكفي الساحر
الحقيقي ، ان يرى ويتفحص الاماكن التي أخفيت فيها الكنوز - التي
يعتقدون ان له علماً مسبقاً بها من مطالعته للكتب القديمة التي وضعها
الكفار الذين كانوا يقيمون في هذه الاماكن - كي يصبح قادراً على ان
يصدر متى شاء امراً الى الجنى حارس الكنز ، بإحضاره الى ما بين يديه ، وإذا
قاس المسافر أبعاد احد الأعمدة ، اعتقدوا ان ذلك العمل طريقة من
الطرائق السحرية » وإذا ما أضيف الى ذلك شعور الحذر الذي يشعر به
البدو تجاه اماكن الكفار الملعونين ، التي تختبئ فيها العقارب ، أدرك
القارئ الصعوبة الكبرى التي لقيها ستيزن في العثور على من يدلّه عليها .

وقد اضطر ستيزن الى الاكتفاء بالوصول الى جبل سيناء من طريق
لم يسلكها احد من قبله . ثم عاد الى القاهرة عن طريق السويس .

وهناك ، لكي لا تسد طريق المدن الاسلامية في وجهه ادعى علناً انه مهتد حديثاً الى الاسلام ، وانه راغب في اتمام تنشئته الدينية . فأدى في الثالث من شهر تموز (يوليو) من سنة ١٨٠٩ شهادة اعتناقه الاسلام علناً . واستطاع آشد ان يرافق قافلة الحجاج الذاهبة من القاهرة الى مكة ، فوصلها في العاشر من تشرين الاول (اكتوبر) . وكل ما نعرفه عن رحلته ما ورد في الرسائل التي كان يوجهها الى فون زاخ الذي كان قد شمله بحمايته .

وبينا كان يسلك الطريق الى ميناء ينبع حاول ان يبعث عن خرائب ادمية اخرى ، كمدائن صالح التي عرف من العرب ان فيها آثاراً هامة ، ولكن دليله حمله على التخلي عن تلك الفكرة لما فيها من الاخطار . وقد قام في احدى رسائله بوصف مكة وجماهير الحجاج وصفاً رائعاً ، وكان أسعد حظاً من علي بك إذ تمكن من بلوغ المدينة التي كان يؤمها الحجاج سراً لأن الوهابيين الذين كانوا ما يزالون يحكمونها قد حظروا يومذاك زيارة اي مكان آخر غير مزارات الحج في مكة . فرسم مخطط البلدة بعص الرسوم .

وأبحر في السادس والعشرين من شهر اذار (مارس) من سنة ١٨١٠ الى جدة للوصول الى اليمن . وقد نزل الى اليابسة في ميناء الجديدة في ٨ نيسان (ابريل) حين كانت المرافئ كلها خاضعة لسلطة شريف ابي عريش لا لسلطة امام اليمن . وقد لاحظ ان بيت الفقيه قد حل بمعظمها الخراب . فاجتازها الى زبيد الشهيرة بعلمائها والتي كانت قد فقدت الكثير من الأعلام . وتوجه الى دوران بطريق حجة ، وقسة ، وسلفيجي ، ومكث فيها شهراً واحداً ملازماً الفراش بسبب مرضه . واخيراً وصل الى صنعاء في الثاني من شهر حزيران (يونيو) .

هناك وطد العزم على البعث عن الكتابات الأثرية التي ذكر خبرها

نيبور ، فأخذ يسمى للعثور على ضرف هدافة الذي الى نيبور على ذكره .
ولكن ، ما من احد كان يعرف عنه شيئاً . فسعى هو بنفسه حتى
وصل الى ظفار التي بدا له انها المكان الذي اساء نيبور فهم اسمه ، وكانت
عاصمة الملوك الحيريين القديمة ، وفقاً لما كتبه المؤلفون الاغريق . ولم
يتمكن من ان يجد فيها خرائب ، لكنه عثر على قليل من الكتابات
الأثرية ، اثنتان منها على حجارة استعملت للمرة الثانية في بناء بعض الجدران ،
واشتري الثالثة في مكان أبعد ، ولحظ خمس احجار اخرى في منكب
مستعملة في احد جدران المسجد .

بعد ان وصل الى النجا كتب الى احد من بسطوا عليه حمايتهم ليهدي
إليه باكورة هذه التحفة العظيمة . فقد أرسل إليه نسخاً ، تصعب قراءتها
في الحقيقة ، عن أربع كتابات أثرية قام بنسخها من غير ان يلحظه
احد ، ورسماً متقناً واميناً جداً للعجبرة التي كان قد اشتراها . بفضل
هذه الرسالة ، عرفت أوروبا للمرة الأولى ما هي الكتابة الأثرية الحيرية .
وبقي ستيزن لا أول من رأى بأمر العين كتابات معبد مأرب الأثرية لأن
الأب باثر كان قد شاهدها من قبله ، بل أول من استفاد من رؤيتها .

وكتب أيضاً من النجا ، آخر رسائله الى فون زاخ .

من هناك ، أراد ان يتجه براً الى العربية الوسطى والخليج العربي .
فلك طريق اليمن الداخلية ، ثم عاد من الطريق التي سلكها مثيراً
الشبهات ، مرتكباً خطأ فادحاً . فاكشفت مجموعته الخاصة بالتاريخ
الطبيعي وصودرت ، بحجة انه يستخدم هذه الحيوانات الميتة لاجراء
عمليات سحرية تنضب الينابيع . فأراد أن يسرع بالذهاب الى صنعاء
ليقدم شكوى الى الإمام . ولكنه توفي مسموماً في قمز ، في كانون
الاول (ديسمبر) من سنة ١٨٩١ ، وظن ان الامير هو الذي أمر
بذلك . وعرف من رسائل كونستان التي يرجع تاريخها الى اواخر سنة



اولريخ جاسبار ستيزن

١٨١٥ ان الإمام احتبس ظناً منه انه سيجد كنوزاً بين أمتعه وأنه
دهش كل الدهشة لعدم عثوره إلا على بعض الأدوات الفلكية ، والاعشاب
الجففة ، والكتب ، ومبلغاً زهيداً بلغ ستائة قرش .

★

لقد فقدت المجموعات والملاحظات والدفاتر وكل شيء ، وكان الاخفاق
خاتمة لرحلة ستيزن التي كانت مهبأة ليفيد منها العالم أعظم إفادة .
على ان رحالة آخر كان مزمماً ان يسير على آثار ستيزن ، وان
ينجح في كل مكان فشل سلفه فيه . فبعد انقضاء سبع سنوات على ذلك ،
تأثر خطأ ، يتبعه اتباع الظل لصاحبه ، فنجح التابع الحلي ، في حين
ان المتبوع كان قد دخل عالم الأرواح .

وُلد جوهان لودفيغ بوركهات سنة ١٧٨٤ في لوزان ، وبعد أن
أنهى دراساته في لايبزيغ ، ثم في جامعة غوتنجن التي درس فيها ستيزن ،
توجه الى بلاد الانكليز ، ودفعته رغبته في تكريس نفسه للارتداد الى
عرض خدماته على الجمعية البريطانية الافريقية فقبلتها .

أخذ عندئذ يدرس العربية ، والكيمياء ، والطب ، ويتمرن في
الوقت ذاته على قطع مسافات طويلة سيراً على القدمين ، في الشمس ،
مكشوف الرأس ، يفتش الارض ، لا يأكل إلا الخضار ولا يشرب
إلا الماء .

في شهر اذار (مارس) من سنة ١٨٠٩ ، فيما كان ستيزن يكتب في
القاهرة مذكراته عن البدو منتظراً سفر القافلة الى مكة ، غادر بوركهات
بلاد الانكليز متوجهاً الى سورية ليقوم بزيارة المناطق المتاخمة لشبه الجزيرة
العربية ويجمع المعلومات عن البدو ، وليذهب بدوره لاكتشاف البتراء ،
بعد ان أضاف الى جهوده في التمرس الجسدي ، على حياة العرب الحقيقية ،
جهوداً ذهنية مضاعفة للاطلاع اطلاعاً وافياً على القرآن وشروحه التي
كتبها كبار علماء الدين المسلمين ، الى درجة انه لم يتمكن فقط من

الظهور بين الناس باسم الشيخ ابراهيم المسلم ، بل من ان يشتهر بكونه عالماً عظيماً في شؤون الاسلام .

قضى سنتين يتنقل خلالها على التخوم السورية العربية يجمع المعلومات عن البدو . وبعد ان اختتم زيارته لشبه جزيرة العرب ، وعاد الى القاهرة ، اضطر الى اللجوء الى سيناء هرباً من وباء الطاعون الذي كان منتشراً في مصر ، وهناك أتمّ تمرسه بعادات البدو يعيشه بين ظهرانيهم .

وعلى غرار ستيزن ، أصدر ملاحظاته في كتاب اكثر تفصيلاً من كتاب سلفه اسماء بكل تواضع و ملاحظات عن البدو والوهابيين . والمطابقة بين « بحث » ستيزن و « ملاحظات » بوركهارت شديدة واضحة الى درجة انه لا يمكن التصديق ألا يكون بوركهارت قد اطلع على كتاب ستيزن الذي طبع منذ سنة ١٨١٠ ، فحذا حذوه ، بحيث أدى الكتابان الى نتيجة مشتركة واحدة ، فملاحظات احدهما الغنية الدسمة ، ليست سوى توسيع لبحث الآخر .

على انه من الواجب الاعتراف بأن بوركهارت قد أوغل في البحث أبعد مما فعله ستيزن بكثير . فقد تمكن دفعة واحدة ، من ان يقدم لوحة عن المجموعات القبلية ، والمميزات السياسية الخاصة بكل منها ، وعن حالتها الاقتصادية ، وتنظيمها الاجتماعي ، ومبادئها الاخلاقية ، وعاداتها . ان ما وضع ستيزن له إطاراً ، قام بوركهارت بالتنقيب العميق عنه بعناية ودقة راعية الى درجة ان في الامكان ان يعزى له الشرف في اكتشاف المجتمع البدوي اكثر من اكتشافه لبترا . فهو لم ينظر الى هذه الاخيرة الا سطعياً في حين انه أثار الاولى لإنارة نهائية .

لا شك في ان دارفيو رأى كل ما هو اساسي وذكر عنه ، ولكن لكي يدرك المرء كل ما كان قد تبقى للملاحظة والفهم ، يجب ان يقرأ ملاحظات الرحالة السويسري ، الذي رأى البدو الاقحاح ، غير الخاضعين

لأي نفوذ تركي .

وهؤلاء البدو يمتازون عن بدو اواسط شبه الجزيرة العربية بأنهم يقيمون في المناطق المتاخمة لسورية وفلسطين ، وان القافلة التي تتجه في كل سنة من دمشق الى مكة تمر في اراضيهم ، مدرة عليهم نوعاً من الوارد خاصاً بهم ، سبق لستيزن ان لاحظته .

والبدوي ، بحكم كونه مرهوب الجانب ، يتقاضى نوعاً من الخوة من القرى المجاورة للحدود التي تشتري أمنها بضريبة تؤديها سنوياً ، كما يتقاضاها من قافلة الحجاج او من عابري السيل العادين . ان خازن والي دمشق يرافق القافلة ، ولا يكاد يبلغ مديرب حتى يجد فيها شيوخ القبائل المذكورة اسماؤهم في قائمة اصحاب الحق في صرة السلطان مجتمعين ، فيوزع عليهم هذا الاستحقاق السنوي الثابت الذي يدفعه لهم سيد القسطنطينية الأعظم . اما القبائل التي لا ينال شيوخها الصرة ، فانها تتلقى منعاً من الجبوب والدرام والنياب ، تعويضاً لهم عن مرور القافلة في اراضيهم .

ويجب على عابر السيل العادي ان يؤدي رسم مرور ، وإذا ما طلب مرافقاً فينبغي ان يدفع لمرافقه مبلغاً يتفق عليه فيما بينها . وإذا ما أراد بعض التجار الدخول الى اراضي قبيلة ما ، وجب عليهم ان يجدوا « اخوة » في القبيلة يقدمون لهم منحة سنوية ويدفعون لهم نقداً ثلاثة قروش عن كل حمل يدخل الى اراضي القبيلة .

ولكن قبيلة البدوي الحربية تجعل منه حامياً كفواً . لذا فان القبائل تتمتع مقابل هذه الرسوم ، ان تحمي دافعها من كل الاخطار ضمن حدود اراضيها ، ان السلامة تشتري منهم شراء ، ولكنها سلامة مضمونة .

وتتكشف لبوركهارت بدوره الحالة القائمة التي سبق لدارفيو ان

لاحظها ، فعشيرة الفعيلي ، مثلاً ، تؤدي ضريبة سنوية لباشا دمشق عوضاً من ان تدسلم منه الصرة ، ولكنها لا تفعل ذلك إلا لكي يسمع لها الوالي باستيفاء ضريبة من عرب اللجا ، ويقدم لها بعض الجنود لمؤازرتها في هذا العمل ، فهذه المنطقة تحتوي على مخابىء حصينة ، ولا يلتئم شمل القبيلة إلا في فصل الصيف حين يضطرها نقصان الماء الى ذلك ، ويتيسر عندئذ استيفاء الضريبة منها .

وتختلف احوال القبائل بعضها عن بعض . فالقبيلة منها تتقاضى صرة عظيمة توزع قسماً منها على قبائل اخرى ، فقبيلة الحويطات مثلاً ، تستهلك كميات كبيرة من الأنسجة والمواد الغذائية ، الى درجة انها افتتحت خاناً خاصاً بها في القاهرة ، يحل فيه افرادها حين يجيئونها في قافلة جمال سنوياً ، قاطعين صحراء سيناء لشراء حاجياتهم .

وبعض القبائل تعتبر نصف تجارية . فقبيلة النعيم مثلاً تنقل فمعم الحطب الى دمشق وتدفع الجزية للوالي ، وقد اشتهرت بحسن اخلاقها .

على ان بينها قبائل محرومة من الارث ، وهي سهل الحامض على ما يذكر ستيزن « قبائل صليب العربية التي تعيش حياة همجية مطلقة ... فكل أسرة فيها تنفرد عن الاخرى وتشغل بقعة قطر دائرتها بين اربعة وخمسة فراسخ . يكتسي رجالها ونساؤها بجلود الغزلان وغيرها من الحيوانات ، ولا يعبشون في خيام ، بل في مغاور او حفر كبيرة يحفرونها في الارض ، ولا يربون لا خيلاً ، ولا إبلاً ، ولا غنماً . على ان لكل أسرة حملاً واحداً يحمل عليه محصول القنص الذي يجنيه الرجل المسلح ببندقية ، والمسؤول عن إعالة الأسرة بكاملها . ولا يعرف معظم هؤلاء الاعراب طعاماً غير لحوم الطرائد ، وإذا زاد شيء منها عن حاجتهم جففوه واحتفظوا به . على انهم يجمعون ريش النعام الذي يبادلونه في اقرب مكان معبور ، ولا سيما في منطقة حوران ، بالبارود والرصاص ،

وحجارة البنادق والكبريت ، والقمح .

يذكر بوركهارت ، بعد ستيزن ، بعناية فائقة ، اسماء القبائل الكبيرة ، وأفخاذ العشائر في كل منطقة ، ومنزلة كل منها الخاصة ، حسب عدد رجالها القادرين على حمل السلاح ، وعدد الخيام فيها ، والبنادق في كل خيمة ، والحيل والإبل . ويذكر ان بعض القبائل خاضعة لسلطة الروايين وبعضها حرة ، وأن القبائل الاولى تؤدي للعاهل السعودي جزية سنوية تسمى « الزكاة » الغاية منها نشر الدعوة الدينية .

وهو يسجل الكثير من المعلومات عن طرائق القنص لديهم - بالبزاة او بنوع من الحررة البرية المروضة ، وعن اسلحتهم ، وملبسهم ، واثاثهم ، وماكلهم ، والامراض المنتشرة بينهم ، وعاداتهم ، والقضاء عندهم .

وتتضمن روايته تفاصيل دقيقة الى درجة تصبح فيها خيمة البدوي في نظر القارئ عالماً مألوفاً ، فيعرف كلاً من اعمدها القسعة باسمه ، والقطع المضافة إليها لتقويتها ، وقطع القماش المتدلية من أركانها ، وسوية الجبال ، وبطلع على تنظيم المسكن الدقيق ونظامه ، فالخيمة تقسم الى قسمين ببساط طويل من الصوف الابيض المنقوش ، قسم للرجال في الجهة اليسرى ، وآخر للنساء في الجهة اليمنى . وقسم الرجال مصكوسة أرضه بسجادة عجيبة او بغدادية . وقد كومت اكياس القمح والامتنعة التي تشكل اجمال جمال حول العمود الاوسط بشكل هرم . وجمال الجمال التي يستند إليها الجالسون توضع بين هذا الهرم وحاجز المؤخرة ، لأن وضعها قرب مدخل الخيمة يعد اخلاقاً بواجب الاحترام واللباقة .

اما قسم النساء فمتودع لأدوات الطبخ والزينة وقرب الماء ، وسائر الاشياء الحفيرة ، الموضوعة كلها قرب العمود المعروف بالحاضرة حيث يجلس العبد وينام الكلب اثناء النهار . ويتقدم طرف غطاء الخيمة دائماً من جهة قسم النساء ، ويظل متديلاً خافقاً في الريح ، ويعرف

هذا الركن بالرواق . ولا يسمع اي رجل يذن بسمعه ، لنفسه بالجلوس تحت هذا الركن ، ومن ثم الاهانة المعروفة : « مكانك تحت الرواق » التي تدل على انحطاط اخلاق من توجه إليه .

لا تنصب الخيام لاكثر من ثلاثة او اربعة ايام على الاكثر ، ويتألف الخيم من ثماني خيام الى ثمانية خيمة حسب الظروف . ففي فصل الشتاء حين يكثر الماء والمرعى ينتشر افراد العشيرة في السهل جماعات جماعات تتألف كل منها من ثلاث او اربع خيام ، يفصل بين الجماعة والاخرى مسيرة ساعة ونصف الساعة .

والخيم الكبير على نوعين : الدوار إذا كانت الخيام قد نصبت بشكل دائرة ، والنزل إذا كانت منصوبة في خطوط . وتنصب الخيمة دائماً من جهة الغرب ، وهي الجهة التي يتوقع قدوم الأعداء والضيوف منها . ومقاومة الأعداء واستقبال الضيوف ، من مهام الشيخ الرئيسية ، وبما ان العوائد تقضي بأن يتوقف الضيف لدى اول خيمة في الخيم ، يجب ان تنصب خيمة الشيخ في الجهة التي يأتي منها اكبر عدد ممكن من الغرباء ، حتى انه من العار على رجل غني ان ينصب خيمته في جهة الشرق .

إن ميزة الشيخ الحقيقية ، بالفعل ، ليست الميزة التي يُعرف بها الزعيم الغربي . وليست قوته وامتيازاته شبيهة بما نستطيع تصويره نحن . يقول بوركهارت : « لا سلطة حقيقية للشيخ على افراد قبيلته ، على الرغم من ان المناقب الشخصية التي يتعلّق بها يمكنه من فرض سلطة هائلة ، فعدم إطاعة اوامره شيء ممكن ، إلا أن آراءه محترمة كل الاحترام ، فيما اذا كان يُنظر إليه كرجل بارع في الشؤون العامة والخاصة . »

يحاول الشيخ ، في حالة وقوع نزاع ان يحله ، ولكنه لا يستطيع

ان يفرض شيئاً بصدده . « لا يمكن إقناع العربي الا عن طريق اهله ، وإذا ما أخفق اهله ، نشبت الحرب بين الأمرين واقرباء كل منها ، ومن ثم يعلن البدوي صادقاً انه لا يعرف سيداً إلا سيد الكون الاعظم . فشيخ عشيرة ، في الحقيقة ، عاجز عن فرض أخف عقوبة على فرد من افراد عشيرته ، من غير ان يعرض نفسه لثأره وثأر اقربائه ثأراً دمويّاً . لذلك لا يجب اعتبار الشيخ او الامراء - كما يسمي البعض انفسهم - كأمرأه حقيقيين في الصحراء ، فإن الميزات التي يتمتعون بها تنحصر في قيادة العشيرة في محاربة العدو ، والقيام بمفاوضات الصلح والحرب ، وتحديد مواقع النجوم ، وإطعام كبار الغرباء ، وهذه الميزات بدورها محدودة جداً . فلا يستطيع الشيخ ان يعلن الحرب ، وان يتعاقد على الصلح ، من غير استشارة أكابر القبيلة ، كما ان عليه قبل ان يأمر بانتقال الحيم من مكان الى آخر ، استشارة القبيلة عن سلامة الطرق ، وكية المرعى ، والماء في المناطق التي يريد الانتقال إليها . ان اوامره لا قطاع ابداً ، ولكن الناس يقتدون به عادة !

« وليس للشيخ أي دخل سنوي من القبيلة او الحيم . لكنه مجبر ، على العكس ، حفاظاً على كرامته ، على تكبد نفقات طائلة ، وعلى اكتساب الثقة بأعمال الجود ، وتحقيق ما يتوقعه منه افراد القبيلة عموماً ، عليه ان يقدم الطعام للغرباء بصورة افخر ، ما يستطيع اي فرد من افراد العشيرة ان يفعله ، وإعالة المحتاجين ، واقتسام الهدايا التي تقدم إليه مع اصدقائه ، اما الوسائل التي تمكنه من تحمل هذه النفقات فهي استيفاء الجزية من بعض القرى السورية ، ومداخيله من قوافل الحجاج الى مكة .

« وإذا مات احد الشيوخ ، خلفه احد ابنائه ، او اخوه ، او احد اقربائه المشهورين بالشجاعة والكرم . ولكن من الممكن ان ينتخب

للمشيخة اي فرد من افراد القبيلة متفوق بالشجاعة والجلود .

ويُخلع الشيخ احياناً وهو ما يزال في قيد الحياة ، وينتخب محله من هو أجود منه .

ألا تكشف لنا هذه الصفحة على بساطتها عن خلق العاهل العربي ؟ ان الزعيم العربي ، حتى اذا أصبح ملكاً ، يظل محتفظاً بما للشيخ العربي من مثل أعلى ، ومن تمسك بالفضيلة والشرف . ومن ثم ذلك الصك المفرط ، والبذخ ، اللذان لا فائدة منها للشؤون العامة ، اذ ليس هنالك شؤون عامة ، بل رفاق حياة وقاتل ، وهم يتبعون المثل الأجدد لمثلهم الاعلى في الفروسية .

إن هذا لا يمنع ان يكون الغزو في عداد نشاطات الفروسية لدى البدو . « ويمكن التأكيد نوعاً ما ان البدو مضطرون الى الغزو » . فهم لا يستطيعون العيش على المورد الذي يأتيهم من الماشية ، « ويعلمون حق العلم أنهم إذا ظلوا طويلاً في حالة سلام ، نقصت ثرواتهم ، لذا فإن الحرب والغزو يصعبان ضروريين » .

ولكن هذه الحرب مرتبطة بقانون شرف ، وهذا القانون لا يسمح بالقتل في سبيل النهب الا اذا كان هنالك ثأر . ويمكن الخطر في ان يكون المهاجم اقوى من يغير عليه ، وان تتوافر له احتمالات النجاح ، فهم يغيرون على الخيم ، ويهدون الحيام على رؤوس سكانها ، ويهربون بالغنية ، ويكتفي الفارس عليه الشاعر بضعفه ، بمطاردة المغير ، واسترجاع ما أمكن من الأسلاب . وهذا النوع من السلب لا يعد في نظر الاعرابي جريمة ، على رأي دافيو ، كما ان القنص في نظر الاوروبيين لا يعد كذلك ، ونحن نقول الآن مع بوركهاوت انه نوع من الرياضة ، واذا ما أريق في هذه الرياضة دم ، حق عندئذ الثأر بكل قانونه المعقد ، هذا الثأر الذي قد يؤدي الى الحرب .

والفزو رياضة متميزة ، وكثيراً ما يتجلى في توجه ثلاثة رجال مشياً على الاقدام نحو نخيم يجب بلوغه لبلاً بقصد سرقة بعض الماشية من غير إلفات الانظار والتعرض للمطاردة ، والسارق الذي ينجح يعد لاعباً ماهراً ، ولقب « حرامي » هو من الالقاب التي تدل على البواعة والمهارة ، ولكن ، إذا ما استيقظ صاحب الحيمة التي سرقت منها الماشية ، ويمكن من إلقاء القبض على السارق ، فان هنالك قانوناً ينظم تصفية حق المروق منه على السارق ، وهو احتجازه في الحيمة شبه مدفون تحتها دون المخاطرة بقتله ، حتى يأتي افراد عشيرته ليفسدوه . وللسارق الحق في الحرب ، ولكنه يحاول قبل كل شيء اللجوء الى وسيلة شريفة في نظر العرب ، وهي وسيلة « الدخيل » وهي ان كل انسان ، كائناً من كان ، يطلب حماية إنسان آخر ، فيجب على من تطلب منه الحماية ان يمنحه إياها على الفور ، وعليه ان يقوم بكفالاته او ان يدافع عنه حسب نوع القضية . وهكذا اذا ما استطاع السارق ان يلبس شخصاً ثالثاً طالباً الدخالة عليه ، فترجب على هذا الاخير ، ولو كان جاراً للمروق منه ، ان يجرده بكفالة القدية التي يتعهد السارق بدفعها . والسارق ، من جهته ، يقتضيه الشرف ان يفي بتعهدة ، وألا يخيب ظن كفيله ، واذا أخل بتعهدة ، اعتبر بائناً ، وخائناً ، وعادراً على عشيرته ، وجاز لمن يلقاه ان يسلبه ويقتله .

ان تحمل المصاعب ، والشجاعة ، والابلاء البلاء الحسن في المعارك ، موضوعات لأغانٍ تنشدها النساء على قرع الطبول ، في ايام الاعياد ، ومن منتظمات في جماعات عديدة وراء الحيام .

واذا كان للرجال باورهم أغان حربية ، واخرى للاشادة بالزعيم ، فلهم ايضاً أغان للعب ، فالعاشق المسهد ، يذهب في الليل الى قسم ارجال من الحيمة التي تقيم فيها حبيبته ، او الى خيمة مجاورة لها ،

ويأخذ واصحابه في إنشاد « الميمني » نشيد الحب حتى مطلع الفجر .



هكذا يصور لنا بودكهارت الحياة البدوية ، والروح التي تبث فيها الحياة : « ويمكن التأكيد ، ان الثراء وحده لا يستطيع ان يعطي الرجل أهمية بين اهل في حياة البداوة ، فالرجل الفقير المضيف ، الكريم حسب امكاناته ، اي الذي يذبح دوماً ذبائح للغرباء الذين يحلون ضيوفاً عليه ، والذي يدير القهوة على زائريه ، والذي يفتح كيس تبغ دائماً للزلايين اصحابه ، والذي يشرك اقرباءه الفقراء بغنائه ، والذي يضحى بآخر فلس يملكه في اكرام ضيوفه والتفريغ من كربة المصكرويين ، يكتسب في نظر عارفيه احتراماً وقدرأً اكثر من الغني البخيل الذي يتلقى الضيف ببرودة ، وبدع اصحابه المعوزين هلكون جوعاً .

« بما ان الغنى في هؤلاء القوم من الغزاة لا يكسب صاحبه أي اعتبار ، او نفوذ ، لا يحصل الغني من وراء ثرائه على أي ملذة يحرم منها الفقير بسبب فقره ، فأغنى الشيوخ يعيش كأفقر أفراد العشيرة ، كلاهما يأكلان النوع ذاته ، والمقدار ذاته من الطعام ، إلا إذا جاء ضيف ، وفتحت خيمة مستقبلة لجميع اصحابه ، لكل منها ذات الثياب المتواضعة ، وذات المشلع . وأغلى أمنية يستطيع الزعيم ان يحققها اقتناء فرس للسباق ، والتسكن من رؤية زوجه وبناته احسن زينة من سائر نساء الخيم .

« لا يعرف البدو للافلاس معنى ... فالبدوي يفقد ما عنده إذا سرق منه او نهب ، او أنفق على ضيوفه . وفي هذه الحالة يثني عليه أفراد العشيرة جميعاً ، والعربي الكريم الذي يتعلّى عادة بقضائل غير الفضائل المعروفة لدى الحضرة ، لا تنقصه الفرص السعيدة للتعويض عما فقدته بتلك الطريقة الشريفة .

وقد شرح بوركهات اخيراً رأياً مناقضاً للرأي العام الغربي فيما يختص هؤلاء الغزاة ، الذين لا مثل لهم في كرم الضيافة ، وحماية من يأتونهم على انفسهم . وقد اكتشف لنا فيهم ، من خلال اسلوبه المعتدل الدقيق ، رجالاً استطاعوا في فقرهم ، وبوساطته ، ان يحرزوا عظمة انسانية حقيقية من خلال الكرم والحرية اللذين يهيمنون بحبهما .

ولكن ، اذا كان بوركهات قد اهتم كل الاهتمام بملاحظة حياة البداوة ، لم ينس بسبب ذلك ، المدن المنقرضة ، وخباياها الجذابة . واذا أدرك طبيعة الصعوبات التي كانت تحول دون الوصول الى خرائب بترا ، استفاد من القصص المحلية المتداولة عن هذه الامكنة وعلاقتها بقصص التوراة الواردة في سفر خروج العبرانيين من ارض مصر ، واجتيازهم سيناء ، وصعراء العربية البتراء ، قبل بلوغ ارض الميعاد في فلسطين . كان وادي البتراء بدعى وادي موسى ، ويقول العرب ان قبر هارون أخي موسى واقع على جبل الطور المشرف على المدينة . فتظاهر بوركهات بأنه يريد ان يضحى بعنزة على قبر هارون الواقع على قمة جبل الطور . ووجد الشيخ ابراهيم الروع دليلاً يعينه على ايفاء نذره .

كشف المضيق الواقع بين الجبال القرمزية لعيني بوركهات الاوروبي الثابت الجنان سرّه المكنون المدهش ، فقد بدت بين جوانب المضيق الصخرية الموحشة ، واجهة فخمة مشيدة على الطراز الروماني المزخرف اللطيف ، واجهة قصر رائع النقوش ، يقع بابه تحت مثلث قائم على اربعة اعمدة ، ومتوج بثلاثة صروح ذات اعمدة ، يبعث الحياة فيها عدد من التماثيل ، يخالها المرء حديثة البناء لقلّة ما لحق به من الخراب . وعندما يدنو منها الانسان يرى انها واجهة بناء منقورة في سفح الجبل ، وان بابها باب قبر . هكذا كان مقدراً لبوركهات ان يكتشف وادي قبور شديد القرابة .

وكلما ازداد المضيق اتساعاً استطاع المرء ان يرى في السفح الصخري مسطحاً في شكل مدرجات . ولا تفتأ الصخور ان تتباعد لتخلي السبيل الى مجرى عجيب تجري فيه عين ماء . ويقوم في وسط الخرائب قصر « ابنة الفرعون » المزعوم .

ولكن ، على الرغم من تظاهر بوركهارت بعدم الاكتراث ، صرخ الدليل قائلاً حين رآه يتجه نحو القصر : « لقد ادركت الآن بوضوح انك كافر يهدف الى عمل يريد ان يقوم به في خرائب المدينة التي تخص أجدادنا ، لكننا لن نسمح لك بأن تأخذ فلساً واحداً من الكنوز الدفينة هنا ، لأنها مدفونة في أراضينا وهي تخصنا وحدنا » . فاضطر بوركهارت الى ايراد البرهان على عدم اكتراثه الكلي ، بالاسراع الى مكان تقديم الذبيحة ليخفف من غيظ البدوي . ولم يعد يهتم بتدوين أية ملاحظات ، وأخذ أية قياسات . ولكن بتراء كانت قد اكتشفت من جديد ، وكانت اوروبة ذات المزاج الرومانطيقي مزمنة ان تهتز حماسة لهذا الاكتشاف .

وكان غيره من الرحالة مزمعين فيما بعد « ان يصلوا إليها دون ما جدوى ، كجوليف والسر هنيكر ، بينما أفلح آخرون غيرهم في بلوغها ، مثل يانك وانغ ، والقبطانين ادبي ، ومانغز . واخيراً زارها ليون لابورد ، الرحالة الفنان وعالم العاديات ، وكتب في سنة ١٨٠٠ قصة رحلته الى العربية البتراء ، مشتملة على أوصاف ، ولا سيما ، على سبعين صورة منقوشة تضع امام أعين القراء منظرأ شديداً الغرابة لهذا الموقع الموحش العظيم ، الحافل بالفنون المعمارية الفخمة ، الذي اكتشف في الوقت الملائم لادهاش عصر كلف بالخرائب الحاملة ، ووحشية الطبيعة المجتمعة في البتراء .

لقد أعطى اكتشاف هذا الموقع بودكهارت ، أول لقب من ألقاب
المجد .

*

توجه بودكهارت من هناك الى مصر مثلما فعل ستيزن . ولكن غايته
القصى كانت القيام بزيارة قلب إفريقيا لتأدية المهمة الارتبادية التي كانت
قد عهدت إليه بها الجمعية البريطانية الإفريقية . وقد أفلح بالقيام برحلة
الى النوبة ، ولكن لما رأى أنه لا يستطيع أن يوغل باتجاه الغرب أكثر
من ذلك ، عاد بطريق البحر الأحمر منطلقاً من ميناء سواكن الى جدة
التي بلغها في الرابع عشر من شهر تموز (يوليو) من سنة ١٨١٤ .

ولكن الأحوال كانت قد تغيرت كلياً هناك منذ أن وصلها ستيزن
قبل خمسة أعوام من ذلك ، وكل ذلك التغيير كان قد حصل لمصلحة
الارتباد . إذ كان الوهابيون قد تراجعوا لأركان الحجاز والمدن المقدسة
للأتراك والمصريين . وقد أفاد بودكهارت من ذلك فزار مكة والمدينة
بوصفه العالم المسلم الشيخ إبراهيم . وبالإضافة الى ذلك ، فقد سمح له
وجود طوسن باشا في بلدة الطائف ، واضطراره الى القيام بزيارته أن
يلج هذه البلدة المشهورة بكونها أجمل مدينة في شبه الجزيرة العربية ،
لكثرة ما فيها من رياض وبساتين .

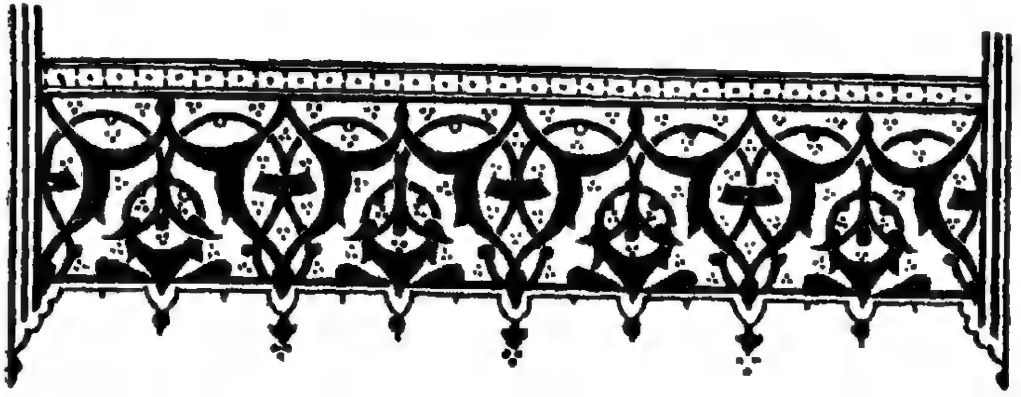
ولكن بودكهارت ، في هذا القسم من رحلته ، لم يعد متمماً لما
قام به ستيزن ، وقابلاً له ، بل غدا أول الرجالين الذين توغلوا في
الحجاز في اثر الجيوش التركية المصرية ، المنتصرة على الوهابيين .

الا انه لم يتقدم أكثر من ذلك ، بل عاد الى القاهرة في شهر حزيران
(يونيه) من عام ١٨١٥ . وبما أن وباء الطاعون كان قد ظهر فيها ،
لجأ كما سبق لنا أن ذكرنا الى قبائل البدو القاطنة في صحراء سيناء ، ثم
عاد الى القاهرة ، وكتب قصة رحلته .

وهكذا تمكن بور كهات من ان يخلف للاجيال المقبلة ثمرة مثمرة ،
رغم ان الموت عاجله على اثر زحار حاد اصيب به ، فيما كانت يتأهب
لتحقيق المبل الاعظم الذي كان عازماً عليه وهو ارتياد قلب القارة
الافريقية .

لقد قام برحلته بعد انقضاء سبعة اعوام على رحلته ستين ، وتوفي
بعد ست سنوات على وفاته ، وذلك في الخامس عشر من شهر تشرين الاول
(اكتوبر) من عام ١٨١٧ وعلى الرغم من ان القدر لم يعطه مهلة أطول
فقد سمح له ان يحتزن غلاله بصورة أكمل .





في اواسط شبه الجزيرة العربية خلف الجيوش التركية - المصرية

عندما أقام ستيزن في مكة ، كانت ما تزال خاضعة لحكم الوهابيين ، وكان سعود يأتيها في كل سنة من السنوات الواقعة بين ١٨٠٨ و ١٨١٣ لتأدية فريضة الحج . وكان قد ثبت سلطان جماعة و الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ، فقاموا بالمهام التي وكلت إليهم خير قيام ، حتى لم يعد يجرؤ احد على التدخين علناً ، او يجيز على التغيب عن الصلاة . على ان قافلتي الحجاج من دمشق والقاهرة لم تعودا تأتيان مكة ، التي بقيت للوهابيين وحدهم . وكان الأتراك يعدون العدة في الخفاء لأخذ الثأر .

وكان سعود ما يزال مشتبكاً في مناورات الحفاظ على سلطته . فلم يعم بأي حج إلا وثار عليه عصيان . فقد ثارت عمان في سنة ١٨٠٨ ، وثار تامة عسير على ابي نعلقة في سنة ١٨٠٩ ، وفي عام ١٨١٠ ثارت عمان وعسير مرة اخرى ، وتحركت منطقة الحسا الواقعة على الخليج العربي في سنة ١٨١١ ، وفي سنة ١٨١٢ ثارت عمان والبحرين معاً .

ولم يكتف سعود بقمع هذه الثورات ، بل تمكن من توجيه حملة عسكرية في سنة ١٨١٠ كادت تبلغ ابواب دمشق . فعيل صهر السلطان التركي ، واعتبر ان هذا العمل انما هو تحرش به في احدى الولايات التابعة لسلطته . لذا استعد في هذه المرة للقيام بهجوم معاكس .

وقد أرسلت امدادات تركية الى مصر في سنة ١٨١١ ، وتلقى محمد علي امراً من سيد القسطنطينية بمهاجمة الوهابيين . فوضع تحت إمرة ابنه طوسن باشا اربعة عشر ألف مسلح نزّلوا في ينبع ميناء المدينة . وكان ذلك بدءاً لتقلص السيطرة الوهابية وانهارها التدويجين لفترة من الزمن ، وفي الوقت ذاته بدءاً لتدفق جيش جرار مؤلف من مختلف الأجناس الى شبه جزيرة العرب ، اكثروا من الأتراك الذين أبغضهم العرب منذ زمن بعيد بالرغم من انهم مسلمون . والملاحظة التالية التي دوّنها دارفيو تعطي فكرة عن ذلك : « ان البدو يهتمون بتسييز الأموال الواردة من مصادو تركية ، ويضعونها في اكياس خاصة لأن الأموال التركية المصدر تجمع في نظرم » من الكسب الحرام « وسرقة اموال الدولة ، والظلم ، والربا ، وامتصاص دماء الفقراء » على ان ذلك لا يحول دون قبولهم هذا المال لأن لديهم وسائل كثيرة لتقويم كل الأمور .

شكل الأتراك والمصريون المختلطون جيشاً اوروبى التنظيم بتسليحه ، وفنونه ، وثيابه العسكرية الحمراء التي جعلت العرب يطلقون عليهم لقب « الحمر » احتقاراً وكرهاً . وبالإضافة الى ذلك ، كان يوافق الجيش عدد من الاوروبيين « الكفار » كهندين ، وصناع نيران اصطناعية ، وأطباء ، وصيادلة .

وكان قد انخرط في سلك هذا الجيش عدد من الأوروبيين لاسباب غير معلومة ، وهكذا كان طوماس كيث من فرقة « الهابلندرز » الثانية

والسبعين ، قد أصبح آغا للمهاليك ، وشغل بعض الوقت في سنة ١٨١٥ ،
أغرب منصب يمكن أن يشغله رجل ايقومي ، وهو منصب حاكم للمدينة
احدى البلدين الاسلاميتين المقدستين . واكتشف تاميذه في سنة ١٨٣٤ ،
انكليزياً يدعى اتكنيز كان مسؤولاً عن المدفعية ا

ولكن هؤلاء الرجال الذين قاموا بمغامرات شخصية خارقة للعادة لم
يرووا شيئاً ولم يكتبوا شيئاً . إلا أن واحداً منهم ، أملى قصة مغامراته
فيما بعد ، على رجل انكليزي يدعى و. ج بانكر نشرها في سنة ١٨٣٠ ،
هذا الرجل هو جيوفاني فيناتي الايطالي الذي كان قد فرّ من الجيش
الفرنسي في دالماسيا ، وانضم الى الأتراك ، واعتنق الاسلام ، وانخرط في
الجيش المصري ، واشترك في الحملات على شبه الجزيرة العربية . ولم يكن
المتعة في قصته لكن في الدوحة الأولى ، في وصف الحياة في الجيش
المصري .

على أن تدفق هذه الجيوش الى شمالي شبه الجزيرة العربية قد آتى
ثماره بالنسبة الى معرفة هذه البلاد جغرافياً وإنسانياً . وكان كافياً أن
يقوم بعض المنخرطين في سلك هذه الجيوش على المشاهدة والكتابة حتى
تتجمع معلومات جديدة كانت مزمنة أن تمكن العلماء من وضع خارطة
لهذه المناطق .

وضع سعود جيوشه البالغ عددها ثمانية عشر ألف رجل تحت إمرة
ابنه عبد الله لمواجهة الجيش الذي تزل في ميناء ينبع . وأسفرت المركة
الاولى التي نشبت في الحيف الواقعة على طريق المدينة ، عن تفوق
الوهابيين ، وتراجع الأتراك الى ينبع ، في حين قام سعود وابنه بتأدية
خريطة الحج .

ولكن الجيش المصري التركي بعد ان تلقى بعض الامدادات ، واستأثر
الى جانبه فيلتيب عربيتين ، تمكن من الاستيلاء على المدينة في سنة ١٨١٢ .

وما كاد سعود يفرغ من تأدية فريضة حجه الأخير في مطلع عام ١٨١٣ ، ويغادر البلدة ، حتى سار الجيش الفاتح باتجاه مكة التي لم يلبث أميرها ، وهو الأمير الذي استقبل علي بك ، أن انضم إليه ، عندئذ أخذت المواقع الوهابية في الحجاز تنهار بسرعة . فعاد عبدالله ورجاله مكة ، والطائف من بعدها ، وانحازت القبائل الى جانب الأتراك . وفيما كان عبدالله ما يزال محتفظاً بمدينة ترّبة مقله ، قام سعود بحملة لاستعادة ولاء قبائل الحجاز ، ولكنه توفي بعد ذلك بسنة في عام ١٨١٤ . وبينما كان عبدالله وطوسن يتنازعان بعض المواقع استولى محمد علي نفسه على مدينة ترّبة ، ثم على بيشة ، وتبالة ، وريّنة ، ونخيس مشيط ، واخيراً القنفذة .

اتخذ محمد علي الطائف مكاناً لاقامته ، وكانت الاقدار ستبج لبوركهارت ان يقوم بزيارته فيها ، فيرى تلك المدينة التي اشتهرت بكونها أجمل مدينة في شبه الجزيرة العربية ، بجنائها ، وورودها ، وفواكهها التي كانت تباع في اسواق مكة .

حين وصل بوركهارت الى جدة ، نفذ ما لديه من المال ، ولم يقبل أحد منه نحوياً مالياً على القاهرة . واضطر وقد أصابه المرض والاملاق الى بيع عبده الشاب ، ولم يجد بعد ذلك حلاً لمشكلته سوى الكتابة الى محمد علي الذي كان قد تعرف إليه في القاهرة . في هذه الاثناء وافق أحدهم بعد ان تفهم قضيته ، على قبول تحويل منه على القاهرة ، وأعطاه ما يحتاجه من المال فأنفذه من الضائقة المالية .

ولكن الباشا أرسل في طلبه الى الطائف ، لمألة لا علاقة لها بالمال ، إذ كان محمد علي قد اقتنع بأن هذا الرجل السويسري ليس سوى جاسوس انكليزي سيذهب الى الهند ليقدم تقريراً عما جمعه من المعلومات عن شبه الجزيرة العربية . فكتاب علي بك كان قد انتشر في القاهرة ، وكانت

المسؤولون مهتمين كل الاهتمام بالألاجوز عليهم مكر مثل اولئك الرجال .
لذا صرح الباشا علناً في القاهرة ، فيما بعد ، انه لم ينفك يعتقد في ان
بوركهارت جاسوس انكليزي . وعندما وصل بوركهارت الطائف ،
ومثل بين يدي محمد علي باشا ، اكتفى بالتاكيد انه مسلم حقيقي مثلما رآه
الجميع وعرفوه ، وان تلك الشبهات لا مبرر لها . وبعد ان قضى عشرة
ايام تحت المراقبة في الطائف ، تمكن اخيراً من الحصول على إذن
بالشخص الى مكة فوصلها في شهر كانون الاول (ديسمبر) من سنة
١٨١٤ ، وبذل قصارى جهده للعيش فيها منزوياً متظاهراً بكونه حاجاً
او رجلاً عادياً قادماً من مصر .

بعد ان مكث شهراً في مكة ، توجه الى المدينة حيث بقي طريق
الفراس حتى اوائل نيسان (ابريل) . وتخلّى ، كما فعل ستيزن قبله ، عن
زيارة الحجر ، وقصد ينبع ، وركب منها سفينة ، ونجا لحسن حظه ،
من وباء الطاعون الذي كان متفشياً في الميناء وعلى ظهر السفينة التي
اوصلته رغم كل شيء ، الى الشرم . ومن هناك ، توجه الى السويس سيراً ،
فوصلها في السادس والعشرين من حزيران (يونيه) .

ولم ينبج هناك من المرض ، الا ليقع فيه بعد سنتين من ذلك التاريخ ، مثلما
سبق لنا ان رأينا ، ويقضي نجه . ولكنه في هذه الاثناء وضع كتابه :
« رحلة الى بلاد العرب » ، و « ملاحظات عن البدو » اللذين طبعا بعد
موته بزمان قصير .

وهنا ايضاً تظهر مقدرة بوركهارت الخارقة في تفهم ما يراه . فقصته
أبعد ما تكون عن الاحدوث السطحية التي يستطيع اي عابر سبيل ان
يكتبها . فقد كتب ، على سبيل المثال ، اربعين صفحة في وصف جدة ،
هذا الميناء الذي كان يرقده كل من ينزل في شمالي شبه الجزيرة العربية
لسبب ما ، واصفاً احياءها المختلفة وشوارعها وأبنيتها وسكنها ، ومقرتها الى

الفهم طبيعتها الخاصة ، وليس في وصفه هذا كلمة واحدة لا تحتوي على معطى ذا معنى وإيضاحاً منوراً . فقد كتب فيها يختص بسكان جدة يقول :

« ان سكان جدة ، على غرار سكان مكة والمدينة يكادون يكونون من الغرباء . فأبناء العرب القدماء الذين كانوا يقطنونها قتلهم الحكام ، او نزعوا الى اماكن اخرى . والسكان الذين يمكن ان يطلق عليهم اسم « أبناء البلاد الاصلاء » هم أبناء أسر الأشراف وجميعهم من العلماء ومن المرتبطين بالمساجد والمحاكم . اما ما تبقى من سكان جدة فهم إما غرباء او من اصل غريب ، ومعظم هؤلاء السكان أصلهم من حضرموت واليمن ، وقد استقرت جاليات في كل مدينة ، ومن كل إمارة في جدة ، وهم يقومون بتجارة نشيطة مع الاماكن التي جاءوا منها . وقد استقر فيها ايضاً ما يقارب المائة أسرة هندية معظمها من سَوَزَت وبعضها من بومباي ، تضاف إليها بعض الأسر من ماليزيا ومسقط .

« وما يزال في إمكان النازحين إليها من مصر ، وسورية ، وبلاد البربر ، وتركيا الأوروبية ، وبلاد الافاضول ، ان يتعرف كل منهم الى أبناء قومه من سياهم . وقد اختلطوا جميعاً في كتلة حية ، يعيشون ويلبسون كما يفعل العرب . والهنود وحدهم هم الذين ما يزالون يشكلون طبقة متميزة بعاداتها وزيها واعمالها ، وليس من مسيحي مستقر في جدة ، ولكن بعض سكان جزر الارخبيل يأتون إليها بالبضائع التجارية من مصر في بعض الاحيان .. وكان اليهود في الزمان القديم سحابة هذه المدينة .. لكن سرور طردهم منها منذ اربعين سنة خلت بسبب سوء تصرف بعضهم ، فلبجأوا الى اليمن .

« خلال المدة التي تهب فيها الرياح الموسمية ، يزورها بعض البانانيين على سفن هندية ، ولكنهم يعودون على السفن التي اتت بهم ، ولم يستقر احد منهم فيها .

و أن اختلاط الاجناس البشرية في جدة ناتج عن الحج ، الذي يصل في
موسمه الى الحجاز عدد من اغنياء التجار ومعهم كميات كبيرة من السلع
التجارية ، ويضطر بعضهم في حال عدم تمكنهم من تصفية حساباتهم ، الى
الانتظار سنة اخرى . خلال هذه المدة يساكنون حسب عادة البلاد ،
جوارى من بلاد الحبشة لا يلبثون ان يتزوجوهن . وينتهي بهم الامر الى
ان يحددوا انفسهم في عائلة قد تألفت فيغريهم ذلك على الاستقرار . وهكذا
يضيف كل موسم حج عدداً من الناس ليس الى سكان جدة فعسب ، بل
الى سكان مكة ايضاً ، الأمر الذي تدعو اليه حاجة ماسة ، لتفوق
نسبة الوفيات فيها على نسبة الولادات .

ويعطي بوركهات معلومات لا نهاية لها عن التجارة ، من الملاحظات
العامة الى تفحص اصغر الحوانيت ، وعددها ، والسلع التي تباع فيها ،
وجنسية تاجر كل صنف ، ويذكر الاسعار وتقلبها ، ورأسمال الاعمال
التجارية الكبرى ، وحركة ارتفاع الاسعار وهبوطها .

ويعت الحياة في هذه اللوحة مجرد ذكر المعلومات الدقيقة والمفيدة .
فان وصف الحوانيت ، مجد ذاته ، وثيقة عن معيشة السكان أدق واكثر
موضوعية من اي شيء آخر ، فيرى القارىء مدينة فيها خمسة وعشرون
مقهى ، يتناول فيها المرقاد إليها من ثلاثة فناجين الى ثلاثين فناجناً من
القهوة يومياً .

وسكان هذه المدينة يدخنون كثيراً ، ففيها واحد وثلاثون تاجراً لا
يتماطون الا تجارة التبغ ، اذ ان الوهابيين قد جلوا عنها .. ويلعب
الزبائن بالنقل ، او بالداما ، لأن معظمهم من تجار الصنف الثالث ، ومن
البخارة ، اما الاشراف فلا يلعبون الا بالشطرنج وفي منازلهم .

ويذكر ان فيها واحداً وعشرين شخصاً من باعة اللبن الرائب ، وإذا
كانت هذه التجارة ناشطة فما ذلك الا لأن السكان قد درجوا على عادة

شرب فنجان من اللبن الرائب في كل صباح يتبعونه بالقهوة الممتازة ،
وهناك ثمانى عشرة حانوتاً لبيع الخضر والفواكه الواردة من الطائف ،
وحوانيت غسل الحجاز ، والتمور . ثم تجار الحلويات الحسة ، وتجار
السكاكر والبقول ، واثنان عشر بائعاً للخبز ، واثنان لبن الحائر ، واثنان
لبيع الحساء . ولكن فيها ثمانية عشر تاجراً هندية يبيعون اصنافاً مختلفة
كاللوز ، والشعير ، والسكر ، والعمود ، والبخور ، والقرنفل ، والبهار ،
وورود الطائف . وأحد عشر حانوتاً لبيع السلع الهندية المختلفة : كالغلايين ،
والملاعق الخشبية ، والمسابع ، والمرابا ، وورق اللعب ، فضلاً عن الخزف
الصيني ، والآنية الزجاجية الواردة من البندقية . وفيها أيضاً ستة تجار
للأقمشة الفرنسية ، والانسجة القطنية والحريرية الموشاة المصنوعة في الهند ،
وباعة الآنية النحاسية مصريون ، كذلك مرقعو قرب الماء ، وصانعو
الصنادل ، واللحامون . اما الساعاتى الوحيد فيها فهو تركي ، وهو يبيع
ساعات انكليزية .

اما الطائف فكان بوركهات اول اوروبي رآها ، ولكنه لم يرَ حداثتها .
وقد جاء خلفه تمييزه من بعده ، واهتم بوصفها في كامل عظمتها . وقد
رأى فيها بنوع خاص الخرائب الكثيرة التي خلفتها الحرب مع الوهابيين
في سنة ١٨٠٢ ، وقبراً مقدساً قام المتزمتون بهدمه ، ولم يشهد الا
الفقر المدقع في تلك المدينة التي اشتهرت فيما مضى بأسواقها النشطة .

وحين اوغل بوركهات في داخل الحجاز باتجاه الطائف ، رأى نوعاً
من المشاهد الطبيعية التي لم يخطر ببال احد انها موجودة في شبه الجزيرة
العربية . فقد وجد في اعلى قمة من سلسلة الجبال التي اجتازها ، قبل ان
يشرف على سهل الطائف ، مكاناً خلب له : لوحة طبيعية رائعة كوتها
الحضار الكثيف ، والأشجار المثمرة ، والكروم ، وحقول الحنطة ،
والشعير ، والبصل . وكان الهواء مشحوناً بالاربع ، والندى يتلألأ فوق

الحضار ، والعشب قد نما على ضفتي جدول ماء عذب . وكانت ذلك
مشهداً نادراً حقاً ، غير متوقع وجوده في شبه الجزيرة العربية .

وتبدو مهارة بوركهارت وفضله في وصف مكة ايضاً ، بتفهيمه كل
شيء ، فقد عرف كيف يقرأ الكتب العربية المتعلقة بالمدينة المقدسة
وتاريخها : ويستخدمها ، وبذلك استطاع ان يعرف اكثر ، ويرى احسن
من غيره ، وعرف ما كانت الكعبة قبل الاسلام :

« قبل ظهور النبي محمد ، لما كانت شبه الجزيرة العربية تعبد الاصنام ،
كانت الكعبة موضع إجلال ، وكان اجداد المسلمين يؤمنونها للطواف فيها
سبع مرات ، كما يفعل خلفهم اليوم . وكان البناء يحتوي آنئذ على
مائة وستين صنماً . على ان بين طقوس الحج القديمة والمناسك الحالية فرقاً
بيّناً ، لأن النساء والرجال آنذاك كانوا يدخلون المعبد عراة خالعين
عنهم آثامهم وثيابهم معاً » .

ولم يعطنا علي بك اي تفسير للرحلات السبع التي يقام بها بين اكنة
الصفاء والمروة . ولكن بوركهارت قد توصل الى ذلك فقال :

« وكان العرب القدماء يعتبرون الصفاء والمروة كذلك من الاماكن
المقدسة لاحتوائها على صورتى الإلهين « موتان » و « نهيك »^١ ، وكان عباد
الاورثان يذهبون من احدهما الى الاخرى لدى عودتهم من عرفات .
وتقول الروايات الدينية في الاسلام ، إن هاجر أم اسماعيل بعد ان
طُردت من منزل ابراهيم ، هامت على وجهها في القفر لثلاث شهيد ابنها
يقضي عطشاً فظهر لها الملاك جبرائيل بغتة ، وضرب الارض بقدمه
فتفجرت منها مياه زمزم . ويقال ان الرحلات السبع بين الصفاء والمروة
ليست الا اذكراً للرحلات السبع اليائسة التي قامت بها هاجر .

وعرف بوركهارت ان الكعبة قد أعيد تشييدها كلياً في سنة ١٦٢٧ ،
وان القناة التي توصل الماء الى المدينة من جبل عرفات قد أنشأها الخليفة

(١) المعروف انه كان على الصفاء والمروة صنما اساف وثاقفة .

هرون الرشيد ، المشهور في قصة « ألف ليلة وليلة » .

ثم ان بوركهات شاهد مكة بعد الحج لأنه أقام فيها في الاوقات العادية ، فاكتشف لنا فاحية جديدة من المسجد : « فالوف المصابيح المضادة خلال شهر رمضان في المسجد الكبير تجعل منه ملتقى الغرباء ، يأتون إليه للزخمة والسر حتى منتصف الليل ، وهو يستخدم كمدرسة إذ ان جماعات من التلاميذ يجلسون في أروقته يرددون القرآن وهم يترجحون . وهناك يرى الكاتب العام ، اربعة الطلاسم المكتوبة على قطع من الرق . ثم ان بيت الله هذا يؤوي تحت ظلال أروقته - بعد رحيل جامير الحجاج - المرضى الذين يحول مرضهم دون سفرهم ، والفقراء الذين لا مأوى لهم ، ينتظرون فيه الموت . واذا ما أدرك احدهم الأجل غطى احد السابلة وجهه ريثما يقوم خدام المسجد بدفنه .

كان علي بك قد أوقف قبل بلوغ المدينة ، ولكن بوركهات تمكن من زيارتها بعد جلاء الوهابيين عنها ، وترك لنا وصفاً لقبر النبي المقام في مطلع القرن السادس عشر فقال : « انه يقع تحت قبة عالية ، يحيط به عدد من المصابيح الزجاجية ، وسور من القضبان الحديدية المتشابكة التي يتخللها بعض الكوى . من هذه الكوى يرى ستار مسدل يغطي بناء مربعاً يدعى الحجر ، يقوم على عمودين ، يحتوي رفات النبي والخليفين ابي بكر وعمر . والستار موشى بأزهار ونقوش من الفضة ، وبكتابات بأحرف ذهبية ، وعندما يعتق يبدل به ستار يرسل من القسطنطينية ، ويكسى بالقديم قبر احد السلاطين او الامراء .

« وتقول الروايات الدينية الاسلامية إنه عندما ينفخ في الصور ، في اليوم الاخير ، سينزل عيسى من السماء الى الارض ليعلم لسكانها حلول يوم الدين ، ثم يموت ويدفن في الحجر الى جانب محمد ، ثم يقومان معاً عندما يبعث الموتى من قبورهم ، ويصعدان الى السماء معاً ، وفي

ذلك اليوم بعهد الله الى عيسى بأن يفرق المؤمنين من الكفار . ووفقاً لهذه الرواية الدينية ، يشير الناس من خلال الستار المسدل على الحجرة الى المكان الذي سيكون قبراً لعيسى .

ويرى في مكان آخر قبر فاطمة بنت النبي وزوجة علي . ويقول بوركهات ان في المدينة مكانين مقدسين آخرين يزورهما الناس : احدهما في قرية قبا التي توقف النبي بالقرب منها لما غادر مسقط رأسه مكة نهائياً لعدم ايمانها برسائه ، بادئاً بذلك عمله النبوي . وقد اقيم فيها بين بضعة اشجار مسجد كثير الزوار يحاط بثلاثين او اربعين بيتاً . « والمكان المقدس الآخر هو المكان الذي قرر فيه النبي ألا يتجه المسلمون في صلاتهم نحو القدس » بل نحو مكة . اتخذ هذا القرار ذا المغزى العظيم ، في مكان يدعى مسجد القبليتين يقع على مسيرة ساعة ونصف الساعة الى شمالي غربي المدينة ، يجمع إليه الناس خُشعاً ، ويرى فيه عمودان غير صقليين يرمزان الى الانجمايين .

هكذا تعمق بوركهات في فهم الاماكن المقدسة ، وأضاف الشيء الكثير الى المعلومات التي كانت متوافرة عنها . وعلى الرغم من السفارة التي قام بها الى الطائف لم ير شيئاً مما لم يسبق لغيره من الاوروبيين ان رآه ، الا ووصفه وعلق عليه بشروحه .

ولما عاد الشيخ ابراهيم المزعوم الى مصر ، كانت اخبار الاضطرابات الناشئة في العاصمة المصرية قد اضطرت محمد علي الى العودة إليها هو ايضاً . واستمرت الحرب غير النظامية بين طوسن باشا والامير عبد الله . ولكن محمد علي أرسل إلى ابنه امراً بعقد الصلح ، والعودة إلى مصر ، وذلك في اواسط عام ١٨١٥ . فهل كان خوفاً من الوضع الدولي الذي

فثأ عن عودة نابوليون من جزيرة ألب ؟ ام لتدهور صحة احمد طوسن
الذي كان مزمعاً ان يموت بعد انقضاء سنتين على ذلك ، وهو على ما
يقال في حالة الجنون ؟

على كل حال ، لقد جرى التوقيع على معاهدة الصلح !
ولكن الأخصام لم يكن في وسعهم ان يقفوا عند ذلك الحد . فقد
اصبحت الاماكن المقدسة معرضة لهجوم وهابي ، وتوجب على محمد علي
ان يهاجمهم في عقر دارهم ، لئلا تذهب جهوده السابقة ادراج الرياح .
واخذ عبد الله ، من جهته ، يعاقب القبائل غير الخلصة له ، فأرسلت
امارة القصيم المهددة تستنجد بمحمد علي الذي تأهب لاعلان الحرب في ربيع
عام ١٨١٦ .

وقد عهد بقيادة جيشه هذه المرة الى ابنه الاصغر ابراهيم المسلم المقطور
على التسامح الديني ، الذي كان يفضل اخاءه في الفنون العسكرية ، ويفوقه
في العناد الصارم . وقد اصطحب ابراهيم معه مهندساً فرنسياً اسمه فايبيير
كعاون لرئيس الاركان والاطباء الابطاليين الاربعة : سكوتو ، وجنتيلي ،
وتروستيني ، وسوشيو ، ولكنهم لم يختلفوا لنا اية قصة او اي تقرير عن
هذه الرحلة .

وتنسب لابراهيم الفكاكة التالية التي انتشرت انتشاراً واسعاً في ذلك
الحين : بما ان الدوعية عاصمة الوهابيين اشبه بتفاحة موضوعة في وسط
سجادة ، فما علينا الا ان ندحرج السجادة شيئاً فشيئاً حتى تصبح التفاحة
في أيدينا ، وذلك بأن نحصل على محالفة القبائل ، وعدم التقدم الا بعد
التأكد من امتلاك البلاد !

وقد حقق مخططاته ، فتعالت مع عشيرتي حرب ومطير الكيوتين ،
وتوغل في منطقة القصيم . وهاجم مدينة الرس . وكان عناده اكبر من
دهائه العسكري ، ولكن على الرغم من أنه أضاع اربعة اشهر ، وبضع

مئات من رجاله حول الاسوار القواية ، استسلمت المدن الاخرى وهي :
عنيزة ، وبريدة ، والمذنب ، واشيقر ، والفرعة . وانضمت اليه
قبيلتا عتيبة وبني خالد من جنوبي نجد . وفي شهر كانون الثاني (يناير)
من عام ١٨١٨ هاجم ابراهيم مدينة شقراء فلقى مقاومة ضاربة ولكن
غير مجدية ، وتبع استسلام شقراء استسلام الامارة بكاملها . وقد انسحب
عبد الله الى ضرما ، ولكن ابراهيم لم يلبث ان استولى عليها بعد ان كلف
ذلك المهاجرين ستائة قتيل والمدافعين ثمانية .

وكان عبد الله قد أرسل الاطفال والنساء الى العاصمة الدرعية . ولم
يبق اي مكان يستطيع المقاومة الا العاصمة ، واخذ الجانبان يتأهبان
للمعركة الحاسمة .

اعتزم الوهابيون المقاومة حتى الرمق الاخير باستماتة اليأس ، وعزم
ابراهيم بدوره ان يهاجم بالعناد الذي عرف به . فبدأت معركة الدرعية
في الحادي عشر من شهر آذار (مارس) من عام ١٨١٨ ، ولم تنتهِ الا
بسقوطها في الخامس من تشرين الاول (اكتوبر) بعد حصار دام ستة
اشهر ، وقد سقط من الوهابيين ألف وثلاثمائة قتيل من بينهم ثلاثة من
اخوة الامير وثمانية عشر من افراد الأسرة المالكة ، وقد رعد قتلى
الأتراك بعشرة آلاف نسمة .

حكم ابراهيم الدرعية حكماً اهابياً تعسفياً استمر تسعة اشهر . وعلى
الرغم من ان افراد الأسرة السعودية عوملوا معاملة احترام ، فقد
استهدف رجال الدين لاضطهاد شديد ، وأعدم بعضهم رمياً
بالرصاص ، وربط آخرون الى افراء المدافع فزقوا إرباً إرباً ، وضرب
قاضي المدينة وعذب . وأخيراً أرسل محمد علي نفسه بأمر ابنه بأن يدمر
العاصمة الوهابية ، فنفذ ذلك في شهر حزيران (يونيو) من سنة
١٨١٩ ، وأن يدك قلاع المدن الواقعة في الاراضي المجاورة لها وتحصيناتها .

وان ينسحب من العربية الوسطى بعد ان يسحق السلطة الوهابية ويقضي عليها القضاء الاخير .

*

تبعتم انكثرتا تلك الاحداث باهتمام كلي . فقد كانت شديدة الرغبة في ان ترى السلام يستتب في الخليج العربي . وكانت ترى في ابراهيم الرجل الجدير بأن تطلق يده في المنطقة ، اذا كان حسب اعتقادها راغباً في ضم العربية الوسطى الى ممتلكاته ، وكان قد سبق لها ان تدخلت في الخليج العربي لمحاربة القراصنة ، ضماناً لحرية التجارة ، وسلامة العاملين في الغوص على اللؤلؤ ، وكانت قد تحالفت مع إمام مسقط لهذه الغاية ، وكانت تعتقد ان ابراهيم سيصبح لها سنداً آخر . لذا أرسل القبطان جورج فورستر سادليير كبعوث دبلوماسي من بومباي ، على بارجة حربية دخلت الخليج العربي في صيف ١٨١٩ .

ولكن جهود سادليير كانت ستنى بالحية مراراً . كان قد أمر باستطلاع رأي إمام مسقط في مشروع مساعدة يقدمها هو وانكثرتا لابراهيم . ولكن سادليير لم يجد الإمام على استعداد لتقبل تلك الخطة ، بالنظر الى ان الإطاحة بحكمه كان في عداد الاعمال التي صدر الأمر الى ابراهيم بالقيام بها يضاف الى ذلك ان سادليير حين بلغ الساحل الذي كان يأمل ان يرى فيه السلطة التركية - المصرية الجديدة مستتبة ، وجد ممثلاً لابراهيم باشا لا سلطة فعلية له ، متأهباً للانسحاب مع فصيلة الجند التابعة له . ثم علم الموفد ان ابراهيم لا بد ان يكون في مكان ما من نجد ، ولكنه لم يتمكن من حمل احد على ان يذكر له اسم المكان الذي يستطيع ان يجده فيه ، لأنه عوضاً عن الاحتفاظ بالاماكن التي افترضها كما كانت تأمل انكثرتا ، كان قد غادر الدرعية ، وكان الجلاء العام قد بدأ .

وتساءل سادليير مما يجب عليه أن يفعل ، فان الفأية الرئيسية من انتدابه لتلك المهمة كان مقضياً عليها بالاخفاق فيما لو غادر ابراهيم بلاد نجد ، على أنه كان قد تبقى عليه بعض النقاط الصغيرة من مهنته ، وهي نسليم الباشا الظافر سيف الشرف ، والتحدث اليه من غير إظهار اي اهتمام خاص . وللقيام بهذا الواجب ، مها بدا له ذلك مؤلماً ، قرر ان يقابل ابراهيم باشا .

كان سادليير مزماً ان يقوم برحلة لم تسترع أي شيء من اهتمامه ، في حين ان غيره ممن يفوقونه ثقافة ، كانوا يجدون في مثلها فرصة نادرة ، عظيمة القيمة للعمل على تقدم المعرفة ، ولكنه كان بمزيد الأسف ، يجهل واقع شبه الجزيرة العربية ، وقاريجه ، وما يتعلق به ، جهله اللغة العربية وسكان البادية . ويقول هاغارت : ان جميع أبناء هذه البلاد كانوا في نظره ونظر معظم الجنود البريطانيين لا أهمية لهم ، ويحملون على الاشتزاز . ولكن أبناء البلاد كانوا من رهاقة الشعور بحيث ادركوا انه لا يمر ببلاد العرب الا مرور طرد من السلع أنزل على شاطئه وشحن الى شاطئه آخر .

بدأ سادليير رحلته في الثامن والعشرين من شهر حزيران (يونيه) ، فاجتاز نخيم شيخ بني خالد ، وبلغ الهفوف في واحة الحسا ، بعد خمسة عشر يوماً مضية بين هؤلاء « الهبيج المزعبين » - كما كان يسميهم - الذين كانوا يخفرونه ويدلونهم على الطريق . لقد كان الادويي الثاني الذي زار الهفوف ، بعد زيارة رينو دي شاتيون إياها ، ولكن المعلومات التي يعطيها عنها تقتصر على علو اسوارها المصنوعة من اللبن ، وعلى قصص المحاربين . ويخبرنا ان للحسا بحيرات ونبابيع ، وأن لا أنهر فيها .

كانت الحامية المصرية مستعدة للاتحاق بالجموعة العسكرية للجيش في حدير ، فانضم اليها سادليير . وقد تحركت الحامية في الحادي والعشرين

من شهر تموز (يوليو) وممها ستمائة رجل ، وبلغت بشر رماح . ويذكر
سادليير ان من السهل سد السيل الى نجد من الشرق يردم الآبار التي
لا يمكن بدونها ان يأمن من يجتاز نفود الدهناء على سلامته . ولم
ينقصهم الماء لأن امطاراً كثيرة كانت قد هطلت في ذلك الصيف .

مروا في طريقهم الى العاصمة المهذمة ، بِمَنْفُوحَةٍ التي قابض سكانها
الجنود المصريين ثلاث بيضات بقرش واحد ، وخروفاً واحداً بأربعة
دولارات . وقد رأى سادليير حقولاً مزروعة قطناً وذرة وقمحاً وشعيراً .
وبيوتاً من الحجارة ، ومساحات مغروسة نخلاً تروى من آبار عميقة ..
ومروا الى جنوبي الرياض ، التي كانت مزمنة ان تصبح العاصمة الجديدة .
لنجد ، واجتازوا خرائب الدرعية وبساتينها التي حل بها الدمار .

رأى في كل مكان الدمار الذي خلفته الحرب ، وموقف السكان العدائي
من الحملة المصرية التركية ، ورأى البدو الذين كانوا قد تحالفوا وبراھيم
باشا قد فسخروا الحلف وثاروا عليه .

أوصلهم السير خلال اربعة ايام طوال الى وادي حنيفة ، وعبر فقر من
الرمال ، والحصى ، الى شقراء . ومن المؤسف ألا يذكر سادليير شيئاً
عن المكان الذي لم يسبق لأي اوروبي ان رآه من قبل . وبعد اجتياز
جزء آخر من النفود ، وصلوا الى عنيزة ، حيث قيل لسادليير ان ابراهيم
باشا قد توقف في الرس على بعد مسيرة يومين من هناك ، فأسرع ،
ولكنه عندما بلغها لم يجد سوى الجيش ، إذ ان ابراهيم باشا كان قد
توجه الى المدينة .

أنهك سادليير التعب ، وبدا له ان ابراهيم باشا لا يرغب في ان تجري
المقابلة بينها . فأصر على ان يعاد به أدراجه حتى بصرى حيث اتخذت
الترتيبات لعودته . ولكن ممثل الباشا ابى ان يتحمل مسؤولية ارسال
رجل انكليزي عبر القبائل غير الموالية . فلم يبق امامه سوى الشخوص
الى المدينة وغماً عن ارادته .

بلغ سادليو الحناكية مع فصيلة من الجيش في سبعة ايام ، وأصبح
بعد ذلك بيومين في ضواحي المدينة ، ولكن لم يسمح له بدخولها ، بل
اقتيد إلى بير علي حيث التقى بسكوتو احد الاطباء الايطاليين الذين
رافقوا الحملة .

واخيراً سمح له بمقابلة الباشا في الثامن من شهر ايلول (سبتمبر) ،
ولكن المقابلة لم تسفر عن نتيجة مرضية . فقد اكد له ابراهيم باشا انه
ليس سوى أداة في يدي والده ، وان والده بدوره ليس سوى أداة في
يدي السلطان التركي في استانبول ، وانه لا يعرف شيئاً ، ولا يستطيع
ان يقرر اي شيء . فاضطر سادليو الى الذهاب الى ينبع مع حريم
ابراهيم باشا ، وبذلك أتم تجواله في البلاد العربية من الشرق الى الغرب
في العشرين من ايلول (سبتمبر) .

سافر الى جدة في المركب ، حيث قابل ابراهيم باشا للمرة الثانية ،
فسلمه بصورة لا تخلو من السخرية بعض الحيل المرسلة الى حاكم الهند
العام . ويبدو ان الباشا لم يكن يتم اي اهتمام بالخليج العربي ومشاكله ،
فكانت مهمة سادليو غفلة كل الاخفاق ، واحتبس اربعة اشهر اخرى
في جدة ، ولم يتمكن من مغادرة شبه الجزيرة العربية الا في شهر كانون
الثاني (يناير) من عام ١٨٢٠ .



في شهر نيسان (ابريل) من عام ١٨٢١ قرى اول تقرير كتبه
سادليو عما قام به في رحلته ، في الجمعية الادبية في بومباي ، ولكن
قصة رحلته لم تنشر الا بعد ذلك بنصف قرن ، بعد ان أثارت رحلة
بلقرير في أوروبا الاهتمام ببلاد نجد . ولكن العالم لم يخسر شيئاً بذلك ،
لأن سادليو مثال حي لأولئك الذين لا يستطيعون ان يصبحوا رواداً ،
والرجال الذين رغم قيامهم بالرحلات الأشد اثارة ، لا يفيدون منها

لانعدام المعرفة الاساسية لديهم ، والتفهم الدقيق لبلاد ليست وطناً لهم .
ولكنه كان دقيقاً فيما كتب ، وفي ذلك يكمن فضله .

كان يحمل معه بركاراً جيداً ، وقد عني بتدوين انصاب الطرق ،
واسماء القرى ، ومدة السير بين مختلف النقاط . وهكذا تمكن من وضع
خارطة للطريق التي سلكها ، وهي مجرد خط رسم على خارطة رقعة
العربية الوسطى المتزامية الاطراف . وقد يعثر القارىء في تقريره على
بعض المعلومات الموضوعية عن نسبة السكان الحضري والبدوي في جنوبي نجد ،
ومميزات المجتمعات البشرية ، واحوال الزراعة والتجارة ، ووضع الناس
في عهد الاحتلال المصري .

على أن المعلومات الجغرافية التي جمعها ضباط الجيش المحارب ، ومعلومات
رائد اضطراري كسادليير ، يمكن ان تصبح رفيدة القيمة ، اذا ما قام
احد العلماء بجمعها ، وتنظيمها ، واقامها قدر الامكان ، ووضع خارطة
جغرافية بالاستناد إليها ، او كما فعل دي لاروك وهو من غير الرواد ،
الذي جمع كتابي لافرولودير وباربيه ، بتفحص النتائج التي حصل
عليها الرحالان ، واستخلاص معرفة علمية بما كان في الامكان ان يظل
مجموعة من الملاحظات غير المبددة او غير القابلة للاستعمال .

*

لما فكر نابوليون في حملته على مصر ، لم يفكر في الحرب فحسب ،
بل راودت مخيلته ذكرى الاسكندر ، وظهر ذكاؤه في التفكير باللقاء
الثقافي بين جيوشه وبين سكان اراضي جديدة مجهولة ، وفي تبين ما سينجم عن
هذا اللقاء من زيادة محسوسة في المعارف التي ستنشأ لمصلحة اوروبة . وهكذا تكلم
تحت قبة الجمعية العلمية والادبية الفرنسية في عام ١٧٩٨ ، بمسكاً بيديه
مجلدي كتاب نيبور المعروف بدورته الى العربية ، وأعرب لاعضاؤها
عن رغبته في ان ينتخبوا عدداً من العلماء لمرافقته الى مصر . فحصل

الاسطول الفرنسي في التاسع عشر من شهر أيار (مايو) عدا الألفي مدفع ، مائة وخمسة وسبعين من رجال العلم ، ومكتبة ضمت معظم الكتب التي نشرت في فرنسا عن مصر ، وعشرات الصناديق المليئة بالأجهزة العلمية والأدوات الدقيقة .

هكذا بدأت حملة نابوليون التي كان مقدراً لها ان تحقق في السيطرة على البلاد ، ولكن ان تتجح في فتح ابواب مصر القديمة امام علماء الآثار . وكان العلماء الذين رافقوا هذه الحملة مزعمين ان يكتشفوا بأنفسهم وقد غلبتهم الدهشة ، آثار مصر ، وتعريف العالم عليها ، وتدشين دراستها .

ولكن هذا الفريق لم يكن يقتصر على عدد من المستشرقين ، وعلى دومينيك فيفان دينون الحصب الخيال الذي كان مزمعا ان يغدو رائد الآثار المصرية ، بل كان يضم فلكيين ، وعلماء في الهندسة ، والكيمياء ، ورسامين ، وشعراء ، والجغرافيين الشاب الشهير ادمه فرنسوا جومار ، الذي انصرف بكليته الى مهنته ، وتعلق بمصر الى درجة انه عندما عاد الى فرنسا ، وهو عضو في الجمعية العلمية ينتظر منه القيام بأعمال اخرى الى جانب نشر الوثائق التي جيء بها من مصر ، لم ينفك ييدي اهتمامه بهذه البلاد ، وظل على علاقات ممتازة مع محمد علي وقد أقنعه ان يتم بتنشئة شبان يتكفون من مساعدة بلادهم على التطور المصري . وقد انتخب محمد علي ، بناء على اقتراحه ، فريقاً من الشبان أوفدم الى باريس . وكان جومار قد انشأ لهم مؤسسة ، فقام هو نفسه بتدريسهم على الفنون ، والآداب ، والعلوم . وهكذا أصبح اول رائد للبعث الذي انقضى الآن عصر كامل على تقديم فرنسا اياه لمصر لرفع مستواها الثقافي ، وتربية شبابها .

لقد تمكنت مصر من صد نابوليون ، ولكنها عرفت كيف تحتفظ بإخلاص جومار ، وثقانيه ، واجهزته ، وكيف تقيد من استخدامها .

بعد حملة ابراهيم باشا في شبه جزيرة العرب ، قام جومار الذي ضن
بأي مصدر من مصادر المعرفة ان يفقد ، يجمع ملاحظات الجيوش ، واهتدى
في القاهرة الى شيخ نجدى من اقرباء مؤسس الوهابية ، واستقى منه عن
بلده ، معلومات مكنته من وضع الاطار الجغرافي العام لأواسط شبه
الجزيرة العربية .

يضاف الى ذلك ظهور كتاب جغرافي باسم « جيهان نامه » ، طبع في
استانبول سنة ١٧٥٠ وألفه رحالة تركي متقف يبدو انه عرف اواسط شبه
الجزيرة العربية معرفة شخصية .

واستناداً الى هذه المعلومات كلها وضع جومار وصفاً دقيقاً
لأواسط شبه الجزيرة العربية فقال انها مؤلفة من اربع مناطق
طبيعية من الجنوب الى الشمال : ١ - نجد اليمن وهو منطقة صحراوية
متوالية الأطراف محاطة بواحات خصبة (نجران والدوآسر وبيهرين) .
٢ - نجد العارض وفيه عدة أودية . ٣ - منطقة القصيم المنخفضة . ٤ - جبال
شمر وفيها صفوف من التلال المرتفعة . ووصفه لها موجز ، يشتمل على
اسماء المدن وانواع الزراعات .

وتفوق المعلومات التي يشتمل عليها هذا الوصف ، فيما يختص بالدقة
الجغرافية المعلومات التي جمعها نيبور عن العربية الوسطى . اما بوركهارت
فكان قد اطلع على كتاب نيبور الذي اعطاه فكرة مختصرة ولكن
صحيحة عن هذا القسم الذي لم يتمكن من مشاهدته بنفسه .

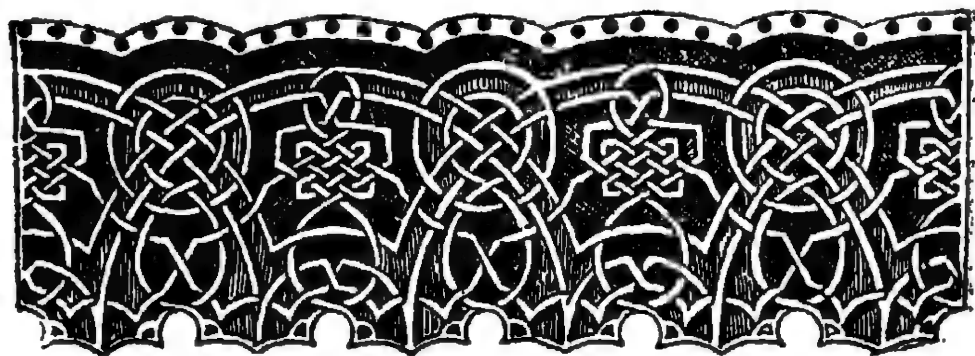
وقد توصل جومار ، بالاستعانة بالمعلومات التي اعطاه اباه كتاب
« جيهان نامه » والمعلومات التي اعطاه اباه مباشرة صاحبه الشيخ الوهابي ،
والملاحظات التي كان قد دونها ضباط هيئة اركان الجيش ، الى وضع كتاب
اسماء « نبذة جغرافية عن بلاد نجد » .

وقد وضع احصائيات عن السكان الحضري والبدوي استناداً الى اللوائح
التي كان بعض الناس قدموها للجيش المصري ، وعن منتوجات البلاد الزراعية
والصناعية ، وعن الحركة التجارية فيها . وتكلم عن المناخ ، والحيوانات

والأنظمة والعادات ، كل ذلك طبعاً استناداً الى ما ادى به مخبره النجدي .
وارفق هذا البحث بخارطة ، ومكنته الطريق التي كان سادليير قد
سلكها من ان يرسم عليها المزيد من الاشارات .

وقد ظلت مواقع بعض المناطق تفتقر ولا شك الى الدقة في التعديد ،
لأن تقديرات مدة السير التي قام بها الجيش وسادليير ، اذا كان في امكانها
تميين المواقع الطولية بصورة تقريبية لم تكن كذلك بالنسبة الى المواقع
العرضية التي يجب تحديدها بوساطة الملاحظات الفلكية ، او على الأقل ،
بوساطة طريق تتجه من الشمال الى الجنوب .

لم تسر الجيوش التركية المصرية ، ولا سادليير الا غرباً شرقاً ، او
شرقاً غرباً . ومن الواضح الا يكون جومار اكثر اطلاعاً من نييور ،
وبوركهارت ، وكتاب ، جيهان نامه ، على المناطق الممتدة شمالي او
جنوبي الطرق التي سلكها من استقى معلوماته منهم .
ولكن اوروبية ، اصبحت رغم كل ذلك ، تمتلك خارطة لبلاد نجد ،
ولم تعد العربية الوسطى رقعة بيضاء في أطلس العالم .



اكشاف عسير

لم يكن محمد علي قد فرغ من حملته على اواسط شبه الجزيرة العربية ، حتى خلف مدنها متداعية ، وعاصمتها مهدمة ، وشجع الفوضى والحروب العشائرية التي كانت قد تجددت فور سقوط السلطة الوهابية الموحدة . وكانت الحاميات التركية التي حلت مكانها تنشر فيها حورها نظاماً انتقامياً ابرعاً . على أن احد افراد الاسرة السعودية المدعو تركي ، قد توصل في سنة ١٨٢٤ الى استعادة الرياض ، وطرد الحامية التركية منها ، والى الاستيلاء على بلاد نجد كلها بين سنتي ١٨٢٤ و ١٨٣٤ ولكن الحجاز واليمن امتنعوا على السعوديين ، فاكتفوا بالحكم في امارتهم الأصلية حتى عام ١٩١٨ ، حين استولى عبد العزيز بن سعود ، المعروف بالكبير ، على مكة .

وظلت المناطق المتاخمة للحجاز مستقلة عن الحكم الوهابي ، ولكن احدى هذه المناطق التي كان يحكمها ابو نقطة ، المتمتع بقدر من الاجلال لا يقل عما يستمتع به السعوديون ، ما برحت مصدر قلق وازعاج لمحمد علي . وابو نقطة هذا هو الذي ذكر علي بك انه رآه يوم زار مكة .

كان علي بك يجهل اماره ابي نقطة ، وكان بوركهات الذي يعرف ان اسمها عسير يظن انها مدينة . اما نيبور فقد جعل حتى اسمها . ولكن الجغرافيين العرب لم يكونوا احسن اطلاقاً من هؤلاء ، ويلاحظ جومار أن لا مؤلف « جيهان نامه » ، ولا ابا الفداء ، ولا غيرهما من المؤلفين الذين كانوا قد عرفوا حتى ذلك الحين ، مثل عبد اللطيف وابن بطوطة ، والمسعودي ، ذكر شيئاً عنها ، ولم يأت على ذكرها إلا الإدريسي . وقد ترك موقع عسير ابيض على الخارطة الآسيوية التي وضعها الجغرافي الألماني هنري برغوس في سنة ١٨٣٥ .

على ان قتصل فرنسا في جدة ، فولجانس فريسنل الذي كان من المقدر له ان يمثل دوراً عظيماً في تسمية المعارف عن جنوبي الجزيرة العربية ، علم ان هذه البلاد عامرة ، في الحقيقة ، بالقرى والمناطق المأهولة ، غنية بالمزروعات . وقد أثار الدهش ، من جهة اخرى ، تمكّن احد انصار الأتراك من تجنيد عشرة آلاف رجل من هذه المنطقة التي كانت تعتبر ثائرة عليهم . فأبي احتياطي كبير من الرجال كان فيها ؟

كانت هذه الامارة الدائمة الاضطراب تشكل خطراً على محمد علي ، ولكي يحمي الحجاز من التسللات المحتملة كان قد جعل من الطائف مدينة حصنة ، يوجه منها الغارات ، من حين الى آخر ، الى المناطق المتاخمة لجبال عسير . ولكن لم يسهم أي اوروبي في هذه الغزوات ليجمع بعض المعلومات عن المنطقة التي يجتازها المغيرون .

في سنة ١٨٣٢ أعلن علي ، احد قادة الجيوش التركية الملقب : « بتوركجه بيلز » ، العصيان وانضم الى زعيم عسير . فاستولى احدهما على الحجاز ، والآخر على ابي عريش عاصمة المنطقة الساحلية في عسير . ولكن سرعان ما اختلفا ، فانزع أبو نقطة الحجاز من يدي « بتوركجه بيلز » وطارده ، الا ان المرض سبب وفاته فعزل محله المدعو عابض .

قرر محمد علي ان يتدخل ، فانزل جيوشاً في جيزان لينقذ حليفه في

« أبو عريش » من الحصار الذي يهدده به عايض ، فاضطر هذا الأخير الى الانسحاب الى الجبال ، وامر محمد علي حاكم « أبو عريش » بمهاجمته من الغرب ، في حين يقوم هو بمهاجمته من الطائف في الشمال . ولذا وضع تحت امره احمد باشا جيشاً قوامه ثمانية عشر ألف رجل انزلهم في جدة . ورافق الجيش فريق للخدمة الصحية يضم عدداً من الأطباء والصيادلة الفرنسيين والايطاليين . وبفضل اربعة من الفرنسيين ، اضيفت بلاد عسير الى قائمة البلاد المكتشفة التي امكن ادراجها على الخرائط الجغرافية .

*

كان رئيس الأطباء رجلاً يدعى شيدفو ، وقد اتخذ اميناً لسره موديس تاميزيه ، الذي غادر فرنسا ، وارتضى هذه الوظيفة فرحاً لرغبته في زيارة الشرق ، وقد وضع تاميزيه هذا فيما بعد ، قصة الحملة في كتاب من جزأين جدير بالتناء .

ضمن تاميزيه كتابه وصفاً مثالياً للجماعة المختلطة من الأوروبيين العشرين ، من فرنسين وانكليز واطاليين ومالطيين وكورسيكيين واغريق وبيامونتيين ، وكانت هذه الجماعة تدعو الباشا وحاشيته الى العشاء في خيامها ، ترتب الموائد والكراسي ، وتضع الصحاف على الموائد ، مثيرة دهشة العرب ، ولا تنقصها الوسائل للترفيه عن الباشا وجماعته . فقد كان صيدلي ايطالي يحيرهم بالعباب الشعوذة التي يقوم بها ، ورجل بيامونتي يعزف لهم مقطوعات موسيقية شهيرة على بيان مستورد من الهند اشتراه الأطباء الفرنسيون ، وكان مسك الحتام الذي يزيد الفرحة العامة اكتمالاً الرقص والعزف على الماندولين . ولكن ، من البدهي ، ان ابناء البلاد لم يكونوا ليشاطروهم تلك الافراح ، وان حضور قادتهم وزعمائهم مآدب « الكفار » كان بسوؤم جداً . وكيف كان يستطيع اولئك انبدو ان يفهموا « مقدمة » الأتراك والمصريين حيال التشدد الوهابي الذي كان يحرم الموسيقى ؟

ومن جهة اخرى ، ظهر فضل الأطباء في انتقاذ الجنود المختضرين الذين كانوا يتحركون على جانبي الطريق يموتون عطشاً ، او في قعر الوديان القاحلة التي كان الجيش يجتازها ، وانتقاذ المرضى الذين كانوا يبدوون عدم اكتراث غريب بامراضهم الجسدية التي كانت تفضي بهم الى الموت .

لقد بدت الصورة التي رسمها تامييه في كتابه ، للجيش التركي ، كالصورة التي رسمها له لورانس في سنة ١٩١٨ : شبان ، بل أحداث ، يعاملهم قادتهم الأتانيون المهتمون براحتهم ورفاهتهم الخاصتين معاملة غير انسانية . ولكن شعور العطف الذي يوحيه الجيش في سيره ينقلب الى شعور فظيع ، عندما يرى المرء هذا الجيش ينصرف بحماسة بعد المعركة ، الى ضروب الوحشية الفظيعة التي لا طائل تحتها . وقد عبّر تامييه عن استنكاره الشديد المطلق لتلك المشاهد ، واشتمزازه منها .

ورسم السكرتير الشاب صورة لقادة الحملة : احمد باشا ابن بائع بهار وجين ، ونسيب محمد علي عن طريق امه (ابن بائع تبغ في القاهرة) وهو بادي السقام ، خلق للتمتع بفاتن الحياة البيئية ، لا ينقصه كقائد ، المهارة والفطنة ، ولكنه يفتقر الى الارادة والقوة ، اما معاونه في رئاسة الاركان ، امين بك ، فمتقف ثقافة اوربية ، ابي النفس ، لطيف ، تقى ، واما الفريق مصطفى بك فجاهل متكبر يضرر الاحتقار لغير المسلمين ، مفرط الكسل ، وكان الشينبي افندي « حارس مفتاح الكعبة » قد وافق أيضاً هذا الجيش ، وهو من افراد حاشية احمد باشا المتوقدين غيرة ، ويقول تامييه « اهدى اليه هذا القائد مؤخراً عربة رائعة جيء بها من باريس الى القاهرة لاستعماله الخاص » .

هكذا كان الجيش وقادته ، وفريقه الصحي . اما بالنسبة الى تامييه فان ذلك كان مزماً الا يكون سوى اطار حياته العناية الربانية لرحلة ارتياده .

وما كاد يبلغ جدة حتى تريا يزي شرقي خشية ان يمر شعور العرب ، وأرغمي لحية . وهو يقول : « كنت احاول جهدي الا اسس شعور احد في آرائه . وكنت احترم عادات السكان ولا سيا دينهم ، وبفضل هذا السلوك الذي ليس في تطبيقه العملي أية صعوبة ، جعلت نفسي في منجى من النفور والكره اللذين يكتنهما سكان الأراضي المقدسة لكل من لا يدين بالاسلام . . ولم يلبث الناس ان اطلقوا عليه لقب « الشيخ فرنجي » ،

ولم يضع وقته في جدة حيث قضى الجيش بعض الوقت ، بل وجد بعد بور كهاردت ، اشياء جديدة للملاحظة . فقد رأى بادي ذي بدء قبر حواء الذي أعيد بناؤه بعد ان هدمه الوهابيون ، وهو بناء عادي ، يقوم بجوارته فاسك قديس ، حالم لطيف ، اكتفى ، بعد ان عرف ان تمييزه قد لا يكون مسلماً ، بأن يقول : « أليست حواء ام جميع البشر ؟ » وذكر له ان هذا القبر قد جعل عند وسط سُرَّة حواء تماماً ، وان جسمها لطويل الى درجة ان رأسها في المدينة وقدميها في افريقية .

واطلع تمييزه على اسطورة شائعة حول نشوء جدة ، تزعم ان محمداً نفسه قد اسس هذه البلدة عرفاناً منه بليل صيادين ألقياه وجده في احدى الجزر فهرعا لنجدته ، وتقول القصة انه كان متردداً في مغادرة شبه الجزيرة العربية التي كان عدم ايمان اهله يبعث في نفسه اليأس ، ولكنه اتجه بعد ذلك الى المدينة .

وقد لفت نظر امين السر الشاب حي الطغروسين في ضواحي منطقة جدة . فأكواخهم ، حين يكون لهم اكواخ ، لا ترتضي كلاب اوروبة ان تسكنها لفظاعتها ، فمن هؤلاء السود الذين اصبح اسمهم يرادف احط ما في الوجود ؟ ، لقد بذل جهوداً لمعرفة ذلك ، الأمر الذي ألقى نوراً على احدى الطرق التي يأتي بها العبيد السود الى شبه الجزيرة العربية .

ان اصل هؤلاء التكروين من بلاد تكررور او بورنو الواقعة ما وراء درفور في قلب افريقية . و بما ان اراضي بلادهم غير خصبة ، ولا تكفي محاصيلها لسد احتياجات حكلها ، ترسل الحكومة في كل سنة ، بذريرة الحج ، بضعة آلاف منهم ، تصحبهم النساء في اغلب الاحيان . فيجتازون بلاد درفور ، وكردفان سيرا على الاقدام ، عبر الصحارى ، يبيعون بعض العقاقير ، وجذور النبات التي اتوا بها من بلادهم ، وبعض التعاويذ ، وسوائل الحب ، ويمروا بالخرطوم ، ودنقلة ، ثم الحبشة حتى مضوع او سواكن .

ويعود بعض هؤلاء الحجاج ادراجهم ، ولكن السواد الأعظم منهم لا يجد في نفسه الشجاعة ، حين يتذكر المشاق والمخاطر التي تعرض لها في الجبي ، للقيام برحلة العودة ، فيقرر الإقامة في مدن الجباز الرئيسية . وهناك يتعاطى هؤلاء السود احط الاعمال التي لا يمكن ان يقوم بها افقر العرب ، وينتهي بهم الامر الى ان يقدوا كالبهائم ، لا يحتفظون من انسانياتهم الا بشكلها . و اذا وجد بينهم عدد من المتفوقين على انشاء جنسهم في الذكاء ، فليسوا سوى اولئك الذين يستعقهم الحظ بأن يقع عليهم اختيار بعض الاثرياء الذين يستخدمونهم قبل ان يهوي بهم الفقر والشقاء والحنين الى الوطن ، الى درجة البهائم .

و تقوم نساء من يحتفظون باستقلالهم من التكروين بصنع الخزف وبيعنه في الاسواق . ويصنع ازواجهن الحروز ، والسوائل ، او يعملون كقناتين . وليس لعدد كبير منهم منازل ، فينامون في العراء . اما الذين يعودون ادراجهم الى بلادهم التي جاؤوا منها ، فلا يبلغها منهم الا عدد ضئيل . وتبتلع الزوابع الرملية احيانا قوافلهم ، او يهلكهم العطش ، وهكذا تصيب حكومتهم الهدف ، الذي رمت اليه .

ولاحظ تميزه بفضول ، تجار رقيق سواكن ، الميناء الحبشي التابع

تُشريف مكة أولئك السود ذوي الوجوه الشبية بالمعين شكلاً والمظهر
 النبل ، والانوف القنفاء والذقون الدقيقة ، ووصفهم بقوله : « عيونهم
 أشبه بعيون النور ، وهم يعدلون العرب أباء ولكن يفوقونهم في اللطف ،
 والحيا المعبر ، وما هم عليه من مزيج غامض من الطيب ، واللامبالاة ،
 والكبرياء ، يجعلون شعورهم الكثة الطويلة الفاحمة السود ، المدهونة
 بالسمن ، حزمة ضخمة فوق جباههم ، ويتركون عدداً من الضفائر المتوازية
 مسترسلة على أعناقهم ، وقد غرسوا في هذه الرزمة من الشعر قضيباً صغيراً
 طوله ست أصابع لرتق الحصر التي تتمزق ، يكسون اكتافهم في اناقة
 بقطعة من النسيج الأبيض ، وثيابهم البسيطة ، لكن الأنيقة ، ذات مظهر
 نظيف يدل على رفاهة عيشهم وتفوقهم . »

*

وأخيراً سار الجيش نحو الطائف في السابع عشر من شهر أيار (مايو)
 من سنة ١٨٣٤ وراء عدد من الادلاء القريشين الذين حَيرَ جومار فقرم
 البادي . وقد قيل له ان هذه العشيرة التي ينتمي إليها محمد بن عبد الله ،
 لم يبق منها سوى ثلاثمائة رجل . وهناك من ينسب ذلك الى اللعنة التي
 صبها النبي على ابناء عشيرته الذين لم يؤمنوا برسالته ولكن تميزه أعجب
 بما لمس فيهم من الفخار والميل الشديد الى الاستقلال
 لم يكن الطريق الذي سلكوه الى الطائف هو الطريق الذي سلكه
 بوركهاردت بل كان يمر الى الشمال ببيسخرّة ، وحداء ، ووادي فاطمة ،
 ووادي اليسون .

قبل ان يبلغوا الزيّمة توقفوا عند بشر البرورد ، وقد تأمل تميزه
 بدهشة وفضول حقلاً من الحراثب القديمة ما يزال سرها غير مجلى حتى
 اليوم ، رغم ان فيابي مر من هناك في ايامنا هذه . وقد قال تميزه
 عنها : « انها اطلال هامة وعديدة تبرهن بوضوح ، رغم كونها على مستوى

الأرض ، ان مدينة كانت تقع هناك فيما مضى . جدران من الحجارة الصوانية ، ودرج من الحجارة الضخمة ، وأنواع من الأسطحة المستوية المتقاطعة في زوايا قائمة يحيط بهذه الأطلال خرائب اخرى اقل منها شأناً ، ولكنها تعطي فكرة عن عظمة اولئك الذين أنشأوا تلك الأبنية . ولكن من هو الشعب الذي شادها ؟ والى أي عصر يرجع تاريخها ؟ وما هي النكبات التي جعلتها تؤول الى هذا المصير الذي نراه اليوم ؟ كل هذه اسئلة غامضة ، ان لم نقل تتعذر الاجابة عليها .

« اذا أنعم المرء فيها النظر اكتشف احجاراً منتثرة على الأرض ، ولكن لا تحمل اية كتابات اثرية ان ما يبدو لي اكيداً هو ان الحجارة قد استخرجت من الجبال المجاورة ، وان هذه الابنية تسبق عهد النبي محمد بكثير . »

وقد سأل تلميذه عنها البدو دون ما طائل ، وكان الجواب الوحيد على سؤاله : « لقد علم أجدادنا من آباءهم ، واخبرونا بدورهم ان هذه الخرائب اقدم من العالم . »

وحين بلغ منطقة السيل ، ألفى نفسه في أراضي عشيرة عتيبة ، ولاحظ حياة البداوة ، فكتب يقول : « انها عشيرة مؤلفة من سبعمائة بيت ، وهي غنية بملك الحيل . مراعيها جيدة ، اما اذا انجبت الامطار ، فهناك الحراب . ينجد الناس بعضهم بعضاً ، ولكن الضيافة لا يمكن ان تتجاوز الثلاثة ايام . ولا يمكن النزوح الى مكان آخر ، لان لكل عشيرة أراضيها التي تعرف الحدود المتفق عليها ، هذه الحدود التي تتكون اما من واد او من خط من الحصى ، او من صف من أشجار السنط (الميموزا) ولها الحق في ان تقتل او تضع البد على الماشية التي تدخل أراضيها . »

ورأى تلميذه عدداً من أولاد العرب من امهاتهم الزنجيات - والعكس لا وجود له - وذكر ان ولد العبد والامة عبد ، وان ولد العربي من

الامة حر ، يتمتع بحقوق العربي النقي العرق ويتحمل ما عليه من واجبات ،
اذ ان دم الاب يحرقه من العبودية تحريراً مطلقاً .

واقض لتأميزه ان شبه جزيرة العرب من بلدان العالم التي تقوم
فيها بين الانسان والحوان علاقات الالفة : « فالجل هناك يلقي معاملة
الصديق الحقيقي يتحدث اليه البدوي في الطريق عن اجداده ، ويقطع له
عهوداً ، وينشد له اناشيد الحب والقتال . وابل يلقي بصفي إليه بانتباه كلي ،
وللتعبير عن اللذة التي يشعر بها ، يضغط على شديقه ، ويصر اسنانه ،
ويدبر رأسه نحو الحادي ليعيره انتباهاً اكثر ، ثم يبدو ، وقد أخذ بهذه
الالحان البدوية ، انه قد نسي حمله ، فيجتاز مسافات لا يكاد يصدقها
العقل ، ينقل اخبارها السلف للخلف . » لكنه اذا هدر غاضباً قذف
بالشتائم وذكر بالمعروف الذي أسدي إليه تحجيلاً له على نكراته الجليل ،
ولكي يحمي من العين وكل سوء ، يعلق له حرز في عنقه .



وأخيراً وصل الجيش الى الطائف ، والصورة التي يرسمها تأميزه عن
البلدة تبدو له محزنة كما بدت لبوركهاردت . فقد تهدمت جميع الأبنية
الأثرية القديمة ، وفنك الطاعون الذي تفشى ما بين عام ١٨٣١ وعام ١٨٣٢
بعدد من السكان الذين كانوا قد نجوا من المذابح في سنة ١٨٠٢ ، فهبط
عددهم من عشرة آلاف نسمة الى ألفين وخمسمائة . ولعل هذا ما كسا
وجوهه بدو الحجاز بتلك السمة من الكآبة التي اثارت اهتمام تأميزه ؟

ولكن اذا كانت المدينة على هذه الحال ، فلم تكن الطائف كلها في
الحقيقة كذلك ، فان ما يجب رؤيته فيها اطارها الثمين من الجنائن التي
تشكل في سفح الجبال الجرداء الداحلة المحيطة بالسهل المهدب . حيث تقوم
المدينة ، حلقة من الحلوات البديعة . فما وراء الاسوار الترابية التي تصد
الانظار الفضولية ، يُظل فيض من الاشجار والحضار ، تجري من تحتها

مياه الري ، مرادقات وعرشاً يأتيها صاحب البستان وزوجاته منذ شهر
حزيران (يونيه) ، للتمتع بما في هذه الامكنة المتسازة من برودة ،
وتكمل مزارع الفلاحين كل ملكية من هذه الملكيات الزراعية التي تخص
عادة احد الاشراف او أحد أئمة الكعبة ، أو موظفيها ، أو أحد التجار
الأثرياء .

وفي إحدى هذه الجنان التي تثبت فيها ورود الطائف الشهيرة ، والتي
أثارت إعجاب تلاميذه ، شعر بأن بما يحل بسمر هذا الجمال صرير ناعورة ،
يديرها عدد من العبيد دون ما توقف لاسالة ماء البئر في أقبية الري .
ولكن الملاك الفطن يشرح مستفهماً : « ترى ماذا يحدث اذا كفت
الناعورة عن الصرير ، الا يتوقف العمل في هذه الحال ، من غير ان
نشعر به ؟ في حين ان المراقبة مستمرة ما دام الصرير مستموراً ؟ »

وأشجار هذه الجنائن على الأغلب أشجار تين وتوت وحميز ودراقن
ولوز ونخوخ وتفاح واجاص ومشمش ، تضاف إليها أشجار البلاد الحارة
كأشجار الليمون والموز والرمان والقليل من أشجار النخيل .

وتتدلى عناقيد العنب الأبيض والأسود من الدوالي المعرشة ، وفي بساتين
الحضار ينبت القرع والبطيخ الأحمر ، والشمام ، والخيار ، والبادنجات ،
والفليقة ، والبصل ، والبقلة ، والبندورة ، والملوخية ، والبامياء . والنحل
والفراش ينتقل من نوع الى نوع آخر .

يخرج المصطافون السعداء من الظلال في مواعيد الصلاة للذهاب إلى
المسجد . عندئذ يبدو السهل القاحل وقد شكلت فيه المراكب الميمية
شطر المدينة اخايد . « يركب السيد بغلة جميلة ، مسرجة بسرج جميل
موشى بالنقوش والزين ، يرافقه عدد من العبيد يمدون له سجادة الصلاة في
فناء المسجد . »

في هذا المجتمع الغني ، يجمع ذوو المقام الرفيع في منازلهم عدداً
كبيراً من الأصحاب ، يتحدثون في السياسة جادين ، ويندر ان يتطرقوا

في أحاديثهم إلى موضوع الدين . ثدلو القهوة ويقدم الشاي باستمرار ،
ويبلهو الحضور باللعب بطاولة النرد والشطرنج ، دون ان يقامروا بالمال .
ان مناخ الطائف المعتدل هو الذي يجعل منه مكاناً لا منافس له .
يسقط فيه الثلج مرة كل خمس سنوات على وجه التقريب ، ويرى فيه
الصقيع يكسو الأرض مرة في السنة على الاقل . والسماء في الليل مفرطة
الذلا .

يبدأ القمح في شهر تشرين الاول (اكتوبر) وينضج في شهر أيار
(مايو) ، وتجمع ثلاث غلال من البوسم .

ولهذا المكان في الاسلام تاريخه وأسطوره . لقد كان أهل الطائف
يعادون رسالة محمد بن عبدالله شديد العداة ، ولكنهم اضطروا الى التسليم
في نهاية الامر . وكان شرط الصلح ان يوافقوا فوراً على تحطيم صنمهم
« اللات » . وقد طلبوا مهلة ... ولكن محمداً لم يلبن ، وأصر على ذلك .
وهكذا انتصر الإله الواحد ، في هذه المدينة المغلوبة على امرها ، على الصنم
المعبود الذي ثبت عجزه وبطلانه ، وما لبث الودع الاسلامي أن تأصل
في القلوب .

وعندما يدخل المرء المدينة من الجنوب بين جبال أشبه ما تكونت
بقوالب السكر شكلاً يصل إلى حجرة منصوبة كتب عليها بالعربية قصة
اعطت المكان الاسم الذي عرف به « مضمن الغزاة » . وترى بعض
التجاويف على صف طبيعي من الحجارة يقال انها آثار أقدام الغزاة .
يقال بالفعل ان محمداً رأى ذات يوم ان جاراً له يهودياً قد اشترى
غزاة منتفخة الضرع ، فرجاء أن يطلقها بكفالاته كي تذهب فتوضع
صفارها ثم تعود . وعادت الغزاة في منتصف الليل ، ولكن اليهودي
ذبحها وأكلها طمعاً في لحمها وفي كفالاتها . وعلم محمد بذلك في الغد ،
فثار ثأرته على اليهودي ، وأعاد الحياة الى الغزاة ، وأطلقها فعادت إلى

صفارها نازكة آثار أقدامها على تلك الاحجار المسطحة ، ويبدو على صخرة تقع في مكان أعلى من موقع تلك الاحجار أثر كوفية النبي واضحاً كشعب مطروق ، ويظهر باتجاه القمة أثر عديم الشكل يقال انه أثر قدم النبي التي زلت في ذلك المكان . أما كوم الحصى التي لا يكاد يحصرها عد ، والتي تكتسو الارض والصخور المسطحة ، فهي التي يضمها الحجاج تذكراً لزيارتهم الحشوية .

*

ولكن بعد أن انجزت الاستعدادات أخيراً ، عزم أحمد باشا على التحرك مع القسم الأعظم من الجيش في السادس والعشرين من شهر حزيران (يونيه) باتجاه بيشه ، حيث كان عليه قبل كل شيء أن يستميل إليه العشائر ، والطريق من الطائف حتى منخفض سهل بيشه وواحاتها ، تقع على ارتفاع ١٦٣٠ متراً ، إلا في بعض الأودية التي اضطر الجيش إلى البحث فيها عن الماء عند توقفه .

الجلج أجرد ، محزن . ولكن تميزه رأى في أسفل الوديان شعيراً وقمماً ، حتى شجيرات غار ، ووروداً وأشجار الاثل ، والأرم ، والنخيل ، وبعض الخضار . ويذكر ان إحدى المحطات كانت كالملاعب المقفر ، نبتت حول بشرها أشجار الجيز .

يمتد في وادي درة سهل وملي تكسوه أشواك ذات أوراق ناعمة يجمعها العرب للجلم المريضة أو الأنضاء ، على حصر مستديرة يبسطونها تحت الأغصان التي يخبطونها بعصي طويلة .

انما بلاد متناقضات ، فلم يكده تميزه يخرج من وادي تربة حيث كان يجري جدول كثير الأسماك بين البوسيم ولسان الحمل والنمغ والحيزران وقصب الغزار ، حتى ألفى نفسه - وكان ممتطياً جواده في المقدمة يجري به خيلاً - في وادي سيل ناضب مثل فوهة البركان . وغدا الجيش كله في

شديد الخطر ليلة كاملة ، ولكن مرحلة الليل أدت به بعد مضي ثلاث ساعات إلى عين ماء لولاها لفضي عليهم عطشاً . بيد ان الدليل تردد ولم يعد يتبين الطريق . ويذكر تمييزه ان من السهولة أن يهلك الدليل جيشاً بكامله في بلاد مثل هذه البلاد . ولكنه وجد لحسن الحظ ، المضيق العميق الذي يشق الجدار الصخري ، ذلك الجدار الذي بدا في الليل متعذر الاجتياز .

ان البدر في ذلك المكان من قبيلة عتية وهم رعاة تحكسو أجسامهم أطمار من الصوف الخام ، وتضع نساؤهم خزامات في انوفهن ، ويابسن عقوداً من الصدف ، ويضمن سلاسل صغيرة من الحديد في حجابهن . وكان سكان قرية العميق قد هجروها عند اقتراب الجيش ، ولم يبق فيها إلا انتكرونيون الأحرار الذين يعرضون أولادهم للبيع برضى منهم .

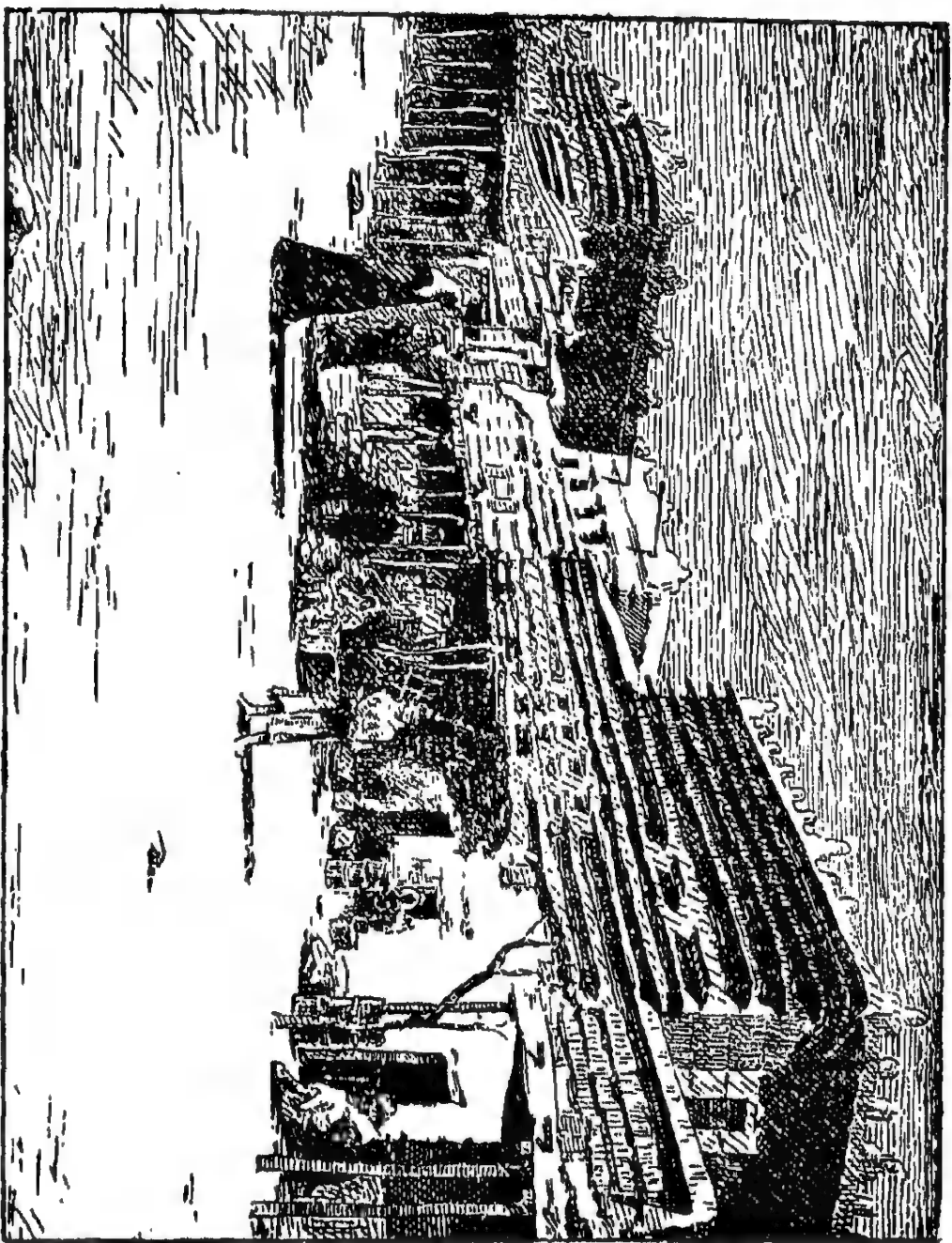
بلغ الجيش أخيراً وادي دَنِيَّةَ ، وغابة من النخيل تحيط بقرية تسانيا الكبيرة ، وراء وادي بيثة الذي لم يلبث أن بدا في كل روعته ما وراء بحر من الرمال يتناقض الصمت الخيم عليه وجذبه ، مع المزروعات الجبلية المخضوضة في الأفق .

في هذا الوادي مجموعة من القرى يعمل سكانها بالزراعة والحراثة ، والبدر يتهمونهم باقتباس عادات الفلاحين ، ويأبون أن يتزوجوا من بناتهم لأن آباءهم قد أضاعوا أصلهم ، وأفسدوا نقاوة جنسهم .

كان الجيش حتى هذا المكان قد تتبع سلسلة الجبال الصغيرة الأخيرة في شرقي عسير ، ولكنه ابتداء من بيثة كان مزمماً أن يتوغل نحو قلب السلسلة الجبلية .

تحرك الجيش في السابع من شهر آب (أغسطس) متبعاً وادي بيثة المنحدر من أعلى منطقة ، في ضواحي العاصمة ابها . وأصدر أحمد باشا أمراً الى حاكم أبي عريش أن يهاجم عسير من الجنوب . وكان مزمماً هو نفسه أن يقتحم منطقة عيت المنعزلة متوغلاً في امارتها .

منزل في مدينة
إبها ، هلا عن
سورة نوزغرافية
التمتيا بهنية
ريكسانس
قاي .



سلك الجيش وادي مرجاب لا، وادي بيثه ، وأخذ يجتاز مرة ثانية جبالاً قاحلة ، جرداء ، هزيلة ، ممزقة ، ثم أودية ممتلئة ، ومضايق يسودها خراب كامل مروع ، ثم وادياً خصباً ظليلاً نبتت فيه أشجار النخيل ومعمرات العنب والقطن ، وقامت فيه منازل عالية بشكل أهرام رباعية الاضلاع ، محدوفة الرأس .

في وادي الحمامة ، الذي يقول انه يتصل بوادي بيثه - الأمر الذي يكتسب منه ان الحرائط التي وضعت استناداً إلى رحلات فيلي إلى هذه المنطقة تحتاج إلى اكمال تقائصها من هذه الجهة - اكتشف وادياً رائعاً ، تقوم على كل من جانبيه قرية حصينة ، وأشجار نخيل ، ومزروعات ذرة ، وقطن ، وكروم عنب ، وأشجار تين ، وأشجار حور . وقد أسرع السكان في الهرب من القريتين اللتين غدتا مققرتين بشكل غريب . وشاهد قروداً تسكن ضواحي هاتين القريتين .

وأجل من هذا الوادي ، وادي شهران الواقع في وادي بيثه ، حيث تنمو أشجار النخيل ، والتين ، والعنب ، والدراقن . وقد شاهد تلاميذه ، والألم يحز في نفسه ، الجيش يقوم بائلاف المزروعات ، وتهدم المنازل المهجورة .

تمتد في الوادي على بعد قليل غابة من السرو والصنوبر ، وتقع بعدها قرية ينفور (غير المذكورة على الخارطة الحالية) ، بين جبال انتصب على قممها سور ضخم متهدم لا بد أن يكون قد احتسى وراءه معسكر ، أو أن يكون قد شهد معركة دامية ، لأن الأراضي المحيطة به مكسوة بقبور صغيرة من الحجارة الناشفة ، ولا تزال أطلال قلعة بادية في الوسط .

عند هذه النقطة من الطريق أخذت تبشیر المعركة تلوح . فقد وردت أخبار من بعض القبائل تعلن انحيازها إلى جانب الجيش . وقد استدعى

أحمد باشا أبناء عشيرة يام المجاورة للمرحلة المقبلة ، ووصل من اليمن ثلاثمائة رجل وكميات من الأرزاق تكفي أربعة أيام .

تحرك الجيش في اليوم التالي متجهاً إلى مكان الالتقى الذي كان سيصبح ميدان المعركة ، وبعد اجتياز بعض سلاسل الجبال الصغيرة الصغيرة ، تراءت للعيان قرية خميس مشيط حيث اتخذ العدو مواقع حصينة .

انه حوض د شديد الاخضرار بأشجار البلع ، والأشجار المثمرة ، والمزروعات المختلفة كالبرسيم والحنطة والشعير والذرة التي ترتفع إلى علو هائل ، تحيط به جبال تكسو سفحها القرى ، وتنتصب باتجاه السلسلة ست قلاع .

انتشر الأتراك وركزوا مدافعهم ، ووزعوا قوات البدو . وقد احتلوا في المرحلة الأولى من المعركة الحصون التي وجد المدافعون عنها أنفسهم منكشفين أمام قنابل المدفعية . وحوالي المساء فقط خرج جيش القائد عايض من المضيق الجبلي بعد قوات الأوان . وكان قد اتكل على مقاومة القلاع ، ولكن خطته أفسدت . وبوغت من الوراغ وغلب واندحر في ساعة من الزمن . ولم يتكبد الأتراك خسائر تستحق الذكر ، ولكن عايض خلف وراءه خمسمائة من القتلى وأصيب عدد بمائل من رجاله بجراح . وهنا ظهرت الممجيبة في قطع الرؤوس وصلم الآذان ، وذبح الأمرى ، التي أعطت تميزه فكرة مؤلة عن تصرف الجيش التركي .

سقط موقع خميس مشيط ، قلب عسير الأخضر الحصب ، ولكن كيف السبيل الى اقتناص النسر في ركزه الجبلي ؟ فقد انسحب عايض إلى مناظر ، قلعة الواقعة على ارتفاع ثلاثة آلاف متر عن سطح البحر .

توجه أحمد باشا إلى الجبل من غير احتياطي من المؤن ، بانجاء أبها عاصمة عايض التي كان قد انسحب إليها ، فان ما أطلق عليه تميزه امم مناظر ، لم يكن سوى أحد أحياء أبها . وقد بلغ الجيش هضبة محاطة

بالجبال بعد أن اجتاز أودية معمورة خصبة ، وعسكر في هي المناظر .
وكانت قلعة عايض واقعة على المنحدر الغربي من الجبل على مسيرة عدة
ساعات من هناك .



مزرعة حصنة في لجران ، نقلًا عن صورة فوتوغرافية التقطتها بعثة
ريكنهانس - فيلي .

بعد فترة انتظار طويلة ، حاول أحمد باشا القيام بهجوم كان موفقاً ،
ولكن العدو صعد إلى أعلى الجبل ولما بلغ المطاردون القمة لم يجدوا أحداً
أمامهم ، ولم يعودوا يجسرون على التقدم ، فأمر أحمد باشا بالانكفاء .

منذ ذلك الحين لم يعد للجيش من عمل سوى الانتظار يوماً بعد
يوم ، والرد على التعرشات المستمرة التي كانت تقوم بها فصائل صغيرة من
البدو . فأنحطت معنويات الجنود ، وانتشر المرض والجوع بينهم . ولم
يعد أحمد يحرز لا على الهجوم لأنه أضعف من أن يفلح فيه ، ولا على
التقهقر لانعدام الأرزاق . لقد تغلبت عليه عسير ان لم نقل زعيم عسير ،
فاضطر قاهر د خميس مشيط ، إلى طلب عقد الصلح الذي كان الوسيلة
الوحيدة لاعادة جيشه بمساعدة الادلاء ، إلى منطقة الأمان . وقد وقعت
معاهدة الصلح في السادس والعشرين من شهر أيلول (سبتمبر) .



لا شك في ان تميزه عاد عن طريق المنطقة الساحلية المعروفة بتهامة
عسير ، وفي صدد تحدته عن حاكم أبي عريش عاصمة تلك المنطقة ، وصف
لنا المدينة فقال انها لا تشبه أباً من مدن اليمن أو البلاد الأخرى التي
سبق لنا أن عرفناها ووصفناها .

ان هذه المقاطعة الحارة الرطبة لا تشبه سلاسل الجبال الشاهقة التي تطل
عليها في أي وجه من الوجوه ، نباتاتها أشجار البلسان المكبة ، والداتورة ،
وفي بساطتها السنا الحجازي ، والحنظل ، واللفت ، والموز ، والملوخية ؛
وشجر الأراك بشكله مورداً هاماً من موارد البلاد يصنعون من خشبه
نوعاً من الأمشاط الصغيرة د مسوآك ، لتنظيف الأسنان من بقايا التبغ الذي
اعتادوا أن يمضغوه ، ويبنون به المنازل .

تقام المنازل من شجر الأراك ، فتغطي أغصانها بحزم الحشيش ،
وتلبد من الداخل بروث البقر إلى ارتفاع خمسة أقدام ، يكلس كل ذلك .

فيغدو صلباً كالجبارة ، وحول هذه المنازل المصنوعة من الأغصان ،
والمعروفة « بالعشات » يزرع الحب الذي يبلغ ارتفاعه سبعة أقدام وتفرح
منه رائحة عطرة . وتغطي المنزل كله الفاصوليا الخضراء الحامضة أزهاراً
براقة الألوان متعددة ، وتضفي عليه هيئة « مهد رائع » . وبسبغ أخيراً
بسباج من الحطب اليابس لزابة البهائم ليلاً .
ولكبار القوم عادةً عشتان أحدهما للرجال والأخرى للنساء . والقصر
نفسه ليس سوى عشة أرحب وأكثر أناقة ، وتكسى الغرف من الداخل
بأصداف عرق اللؤلؤ .

يتألف السكان البالغ عددهم من ثمانية آلاف نسمة من بدو وبعض
البابليانيين وتجار حضرموت . الأولاد عراة ، والرجال الذين يدهنون
أجسامهم بالسمن أو بالزيت يكسون عورتهم بفوطة يشدون بها الحقوين .
يضيف الأغنياء إلى ذلك قميصاً من الشاش ، وتتردى النساء ضرباً من
القنصان مشقوقة الأكمام حتى الأسفل « يرفعنها على رؤوسهن لانتقاء
الشمس ، ولا يجعين وجوههن إلا فيما ندر » . ولا يستعمل سكان المنطقة
الوشم ، ولكن الرجال والنساء يكحلون عيونهم ، ويخضون أيديهم
بالحناء .



هكذا قدم تمييزه للغرب وصفاً حياً مفيداً لمختلف الأقاليم ، وللمشركين
في هذه الحرب ، أحمد باشا والطائف ، عايض وعسير ، وحاكم أبي عريش
وعاصمته .

وكان « بلانات » من جانبه قد رسم خارطة أرسلها إلى فولجانس
فريسنل قنصل فرنسا في جدة ، الذي كان ذا ثم الاهتمام بكل ما يمكن
أن يخدم التعرف إلى شبه الجزيرة العربية .
بالاستناد إلى هذه المعلومات ، مضافاً إليها تقريران كان فريسنل قد

حصل عليها من أحد رفاق أبي نقطة في القتال ، بذل جومارده قصارى جهده لوضع خارطة وكتب بحثاً عن البلاد ، وأورد في قائمة حسب الترتيب المجائي أسماء جميع الأقاليم ، والقبائل ، والمدن ، والقرى ، والينابيع ، والسيول ، والجبال .

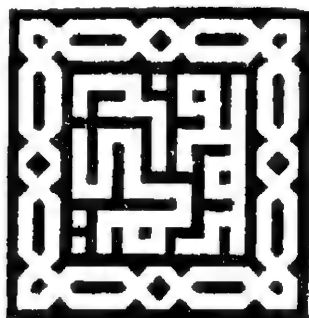
كانت الخارطة لا تخلو من النقص ، ولا شك ، فالجغرافية العامة لشبه الجزيرة العربية كانت ما تزال تحوم حولها بعض الأسئلة : هل هنالك واد تستمر به الأودية المنحدرة من عسير ، حتى يبلغ الخليج العربي ؟ أو ان المياه تضيع في الرمال في العربية الوسطى ، وهل هنالك مصارف للمياه ابتداء من جبال نجد ؟ وكان ارتفاع المناطق بالنسبة إلى سطح البحر صعب التقدير ، ولم يكن أحد يعرف بعد إلى أية جهة تميل الهضبة الوسطى في الجزيرة العربية ، وبالنتيجة ، كيف تتجه مجاري المياه ؟.

وكان شيدوفو وماري من جهتها يقومات بمهمة علمية أخرى خاصة بعسير ، فقد وصل بالفعل إلى جدة في سنة ١٨٤١ ، ضابطان من هيئة أركان الحرب الملكية ، غالييه وفريت ، كانت الحكومة الفرنسية قد أرسلتها إلى بلاد الحبشة . فقدرا ان من المفيد لهما أن يرسوا لشهر واحد في ذلك الميناء العربي ليستقيا من شيدوفو وماري كل المعلومات التي كانا قد توصلا إلى جمعها عن عسير والحجاز . فأتاح لهما ذلك ، عند عودتهما في عام ١٨٤٩ ، ان ينشرا في مؤلفها الجميل الجدي عن بلاد الحبشة خارطة لعسير ، وبحسباً تحليلياً للمعلومات المعطاة عن الأماكن والقبائل فيها .

وأخيراً كان ثمة طبيب ألماني ينتمي إلى الحملة توفي في إقليم ابي عريش ، وما يزال اسمه مجهولاً ، قد غني بجمع نماذج من النباتات ، وصلت فيما بعد إلى الجمعية الوطنية للملاوم في فيينا حيث جرت دراستها .

لا ريب ، في ان ما انجز حتى ذلك الحين من الاكتشافات كان

ما يزال ناقصاً ، ولكن من الراهن ان الحملة التي قام بها محمد علي في
عسير ، وتضامن جهود الفرنسيين من اطباء ، وسكرتير ، وقنصل ،
وعضو في جمعية الآداب والعلوم ، وضباط ، وتوحيد معلوماتهم لتسخير
هذه الحرب من اجل تقدم المعرفة ، ان ذلك كله ادى إلى اكتشاف
منطقة جهلها الجغرافيون القدماء والمعاصرون .





وآلاف وغوارمائي لدى أمراء آل رَشِيد

كان جزء هام من شبه الجزيرة العربية ما يزال مجهولاً ، وهو منطقة جبل شمر الواقعة في شمالي البلاد . فبوركهاردت وستيزن كانا في الحقيقة قد اجتازا الأراضي المتاخمة لهذه المنطقة من الجانب الفلسطيني ، وكان ووبل قد مر بساحلها غرباً ، وقطع بلايسند وألبوت ثم غرقيت الصحراء المتاخمة للعراق وسوريا ، وكانت الجيوش التركية المصرية وسادليير أخيراً قد اجتازوا جنوبي نجد ومنطقة الوهابيين الحيوية .

كان ما يزال في وسط كل ذلك ألسنة مترامية الأطراف من الرمال ، أعني بها الانفاد التي كاد داكوادرا أن يهلك فيها عطشاً ، وكذلك نجد الشمالي ، ومدينة حائل الواقعة في جبال شمر ، العاصمة الثانية للعربية القفراء بعد الرياض .

لم يكن أحد قد أعار تلك المنطقة حتى ذلك الحين إلا القليل من الاهتمام في حين ان المدينتين المقدستين والرياض كانت موضوع اهتمام كلي . ولكن تلك المنطقة أصبحت في سنة ١٨٤٢ من الأماكن التي استرعت

اهتمام محمد علي ثم اهتمام نابوليون الثالث .

لم يتدخل نائب ملك مصر الذي كانت المعاهدة المعقودة في لندن قد انتزعت منه سورية والأماكن المقدسة في شبه الجزيرة العربية ، عن أمل الاحتفاظ بسلطته على شبه الجزيرة . فقد ترك الحرية في عام ١٨٤٢ لفصيل سليل الرومانيين الذي كان قد احتفظ به حتى ذلك الحين في القاهرة ، باستعادة السلطة في الرياض تحت الحماية والسيادة المصريتين .

ولكن آل رشيد الذين كانوا يتزعمون عشيرة شمر ، كانوا في تلك الأثناء قد وطدوا سلطانهم . وكانوا قد لزموا جانب الحياض عندما قام المصريون بمهاجمة السعوديين ، واعتبرهم محمد علي حياضين ، مبالغين إليه ، فلم يعامل سكان هذه المنطقة المعاملة القاسية التي استهدف لها سكان نجد الجنوبي ، بل اكتفى بأن يترك في حائل جامية ثابتة . وكانت عبدالله ابن الرشيد قد استولى على السلطة فيها ، في عام ١٨٣٥ ، بعد أن خلع ابن عمه ، وحصل على اعتراف محمد علي بحكومته ، وبرهن عن إخلاصه للأمرة السعودية بإزاله العقاب بالمغتصب الذي كان قد استولى على السلطة في الرياض في غياب الوريث فيصل . لذا فقد أصبح عبدالله حليفاً وتابعاً لفصيل السعودي ، عندما أطلق محمد علي يد فيصل في استعادة السلطة تحت حماية مصر وسيادتها . ولكن ، في الواقع ، كان التابع هو الأقوى بين الأميرين ، وقد امتد سلطانه سلباً فشمل جميع أنحاء نجد . وكانت هذه النقطة هي التي تشغل بال محمد علي ، فيتساءل : ما هي حقيقة منافس فيصل هذا ؟ وما هو المدى الحقيقي لسلطته ؟

★

كان يعيش في القاهرة شاب فنلندي يدعى وآلان من رعايا قيصر الروسيا ، حصل على منحة من جامعة هلسنغفورس للقيام برحلات ، ف قضى سبع سنوات متنقلاً ما بين بلاد الفرس ، والعراق ، وسورية ، واستقر



جورج اوغسطس وآلان

اخيراً في مصر ، فوطد العزم على اكتساب ثقافة غمكه من ان يظهر بمظهر مسلم حقيقي ، وكان يرغب في زيارة نجد الوهابية ، وبلاد اليمن ، بحثاً عن الكتابات الأثرية . لذا فقد عاش في القاهرة حياة تناسب وأهدافه وضآلة موارده في آن واحد ، بين أشد الطبقات فقراً .

فهل عرض عليه محمد علي ان يذهب الى حائل ليشترى خيلاً لاسطبلاته ، أو نصح له بالتوجه الى تلك المنطقة التي كانت الأوضاع السياسية فيها تسترعي اهتمامه ؟ ان هو غاثر يزعم ذلك ، ولكن كيونان ينكر باسم السويديين كل افتراض من هذا النوع .

إلا ان الأمر الأكيد هو أن وآلان لم يذهب لا إلى اليمن ولا إلى الرياض ، بل قام برحلتين متتابعتين الى حائل . ولم يفسد ذلك ، الروح العلمية المتجردة التي كان يتعلّى بها ، وكان في وسع محمد علي أن يوجه حماسة العالم الشاب نحو منطقة كانت موضع الاهتمام في ذلك الحين ، وهي ما تزال مجهولة كلياً . فهل قام محمد علي بهذه المحاولة ، أم ان خيال وآلان هو الذي اخترع ذلك ؟ ليس لدينا أية وثيقة تتيح لنا توضيح هذا الأمر . كان فريسنل قد نصح وآلان بدخول العربية من الشمال ، تجنباً لاثارة الشبهات حول نفسه في حال حجّته مباشرة من مصر ، فسلك في سنة ١٨٤٥ طريق سيناء متوجّهاً الى معان

اننا نعرف ما كان يتمتع به هذا العالم الشاب من ثقافة متميزة في الشؤون العربية واطلاع واف على أخلاق العرب وعاداتهم ، من قصة رحلته إلى سيناء التي كتبها بعد ذلك بعشر سنوات ، وعبر فيها عن فرحته الصارخة بأن يجد نفسه ثانية في خيمة بدوية بين سكان البادية المتنازين .

لقد كانت النتيجة الأولى المدهشة لهذه الثقافة غمكه من الاتصال المباشر الصميم بالحياة البدوية . فلننظر إليه في مرحلة دخوله الخيمة التي حل ضيفاً على أصحابها .

« كنت قد أصبحت آنذاك معتاداً على اصول اللياقة المتبعة لديهم وعلى عاداتهم ، وقد تصرفت تصرف بدوي ممتاز ، اقف لكل قادم جديد ، وأسلم عليه ، واعانق كتفيه ثلاث مرات متتابعة ، مردداً باستمرار « سلامات .. هلا بك » لذا فقد سمعتمهم يشنون علي ويقولون انه رجل بدوي يحب بلاد العرب . ولكن الثناء علي بلغ أوجه حين أخرجت من كيس البن الذي كان لدي حفنة كبيرة من البن ووضعها في المحبسة ، ولم اسمع لمضيفي بأن يقوم بهذا الواجب الذي يؤديه من يضيف غربياً في البادية .

افادت وآلان في هذه الظروف ميزة عدم جهله لاصول الملاطفة . فقدر قدر حق القدر تضحية البدوي الذي أضافه ، وذبحه خروفاً على شرفه ، وهو اسراف لا يصدق العقل ولم تسمع بمثله الاذن ، بالنسبة الى رجل فقير مثله ذي عيلة ساغبة ، فلم يأكل الا ربع كفايته ليدع معظم الدبحة لمضيفيه الذين كانوا ينظرون اليه بعيون تقلد شهوة وهو يأكل وحده أولاً .

من هذه العلاقات البشرية الصميمية ينشأ تعاطف عميق ولم يحب وآلان البدوي فعجب ، بل أحب الجمل الذي « ليس سوى جزء من قلب البدوي ، حسب قول عربي مأثور . وهو يعجب بالطريقة الخاصة التي يخاطب بها صاحب الجمل جملة ويدله ، او يوجحه ، ويضع هذه القاعدة السلوكية التي تصلح لأن تتخذ كقاعدة ذهنية للتفاهم ما بين البشر : « يجب ان نرى الانسان والحيوان في بلدهما ومحيطهما الخاصين بهما كي نحبهما .

وقد نتج عن ذلك ايضاً تعلم الوسيلة لاكتساب المحبة ، وهي حسب رأي وآلان ، تكمن في ما يأتي : « ان على الغريب في الصحراء ان يجود بشبتين اثنين ، البن والتبغ ليكتسب لقب « كريم » وهو اسمى ثناء يمكن ان يوجه الى انسان في الصحراء . وانه ليرتكب خطأ فادحاً اذا هو سمح

لنفسه بتوزيع الدرام على البدو ... ويفقد قدوه في نظرم ، فالبدوي يقبض منك المال ولا شك ، ولا سيما اذا كان على جانب من الأهمية ، ولكنك ، حالما تدبر ظهرك ، يضعك منك ، ويرغب في الحصول على المزيد منه ، ولا يخلصك بأي مديح من أجل ذلك . ولكنك إذا لم تحمل الى فمك لقمة دون ان تشرك بها رفيقك ، وإذا افرغت بشك في الحمصة طوال النهار ، وفتحت كيس تبغك لكل مدخن - وبالإضافة الى ذلك ، اذا قدمت الأقمشة والحام لاستئجار الجمال خلال الرحلة كلها ، من مكان الى مكان ، عندئذ تستطيع ان تسافر في الصحراء آمناً محبوباً ، مكرماً من الجميع .

ان هذه الحجة المدركة البصيرة ليست ذات نفع في تأمين السلامة بين البدو فعسب ، بل هي شرط لازم لا يقدر الرائد بدونه ان يقوم بدراسة دقيقة للمجتمعات التي يكون فيها لذا فقد كان وآلان ، الذي يمتلك هذه الحجة ، بعد بوركهاردت ، وقبل دوغتي ، محلاً نقاداً للمجتمع العربي . كان الرحالة السويسري قد سبق له ان حدد العلاقات التي تنظم تعايش الفلاحين الحضري والبدو ، ولكن وآلان ذهب الى أبعد من ذلك . فقد وصف ما يحدث على العموم ، ولكنه ألقى النور على الحالة الخاصة التي تمكن فيها سكان معان من الامتناع عن تأدية رسم « الحوة » للبدو ، وبين أخيراً النظام الخاص لعشيرة شمر الذي يرى فيه معنى سلطة هذه العشيرة المتعاطمة باستمرار .

لا تستطيع أية مدينة أو قرية ان تعيش وتقاوم هجمات البدو الا اذا دفعت رسم « الحوة » مدمنة بذلك حماية قبيلة أو عدة قبائل من البدو . وليس هنالك ما يحدد شروط هذه الحماية الأخوية التي تمنحها القرى ، الا العرف السائد ، والضرية التي يؤدنها القرويون عادة ، عبارة عن هدايا من الملابس تقدم لا لشيخ العشيرة فعسب ، بل لكل متنفذ في أفخاذها المختلفة ، ومن تمر وقمح ، في بلاد نجد بنوع خاص . ولكن

الشيخ يتطلب قبل كل شيء استقبالا متمسكا بالكرم ، ومعاملة سخية ، ومساعدة جاهزة عند الحاجة . والشيخ من جهتهم يجيرون على حماية زبائنهم من مطالب العشائر الأخرى واعتداءاتها ، وعلى القيام بدور الوساطة ، اذا ما نشب نزاع فيما بينهم .

وهذه « الحوة » سائدة ما بين البدو أنفسهم لكن بشكل معتدل بعض التعديل . والعلاقات الممكنة نشوؤها بين مختلف العشائر على ثلاثة أنواع :

١ - علاقات اخوة تتحالف بموجبها تحالفاً متبادلاً ، وتلتزم ايضاً بحماية الغرباء والقرويين « اخوتهم » بدون ان تؤذي احداها رسماً للأخرى ، ويفترض في العشائر التي تربط ما بينها علاقة الاخوة ان تكون متعادلة في نقاوة النسب .

٢ - علاقة صداقة تأمن العشائر بموجبها المعاملات السيئة ، والاعتداء من قبل الغير ، ولكن لا يحق لأية عشيرة ان تحمي الغير من مطالب العشيرة صديقتها .

٣ - علاقة عداوة في حال انعدام احدى العلاقتين المذكورتين ، وعندئذ ترفع يد كل فرد من افرادها على كل فرد من افراد العشيرة العدوة .

على ان البدو ينظرون الى الفلاحين الحضر كأعداء طبيعيين ، ولا يسمح لهم نتيجة لذلك ان يعيشوا على اراضيهم ، الا اذا اشتروا حمايتهم بأقصى ما يستطيع الحماية ان يحصلوا عليه من ثمن . ولكن بقدر ما تزداد الجماعة المتحضرة قوة وثروة ، يزداد امتناعها عن تنفيذ مطالب البدو او تعمل على تعديلها ... على ان مقاومة القرويين ، واستقرارهم في ارضهم ، لا يبدوان غريبين في نظر البدو الذين لا يزدرون شيئاً كالجن ، والاعتماد على الغير ، وهذا ما يساعد عادة على توثيق العلاقات بينهم وبين سكان هذه القرى .

هكذا كان الأمر في معان التي يقدر البدو بسالة سكانها ورجولتهم أكثر من سكان غيرها من القرى . وهذا ما يسهم في تسهيل التبادل التجاري بين الجانبين تبادلاً أنشط منه في أي مكان آخر مرت به في رحلتي .. وقد رأيت أثناء الرحلة التي قمت بها من هناك ، في كل مخيم على وجه التقريب ، عدداً من تجار معان جاؤوه كعادة سكان المدن ، للحصول ضيوفاً على أخوانهم البدو في خيامهم أثناء الربيع ، والاغتذاء بجلب للنوق من جهة ، ولاستيفاء ديونهم القديمة من جهة أخرى .

تمكن وآلان من معرفة السبب في تفوق عشيرة شمر على غيرها من العشائر ، فكتب يقول : « ان سكان القرى من عشيرة شمر ، يعتبرهم البدو متفرقين عليهم في الشجاعة واستخدام الأسلحة » . وهم يتعارفون ، وحلفاءهم البدو تعاوناً وثيقاً ، لأن هؤلاء الذين يربون الجمال لاستخدامها في غاراتهم وأعمالهم الحربية ، يؤجرونها للفلاحين الذين يستخدمونها طيلة ثلاثة أشهر في مشاريع الري لقاء كمية من التمر والقمح . وفي القتال يتواعد القرويون والبدو على الانضمام الى صفوفهم . والغريب حقاً ان القرويين هنا يكتسبون نوعاً ما عادات حياة البداوة ، كما ان البدو يتعاطون أعمالاً يعتبرونها ، عادةً غير مناسبة لهم . فيذهب عدد من سكان المدن خلال الربيع ، الى البادية ومعهم خيلهم ، وقطعان جالهم وأغنماهم ، ليعيشوا في الخيام عيشة البدو ، وتتملك أكثر الاسر البدوية مزارع نخيل ، وحقول قمح في الجبال يستثمرونها لحسابهم الخاص . ان تضامن الحضر والبدو من أبناء شمر هو الذي أسهم اسهاماً عظيماً في زيادة سلطة هذه العشيرة ونفوذها .

وقد لاحظ وآلان انواعاً من العشائر البدوية : بعضها يسرح في البادية مع قطعانه أثناء موسم الرعي في الربيع ، فينام أفرادها في العراء او في المغاور ، تاركين خيامهم معلقة على أشجار الطلح ، او مودعة في منازل اخوانهم القرويين ، وبعضها شريف المحند ، يحافظ على انظمة الشرف

البدوي وعاداته ، والبعض الآخر يُنظر اليه بازدراء ، وهكذا نرى البدو
الفلاحين ، انصاف الزراع ، المتعدين من الفلاحين المصريين المتبدّين ،
تقرض عليهم الضرائب الفادحة ، ولا ينظر اليهم الا بعين الازدراء ، لأنهم
ليسوا من أصل بدوي ، ويلاحظ وآلان انهم يجهلون قواعد الدين ولا
يكثرثون بها .

وقد أثار دهشته ان افراد عشيرة الممازة الذين يشغلون المنطقة الممتدة
من معان حتى الحدود المصرية « يجهلون دينهم جهلاً كلياً . ولا اذكر ابداً
انني التقيت شخصاً واحداً منهم يمارس شعائر الاسلام او يعرف اي شيء
من اركان الاسلام الاساسية . » ويضيف قائلاً : « ومن ثم تتضح ضرورة
احياء التعليم الديني . اما البدو الوهابيون فهم على عكس ذلك الى
درجة ما . »



لم يكتف وآلان بملاحظة الحياة الاقتصادية والسياسية والمستوى الثقافي ،
والعلاقات التي تربط العشائر بعضها ببعض ، بل عرف اكثر من أي زعيم
بدوي ما دورته الكتاب العرب عن مختلف العشائر ، وهذا ما يجعل منه
رائداً في هذه الدرجة من الكمال . فهو يعرف مسبقاً مقداراً من
المعلومات اكتسبها بحكم ثقافته كاختصاصي في الشؤون العربية ، وقد قارن
هذه المعلومات بما رآه للتحقق من صحتها ، او على الأغلب لإلقاء ضوء على
ملاحظاته ، وهكذا عرف بالاستناد الى المؤرخين العرب ما أصل كل
قبيلة ، وما المعنى الأصلي للاسم الذي تحمله ، وما هي الأراضي التي كانت
تمتلكها ، ودرجتها من القدم ، والدور الذي لعبته في التأريخ . واذا ما
عثر على قبيلة لم يأت المؤلفون على ذكرها ، سعى الى معرفة أصلها
والظروف التي دفعتها الى التبدي .

ولكن وآلان لا يمتاز بهذه الملاحظة الاجتماعية فقط ، بل اختط طريقاً
رحبة ودون ملاحظات جغرافية تم عن الذكاء الشديد وتتصف بالدقة .

لنعد الى حيث تركنا رحالتنا في معان . انه يغادر المدينة برفقة شيخ يتاجر بالخيول ، فيرى في السهل المقفر المجدب الذي يجتازه اطلال « مدينة مسيحية بنيت قبل محمد بن عبد الله بزمان طويل » ، مدينة لا شك في أنها يوفانية . اذا حكمنا عليها من طراز ابنتها . ولكنه لم يعثر فيها على أية كتابة أثرية . وقد رأى المزارعات ثامية حول بنايعها وفلاحين من البدو يقيمون تحت قبائها التي كانت ما تزال باقية . وشاهد أبعد من ذلك اطلال القصر الذي شاده سليمان العظيم في احدى محطات قافلة الحج .

وأخيراً بلغ نخيم شيخ قبيلة « الهجبة » الاكبر ، تلك القبيلة التي نحسي مدينة الطفيلة حيث تودع خيامها وموئنا . وقد قيل له ان تلك الجبال التي تحولت الى منطقة من الحجارة الصوانية القفراء ، كانت يوم سكنها النصارى « مكسوة بمزارعات القمح » ، والحدائق ، وبساتين الخضر ، وكروم العنب . ويقول : « ان الآثار الواضحة للزراعة القديمة الواسعة الانتشار ، التي كنا نراها في كل مكان ، كانت مصداقاً لما يقوله السكان . » ولم يبق من تلك الجنة سوى هواء ممتاز ، معطر بأريج النباتات العطرية ، واسماء المدن التي ذكرها الكتاب العرب وطويت في صفحة النسيان .

*

وأدغل وآلان في العربية القفراء برفقة ثلاثة من بدو الشرارات . وقد اجتاز حتى بشر وبسط ، أشد فقر وحشة وجدباً رآه في حياته ، فكسوه حجارة سوداء لانعكاساتها البيضاء البراقة وقعها الأليم على العين . عندئذ دخلوا وادي السرحان ، وهو في الواقع منخفض طويل ، مليء بأكوام غير متساوية من الرمال ، شبيهة بما في النفود ، لكن أشد منها انخفاضاً . الا انه رغم ذلك « أخصب مناطق الصحراء » ، واذا ما هطلت الامطار الكافية ، اكتست الارض فيه بالعشب ، والنبات ، والاشواك ، والشجيرات .

هل نصدق ان هذه المساحات المشاسعة من الرمال ، التي تحكسوها
امطار مجهولة ، غير متوقعة ، خلال بضعة اشهر من السنة على الأكثر ،
ببساط خفيف مربع الزوال من الحضرة ، هي أحب المناطق الى قلوب
البدو ؟ لقد أحس وآلان بذلك ، خلال رحلته الثانية . فقد كان عليه
وعلى رفاقه القادمين من ساحل البحر الاحمر ان يجتازوا نفوداً ، فكتب
يقول : « ما كدنا نعدو على مرأى من رقعة الصفراء المترامية الاطراف ،
حتى هتفت نساء القافلة معاً ، بارتياح ظاهر : « تبارك الله الذي أرانا
النفود ثانية ! » .

وصلوا عند آخر وادي السرحان الى دائرة من الجبال الصغيرة الكلسية
الحجارة تقع بينها مدينة الجوف ، التي يفخر سكانها بتسميتها « جوف
الدنيا » ، لأنها تقع على بعد متساو من مختلف تقويم الجزء الشمالي من
الجزيرة العربية ، وجنوبها ، والرياض ، والمدن المقدسة .

ان وصف وآلان لهذه المدينة فريد من نوعه كوصف بوركهاردت
لجدة ، قال عنها : « تتألف من اثني عشر حياً ، محاطاً كل منها بسور من
القرميد ، تقوم في وسطها قلعتها الحصينة المشرفة عليها ، كل ذلك في
شكل دائرة واقعة على منحدرات احد الجبال الصغيرة . تنتشر منازل
اللبن ، او الحجر في بعض الاحيان ، التي تفصل فيما بينها باتين الحضار
او الازقة الضيقة غير المنتظمة ، حول الساحة العامة حيث يبيع الغرباء
جواهرهم عند وصولهم اليها ، وحيث يجتمع ابناء الحي عصرأ لقضاء الساعة
التي تسبق الغروب في التحدث عن الاعمال . تحيط بساتين الخضار ومزارع
التنخيل بالمدينة من جهة الجبل حيث يتابع المياح ممتدة نحو اسفل
الوادي . وتزرع الحبوب ما بين الاشجار ، ولكل بستان حسب أهميته ،
ساعات معينة للحماية اليومية ، تسال خلالها المياح اليه في الازقة الفاصلة .
تنبت في هذه البساتين اشجار التين والشمش والدراقن واللبن وغيرها
على الرغم من قلة عددها ، ما عدا خمسة عشر صنفاً من البلح تعطيه

أشجار النخيل التي تمتاز بها المنطقة ، وتعرف بكونها من افضل الاصناف في بلاد نجد .

ان اغرب ما في هذه المدينة ، التركيب الاجتماعي لكل قرية ، فكل قرية منظرها الخاص ، وسكانها المتميزون من غيرهم ، ولم يغفل وآلات تحليلها بدقة عجيبة ، وذكر تاريخها وعلاقاتها الخاصة بهذه او تلك من القبائل البدوية .

اقدم حي فيها الحي المحيط بالقلعة ، حيث كانت تقوم كنيسة في الماضي ، واغلب سكانه من جنوبي نجد ، ولكن فيها حياً آخر انشئت فيه قلعة أحدث من الاولى ، بسبب العداوة التي كانت قائمة ما بين الحين ... واربعة اخماس السكان في هذا الحي من السوريين . ويرى في الاحياء الاخرى بدو من وادي السرحان ينتسب بعضهم الى قبيلة سره ، والبعض الآخر الى قبيلة شمر . والمعارك فيما بين هذه الاحياء لا تقل عن المعارك التي تدور فيما بين القبائل الضاربة في الصحراء ضراوة . فقد قام رئيس عشيرة شمر منذ ثماني سنوات خلت نصرة حلفائه في هذا الحي بغزو الحي المعادي ، وتدمير منازلهم ، واقتلاع بساتينهم ، ومزارع نخيلهم ، وردم آبارهم ، غير تارك لسكانه سوى الحياة ، وحرية اللجوء الى قبيلة السرة ..

وقد اتم وآلان اللوحة التي رسمها ، بمعلومات عن المستوى الثقافي ، فذكر أن عدد الذين يقرأون فيها ويكتبون اكبر من عدد القراء ويجيدي الكتابة في المدن التركية - العربية ، وأن اهلها يتعاطون نظم الشعر والموسيقى والغناء .

ليس سكان الجوف محاربين ولا تجاراً ، لذا فانهم بعكس ما يحدث عادة ، يعتمدون على اخوانهم البدو في تأمين الارز والقمح لهم من سورية والعراق ، وفي القيام بالتبادل التجاري .

وينتقل وآلان أخيراً الى الناحية التاريخية فيقول : « ان جميع سكان الجزء الشمالي من شبه الجزيرة العربية وسكان نجد ، يعتبرون سليمان الملك الحكيم ، الحاكم القدير على جميع الكائنات والارواح والحوانات ، اول من نشر الحضارة في بلادهم ، ومؤسس القرى والآبار التي يعتقدون انه انشاها بمساعدة الجن » .

ولكن وآلان يعرف من مؤلفات الكتاب العرب اكثر من ذلك ، وهو يكمل ملاحظته لهذه الاماكن بايضاح تاريخ هذا الموقع .

غادر عالمنا الجوف بصعبة البدو ، ودخلوا حدود النفود الكبير . ولن يجدوا اماكن معصورة قبل بلوغ قرية جبّة التي يتطنها محاربون من عشيرة شمر والوهابيون الحديثو الاهتداء الى المذهب . « وبجبة اعلان الحرب المقدسة على الكفار الذين لا يؤدون الزكاة » ، ولا يعملون بتعاليم القرآن الاخرى ، يرون من واجبه ان ينهكوا بغارات مستمرة كل العشائر التي لا تعتنق المذهب الوهابي ، حتى يضطروها الى الدخول في حلف مع شمر ، ويقبلوا بتأدية الزكاة لزعيمهم ، ويقسموا بين الزلاء له .

في هذا المكان ، بينما كان وآلان يقوم بزيارة المرتفعات التي تحمي المدينة ، رأى في سفح أعلى تلك المنحدرات على حجارة ضخمة سقطت من اماكنها ، كتابات عديدة بارزة على الصخور ، شبيهة بالكتابات التي كان مزعماً ان ينسخها عن الحجارة في ضواحي تبوك في رحلته الثانية ، الى جانب رسوم للجمال والكلاب والماشية ، وقد بدت له قديمة على الرغم من خشونتها . واذا كان لم يعثر على كتابات اثرية حميرية ، فقد كان مقدراً له ان يشاهد اولى الكتابات الاثرية الغرافيتية التي سميت فيما بعد بالنمودية ، والتي ما تزال تشكل معضلة صعبة تحتاج الى الحل . فقد اكتشفت بعثة ريكننز - فيلي ما بين سنتي ١٩٥١ و ١٩٥٢ عدداً كبيراً من هذه الكتابات الاثرية في مساحات واسعة من العريضة الوسطى يفوق

بكثير ما ذكرت الروايات العربية من ان شعب نمود القديم قد شغل ،
هذا الشعب الذي ذكر ابو الفداء انه كان يسكن منطقة الحبر ومدائن
صالح .

غادر جبّة برفقة دليل شمري فبلغ قنا في اقصى النفود ، وقد تبدلت
التربة تبدلاً مفاجئاً الى ارض مسطحة كلياً تكسوها طبقة رقيقة من الحصى
الصوانية ، شبيهة بأرض مجد . ورأى سلسلة جبال مزدوجة من الحجارة
الصوانية الرمادية ترتفع ، وفي وسطها حائل ، عاصمة شهر . وقد وصفها
ولان ذاكرأ انها مدينة مؤلفة من مائتين وعشرة منازل ، عصرية
نسبياً شادنها الأسرة الرشيدية الحاكمة في الوادي الذي تحديق به المرتفعات ،
وقال : « ان الشوارع واسعة مريحة رغم انها غير مرصوفة ، وفي الشارع
الرئيسي صف من الحوانيت يشغلها بصورة خاصة تجار عراقيون متجولون ،
وتجار من المدينة ومن القصيم » .

« معظم المنازل يتألف من دورين ذات غرف فسيحة مريحة ، رغم
قلة عددها ، يدخلها النور من بابها فقط ، ومن كوى صغيرة في الجدران
تقع تحت السقف بقليل . ولكل منزل دون ما استثناء مضافة خاصة بالقهوة ،
مفصولة عن باقي الغرف ، تطل على الحديقة ، فيها يستقبل الضيوف ،
ويجتمع الناس للتحدث في مختلف الشؤون .

« ولا يمتاز مقر عبدالله بن الرشيد عن غيره من المنازل إلا بكبره ،
وامتداد مساحته اللازمين لايواء أسرته الكثيرة العدد ، والجمهور الفقير
من الضيوف الذين يقدم لهم الطعام طوال السنة . فهو في الحقيقة يستقبل
جميع الغرباء الذين لا معارف لهم في المدينة ، طوال المدة التي يرغبون
قضاءها فيها .

« على طول الابنية المحيطة بالفناء الخارجي مدت أرائك او مقاعد
من اللبن ، لأن الزعيم يعقد فيها مجلس قضائه مرتين في النهار . وقد

رأى وآلان مائتي شخص وفدوا من مختلف انحاء شبه الجزيرة العربية ،
وحلوا ضيوفاً على عبدالله ، بانتظار ان يعرضوا عليه دعاوهم .

وقد اتخذ عبدالله آل الرشيد من افراد الحامية التي فرضها عليه بامسا
مصر ، وعددهم مائتا رجل من المصريين والزنج حرساً خاصاً له .

انه يصدر احكاماً صارمة تختلف عن الاحكام التي يصدرها الشيوخ
العاديون . يسجن الشيوخ الذين يمتنعون عن تأدية الزكاة ، ويقتل أيدي
المتأمرين ، ويأمر بالجلد لأخطاء طفيفة .

ولكن وآلان لاحظ حتى لدى البدو الرحل في وادي السرحان ان
عبدالله يتتبع باحترام ، وسلطة خارقين لدى العرب . فمن اين جاءه ؟
لا شك في أنها لم يأتياه من الحكم والثروة . ولكنه مدين بسلطته العظيمة
لنزاهة الشخصية الرفيعة ، وجراته ، وإقدامه ، وعدالته الدقيقة ،
وفائه بالوعد ، واحترامه شرف الكلام ، ولا سيما لكرم ضيافته الذي
لا مثيل له ، وعطفه على الفقراء الذين يعلم الجميع أن ما من واحد منهم
قصده بابه وعاد خائباً . ان عبدالله يتتبع بأعلى درجة من هذه النزاهة التي
يكبرها العرب . والبلاد تتمتع في ظل هذا الحكم ، بأمان في الطرق
نادر المثال .

ان المذهب الوهابي مطبق دون ما تطرف ، والتبغ مسموح به ،
وترى في اسوقها اقشعة أدخل الحرير في حياكتها ، ويحافظ عبدالله على
علاقات حسنة مع العراق ، ومصر ، والحجاز . على أن التغييب عن صلاة
الجمعة يعرض للعقوبة .

إذا كان الناس في حائل أقل ثقافة ، وأقل تضلعاً في العلوم الاسلامية
من الاتراك والعرب ، والأعجام ، فانهم يعرفون على الغالب القراءة
والكتابة . وهم ينظمون الشعر ويمارسون الغناء . وقد تمكن وآلان
هناك من قراءة مؤلف المصلح الوهابي .

أزعج وآلان في حائل امر واحد هو الخلاف الناشب ما بين ولدي
عبد الله . فما ترى يحدث اذا توفي الزعيم الكبير الذي يفرض سلطته على
بلاد نجد بكاملها بفضل إقدامه وعدالته وجوده ؟ وتمكن بلقرنف
وغوارماني فيما بعد ان يشعرا بهذا الخلاف .

اتم وآلان رحلته الاولى الى حائل ، وسعود إليها مرة ثانية عن
طريق المدينة ومكة مع القافلة القادمة من بلاد ما بين النهرين . ولكنه
لن يمرّ حينئذ على تدوين أية ملاحظة خشية ان يثير الشبهات لدى تلك
الجاهلير الدينية المتحمسة التي يعيش بين ظهرانيتها .

وقد عاد الى حائل مرة اخرى في عام ١٨٤٨ ، ولكن عن طريق
ساحل البحر الاحمر مروراً بتبوك وبتياء ، وكانت الطريق التي يسلكها
جديدة ، سمحت له بأن يلقي النور على جغرافية تلك المنطقة غير المراتدة .
وارقاب في الطبيعة البركانية لأحدى الصعاري التي اجتازها مرتين ، واممها
الحرة . فالارض على مدى البصر مكسوة بالحجارة السوداء التي ظهرت
فيها فيما بعد بعض الرواسب البركانية . وقد رأى فيها في المرة الثانية
بروز رؤوس بركانية المظهر .

كان وآلان أول من مرّ بتياء ، الواحة التي كان يقطنها وهابيون من
عشيرة شمر آنئذ ، وكانت في الازمنة الغابرة مقراً لأحد الملوك
الآشوريين . ولكنه لم يكن يبدو للعيان اي شيء من القصر والمدينة
القديمة .

بعد ان بلغ حائل ، تابع طريقه باتجاه الفرات ، مجتازاً مناطق
صحراوية دونّ بعناية خصائصها المختلفة . ولم يكن يحمل معه في رحلته
من الآلات سوى ساعة وبركار وميزان حرارة ، ولا شك في أنه لم
يستطع ان يحدد اي موقع بالنسبة الى خطوط الطول . ولكن المرء ،
فيما عدا ذلك ، لا يستطيع إلا ان يعجب بشمول ملاحظاته ودقتها ،

ومعها ، التي أثار لها السبيل استخدام المعلومات التي استقاها من الكتب .



لقد حق بجامعة هلسنكي التي أصبح وآلان فيها استاذاً في نهاية الامر ، أن تفخر به ، فقد كان يأتي مباشرة بعد نيور وبروكهاوت ، بفضل مناقبه الانسانية ، وفطنته ، وتضلعه من التاريخ والادب ، كمثل الرواد متصف بالزهد ، والجرأة ، كثير البساطة ، قريب الى القلوب ، ثاقب البصيرة في الأمور ، نافذ البصر ، راوية أمين ، محب للاختصار والدقة ، لكل لفظة يستعملها وزنها الصحيح ، وتعليمها المفيد .

وكان القدر شاء ان يعين له خلفاً هو بلغريف . يبرز كل الابرار التناقض التام لمزاياه . ولكن ، لا يمكن كما سنرى فيما بعد ، ان يُقرن ذكر بلغريف هذا بذكر الرواد الذين تحمروا الصحة ، وبحثوا عن الحقيقة ، مساعدين بذلك على تقدم المعارف . اننا سنفرد له مكاناً خاصاً ، وسنفرد الآن خطى كارلو غوارماني ، الذي لم تجتذبه بلاد نجد لما في تطورها السياسي من جدة الحوادث ، او لأنه من المحتمل ان تكون بلاد العرب ، حسب الرأي الذي عبر عنه احد اعضاء الجمعية الوطنية للطب في باريس ، مهدياً لأقدم جنس بشري ، الجنس العربي الذي بدا له بتوحيده الفيسيولوجي ، وقواه الخاصة بمرکز الحواس في الدماغ ، قريباً من كمال الصورة الاصلية ، بل اجتذبتة نجد ، لأنها في عداد البلدان الجديدة بالاهتمام ، ولأنها كانت منذ أقدم الازمنة مهدياً لأكمل جنس من اجناس الخيل ، وهو يذكرنا بهذه المناسبة ، بجزية لبلاد العرب كانت منسية حتى ذلك الحين ، وهي أنها مشهورة بخيلها مثلما اشتهرت ببنتها ، هذا قبل ان يبدأ عصر البترول .

لقد كان غوارماني حسن الاستعداد لارتياح بلاد نجد ، لا بتضلعه من الشؤون العربية والاسلامية ، ولكن بالدالة التي كان قد اكتسبها على العنصر البدوي . فقد كان هذا الايطالي الشريف النسب ، مستقراً في

الحقيقة في القدس منذ زمن بعيد كوكيل لشركات النقل البحرية
الامبراطورية الفرنسية . وهكذا سئحت له عدة فرص للقيام برحلات في
فلسطين ، ومصر ، وسورية ، وانشاء علاقات تجارية مع العشار الرحل
في تلك المناطق ، مكتسباً مقدرة كبرى في كل ما يختص بها ، ولا سيما
بالنسبة الى المنطقة الممتدة ما بين القدس والبحر الميت .

وقد استدعاه وزير الزراعة الفرنسية الى باريس في عام ١٨٦٣ وهو
الذي اهدى إليه كتابه فيما بعد ، ليعهد إليه بشراء خيل للاصطبل
الامبراطوري . واغتم فيكتور عمانوئيل الفرصة فعهد إليه بأن يشتري له
خيلاً عربية أصيلة للبلاط الايطالي . فتوجه الى نجد وقام بزيارة امير
شمر ، ليتمكن من الحصول على أجمل نماذج من الخيول العربية من رعاياه .

ولكن هذا السيد المتقف كان يضر طموحاً نبيلاً ، وهو تسجيل اسم
مواطن ايطالي مع اسماء كبار الرواد الذين اشتهروا في ذلك العصر
باكتشافاتهم الجغرافية من بوركهاردت الى وآلان . وقد أشعره هذا
الامل فرحاً عظيماً . وشجعه على ترك أسرته التي أحزنها انصرافه الى
مغامرة ملؤها الاخطار . فافر في السادس والعشرين من كانون الثاني
(يناير) من عام ١٨٦٤ ، مرتدياً ثوب بدوي ، يرافقه خادم عربي
أمين ، كاد ان يتوكله في بيت لحم لذعر استبد به لدى التقائهما موكب
جنازة .

بلغ غوارماني دواراً لأحد زعماء القبائل واقماً على تخوم العربية
البتراء ، ومن هناك كان مزمعاً ان يوغل في داخل البلاد مع احد شيوخ
العشار وابن اخيه وفارس ثالث ، عرضوا انفسهم لمرافقته . ومرّ من
نجيم الى نجيم ، مغروراً بأريحية الضيافة البدوية الذي لقيه ، الى ان حلّ
خيفاً على رئيس عتيرة بني حقر . وهناك حصل على جبل ذي سنام
واحد سريع الجري ، بثلاث ليرات ذهبية ، وكتاب توصية الى حلفاء

بني صقر ، وكتب له رئيس عشيرة الرولة رسالة موجهة الى شيخ عشائر
العتية المستقلة ، معرفاً عنه بأنه موفد من الحكومة التركية لشراء
الحيل . ومن الواضح ان التركي لا يمكن ان يكون مطمئناً مراحاً بين
عشائر البدو العربية ، لكن لن ينظر الى نصراني فرنسي - ايطالي نظرة
افضل ويكون اكثر راحة من التركي .

وكان اول ما وآه غوارماني لدى وصوله الى حائل ، جثة يهودي عجمي
ادعى الاسلام ولكنه أبى تأدية الشهادتين حين افتضح امره ، فقضت
عليه الجماهير . وكان الفارسي قد جاء مجدداً في مهمة شراء خيل للشاه ،
فلما بلغ الخبر مصر ، ظن ان القتيل غوارماني ، فبكت أسرته . ولكن
غوارماني كان في تلك الاثناء يأكل الارز بلاء شهيته ويتلو الصلاة
بالخشوع الذي يتطلبه الاسلام ، موجهة الى الله قلباً ، وإلى محمد
شفهاً ، وكان يعتقد ان على من يقرر القيام بغامرة في مثل تلك الامية ،
ويحتاج فيها الى استخدام كل الوسائل ، ومحاولة المستحيل ، يجب ألا
يسمح لأية عقبة ان توقفه عن المسير . « وتذكرت » موعظة السيد
المسيح الذي أعطى فيها الطوبى ، وكذلك جثة القتيل الاسرائيلي المنتنة ،
فقررت في قرارة نفسي ألا اكون في عداد الفقراء بالروح ، وألا ادخل
الجنة بوصفي أبلاً .

ان كل انسان يتصرف حسب وجدانه ، وربما كان وجدان علي بك
شبهاً بوجدان غوارماني ، وسنرى ان آرنو سيتكلم بصورة اخرى .

وصل غوارماني وخادمه في زي بدويين حقيقيين مرتدين ثياباً رثة ،
ورداءين من فراء الحملان ، ويحملان قربة ماء ، الى تباء التي كان وآلان
قد زارها من قبل . ولكي لا يعرض الدراهم التي كانت في حوزته لاختار
الصعراء ، استودعها مرافقه ، وتابع الطريق وحده نحو مراعي قبيلة
هتية .

ولو التقاء شيخ مبال الى الظن بالناس ، لاعتقد أنه جاسوس تركي
اكثر من كونه تاجر خيل ، ولكنه أنجز مهمته حائساً انفسه واشترى
جياداً أصيلة ، إلا أنها أصغر من ان تعجب الذوق الاوروبي .

وخلال بحثه عن الحيل الاصيله ، بلغ غوارماني مكاناً سبب له أعظم
مفخرة من مفاخره ، ألا وهو منطقة خير ، ذلك الموقع القريب من طريق
القافلة ، قبل المدينة بقليل ، الذي قال عنه دي فارتيا ان اربعمائة او
خمسة آلاف يهودي من المحتئين الذين يغلب على لونهم السواد ، ويكرهون
المسلمين ، يقيمون فيه . ولم يكن احد قد بلغ هذا المكان للتحقق من
صحة رواية دي فارتيا الغربية . وقد قال عنها ابو الفداء : انها ارض اولاد
عذرة ، ولفظة خير في العبرية تعني قصراً .. اما الإدريسي فيرى
ان خير مدينة صغيرة ، شبيهة بقصر عظيم ، غنية بالفواكه وأشجار
النخيل .

عند دخول غوارماني المدينة المحوطة بمزارع النخيل لم يدهش لرؤية
سكانها ، وخيل إليه انه في السودان . وقد استقبله الحاكم التابع لأمير
شمر في حائل استقبلاً حسناً بوصفه مبعوثاً تركياً ، وتمكن من التجول
في المدينة على هواه . ووصف غوارماني مدينة خير فقال ان عدد سكانها
ألفان وخمسمائة نسمة على وجه التقريب ، وهي مقسومة الى سبعة احياء ،
يشغل كل منها وادياً من الوديان السبعة الواقعة في جبل الحرّة الذي تكثر
فيه ينابيع المياه العذبة . ويشرف على هذه الأودية صخرة شديدة
الضخامة ، مرتفعة ، يعلوها حصن قديم جداً يدعى قصر اليهودي . وقد
زار خرابته لكنه لم يجد سوى أطلال من الخرائب دون اية كتابات اثرية .

اما السكان فمن نسل العبيد الاحباش من قبيلتي اولاد سليمان وعليدان .
وقد شغلوا منطقة خير زمناً طويلاً حتى قضى الجدرى على عدد من
اسيادهم منذ عدة قرون سلفت ، واعتبروا المياه مصدراً لذلك الوباء

فتزحوا عنها وتركوها لهم . ولكنهم لم يتخلوا لهم عن ملكيتها بل احتفظوا بحق استيفاء قرطين من البلح منهم عن كل شجرة في الموسم ، على انهم تركوا لهم الحرية في ان يقوموا بزراعات اخرى لحسابهم الخاص . لذا فان القبيلتين تقتربان من خيبر في كل عام من غير ان تدخلها لاعتبار انها شؤم على البيض ، فيسلمهم السود البلح الذي يصيبهم ، ويدفعون لهم مبلغ تسعة آلاف وثلاثمائة وعشرين فرنكاً من عملة سنة ١٨٦٥ الذي تعهدوا بدفعه لاميير حائل الشري .

يقول غوارماني ان هؤلاء السود جميعاً مسلمون ، وانهم دمسوا الاخلاق ، وليس صحيحاً ما قيل عن وجود يهود في تلك المنطقة في القرن الثامن عشر . واذا صح أنهم وجدوا يوماً ما ذلك الا في عصور متقدمة جداً ، وهذا ما يدور حوله الجدل حتى الآن . فلا شيء في الوقائع التي رواها غوارماني ، عدا اسم القصر المتهدم ، يسمح بالبت في المسألة . وبيد تقدم اليوم ان الكتابات الاثرية النيوبابلية قد تلقي بعض الاضواء على ذلك .

غادر منطقة خيبر ، وقصد منطقة يقطنها اقوام هُسيمن من الحضرة ، ولكنه رأى في ضواحيها فجأة من قبيلة عتيبة يعرف بالروقة قد نصبوا لهم ما يقارب الالف خيمة . ولكي يوغل باتجاه الشرق ، التحق بأفراد القبيلة المشرقيين . ولكن هذه القبيلة كانت في حالة حرب مع فيصل بن سعود الامير السعودي الحاكم آنئذ ، وقد رفع ابناء العتيبة خيامهم وتحركوا بغية اختراق صفوف الاعداء الذين كانوا يشغلون المرتفعات أو تطويقهم . وقد بدأ الميرة مائتاً خيال ، جعل في الوسط الاولاد والنساء والقطعان والأمتعة ، وسار في المؤخرة سبعمائة محارب تسلحوا بالبنادق . واستمر سيرهم اربعة ايام ، واربع ليال ، تخللتها اوقات استراحة قصيرة ، من غير أن تنصب الخيام ، متعرضين لهجمات الفرسان النجديين ورجال بني قحطان بقيادة الامير عبدالله بن فيصل . وفي مساء اليوم

الرابع ألفت القبيلة نفسها في الحميم الذي خرجت منه ، ولكنها فقدت كل قطعان ماشيتها وستين قتيلاً ، وجرح منها مائتان .

ولكن المعركة لم تكن قد بلغت بعد مرحلتها النهائية ، ولم يلبث أبناء عشيرة الرُّوْقَة ان اغتسموا فرصة انفصال القطعانيين عن حلفائهم ، حتى أغاروا على السعوديين بخيالتهم الاربعماية وهجأتهم الحمة آلاف المسلحين جميعاً بالبنادق ، وأفترسهم .

قدم الشيخ عند توزيع الغنائم جواداً أصيلاً رائعاً لغوارماني كحصّة له من الاسلاب ، رغم أنه لم يشترك في المعركة ، بل ظل بعيداً يعاون في العناية بالجرحي ، وكان عدة شيوخ قد اختلفوا فيما بينهم على من يجوز هذا الجواد . واشترى ثلاثة جياد من الحيل الأصلية بثمن مائة ناقة ، وأراد عندئذ ان يعود الى اوروبة بعد ان قام بمهته .

رحلت قبيلة عَتَيْبَة عن تلك الاماكن ، وبينما ذهب دليل غوارماني الثاني للمجيء ببديوين آخرين من مخيم قبيلة هَتَيْم ، لمرافقته وحراسة خيله ، بقي هو مع دليل واحد في ذلك السهل الخصب بالدماء . وإليك ما يقوله : « كانت بنات آوى والغربان والذئاب والعقبان تمزق الاسلاء امام قاطري ، فتوعد فرائصي هلعاً » .

بعد ان تم الاتفاق مع بعض افراد من قبيلة هَتَيْم لقيادة خيله نحو المخط الذي سيعود منه الى بلاده ، قرر ان يسلك هو أطول طريق لثلا يحرم من رؤية نجد والتعرف الى الامير فيصل وابنه . ولكن ، فيما كان يقترب من عنيزة ألقى عليه القبض فرسان الامير عبدالله . فقدم لهم غوارماني رسائل التوصية التي كان يحملها ، فأخذوها الى الامير . فرفض عبدالله رؤيته حذراً منه ، لاعتقاده بأنه تركي كما جاء في رسائل التوصية ، وأرسله الى عنيزة حيث سمح له الحاكم بمتابعة طريقه الى حائل .

ان مدينة عنيزة مختصة بتربية المهور التي تشتريها من البدو ، وهي

تربيتها ثم تشعبها الى بلاد المعجم والهند . وقد أحس غوارماني أن الشعب في المنطقة يخضع لآل رشيد في حائل ، التي كان اميرها طلال الحاكم قد بسط سلطته خلال السنوات الاخيرة حتى الجوف شمالاً ، وتباه وخيبر غرباً . وكان الامير زامل في عنيزة ، يعارض فيصل بن سعود علناً ، ويستعد للانتفاض عليه ، فاستنجد غوارماني قائلاً : « ان نجم ابن سعود جانح الى الافول » وكان استنجاهه في محله .

والحقيقة ان عبد العزيز بن سعود الذي كان يومذاك حدثاً ، كان هو الذي سيجدد مجد آتائه عندما يبلغ سن الرشد بعد ان مالت شمسهم الى الافول ، وظن الناس ان صفقة تاريخهم اوشكت ان تقلب . لم يستطع غوارماني ان يرى مسبقاً ان اعطاء نجم السعوديين التآلق الذي لم يسبق له منيل ، لم يكن في حاجة إلا الى رجل واحد ، هو مثال خارق للامير البدوي المحارب الجدير بقصص الفروسية او قصص ألف ليلة وليلة ، ذي ارادة لا تقهر ومثابرة فوق طاقة البشر ، اعتاد أقصى انواع الحياة ، لأنه ربي كبدوي ، ينقصه كل شيء ولكنه كريم وأنوف ، مخلص لرفاقه في السلاح ، مؤاخ لهم ، ذو ذكاء خارق يعينه على حسن التصرف مع عشائره والدول الأوروبية على حد سواء .

كان عبد الله بن الرشيد واولاده قد سيطروا على نجد بسلطة شخصياتهم النبيلة الكريمة . ولكن عبد العزيز بن سعود كان مزماً ان يقدم للنجديين شخصية أعظم من شخصياتهم ، فيحول الى نفسه ، منذ ذلك الحين ، قلوب أبناء العشائر ، ويكتسب اخوة السلاح معهم ، فتغدو العربية الوسطى بأسرها سعودية .

ان البترول اليوم قد رسم هالة من الثراء الاسطوري حول جباه آل سعود . ولكن لنقرأ بروكهاردت ووالان كي نعرف ان البدوي الحقيقي لا يرى حرجاً في ان يأخذ الذهب بنهم - ولكنه لا يضر

اي اعتبار لمالكه ، ان الكرم الذي يعدل ثروته هو وحده الذي يستطيع ان يمنح الشيخ تقدير شعبه او بالاحرى رفاقه . والبدوي يدين بالتبعية والزعامة لكل من عرف فيه تفوقاً في الرجولة .

عند زيارة غوارماني كان طلال بن الرشيد - بعد ان توفي عبد الله سنة ١٨٤٧ - هو الذي يجسد المثال الكامل في نظر البدو . وكان يعقد مجلس القضاء امام القصر صباحاً وامام المسجد مساءً . وكان يجب ان يعلن على رؤوس الاشهاد ان الايتام والارامل احب الى قلبه من ابناء بيته ، وكان كرمه بالفعل ، بالنسبة الى الجميع كرمأً متطرفاً . فقد رآه غوارماني يصل شاعراً أعمى بمائة ريال ، وثوب ضافٍ ، وجل ذي سنام واحد ، وجواد ، لقصيدة ارتجلها . اما قضاؤه فقد كان عادلاً لكنه صارم ، اذ كان يحكم على القاتل بالموت ، وعلى من يجرح غيره في نزاع ببتريده ، وعلى الكذابين وشهود الزور بحرق لحام فوق الموقد ، الامر الذي لم يكن يبقـي على عيونهم ، وعلى العصاة بمصادرة املاكهم . وكانت النتيجة الاولى المنظورة لذلك ، امانة الطرق التي افاد منها غوارماني للتجول في المنطقة بأمرها .

*

ولا شك في ان غوارماني كان افضل من نحدث عن تجارة الحبل ، فقد علمنا منه أن بني قحطان يقدمون المهور لعنيزة ، في حين ان عشيرة مطير تغذي اسواق بريدة بأعداد اكبر ولكن من نوع اقل اصالة . وهذه المدينة الاخيرة ، حاضرة ولاية القصيم ، وهي كثيرة الخرائب ، لكنها مأهولة بأمرأء وتجار أغنى ممن يسكنون عنيزة .

في اثناء تجوال غوارماني في ضواحي حائل ، تمكن من زيارة الامير الرشيد بينا كان يراقب في المرعى ، ما يقارب الخمسة فرس ، يحرسها ثلاثة عبد في جبل شمر ، فلاحظ ازدهار المنطقة ، وقال عن القسيفة

الواقعة في الجبل غرباً ، في سهل فسيح ، حيث ستشأ في ظرف العشرين السنة المقبلة ، كثير من القرى الاخرى ، نشاهد منازل كثيرة منفردة تبنى ، وآباراً تحفر ، ومزارع تفل تتصب ، ، وكان السهل في الواقع بساتناً أخضر فسيح الرقعة .

ويذكر غوارماني العملي ان الجراد بالنسبة الى قبيلة شمر مصيبة ومورد في آن واحد . فالناس يهرعون الى حيث يهبط كالسحاب ، يحفرون الحفر ، ليسلقوه فيها بسرعة ، وهو لم يستغ اكل الجراد لا مشوياً ولا مسلوقاً ، ولكنه رآه أشبه بالشعير بالنسبة الى الحيل . وإذا ما جفف ، وسحق ، شكل غذاء أساسياً يؤخذ بكميات قليلة ، ويمكن الا يتسرب الفساد إليه سنين عديدة .

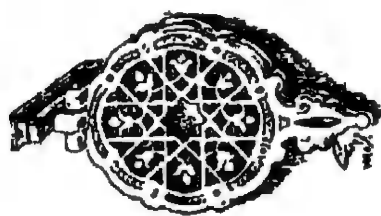
غادر غوارماني أخيراً جبل شمر ، عائداً بجبله في الطريق التي كان قد سلكها من وجهتها الاخرى ، مهتماً نفسه بالاستقبال اللطيف الحبي الذي لقيه في البقعة الواقعة تحت حكم طلال بن الرشيد ، متذمراً من التعصب الديني المتطرف ، معجباً بالنساء البدويات اللواتي تمنعن الله قدراً عظيماً من الجمال .

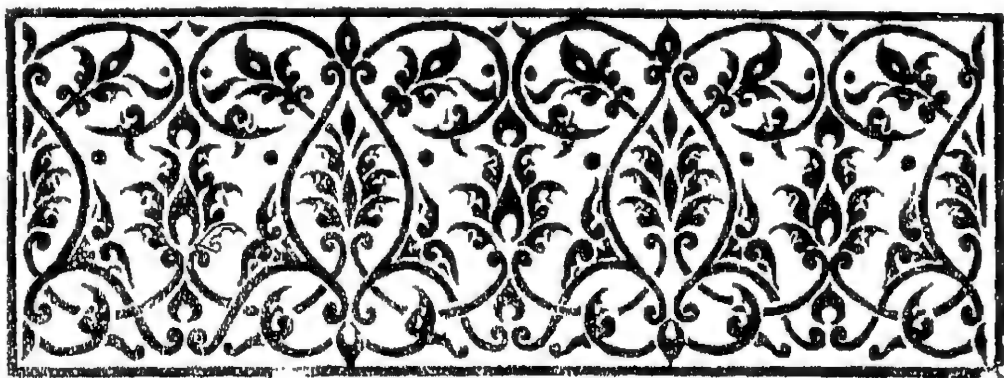
وكان أعظم خطر تعرض له في رحلته ينتظره في وادي السرحان ، فقد كان سائراً مع قافلة مؤلفة من مائة واثنين وتسعين مسلحاً متوجهين الى حوران ، ولكن نفراً من البدو من أفراد قبيلتي الشرارات وسيلان انفقوا على سلب القافلة ، فأغاروا عليها جزون الصفائح ويطلقون النار ، ولكن القافلة بلغت المحطة بعد ان فقدت رجلين ، وجرح منها عشرة ، ونهب كل ما عندها ، واصبحت في حالة يرثى لها . فوزع غوارماني على من في القافلة خمسين كيلاً من البلع ، وساعد في مداواة الجرحى الذين توفي اربعة منهم .

في اليوم التالي سلك طريق دمشق التي عاد منها الى القدس ، وكان

لكتابه الذي قام الآباء الفرنسيون بطبعه طباعة متواضعة ، وترجم على الفور الى اللغة الفرنسية ، قدره الكبير اليّ في نظر المبتدئين في علم الاكتشاف ، لا لأنه احتوى على معلومات كثيرة صحيحة عن البدو وحياتهم ، وعن منطقة جبل شمر فحسب ، بل لأنه أعطى عدداً من المعلومات الجغرافية دوت استناداً الى البركار ، وتقديرات للمسافة كانت مزمنة ان تجعل رسم خارطة للعربية الوسطى امراً ممكناً .

هكذا اكتشف بفضل وآلان وغوارماني شمالي شبه الجزيرة العربية ، وبلاد الامراء الرشديين . اما الشهرة فانها لم تكن من نصيبها ، بل من نصيب و. ج بلقرين الذي لا نقدر ان ننكر ان كتابه كان جديراً بأن يحدث دويّاً بالغاً !..





قضية بالفراف

استقبل كتاب وليم جيفرد بلغريف المعروف « بقصة رحلة الى العربية الوسطى استغرقت سنة » لدى نشره في سنة ١٨٦٥ كأعظم كتاب وضع عن شبه الجزيرة العربية . وقد ترجم بعد سنة الى الفرنسية ، ثم الى الالمانية ، وبعد انقضاء عشر سنوات على ذلك ، نشرت الترجمة الفرنسية مختصرة ومصورة للاحداث في المكتبة الوردية . وقد تمكن جيل بكامله من اكتشاف شبه الجزيرة العربية بعيني هذا المؤلف الساحر !

لا ريب في ان القصة كانت قادرة على منافسة أشهر الروايات ، واكثرها تحريكاً للذواطف . ولكن ، على الرغم من أنها بدأت في معان ، لا يستطيع القارئ ان يتبين فيها المكان والمنطقة اللذين وصف وآلان حياتها الاجتماعية ، وخرائبها القديمة ، وميزاتها الجغرافية ، لأن هذا المؤلف قد غذى يراعه بحبر يختلف كل الاختلاف عن حبر وآلان . وفيما يلي نبذة من قصة بلغريف :

« في السادس عشر من شهر حزيران (يونيه) من عام ١٨٦٢ .

عند هبوط الليل ، كنا ننتظر ، عند باب مدينة معان الشرقي ، أدلاءنا البدو الذين ذهبوا بقيادة زعيمهم سليم للماء القرب من مياه نبع مجاور . وكانت السروج توضع على صهوات الجياد ، والامتعة ترتب على ظهور الجمال ، والنجوم قد اخذت تتلألأ في سماء زرقاء قائمة خالية من الغيوم . وكان لألاء المهلال الخاص بالشرق ، بمنينا يسرى ليلى أسهل من مسير النهار . ولم نلبث ان رُفِعنا الى مثنون مطاياتنا ذوات الاعناق الطويلة ، وفي وضع يشبه وضع من يجلس على رأس صارية ، على حد تعبير احد الشعراء العرب

« كان الصمت نحياً في كل مكان . وقد بدا وكأن أدلاءنا انفسهم يخشون قطع أسبابه ، فتبادلوا الملاحظات بأصوات خافتة ، في حين ان جمالنا كانت تتقدم مستوفة الخطى في وسط الوحشة ، غير مزعجة ذلك الهدوء المهيب

« كان رفيقي المدعو بركات ، النصراني السوري ، يرتدي مثلي ثوباً عادياً من الاثواب التي يلبسها افراد الطبقة المتوسطة في سورية ، وكنا قد استعرنا هذين الثوبين للذهاب من غزة الى معان ، فوفرا علينا بعض الملاحظات الغريبة ، والاسئلة غير الرصينة التي كان من المحتمل ان نتعرض لها في ذلك البلد المعروف لدى المسافرين باسم العربية البتراء ، .

وتبدأ المغامرة ، فيتبع المسافرين الى حائل الطريق التي سبق لوالان ان سلكها ، مروراً بوادي السرحان ، والجوف ، وجبة . ولكن عاصف رملية فاجأتهم ، مهددة حياتهم ، حارمة المسافرين من التمتع بالمشاهد الجديدة بالنسبة إليهما ، هذا فضلاً عن الحوادث المؤثرة التي جرت اثناء إقامتهما في الجوف .

دخل الطبيب المزعوم وتليذه فناء البناء الخاص بضيوف طلال ابن الرشيد أمير شمر ، في اواخر شهر تموز (يولييه) . فماذا كان الهدف

الذي يسعيان إليه ؟ ان مقدمة القصة تبين لنا ذلك : « ربما تسأل
القارىء عن غرضي الخاص من تلك الرحلة المليئة بالمخاطر ، والبواعث
الدافعة إليها . لقد حدا بي الى ذلك ، الأمل في الاسهام في تقدم هذه
المناطق الاجتماعي ، والرغبة في بعث ماء الحياة الشرقية الراكدة بلامسة
التيار الاوروبي السريع ، وربما الرغبة الملحة في الاطلاع على ما لا يعلمه
احد غيري ، واخيراً روح المغامرة التي فطر عليها قومي الانكليز . تلك
كانت الدوافع الرئيسية للقيام بمغامرتي هذه . ولأضف الى ذلك ، انني
كنت مرتبطاً آنئذ بالمنظمة اليسوعية الشهيرة في تاريخ الخدمات الانسانية
الجريئة المخلصة ، واعترف في نهاية الامر ، ان الامبراطور الفرنسي هو
الذي قدم لي بسطاء الاموال التي احتجتها لرحلتي . »

ولكن الوقائع التي رواها تدل على ان الرحالة كان مكلفاً بمهمة
واسعة النطاق .

بعد ان مكث بعض الوقت في العاصمة ، سافراً غور الشعور الوعابي
لدى السكان ، واخلاص طلال لأسياذ الرياض ، قرر المبعوث الخفي ان
يكشف اوراقه للامير المعادي للسعوديين . فحاول ان يسبر غور ما يمكنه
صدر زامل امين الخزينة . وقد كتب يقول :

« بدأنا نقول له اننا نرغب في مقابلة طلال لنطلعه على امور ذات
همية بالغة . وبعد ان اشعرناه بعض الشيء بسرنا ، أطلعناه على الحقيقة
الكاملة ، وسألناه رأيه في الاقتراحات التي كنا نزمعين أن نقدمها للملك .
فمعي لنا موعداً للمقابلة وأدخلنا عند الفجر من باب سري الى غرفة
منعزلة ، يقوم بمحاربتها عبيد سود ، ويقف بعيداً عنها حراس مسلحون
لا تصلهم اصوات المتكلمين فيها ، فألفينا طلالاً مستعداً للاستماع إليّ . »

« وقد شرحت له باختصار اسباب رحلتي ، وأطلعته على المكان الذي
أتينا منه ، والأمل الذي حدا بنا للمجيء الى بلاد العرب ، وما ننتظره من حسن

التفاته . وتلت ذلك محادثة استغرقت ساعة كاملة . واختتم طلال الحديث مصراً على التكمم المطلق قائلاً : « اذا ما عُرف الامر الذي تباحثنا فيه الآن ، اصبحت حياتكم وحياتي في خطر » .

وتتألف لحة القصة من حادث عرضي سببه عبّيد عم طلال المكار الذي كان يتظاهر بالمودة واللفظ ، والذي نزع عن وجهه القناع ذات يوم ليظهر وجهه الرهيب :

« أرسل عبّيد يطلبني ذات صباح لأقوم بفحص خادم له مصاب بمرض ، فتوجهت الى قصره ، حيث ما عثم أن كشف لي عن حقيقة نوابه بعد محادثة قصيرة ، وقد تغلب غيظه على ريائه ، وحل الحقد والغضب محل وداعته وكلامه المعسول ، وأخذ يكيل الاتهامات للمجدين النصاري الذين يريدون ان يدينسوا طهارة الاسلام . ثم التفت نحونا وقال : « كونا من تكرنان ، ولكن اعلموا هذا . اذا ما ارتضى ابن اخي ، وشبه الجزيرة العربية كلها ، الخروج عن الاسلام ، سأظل انا بفرادي مدافعاً عن معتقدات أسلافنا ! ، ثم شعر عبّيد انه بالغ في غضبه ، فعاد الى لهجته اللطيفة وحديثه الودي ، كأن الشك لم يتسرب قط الى نفسه ، ولكننا كنا قد رأينا منه الكفاية ، فقطعنا معه علاقاتنا كلياً »

أرسل طلال عمه في مهمة حربية . ومع ذلك فقد تطفف هذا الاخير بإعطاء بلغريف كتاب توصية الى ولي العهد السعودي في الرياض . وبما أن الحوف تغلب على اصول اللياقة ، في قلب بلغريف الحذر ، فقد فتح الكتاب فوجد ان عبّيداً قد نعت « بنعت يمكن فهمه على وجهين ، ولكن يغلب معنى الساحر فيه على الطبيب ، والسحر في الرياض يعاقب عليه بالموت » . فعرف أن ذلك الماكر يريد ان يدفع به وبرفيقه الى سيف الجلال .

عندئذ وصل جواب طلال : « بعد ان أبعد عبّيد ، اخذ طلال

يشعر بالحرية . فدعينا في السادس من شهر ايلول (سبتمبر) للذهاب الى « خفوة زامل » ، في الساعة الواحدة من بعد الظهر . وكان قد أقيم حارس على الباب لابعاد الزوار المزعجين ، ولم تنقض عشر دقائق على دخولنا حتى أقبل طلال يخفّره حارسان مسلحان تركها في الغناء . كانت عادي الثياب ، جذني النظرات اكثر من العادة ، يتم بحياء عن انشغال بال شديد . فجلس وصمت بعض الوقت ، ولم نشأ ان نقصد ذلك الصمت . واخيراً رفع نظره ، وحدث في عيني وقال : « لن تسألني في هذه الظروف الحالية ، ولن اكون من قلة التبصر في درجة أعطي فيها جواباً ايجابياً رسمياً على مخبرات كمخبراتك . على انني اؤكد لك ، انا طلال ، مؤازرتي وارادتي التي لا تتزعزع . تابع رحلتك الآن ، وعندما تعود ، وآمل ألا تبطئ في العودة ، سيصبح كلامك قانوناً ، وسيحقق كل ما تريده . هل انت راض ؟ فقلت له ان جوابه قد حقق لي رغباتي ، وتصفحنا علامة للتحالف المتبادل . »

على القارئ ان يرجع بالغيب حول حقيقة هذه الاقتراحات الغامضة ، ولكن من الراجح انها لم تكن سوى شن هجوم من اوروبة على الوهابيين ، وتعهد بشد أزور آل رشيد !

بيد ان المسافرين لم يوفقا اعمال الارتياح عند ذلك الحد ، فقد قررا ان يتوجها الى الرياض ، الامر الذي لم يقم به احد سواهما ، وبعد ان مكثا فيها بصورة شبيهة بالمآسي ، هربا من المدينة خلصة ، واختبأ في ثنية من الارض ، منتظرين مجيء حليفها السياسي ، الذي كانت دليلاً للقافلة ، ليضمها الى القافلة التي كان يقودها الى الهفوف . ومن هناك قصدا زيارة القطيف ، وأججرا منها فزارا جميع المراكز السياسية الهامة على الخليج العربي : عاصمة « القراصنة » ومستعمراتهم على الضفة الاخرى (جارك ولنجه) ثم هرمز المستعمرة الرئيسية لحكومة مسقط في تلك المنطقة نفسها ، واخيراً عمان ذاتها .

وقد غرقت السفينة التي كانت تبصر بها الى 'عمان' ، على شكل يائيل
ما يحدث في الروايات الخيالية ، ولم ينج' من ركبها الا تسعة رجال من
بينهم مسافران ، لا بأعجوبة ، بل بفضل بسالة بلغريف وطريقته الانقاذية
التي جعلتهما يجبر بقية التعساء الذين تشبثوا بالقارب مهددين اياه بالغرق ،
على كف ايديهم عنه . بلغ بلغريف ورفيقه الساحل سباحة وهما عريان ،
وفقدوا كل الوثائق التي كانت بحوزتهما عن رحلتها ، فقصدا من فورهما
مقر السلطان فألقياه فيه لحسن حظها . فألبسا ثياباً جديدة ، وقدم لهما
الطعام ، ولكنهاهاذا بالفرار خلسة وتوجها الى مسقط . ولم يبق على
بلغريف آئذ الا ان يعود الى سورية عن طريق بغداد .



ان الكتاب قصة لجدير بكل اطراء . لا شيء ينقصه ، لا الحبكة
ولا اللون الحلي ، ولا الحوادث الدراماتيكية المثيرة ، ولا جاذبية
الاسرار السياسية .

ولكن و ج . بلغريف لم يكن روائياً مثل الكسندر دوماس ، بل
كان رائداً وأي رائد ! ألم يمر في الطريق التي سلكها معظم أنحاء شبه
الجزيرة العربية من عمان الى 'عمان' ، ومنطقة مجهولة واقعة بين حائل
والقطيف ؟

لقد منحته الشركة الجغرافية الفرنسية وصاماً لكونه شرف المحصنات
التي منحه اياها نابوليون الثالث ، واستطاع وهو بطل المغامرات المدهشة
الحلي ، ومؤلف ذلك الكتيب المثير ، ان يتذوق المجد ، ولكن ...
اجل ، هنالك لفظة ' لكن ' كانت مزمنة ان تقرض نفسها ، وظلت
تكبر وتكبر حتى يومنا هذا .

حين أصفت الجمعية الملكية الجغرافية في لندن الى القصة التي رواها لها
بلغريف عن رحلته ، أبدت اهتماماً كلياً ، ولا ريب ، بملاحظاته المثيرة ،

ولكنها لمُتحت في شيء من المنزل ستر ظواهر المجاملة الى « قصة ألف ليلة وليلتين » ، وألقت سؤالاً ما انفك يُطرح حتى اليوم : « كل هذا صحيح ، ولكن الى أي حد ؟ »

لقد اعترض الدكتور بادجر على طريقة وصف بلغريف لمجري المياه ، ولكنه لم يتمكن من اثبات خطئه ، وكان لا بد من انتظار رواد آخرين يؤمنون تلك المناطق نفسها او اغرائهم على ذلك . وقد لجأت انكلترا الى الأمر الثاني ، فلفت رئيس الجمعية الجغرافية الملكية في بومباي نظر اللبوتنان كولونيل ل. بلي المقيم السياسي آنشد في بوشهر ، الى التقرير الذي قدمه بلغريف ، وأقنعه بالقيام برحلة الى تلك الاماكن ، مظهراً له أهمية تحديد المواقع الجغرافية للرياض والهفوف ، وملاحظة الطبيعة الجغرافية للمناطق الواقعة على هذه الطريق ..

وكان لدى المقيم الانكليزي في الخليج العربي موضوع القراصنة الهام الذي يريد بحثه مع الامير السعودي . وكان يأمل في ان يحمل فيصل على تفهم الاسباب التي من اجلها ترى انكلترا نفسها مضطرة الى التضيق على من يقومون بالقراصنة في الخليج العربي . فكتب رسالة أولى الى الامير السعودي ، ثم اتبعها بثنائية ، ولكن لم يتلق عليها جواباً . فتوجه الى الكويت وانتظر فيها ورود جواب على رسالة ثالثة أنفذها إليه منها . واخيراً تلقى دعوة بالتوجه الى الرياض ، ولكن من غير ان يُقدّم له حرس ودليل . فلم يأس ، بل اصطحب معه ضابطين ، وترجماناً ، وطاهياً ، وحرساً من العرب .

دون أولئك المسافرين ملاحظات خلال الطريق. من الكويت الى الرياض عن النبات ، والتربة ، بوساطة آلات دقيقة ، مجتازين بادية ذي بدء سهلاً متوَجِّجاً ، قاحلاً ، مجرداً من الاماكن المعمورة ، ثم ظهر وشاح الدهناء الصحراوي الاحمر الرملي . وبدأ أول خط من الرمل

وقد نمت عليه النباتات ، مرتفعاً بضع مئات من الاقدام فوق المنحدر
الحصوي الذي تقدمه ، وقد فصل سهل يبلغ عرضه بضعة أميال بين هذا
الحط الرملي الاول وسبعة خطوط رملية اخرى تأتي متتالية من ارتفاع
مائتين او ثلاثائة قدم .

ولدى خروجهم من هذا القفر وجدوا امامهم هضبة من هضاب نجد ،
وتلالاً وسهلاً آخر ، وأخيراً سلسلة جبال طويق التي تقوم الرياض في
وسطها في وادي حنيفة .

انعطفوا في سيرهم نحو الغرب لمشاهدة عمود قديم قيل لهم انه موجود
في سدّوس ، ولاحظوا ان صليبين رومانيين منقوشان فيه . وامسرت
البعثة في الرياض عن نتيجة سلبية ، فقد بدا فيصل المصاب بالعمى والشلل
صريحاً ودوداً ، ولكنه أراد ان تعترف انكلترة بحكمه ، وان تحترم
تجارة العبيد . فرأى ل. بلتي ، ألا فائدة من متابعة المحادثات . ولما
تنازل فيصل عن الملك بعد القضاء ثلاثة اشهر على ذلك ، وطلب ابنه
عبدالله مساعدة الانكليز له على اخيه سعود ، نصح بلتي الى حكومته
بمساعدة هذا الاخير ، لانه كان قد كوّن عن عبدالله فكرة سيئة .
وكان من نتيجة هذه الخصومة الناشبة ما بين الاخوين ، النداء الذي
وجهه عبدالله الى العثمانيين ، واحتلالهم ثانية ولاية الحسا الساحلية في
سنة ١٨٧١ .

سلك بلتي في طريق العودة ، الطريق التي سلكها بلغريف على وجه
التقريب ، ولاحظ تعاقب الاراضي ذاتها بصورة عكسية لتعاقبها عند
المجيء : هضبة متناوجة ثم تلال الدهناء الرملية ، وأخيراً ارض قليلة
المتناوج حتى المهفوف .

ودوّن بلتي الى جانب قوائم خطوط الطول الدقيقة ، وملاحظاته
الجغرافية ، ايضاحات قيمة عن مواقع الخرائب في المنطقة ، وكان أول

من حصر اهتمامه بقبيلة غريبة من الحضرة عرفت باسم الصليب ذات عادات ومعتقدات خاصة غير اسلامية ، ووصفها وصفاً دقيقاً ، وما زالت هذه القبيلة حتى اليوم تشكل معضلة من معضلات التاريخ الديني والثقافي مستعصياً حلها .



من وجهة نظر التحقق من اقوال بلغريف ، لم يكن تقرير الكولونيل بلتي المؤلف من بضع صفحات كافياً لاجراء مقارنة بين ما كتبه الاثنان ، بالنظر الى ان الكتاب لم يكن قد نشر بعد .

ولكن مسافرين آخرين كانوا مزعمين ان يجتازوا شمالي شبه الجزيرة العربية : الليدي واللورد بلنت ، ثم الرائد الكبير دوغتي ، ولكنهم لم يروا نفود الدهناء الذي وصفه بلغريف بقوله انه منطقة رهيبة ، لا يرى فيها الا الرمل الخفيف الذي يشكل تموجات يبلغ ارتفاعها ثلاثاًة قدم ، يجد المسافر نفسه بينها كأنه مجين يختنق في هوة من الرمل ، ويؤكد ان قوافل بكاملها يمكن ان تضيع فيها ولا تجد طريقاً للعودة ، وهذه التلال الرملية الهائلة معقدة الى درجة ان دليل بلغريف لم يتوصل الى معرفة الاتجاه الصحيح الا بواسطة حس خارق للعادة والطبيعة فأنقذهم من موت محقق .

ويلاحظ أن بلتي لم يجد في النفود اي شيء مخيف . وقد كتبت الليدي بلونت فيما بعد : « ان هذه المناطق الرملية تؤوي خلال المواسم الماطرة من كل سنة ، طوال بضعة اشهر ، قبائل البدو الرحل ومواسيهم ، وهي تحتوي على سر الحياة البدوية لأنه ما من مكان آخر يشبهها في خصب المرعى ، ولولا هذه الثنايا البالغة الخصب لتعذر وجود البدو الرحل الرعاة » ، في حين ان بلغريف يدعي انه غادر الرياض في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ، بعد ان هطلت امطار غزيرة ، وان منطقة

الدنهاء لم تكن سوى « محيط من النار » لا عشب فيه .

ان غوارماني الذي قام برحلته بعد بلغريف بسنة واحدة ، واجتاز
الاماكن ذاتها على وجه التقريب ، وان كان لم يلمح إليه ، قد صحح
اخطاءه في بعض النقاط ، في نوع سوق حائل ، وعمر ابن الامير ،
وهيئته ، وعدد سكان القرى الهامة ، والعاصمة . فعدد سكان القرى
الذي يذكره بلغريف يفوق ما يذكره غيره من المسافرين ، ويبلغ الرقم
الذي يذكره لسكان حائل ثلاثة اضعاف ما يذكره غيره . وهذا الغلو
هو الذي يدفعه الى القول عن احدى القرى ان عدد سكانها يبلغ ألفي
نسمة . واذا ما قورنت تقديراته العامة التي يوردها عن افراد العشائر
المختلفة ، بالأرقام التي اوردها بوركهاردت وجدنا ان لا شبه بينها البتة .

ووصف بلغريف للطريق التي سلكها وآلان من قبله ، يختلف كل
الاختلاف عن وصف هذا الاخير الدقيق لها . فوادي السرحان يصبح
« واحة ممتدة » ، ولا وادي آخر في البلاد يعدله طولاً ، في حين ان
وآلان يقول انه منخفض له هيئة النفود . وهو يصف في « جبة »
صخوراً ضخمة هائلة من الصوان الاسود ، وحشية فظيعة ، وعميماً كثيرة
عذبة المياه باردتها ، في حين ان وآلان لم يجد سوى تلال متواضعة من
الحجارة الرملية ليس فيها الا آبار مياه ملحة .

كل هذا لا يمكن ان يوحى بالثقة في ذلك الرائد . فهل كان وصفه
غلواً طبعاً في كل مكان للحصول على تأثير أشد في القراء ؟ ان هنالك
ما هو اكثر من الميل الى المبالغة وأكثر من عدم الدقة ، هنالك اخطاء
غريبة ، جسيمة . وقد علم ش. م. دوغتي ان زملاء بلغريف من
اليسوعيين لم يعترفوا له بميزة الصحة في مؤلفه ، وأبى الاعتقاد بأن يكون
بلغريف قد قام برحلته تحقيقاً لبعض مصالح نابوليون الثالث .

ويستطيع المرء ان يتساءل ، في الحقيقة ، ما اذا كان ادعاء بلغريف

بكونه موفداً سريعاً ، مكلفاً بمهمة سياسية شديدة الأهمية ، ليس مجرد تبجح منسجم وأسلوب الكتاب كله ، هذا الكتاب الذي قال عنه د.ج. هوغارت : « انه مشحون بلفظة « أنا » التي يُكثر المؤلف الألفاني من استعمالها من اول الكتاب الى آخره » .

ماذا يجب ان نقول عن عميل سري يعطي نفسه دوراً ممتازاً أشبه بدور ابطال الروايات الخيالية ، بإفشائه فور عودته أسراراً دبلوماسية معرّضة للخطر بمقدار ما كانت غير دقيقة ، ومقدمة بحيث تبدو كأنها لا تهدف الى شيء سوى إثارة شبه الجزيرة العربية ، وإبطال الدين التقليدي فيها ؟

ان رغبة الامبراطور الفرنسي في معرفة مقدار القوة الحقيقية التي يتمتع بها الامير الرشدي ، ودرجة امكان انتصار الوهابية ، أمر يؤكده تمويله المشروع فيما بعد لرحلة غوارماني ، ولكن بما لا ريب فيه أنه قد أحس بالزعاج شديد إذ قرأ تليح بلغريف الى تلك الأوامر السرية التي أراد الايام بأنه قد تلقاها منه .

لقد ظهر ان هذا الرجل غير جدير بالثقة ، لا سيما وانه كان نصف يهودي ونصف انكليزي ، ثم اعتنق الكتلكة ، ودخل في سلك المنظمة البسرعية ، وانضم الى القضية الفرنسية ، ثم ترك منظمته بعد عودته بقليل وتكرر للكتلكة ، وعاد الى البرونستانية موجهاً الى الكنيسة الكاثوليكية هجوماً عنيفاً . ولم يكن كل ذلك ليزيد في ثقة العالم في امانة أقواله .

وقد استنتج ادوارد نولد الذي سلك فيما بعد الطريق التي سلكها بلغريف ان المعلومات التي أوردها صحيحة . وقدّر دوغتي ، والليدي واللورد بلونت ، رغم كل شيء ، ان الصورة التي رسمها للمجتمع في نجد كانت تستند الى المشاهدة الحية .

واعتبر د. ج. هوغارت في عام ١٩٠٤ ان حقيقة الرحلة ليست موضوع جدل ، وان بلغريف يشكل « أفضل مخبر لنا ، فيما يختص بنصف هذا الجزء الجنوبي من نجد الذي لا نعرف عنه أي شيء » ، اما فيما يختص بالنصف الآخر ، فان تقريره عنه أملاً من تقارير سلفيه الوحيدين دينو وسادليو ، وخلفه الوحيد بلتي ، الى درجة انه يشكل نصاً ولا تشكل تقاريرهم الا تعليقاً .

وقد منحه هوغارت الثقة بالنسبة الى ما يختص بملاحظاته عن منطقة الحسا الساحلية ، فكتب يقول : « ان قصته التي لا تبدو غنية حية في اي جزء من اجزائها ، تظهره كرجل لا يكلف نفسه عناء اخفاء ميله شبه الشرقي » .

وفي لهجة اكثر جدية يصف بلغريف المدينة والواحة المحيطة بها وصفاً مفصلاً رائعاً متفقاً والنبذ التي أوردها عنها سلفه سادليو وخلفاه بلتي وزويمر . وهذا الاخير الذي جاء الحسا ، تحت الحماية التركية ، في سنة ١٨٩٣ ، وجد في الحقيقة مخطط المرفوف صحيحاً بعد انقضاء ثلاثين سنة : « معلومات مفصلة عن المعيشة - البيوت وداخلها ، المنتوجات والتجارة ، الاخلاق والعادات - ، ووجد يكلامه « نعمة إلفة ندر ان توصل إليها أي اوروبي في الشرق » . واستنتج قائلاً : « بالنسبة الى الجزء الاكبر من نجد يجب ان نعتبر بلغريف كرجع ، اذ لا مرجع غيره » ، وبالنسبة الى الحسا نلجأ إليه مؤثرين اياه على سواء .

ولكن وضع معلوماتنا تغير منذ عام ١٩٠٤ ، اذ ان احد الاوروبيين الذي أسلم وتمرب عن طريق التبني عاش في الرياض لدى الملك الكبير عبد العزيز آل سعود وابنه ، ولم يتخل منذ عام ١٩٢٥ حتى يومنا هذا ، عن رغبته الملحة في الارقياد ، وعن معرفته الوثيقة بمؤلفات الاوروبيين ، وثقافته العلمية التي اكتسبها في كامبردج . وكان التحقق من اقوال

بـلـغـرـيـف بالنسبة إليه في سهولة تحققنا نحن بها جاء في « الدليل الأزرق »
 عن المسافة بين ليل ومونت كارلو . والقيام بذلك لا بد من ان يكمر
 له الوقت والرحلات . ولكن مـ . فيلي توصل ، شيئاً فشيئاً ، الى سلوك
 الجزء الاعظم من طريق بلغريف من جديد . وقد قدّم في عام ١٩١٩
 ملاحظاته الاولى عن ذلك للجمعية الجغرافية الملكية ، ثم وضع تدقيقاً
 مفصلاً للوقائع في كتابه الذي أسماه « قلب الجزيرة العربية » ، وأصدره
 في سنة ١٩٢٢ ، وأخيراً حمل في سنة ١٩٤٧ للجمعية الجغرافية الانكليزية
 البرهان الاخير لنظريته .

لقد قدر ان في وسعه اثبات ان بلغريف لم يتمكن من القيام
 بالرحلة التي ادعى القيام بها من حائل الى الخليج العربي ، لأنه يؤكد
 اشياء تبين بوضوح انه لم يَرَ ما تحدث عنه ، ثم تتبع التهم ،
 خطورة فخطورة .

لنأخذه على طريق حائل - بُرَيْدَة . لقد أدلى باديء ذي بدء ،
 بخبرين خاطئين إذ قال ان آبار منطقة القصيم لا يبلغ عمقها إلا ستة
 اقدام كحد أعلى ، وان اهل هذه المنطقة يصرون البلح الى اليمن
 والحجاز ، وان المرحلة الاخيرة قبل بريدة هي واحة غات - التي لا
 وجود لها - والتي يقول ، رغم ذلك ، انه قضى ساعة في حداثها
 ومزروعاتها . ولما أصبح على مرأى من بريدة ، توقف عن متابعة
 السفر لقضاء الليل في الدويرة ، وذلك ابتكار آخر من ابتكارات مخيلته .
 ويقول انه لدى بلوغه المدينة وجد فيها الملح المستخرج من المقالع ،
 خالص النقاء والياض ، في حين ان لونه في الحقيقة وردي وغير نقي .
 ويقول بلغريف انه نظر الى بعيد ، فرأى في الجهة الجنوبية الغربية
 المنطقة كلها مكسوة بجزر صغيرة من المزروعات الواقعة بين الرمال ،
 ومخطوط طويلة من الظل الكثيف ، تزداد كثافة كلما بعدت ، دالة على

مكان وجود غنيزة ، في حين انه تشاهد من تلك المنطقة والى أبعد مدى مرتفعات رملية لا نهاية لها ، تختفي بعيداً وتحول كلياً دون رؤية غنيزة ، وحتى مزارع النخيل في الوادي .

ويزعم بلغريف انه قام بنزهتين استغرقت كل منهما يوماً واحداً لدراسة الحياة الريفية . والمكان الأول الذي ذكره لا وجود له ، الا اذا كان اسم مكان يبعد مسيرة ايام من هناك . والمكان الثاني ليس الوصول إليه في يوم واحد متعذراً فقط ، ولكنه موجود على الطريق المباشرة بين بريدة وشقراء التي يذكر انه لم يستطع سلوكها لانها كانت مليئة بالجيش . ومن الواضح انه لا يعلم ان المكان الذي قصده للنزهة واقع على هذه الطريق !

ويورد بلغريف لمحة موجزة عن الطريق بين بريدة والزملي التي يدعي انه قضى ثلاثين ساعة من السير القملي في سلوكها وهي في الحقيقة لا تتجاوز الستين ميلاً . ويذكر انه توقف في عدة واحات ، وهذه الواحات لا وجود لها البتة .

ويقول بلغريف انه اثناء وجوده في الرياض قام برحلة الى منطقة الافلاج ، وان في هذه المنطقة شيئاً مميزاً لها من كل ما في الجزيرة العربية كلها ، وهو بحيرة . ولكن بلغريف لا يصفها ، كما انه لا يذكر اي شيء عن طريقة للري فيها يستحيل ألا تسترعي الانتباه ، علاوة على ان هذا المكان الذي يبعد مائة وسبعين ميلاً عن الرياض ، يدعي بلغريف أنه بلغه في يومين من السير العادي .

اما التقرير الذي أورده عن سلسلة جبال طويق ، فلا يرى فيه م. فيلي الا ضرباً من الكاريكاتور . والارتفاع الذي ذكره خاطيء ، وما قاله بلغريف عن توزع المياه من هذه السلسلة يخالف كل المخالفة للواقع . وبلغريف يسخر من الجغرافيين الذين يفترضون وجود أودية

تتجه من منطقة الرياض نحو البحر ، والسيد م . فيلي يذكر ان وادي حنيقة لو كانت فيه كمية من المياه لبلغ البحر . وبلغريف يذكر انه بلغ هذا الوادي في يوم واحد من السير ، في حين ان المسافة الحقيقية التي تفصله عن الرياض لا تتجاوز ميلاً واحداً حسب قول فيلي الذي سلكه في وقت جرت فيه المياه لأن أمطاراً غزيرة كانت قد هطلت في الرياض . ويؤمن بلغريف ان هذا الوادي لا يتجه نحو البحر ، بل يتجه غرباً ، أي ان المياه اذا ما سالت فيه ، جرت في الاتجاه العكسي . ويشرح هذه النظرية مدعياً انه في شرقي الطريق وصل الى سلسلة جبال عمودية (هذه السلسلة لا وجود لها البتة) تجري منها المياه التي تسيل في وادي حنيقة . وكذلك فيما يختص بوادي السلي الذي يقول انه سلكه فيما بعد ، فقد جعله يتجه اتجاهاً عكسياً ، نحو الشمال ، ويصفه كأنه آت من نبع خيالي ، واقع في منطقة خيالية أيضاً . ويقول انه رأى في هذا الوادي قرى صغيرة فقط لا أهمية لها ، في حين ان لا قرى فيه .

ويقول بلغريف انه بلغ في طريقه غابة من اشجار الدلب ! وانه شاهد ذات صباح ضباباً كثيفاً كضباب ايقوسية ، وانه صعد الى احدى قمم الطريق ورأى مشهداً (من نسج الخيال) على جبل الحريق الازرق من جهة الجنوب ، وانه شاهد من هنالك الطريق تختفي في الرمال بانحدار شديد ، وهي في الحقيقة لا تختفي الا في بطاء على مسافة بعيدة من هناك ثم يعود ثانية الى ذكر مسافات غير صحيحة ، ومحطتين عند بثرين لا وجود لهما . ثم يبلغ الدهناء التي يصفها وصفاً لا يمكن لاحد من الرواد ان يتعرف إليها منه .

ثم مخترع اختراعاً جديداً هو اختراع النتوءات ، فهو يدعي ان خطاً من التلال القاحلة ، الوعرة الاشكال ، محيطاً بالجزيرة العربية كلها ،

يفصل بين الصحراء والساحل ، وان هذه المرتفعات المكونة من الصوان ،
والحجر الرملي ، والنسفة ، ترتفع ألفاً واربعمائة قدم عن سطح البحر ،
وفي الحقيقة ليس بين الدهناء والساحل سوى صحراء متراصة الاطراف
كلية الجبارة تنخفض تدريجياً ، لا يغير من وثابتها المدة الموحشة سوى
بعض الآكام .

وقد تبقى على م . فيلي ان يورد برهاناً لا على عدم صحة المعلومات
التي أوردها بلغريف فحسب ، بل على طريقته في تليفق القصص . فقد
ادعى بلغريف ، انه اكتشف في قلب الجزيرة العربية اكتشافاً اثرياً
مثيراً ، وإليك ما يقوله :

« رأينا أحجاراً بالغة الضخامة غير منحوتة ، مقامة على الارض ،
بعضها منفرد ، والبعض الآخر قد وضع فوقه أحجار من ذات النوع
بشكل معترض . وتدل طريقة وضعها على انها كانت تشكل دائرة كبيرة
ما تزال بعض يقايها ماثلة للعيان عن بعد قليل . رأينا منها غائي أو
تسعاً ، تفصل بين اثنتين منها مسافة ثلاثة أو أربعة امتار ، وما تزالان
متوجتين بقطعة صخر تشكل اسكفة ، ويبدو انها كانتا تشكلان باباً
هائلاً ، وكانت الاحجار الموضوعة عرضاً تشكل وحدة تامة والاحجار التي
ترتكز عليها . وقد دفعتُ جملي فدنا من احدى هذه الاحجار ، ومددت
ذراعي محاولاً تحريكها بعصاي ولكنني لم استطع . وقد كان ارتفاعها
عن الارض يراوح بين اربعة وخمسة امتار على وجه التقريب .

« ان نوع هذه الاحجار يحمل على الافتراض بأنها قد استخرجت من
الجبال الكلسية المجاورة . وهي منحوتة نحتاً خشناً خالياً من الأناقة
والانسجام ، ولا يرى فيها أي تجويف يحمل على الافتراض بأنها استعملت
لتقديم الأضاحي . وينسب سكان البلاد إقامة هذه الاحجار الى الساحر
داريم الذي يزعمون انه أقامها بيديه كي يستعملها في بعض اعمال السحر .

وقد اكد لنا رفاقنا وجود دائرة اخرى من الاحجار الضخمة المائلة ،
وان دائرة ثالثة بمائلة موجودة بالقرب من الحناكية على حدود الحجاز .

« لا شك ليدي في ان هذه الاحجار المقامة كانت تستخدم لبعض
الاغراض الدينية ، واذا كان العلماء لم يخطئوا في افتراضاتهم عن احجار
ستوننج ، والكرنك ، انها رموز لعبادة النجوم ، في الامكان ان
تغطي هذه الاحجار العربية الضخمة بمثل هذا الافتراض ، لاسيما وانها
اقبت في بلد سبق لأهله ان عبدوا النجوم الدائمة الالاء في سماء بلادهم .
والحق انه لا ررق جوهرياً بين هذه الاحجار الاثرية في القصيم
والاحجار الموجودة في بريطانيا وكونتية سومرست . »

ولكن م . فليبي اغتنم فرصة سنحت له فذهب ليروي ما هي تلك
الاحجار الضخمة ، فلم يجد لها اثرأ . ولكنه ظن انه قد يكون
أخفاً بحق بلغريف ، وان هذا الاخير يحتمل ان يكون قد صدق في
ما رواه ، نقلأ عما سمعه من احاديث القرويين عن حجرة لا تتزعزع .
فقال في نفسه : « ألم يقل بلغريف انه حاول ان يمز بعصاه صخرة
ضخمة لا تتزعزع ؟ » فطلب الى القرويين ان يروا له الاسطورة ثانية ،
وان يدلوه على مكان وجود الحجرة ، التي نشر لها صورة . فرأى انها
كتلة صخرية فاتئة أفقياً من احدى التلال ، تدعى الحرَيْشة . وتقول
الاسطورة ان احد اشراف القرية ، بعد ان عزم على تشييد قصر له ،
عهد الى عماله بمهمة نشر هذه الكتلة الصخرية ، ليصنعوا منها احجاراً
للبناء . فبعد ان أحدثوا فوضىعة عميقة جداً ، رقيقة ، ربطوا حبالاً الى
هذه الكتلة الصخرية واستعانوا بسكان القرية جميعاً لمساعدتهم في اجتذابها الى
اسفل . ولكن جهودهم ذهبت ادراج الرياح ولم تتحرك الكتلة واخذ
بعضهم يشجع بعضاً بقولهم : « لقد تحركت حرَيْشة » ، ولكن حويشة
لم تتحرك ، واصبحت هذه اللفظة مثلاً يعني أملاً يستحيل تحقيقه .

لا شك في ان هذه الكتلة الصخرية المتددة « عرضاً » والتي أبت ان تتحرك ، كانت اسكفة الاحجار الهائلة التي ذكرها بلغريف .

اما الاحجار الضخمة ، فقد رآها فيلي بدوره ، ولا ريب في انها كانت كتلاً صخرية تبعد ميلين عن ذلك المكان ، بوى منها الزمن ، تنتصب كالأنفطرة ، نقش عليها المسافرون ، على مر السنين ، شارات قبائلهم ، وبعض الكتابات الحشنة . وقد نشر لها صوراً هي ايضاً .

في هذه المرة ، اكتشف م. فيلي طريقة كتابة بلغريف للتاريخ ، واتضح له انه استمع الى اقوال العرب التي مثلت له الصخور المنتصبة كالأنفطرة ، حجارة مقامة ، « وحريشة » كعارضة ضخمة . ولاحظ فيلي ايضاً ان البدو يتحدثون ايضاً عن الفوهات الناجمة عن الاحداث الجوية في « وبار » كأنها بقايا قديمة . كيف يكون بلغريف قد كتب اذن ما كتبه ؟ لقد استعان بالتقارير الشفوية التي جمعها من العرب الذين كان يتردد اليهم خلال إقامته في بيروت . ويعتقد م. فيلي انه ربما يكون قد ارسل اناساً الى قلب الجزيرة العربية لجمع المعلومات التي تساعد على الاجابة عما كلف به في مهمته السياسية ، اما الحياة في المدن العربية ، فان بلغريف كان قد ألفها تماماً في بيروت وفي امكنة اخرى ، بحيث نجح في أن يرسم لوحة عنها ، استناداً الى تقارير منمقة بتفاصيل خيالية . ولا ريب في اننا قاربنا ، هكذا ، الحقيقة .

لكن ، هل يجوز الاعتقاد بأنه استطاع ان يكتب كل شيء مما كتبه استناداً الى تقارير غير مباشرة ؟

انني شخصياً ، أشك في ان يكون الحبار قد وقع حقيقةً على مخلوق في مثل ثقافة بلغريف ، مجرد الى هذا الحد من الرصانة الضرورية ، للاضطلاع بمهمة سرية . فهل يكون قد جمع هذه الروايات في بيروت ؟

ان م. شيسانم الذي قام مؤخراً برحلة الى الحسا يقول ان بلقرير
يمكن ان يكون قد بلغ المفوف بالفعل . وقد برهن م. فيلي فيما يختص
بهذه النقطة ان المخطط الذي استشهد به هو غارت ، والذي صادق عليه
زويمر ، كان رديئاً الى درجة انه لم يكن موجهاً توجيهاً حسناً ، إذ
جعل حياً واقعاً في الشمال الشرقي من المدينة في الشمال الغربي منها ،
ولاحظ بأنه لا المزروعات التي تزرع في المفوف ولا حيواناتها تنطبق
على ما جاء في الوصف الذي أورده بلقرير .

ولكن شيسانم يظن ان من المحتمل ان يكون بلقرير قد اخطأ في
اعتبار احد النباتات المحلية قصب سكر ، ودباه الهند خروجاً عادياً .
ويضيف الى ذلك قوله ان بلقرير قد ارتكب اخطاء في كل ملاحظاته
المتحصنة بالزراعة وتربية الحيوانات ، لأنه كان يفتقر الى المعرفة
اللازمة لذلك .

ان هذا لمحمّل ، ولكن اذا كان بلقرير قد بلغ المفوف ، كيف
أمكنه ان يشاهد سلسلة جبال ساحلية شاهقة ، يبلغ ارتفاعها ألفاً
وأربعمئة قدم ، ليس فيها سوى انحدار كلسي يكاد يكون مسطحاً ؟ لا شك
في انه لم يكن ضعيف النظر الى ذلك الحد !

سيقال لنا ، ولا ريب ، انه فقد كل ملاحظاته عند غرق السفينة
التي كان يركبها ، وانه اضطر الى التعويض عما أخطأه ذاكرته ، بينات
تخلته . ولكن ما هو السبب في اختلاقه سلسلة جبال ساحلية لم تقع
عليها عيناه ؟ وما هو السبب في اختلاق نظام مائي عكسي ، وتبريره
ذلك بذكر جبال لا وجود لها ، الامر الذي لا يمكن محوه من الذاكرة ؟
ربما كان الفرق عذراً تاماً ، وهل كان من الممكن ان يتعرض للفرق لو
لم يذهب الى عمان ؟

وهذا الشك أيضاً يمكن الدفاع عن بلقرير حياله . فقد ذكر الميجر

ح. ب. مايلز الذي أقام زمناً طويلاً في عمان ، ان الوصف الذي أوردته بلغريف لا يمكن ان يكون قد صدر عن شاهد فعلي للحقيقة ، وانه خاطيء كلياً . لقد أمكن التأكيد ان وصف بلغريف صور بشكل اجمالي تصويراً أميناً ، جو البلاد ، ولكن أليس في الامكان الاطلاع على ذلك بشكل عابر من قراءة قصص المتقدمين ، الذين لم يأت بلغريف البتة على ذكرهم . ، أو من الاستماع الى احاديث الآخرين ؟ هذا اذا لم يكن بلغريف قد مر ببعض جهات الخليج العربي ، ووصف الاماكن التي رآها وصفاً تقريبياً ، مشحوناً بالاططاء والذكريات الزائفة والاختلاقات .

يبقى انه وسم ما كتبه بطابع تاريخي وجد انه لا بد منه لاضفاء الصفة العلمية على ما كتبه . واني اعتقد انه لم تجر اية محاولة لدراسة اقواله الغربية عن علم اللغة العربية ، وعن تاريخ شبه الجزيرة العربية القديم . فقد بحث ، دون ان يورد اسم اي مؤلف عربي ، في اللهجتين الاساسيتين في شبه الجزيرة ، لهجة القبطانيين الذين يرجع اصلهم على ما يزعم الى الاحباش ، ولهجة الأنباط ، وكل ذلك عادم الاساس كجغرافيته ، ولا يهدف الى شيء سوى التأثير في القراء .

وقد أظهر اختصاصي انكليزي يدعى اللورد و. بلونت فيما يختص بتربية الخيل ، في كتاب وجهه الى د. ج. هوغارت ، استعالة ما وصفه بلغريف ، مقرأ تقريراً حاسماً : ان الفصل الذي كتبه بلغريف عن الخيل ، يبدو وكأنه قد كتب فيما بعد ، لتلافي نقص هام احتواه التقرير عن البلاد .

لقد اتضعت قضية بلغريف بفضل م. غيلبي ، ولكن هل من الممكن جلاء سر القيام بتركيب مصطنع بهذه الجسامة ، وتبين درجته من الكذب والصدق ؟

لقد كتب القائلون بأن تصوير الحياة الاجتماعية اقرب ما في كتابه

الى الصحة . وكل اعتقادي ان هذا التصوير ايضاً لا يعدو سطحية
الرواية الخيالية والطرفة .

عندما يقرأ المرء ما كتبه وآلان يتضح له بُعد بلغريف عن التعقيد
فيما رآه . فهو ينظر الى المجتمع العربي نظرة ساذجة خاطئة . يرى ان
افراد عشيرة شمر الذين يقطنون حائل وسكان المدن وحدهم هم المتحضرون ،
وانهم « جنس من أنبل الاجناس الموجودة على وجه الارض » . اما
البدو فلا يرى فيهم الا مخلوقات هوت بهم حياة الترحال « بما يرافقها من
النقائص والجرائم » الى حضيض الانحطاط والفساد . ويقول مستحسناً ان
امير شمر يحكم البدو بمقرعته لان الطريقة المثلى لحكم شبه الجزيرة العربية
انما هي « إلزام البدوي بالقيام بالدور الوحيد الذي يلائمه وهو دور رعاية
الماشية » وألا يُترك له اي نفوذ ، الا في حال التعرض للخطر . « ان
ازدهار سكان المدن لعل نسبة عكسية مع ازدهار البدو » لذا توجب
حرمان البدو من كل شيء كي تصبح المدن مزدهرة . ولم يستطع
بلغريف ان يطبق على المجتمع العربي التمييز بشخصيته كل هذا التمييز ،
الا مفهومين : مفهوم الحضرة ، ومفهوم الرعاة ، وهو يبنى مثله السيامي
الأعلى على نزاعهم الطبقي .

اما وآلان فقد أبان لنا ، على العكس من ذلك ، العلاقات المتبادلة
ما بين القرويين الحضرة والبدو ، وأرأانا ان ازدهار البعض مرتبط بازدهار
البعض الآخر ، واستطاع ان يرى ان في قبيلة شمر ، قد اقتبس البدو عن
الحضر ، والحضر عن البدو ، وان في هذا يكمن سر قوتهم ومضائهم .

كيف يستطيع بلغريف ان يرى ويفهم مجتمعاً ينظر إليه بتفرض
جسيم الى درجة انه غدا جديراً بالضحك . فهو يقول انه قدّر رفيقه
تقديراً كلياً لاحتقاره الشعوب المجاورة لبلاده ، يعني بها البدو المجاورين
للحدود السورية . ولا يرى بلغريف فرقاً بين « العشائر المنحلة التي

تعيث بالجزيرة العربية فساداً ، فيقول : « انهم لبسوا سوى كلاب ، ويقدر القول الذي يدعي انه سائر فيما بينهم : « لا نسوى حتى كلابنا ؟ » ، ويؤكد بدون أي مبرر : « ان العلاقات غير الشرعية تشكل ، اكثر من تعدد الزوجات ، اساس العلاقات الزوجية لديهم » وفي صدد التحدث عن جودهم يقول : « ان كرمهم ناتج عن عدم اكتراث همجي ، اكثر من كونه ناتجاً عن نبل خلق حقيقي .. ان البدوي يحب الضيافة من كل قلبه ، رغم كونها ضيافة خرقاء ، مزعجة ، وهي جديرة بالاطراء ، ولكنه اجمالاً طفل قليل الادب ، خنق الاهمال المتطرف خلاله الفطرية الحسنة ، . واذا قيل انهم لا يقتلون في اثناء الغزو ، أجاب على ذلك بقوله : « انهم يبحنون عن الغنية لا عن إراقة الدم ، ولا يشعرون بالطموح الرفيع في قتل عدوم ، او الهلاك تحت ضرباته . فهل يكون البدو اذن أودع وأقرب الى الانسانية من الشعوب المتمدنة ؟ كلا . ولكن تنقصهم المبادئ الدينية والمشار الوطنية التي كانت سبباً لكثير من الحروب الدموية في اوروبة وآسية » .

يا له من اطراء جميل يوجه اليهم ذلك المتمدن ! ولكن اذا قلنا ان العربي الحقيقي ليس سوى البدوي ، وجدنا ، بمزيد الاسف ، ان البدوي لا يقل عنا في أي شيء ، وكذلك في الحروب الدينية ..

ولكن ليس هذا كل ما في الامر ، على حد قوله : « فمن الخطأ الفادح ألا يستعلم الانسان عنهم ، او ان يتصور انهم يحفظون الذمام . فالأمثلة عن خيانتهم الباردة الميثة ليست فادرة فيما بينهم . والغرباء الذين يؤتمنون عليهم ، واخوانهم في البادية انفسهم ، يسقطون في غالب الاحيان ضحايا لمكايدهم الفظيعة ، . ويمتد احتقار بلغريف البدوي حتى الى جملة : « خلاصة القول ، انه حيوان همجي » غير قابل للتملق بالانسان ، حيوان لا يدجن ابداً . ولا يخضع للانسان الا عن بلادة ،

ولا يتجالحه سوى ميل واحد هو حب الانتقام .

ولا ريب في ان تصرفه في المجتمع البدوي لا بد ان يكون مثيراً للغضب في نظر البدو ونظر القراء الذين قدّروا لهم ان يطلعوا على ما كتبه وآلان . فبعد ان حل ضيفاً مكرماً على احد الزعماء من قبيلة الثمرات أخذ يلتح عن رغبته في الحصول على هدية منه . وقد رفض بكل اصرار معالجة المرضى ، أو فك طرود بضاعته التي جاء بها للبيع ، أو ملء الغلايين التي مدت إليه ، كما رفض أن يطعم من الجمل الذي ذبحه المضيف على شرفه ، لأنه ، على حد قوله « تقزز من المشاركة في الاكل الشبيهة بما يخص به الكلب من القنصة »

وبلاحظ م . فيلي انه حتى فيما يختص بوصف الأعمال القليلة الشار في حياة المدن ، يكفي بلغريف بعض المعرفة بمدن الشرق كي يكتب معظم أوصافه دون ان يقتصد في التفاصيل المفترقة الى من يكفل صحتها . وهكذا يتطرق مؤلفنا في صدد تحدّثه عن شوارع الرياض ، الى الزحام الذي ينتج عن صفوف الجمال المربوط بعضها الى بعض بشكل لا يصادق عليه فيلي ، إلا بالنسبة الى الطريق الواقعة بين مكة والطائف .

اما بالنسبة الى المذهب الوهابي . فان الكتاب كله موضوع ضده . فهو يصف الاستبداد الوهابي في الرياض ، وارغام الناس على حضور الصلاة ، والمحافظة بقصد التباهي على أوامر هذا المذهب المفرط التشدد . ولكن هنا ايضاً يبرز تغرضه للبيان ، وقد أظهر م . فيلي ، في هذا الفصل من فصول بلغريف ، أموراً مخالفة للحقيقة ، بل مؤذية . ان بلغريف يؤكد بدون برهان ، ان فواحش مختلفة ، حتى تلك التي يأتي اللسان من تسميتها ، أغلب حدوثاً هنا ، في الرياض ، منها في دمشق وصيدا نفسها ، وان الحشمة النسبية في بعض المدن المزبية تُظهر المخطاط

الرياح القاتم في تساقض شديد ، غريب ، ولكن فيلي لا يتردد في القول بأن هذا محض تشنيع وافتراء .

ثم ان بلغريف ، بوصفه طبيباً ، يدعي انه وجد داء « الزهري » منتشرأ انتشاراً غليظاً ، في حين ان م . فيلي يحدد بدقة « ان هذا المرض في الحقيقة نادر جداً في المناطق الوهابية ، وان الاصابات القليلة التي تظهر انما بطريقة العدوى من الزوار الذين يأتون من البصرة ، ودمشق ، والقاهرة ، ومكة ، والمدينة ،

ولا يتضمن كتاب بلغريف من الحقيقة فيما يختص بالاجتماع ، أكثر مما يختص بالجغرافية ، والحيل ، والتاريخ ، وعلم اللغة . ولم يبحث بلغريف في الدين بحسن نية أكثر من بحثه في العرب . وهو يحشو كتابه بتحليل للعقيدة الاسلامية بشكل مثلاً للشرح الذي يفسد هدفه .

ان الأمر الوحيد الذي يردّ على جميع الانتقادات الموجهة إليه ، هو أن يستطيع امرؤ ان يبرهن على ان هذا الرحالة قد كتب شيئاً كان من المتعذر عليه اقتباسه من التقارير البسيطة التي جمعها من الشهود ، ونقشها بحرية على نسيج غليظ دراماتيكي بموارد خياله الخصب ، حتى ان كونه اول من وصف الانخفاضات الغريبة النملية الشكل الكائنة في النفود الكبير ، لا يمكن ان يبرهن على شيء من هذا القبيل ، اذ يمكن ان يكون شاهد عيان عربي قد وصف له الظاهرة . الشديدة البروز التي سيأتي اللورد بلونت وزوجته على وصفها بدقة أكثر .

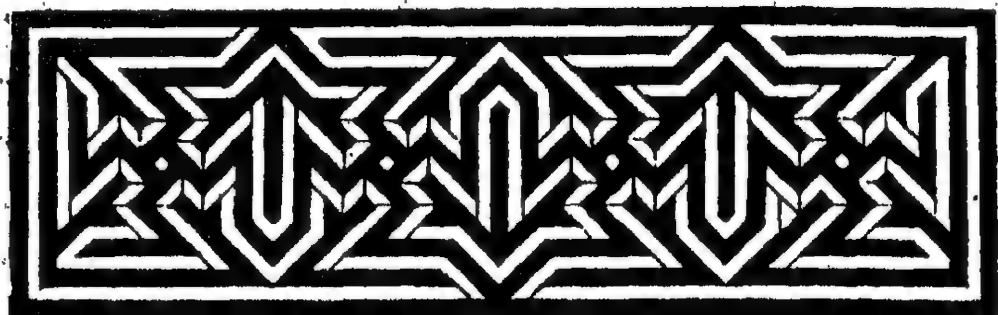
وما دام ذلك البرهان لم يؤت به ، غاب مجمل الملاحظات التي يمكن اعطاؤها عن كتاب بلغريف ، يحملنا على الاستنتاج بأنه وضع كتابه بالطريقة التخمينية التي وضع بها الروائي الكسندر دوماس رواياته المثيرة استناداً الى الذكريات التي احتفظ بها الكولونيل لويس دي كوريت عن رحلاته الحقيقية التي قام بها الى شبه جزيرة العرب .

ولكن دوماً قدم قصصه كروايات ، رغم ان اساسها كان صحيحاً ،
في حين ان بلغريف قدم ما لا يعدو ان يكون مجرد رواية بشكل
قصة ارتياد علمي ، كتبها استناداً الى معلومات استقاها من شهود عيان
مجهولين ، رتبها كما عن لباله ليلقى منها مؤلفاً بادي التحيز ، والتغرض ،
والخطأ ، وعدم الانصاف .

ان المرء ليرتجش اذ يفكر في انه من خلال كتيب كهذا متستر
بستار الارتياح العلمي ، ظن المراهقون الاوروبيون في أواخر القرن
المنصرم ، انهم تعلموا معرفة شبه الجزيرة العربية ، كباراً وأحدائاً ، والعرب ،
واخلاقهم ، ودينهم .



المجلد الخامس
العربية السعيدة



البحر الاحمر

منذ ان ركب دوم استادو دي غاما البحر الاحمر حتى للسويس في سنة ١٥١٧ ، لم يعد أحد يقوم بارتياحه نظامياً ، فقد كان محظوراً على السفن الأوروبية التي تجتاز باب المندب للاتجاه الى الحما ، أن تقترب من مرافئ الأماكن المقدسة ، ولم يتمكن الرحالة الحجاج من تقديم أية ملاحظات بحرية دقيقة بعيدة المدى .

وفي وسعنا القول ان كشف البحر الأحمر من أواخر القرن الثامن عشر الى سنة ١٨٣١ كان مزماً ان يكون عملاً انكليزياً . أولاً : لكون الانكليز بحارة شديدي الاندفاع والحماسة ، ثم لأن وصف السواحل ورسم خرائطها مهمة يقومون بها بصورة طبيعية . والواقع اننا مدينون لهم بدراسة شواطئ هذا البحر . وسيقوم بروس ، وفالانسيا ، وهابنز ، وضباط السفينة بالينوروس ، بحزم ووجدان ، بهذه المهمة .

واذا كان البحارة الانكليز وخدمهم هم الذين ارتادوا هذا البحر حتى عام ١٨٣١ ، فما ذلك الا لأن انكلترة احرزت السيادة فيه ، فقد حصر الهولنديون اهتمامهم كله بأرخبيل اندونيسيا ، وكف الفرنسيون عن اثبات

فعالية وجودهم في الشرق ، لانصرافهم الى توسيع سلطانهم في اوروبه
خلال عهد نابوليون ، ولكنهم ظلوا مخلصين للعلفت الذي عقده مع محمد
علي حاكم مصر ، على ان فرنسة أصبحت في عهد لويس فيليب ، اعتباراً من
سنة ١٨٣٠ ، الدولة الصناعية الثانية في العالم ، بعد انكلترة . ومن الطبيعي
انها كانت مزمنة أن تستأنف توسعها وتنافس انكلترة في الشرق .

لقد أحرزت فرنسة فعلاً ، ما بين سنة ١٨٣٠ وسنة ١٨٤٨ ، مكانة
ذات اهمية قصوى : فهي حليفة محمد علي ومناصرته في سورية التي كان
قد ضمها إلى ملكه واحتفظ بها حتى عام ١٨٤١ ، وهي مستقرة في شمالي
افريقية ، وحامية موارد لبنان البلد الذي كفلت كيانه ، ولها في البحر
الابيض المتوسط ، وعبر مصر ، وفي البحر الأحمر ، نفوذ لن يعظم ان
يشير القلق الشديد لدى الانكليز . وهذا ما يفسر معنى وجود الفرنسيين
في البحر الأحمر اعتباراً من عام ١٨٣٠ ، ولم تكن غايتهم من ذلك رسم
خرائط لسواحه ، بل كانت الحبشة هي التي اجتذبتهم ، فلم يمر كومب ،
وتاميزيه ، وفيرة ، وغالينه ، وروشه ، وهيريكور ، بشبه الجزيرة العربية ،
الاسعياً وراء هدفهم الحقيقي في مكان آخر . واهاب حب السفر والمغامرة
بآخرين غيرهم ، كما دفع تاميزيه ، إلى الافادة من الصداقة الفرنسية المصرية
للقيام ببعض الأعمال في الجزيرة العربية ، وسرى إلى أي حد شغل البحر
الأحمر أذهان الفرنسيين وتخيلاتهم في ذلك العهد .

بين طوري الارتياح هذين ، من سنة ١٨٢٠ إلى سنة ١٨٣١ ، ظهر
بعض الألمان الذين لم يكونوا بحارة ولا مغامرين ولا سياسيين ، بل
علماء في الطبيعيات .

فلننظر اذن في الطور الانكليزي البحري من أساسه :

ان الفضل في اكتشاف شاطئ البحر الأحمر من السويس إلى باب
المنذب ، منذ عام ١٧٦٩ ، يعود إلى ايقوسي نيل هو جاييس بروس .

فقد ذهب في مهمة شبه رسمية لتصوير أطلال الأبنية الأثرية القديمة في افريقية الشمالية ، فأوغل حتى بلاد مصر ، ثم عاد نحو شاطئ البحر الأحمر الذي قرر ارتياده قبل دخول بلاد الحبشة لمتابعة رحلة التحريات الأثرية التي يقوم بها .

وقد تضاربت الآراء حول قصة رحلته الشائقة الى الحبشة . ويبدو انه كان لبروس في بلاد الافكليز مشنعون نظاميون حتى قبل ان يخط سطرأ واحداً ، ولكنه لم يكن محروماً من المعجيين به . فما هي قيمة المعلومات التي اوردها ؟ ان اللورد فالانسيا الذي تتبع شواطئ البحر الأحمر من سنة ١٨٠٢ الى سنة ١٨٠٦ لم يغفل توجيه تهمة عدم الصحة الى بروس ، ذاكرأ ان بعض اجزاء خارطته بدت له وكأنها خارطة برتغالية صححت على خط مستقيم ، ثم يتهمه بالوقوع في الخطأ في تقدير مواقع العرض . وخلاصة القول ، يعتبر فالانسيا ان قصة بروس قد لفتت ، وان الحقيقة والحيال مختلطان فيها اختلاطاً مستعصياً . اما ولستند فيزعم ، بعكس ذلك ، انه قد تأكد من صحة أقوال بروس ، فيما يختص بالمناطق التي اجتازها من بعده .

كانت امكانية سلوك طريق برية بين السويس والاسكندرية ، نحاشياً لسلوك الطريق البحرية الطويلة ، ولتأدية رسوم الارساء الباهظة في الموانئ العربية ، قد أخذت تشغل الاذهان ، لذا فان شركة الهند الشرقية أوفدت ايلز اروين سنة ١٧٧٧ للكشف عن هذا الموصل البري . فخرج من مدراس صاعداً البحر الأحمر ، لكنه ارغم على النزول في الحما وينبع . وقد امتازت قصة رحلته ، على رأي مترجمها ، بسلسلة من المغامرات ، بل من الويلات والمعاكسات ، تعرض لها المؤلف ورفاقه في بلاد اطرى الكثيرون من المسافرين حسن ضيافة اهلها .

ان قصته لا تشتمل على شيء من اخبار هذه المدن ، فهو يعطي بعض

المعلومات العامة القوية عن النخاع ، حيث لم يكن لاقامته أية ذيول . أما في ينبع فقد أحس وكأنه يعيش في خطر قتال ، فيقول : « كنا نترنح على سفا الأبدية » وما يتفك يستعد للموت بطريقة مؤثرة في النفس . على ان في هذه القصة شيئاً منوراً ، فهو يظهر كيف ان عدم الفهم ، وقلة الثقة ، يمكن أن يشعر الغريب بأنه قد تعرض للخيانة ، وسجن ، وطورد ، حيث لا شيء من ذلك .. ويمكن ان يدفعنا الى اعمال ثأرية .. كما سماها هو بنفسه .

اراد أصحابنا اللجوء الى ميناء ينبع وأخذت بحاجر منها ، وقد استقبلوا احسن استقبال ، وحلتوا ضيوفاً مكرمين على شيخ مضياف ، واستقبلهم الوزير مبدئاً استعداداه لمساعدتهم ، على ان كل شيء تبدل في نظر اروين حين علم ان الوزير لن يسمح لهم باستئناف السفر الا بعد ان يتلقى اوامر من حاكم مكة . وكان كل ما في الامر ، كما تثبت ذلك قصة القصة ، تأمين استيفاء رسوم المرفأ عن رسو السفينة في الميناء ، فقد ارسل الحاكم ضابطاً من جدة الى ينبع للاتفاق على تسديد الرسوم وفقاً لتعرفة هذا الميناء . وقد حدث لجون جوردان مثل ما حدث لاروين بالضبط ، فلم ينظر اليه نظره الى مأساة .

ولكن أصحابنا اخذوا يتفيلون ، خلال هذه الاسابيع الثلاثة ، ان الوزير الماكر يدير لهم مكاييد سافلة رغم ان اروين يشهد عنه بقوله : « ان مظهره لا يوحي الى النفس الا بأحسن الافكار عن نزاهته ، فهو دمث الخلق مهذب ، عفيف اللسان ، سليم الطوية » . ولكن اروين الذي حكم عليه حكماً مسبقاً « لا يشعر الا بعدم الانسانية المتمثل في سلوكه » و « بشعور ضمني بمكره » .

لقد خيل اليهم في منزل الشيخ ان جنوداً مسلحين يقومون بحراستهم . ولما ارسل الوزير خدماً لينقلوا سجاداتهم الى حجرة عالية من غرف المنزل ،

اعتبروا ذلك « حيلة » ، وتصوروا غة « زئزاة يريد احتباسهم فيها » واحتجوا على هذا العمل بشدة ، فلم يعد أحد يطلب منهم القيام به . وقد اخذ ارون ورفاقه يحملون بالقرار ، وطلبوا الى البحارة ان يذهبوا الى جدة لاحاطة الانكليز علماً بمصيرهم . ولكن حين همت السفينة بالاقلاع انقطع جبل المرساة ، وأصبحت السفينة معرضة لخطر الاصطدام بالصخور القريبة من سطح الماء ، ولم يتقدما الا العرب ، الا ان بحارة السفينة كانوا قد اطلقوا عدة طلقات نارية من بنادقهم ، فاحتج الوزير على ذلك ولم يغنم شيئاً زعمهم بانهم انما اطلقوا النار استنجاداً ، فأمر بتجريد السفينة ، حتى الاسرى الموجودين على ظهرها ، من السلاح . ورغم ذلك ، لم يلبثوا ان سمح لهم بمغادرة منزل الشيخ والعودة الى السفينة .

وخلاصة القول ، لم يكادوا يؤدون الرسم المقرر حتى سمح لهم بالرحيل دون أي اعتراض . لكن من الطبيعي ان الامور لم تسر معهم سيراً حسناً بين البدو في سيناء .



بعد مرور عشرين عاماً على ذلك ، كان أحد الضباط الانكليز مزعماً أن 'يحمل علي ظهر مركب عربي كسافر عادي' ، وبطريقة عرضية ، الى الجزيرة العربية .

لقد أنجز الاسطول الانكليزي الحربي ، في الثالث عشر من شهر آذار (مارس) من سنة ١٧٨١ ، يرافقه ثلاثة عشر مركب نقل وقموين ، في اتجاه الهند ، بقيادة امير البحر داري ، وبعد ان اجتاز الرأس الأخضر ، وجد امامه ، في الخامس عشر من شهر نيسان (ابريل) ، الاسطول الفرنسي في ساتياغو بقيادة سوفرن ، فجرت بين الاسطولين معركة حامية انتصر فيها الفرنسيون ، فسبقوا الانكليز الى رأس الرجاء الصالح . وبعد تجارب قاسية مختلفة ، كالمواصف ، وداء الحفر (الاسقربوط) ،

مر الاسطول الانكليزي في المياه العربية ، ولكن بعد فوات الأوان ،
اذ اضطرت الرياح الموسمية قطعاً عديدة منه الى العودة نحو الساحل ،
فلم يجد الانكليز بدأ من دخول البحر الأحمر للبحث عن ملجأ فيه ،
ونزلوا الى البر في جنوبي النجا للتزود بالماء .

كان على ظهر هذه المراكب مسافران يختلف احدهما عن الآخر اختلافاً
كلياً ، يستعدان لرواية قصة مغامرتها : بحار يدعى سيلاس جايمس وضابط
اسمه هنري روك .

كان أولهما يتيماً في الرابعة عشرة من عمره راكباً احدى سفن النقل ،
ولم يكن الرسو الاضطرابي الا مرحلة من مراحل مغامراته الشخصية
الشبيهة بالمغامرات التي يرد ذكرها في الروايات الخيالية ، وقد ~~تختب~~
قصتها فيما بعد استناداً الى ذاكرته ، مضمناً اياها وصفاً محزناً لظروف
حياة البحارة الانكليز في ذلك العصر .

أما روك الذي كان قائد فصيلة من الحيلة ، فحين رأى ان الاسطول
د رسا عند ذلك الساحل الكثيب الشديد الحرارة ، قرر ألا ينتظر سماح
الرياح الموسمية لهم بالتحرك ، فصعد بوسائله الخاصة الى النجا ، ومنها الى
الحديدة ، ومن ثم الى السويس فالقاهرة . تدبر امره على ظهر مركب
عربي قام بملاحظة تجارتها ملاحظة تسترعي الانتباه . فقد تمكن من أن يشهد
- وقد استولت عليه الدهشة - حادثاً معبراً عن تصرف الغربي في انتقامه .

لقد رست السفينة في خليج كان من المأمول العثور فيه على الماء ،
ولكن البدو لم يسمحوا لهم بالحصول عليه من غير مقابل ، فنشبت معركة
بين البحارة والبدو فقد فيها الاولون ثلاثة رجال وجرح منهم رجل
رابع . فتراجعوا الى المركب حيث توفي الجريح . وقد اعجب روك
باحترام البحارة للموتى ، وبجلال الحداد . ونزل البحارة الى الشاطئ لدفن
الموتى ، فجاء ثلاثة بدو غرباء يشهدون الجنازة ، وما أشد ما كان ذهول

دوك اذ رأى اولئك البحارة الذين أطرى انسابتهم منذ هنية ، يذبحون هؤلاء البدو الارباه الثلاثة .

وجمل القول ، ليست قصص اروبين ، وجاميس ، وروك ، من وجهة نظر الارتباد ، الا قصصاً قليلة الأهمية ، فأروبين لم ير سوى الخوف الذي ساوره ، ولم يرى جاميس سوى الأسماك التي كان يصطادها واختبارات رئيسه ، ولم ير بروك الا القليل السطحي من الامور .



كان قد تبقى اذن أن 'يكتشف البحر الأحمر اكتشافاً جدياً ، وان توضع خرائط لشواطئه لاثبات عمل بروس واكماه . وهذا ما وضعه اللورد فالانسيا نصب عينيه . فقد أراد ان يبرهن على ان السفر في البحر الأحمر أيسر اذا اتبع الساحل الغربي الحبشي . فعرض على الشركة الانكليزية للهند الشرقية ان يتعرف الى هذا الساحل اذا قدمت له سفينة ، وقام برحلتين في سنة ١٨٠٥ توقفت اولاهما في مصوع ، للزراع الذي نشب بينه وبين قبطان السفينة التي وضعت تحت تصرفه .

لقد أخذ على اللورد فالانسيا اسبابه . فان مجلداته الثلاثة الضخمة تحتوي القليل من المادة المفيدة ، وقد بحث اكثر مما يلزم في الأحداث اليومية ، وفي الخلافات بين مختلف بحارة المركب ، او مكتب التوكيل التجاري في الحما ، وفي سرعة انفعال القبطان الذي يعتبر ان معلومات بروس حسنة جداً ، في حين ان اللورد فالانسيا يقلل من قيمتها .

خلال كل ذلك تعرض أحياناً لملاحظات مفيدة ، ففيما يختص بالسياسة يبدو ان الناس في عدن كانوا يميلون آتئذ الى فرنسة ، وبعارضوب الهوابيين ، وتعتبر حكومة الحما الانكليز ميالين الى الوهابيين ، الأمر الذي يؤكد صحته تردد فالانسيا على احد اركان هذه الحكومة .

ويخصص فالانسيا عدة فصول لاغطاء معلومات عن التجارة في جدة ،

ويقادرن بين اجور النقل عن طريق الهند ، وعن طريق قناة السويس ،
وعن طريق الرجاء الصالح ، وبذكر حجم تجارة الصمغ ، والصبر ،
والبنجور ، ويقول ان بن الحما لم يعد ضرورياً بالنظر الى ان انكلاوة
تستطيع استيراده من مكان آخر ، ولكن الشركة الانكليزية ماضية في
انجارها مع الحما بسبب تصريفها كميات كبيرة من بضائع الهند فيها .

وقد اورد ايضاً وصفاً لدانخل البيت العربي في الحما ، بنوافذه ذات
الشرفات المصنوعة من الحشب ، والنوافذ المستديرة التي استعمل فيها الرخام
الابيض الشفاف عوضاً . عن الزجاج ، والتي تعلوها كوى مفتوحة ، ودون
ملاحظات عن الاخلاق والعادات فقال : « ان انشاء علاقات بين المرأة
العربية ورجل مسيحي محظور . واذا اكتشفت علاقة من هذا النوع ،
حلق رأس المرأة ، وطلي وجهها بالسواد ، وطيف بهما على ظهر حمار ،
وعرضت لاهانات الجماهير ، وطردت من المدينة » .

وكتب الملاحظة التالية عن الرق : « ان العبد في الجزيرة العربية ليس
في حالة يرثى لها . فهو 'يعتبر كأحد أفراد الأسرة ، يطعم جيد الطعام ،
ويسكن المسكن الحسن ، ويلبس فاخر الثياب . والقانون يحدد العقاب
الذي ينزل به في حال اقترافه ذنباً يستحق من اجله القصاص . حتى ان
القانون يسمح له بتوك سيده . ويكفي ان يقدم العبد عريضة للقاضي ،
فيسرع باصدار الحكم ببيعه علناً . وليس الرق هناك عاراً ، ويستطيع
الرقيق ان يرتفع الى اعلى المراتب في الدولة » .

وأخيراً لكي يكمل اللورد فالانسيا ، اوتباد البحر الاحمر والحبشة كما
فعل بروس ، ارسل سالت في مهمة اوتبادية الى هذه البلاد ، فقام سالت
فيها برحلة آتت ثمارها ، و اضاف فالانسيا بعض الشيء الى معلوماته بما
ذكره 'عن الأبنية الأثرية القديمة التي كانت تختفي في هذه البلاد ذات
الحضارة القديمة ، والتي كان بروس قد أتى على ذكرها بشكل روائي .

بعد مرور عشرين سنة على ذلك ، كان عالمان المانيان في الطبيعات
يقومان برحلة دراسية في عام ١٨٢٥ اوصلتهما الى مصر ، وسورية ،
والعربية ، والحبشة ، فنزلا الى شاطئ العريش التي كانت تحت الحكم
المصري منذ ان استولى محمد علي على ساحل اليمن .

درس احدهما وكان يدعى اهرنبرغ طبقات الصدف المرجاني التي تمتد
على الساحل العربي الواقع على البحر الأحمر ، ولم يكن أحد في ذلك
العصر يعرف شيئاً عن طبيعة تلك الصخور الغريبة والتي تتشكل في الحقيقة
من جماعات من الحيوانات تعيش عيشة مشتركة كان تركيبها ما يزال مفقراً
الى الايضاح .

وفي السنة التالية قام ثانيهما ، ويدعى ا. روبل ، باجتياز الساحل من
المويلح باتجاه الشمال حتى العقبة ، سالكاً طريق عودة قافلة الحجاج المصرية ،
حدوثاً ملاحظات عن تكوين طبقات الارض ، والجغرافية ، والمناخ .
وشاهد الطبيعة البركانية للقمم العالية المشرفة على الساحل ، واكتشف عرضاً
على بعد بضعة اميال من المويلح ، بادىء ذي بدء ، ثم في مغير ، اطلال
مناطق كانت معمورة في قديم الزمان جديرة بالاهتمام .

وقام روبل برحلة ثانية في سنة ١٨٣١ متبعاً فيها الساحل الى جدة
نزولاً ، لبلوغ الحبشة فيما بعد .

وقد مكنت رحلات هذين العالمين مواطنها الجغرافي الالماني برغوس
من ان يضع في عام ١٨٣٥ خارطة محنة لشبه الجزيرة العربية .

ولكن ارتياد السواحل ، ورسم خرائطها ، كانا ما يزالان يفتقران
الى الشيء الكثير ، وقد حصر الانكليز اهتمامهم بها مرة ثانية ، فقصصت
السفينة بالينورس التابعة لشركة الهند الشرقية ، منذ سنة ١٨٣١ ، لدراسة
الوسائل اللازمة لتحقيق ذلك . وقد تعرف القبطان موبسي يرافقه الليوتنان
ولستد ، في الرحلة الاولى ، على السواحل التي كان روبل قد ارتادها .

ونجحت الدراسة التي أجريت في السنين التالية بقيادة القبطانين كيرلس وهائنس بتصوير الساحل الغربي لشبه الجزيرة العربية تصويراً دقيقاً ، واستطلع هائنس في عام ١٨٤٣ خمسمائة ميل من الساحل الجنوبي ، ونشر ملاحظاته عنها . ولكننا سنرى ان ضباط السفينة بالينوروس لم يقصروا عملهم على دراسة السواحل ، بل قاموا برحلة الى صنعاء ، وعلى ساحل حضرموت ، و اضافوا اكتشافات اثرية جديدة الى النتائج التي أحرزوها في رسم الخرائط .

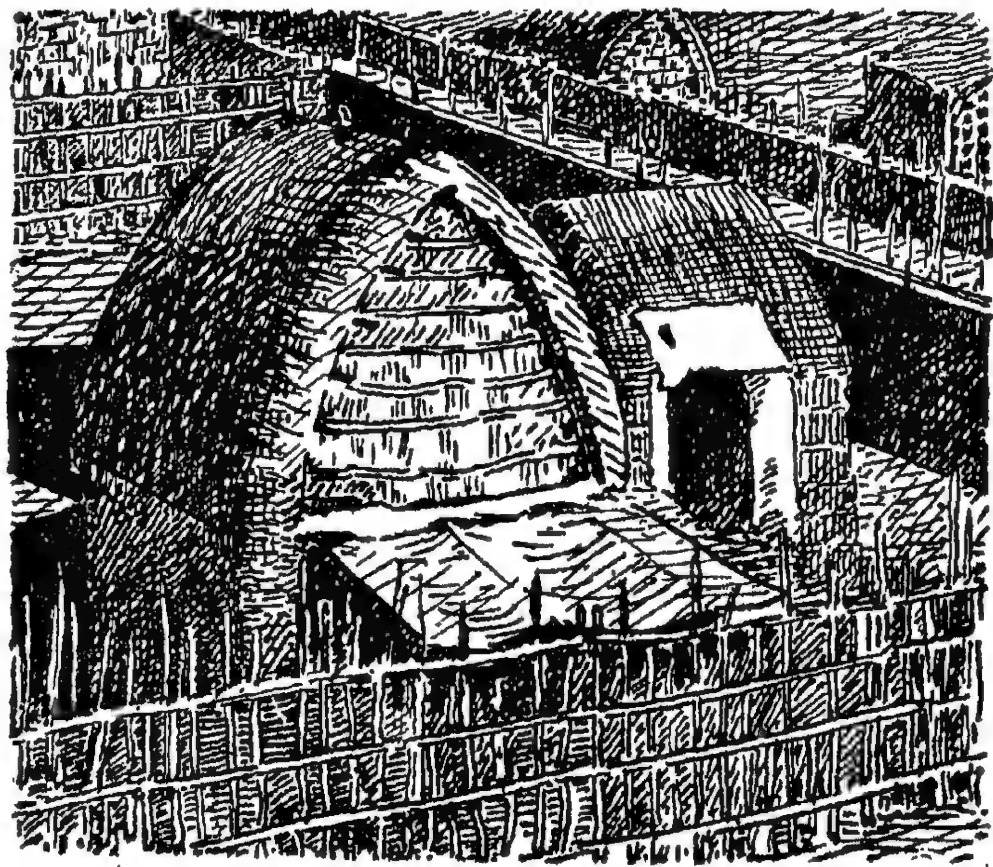


في هذه الاثناء كان الفرنسيون ، مساعدو المصريين ، قد اخذوا يدخلون البحر الاحمر . فقد رأينا الشاب تامييه يرافق المؤسسة الصحية في حملة عسير في عام ١٨٣٦ ، ولكنه كان قد وجد قبل ذلك فرصة ممتازة لاشباع ميله الى السفر . وكان ادوارد كومب يقوم برحلة الى بلاد الحبشة فانضم الى تامييه ، وكتب قصة رحلاتها التي نالت تقدير الجمعية العلمية الفرنسية .

قبل ان يبلغ الشابان الساحل الحبشي ، اغتنيا الفرصة للقيام برحلة على الساحل العربي ، فذهبا من جدة الى القنفذة بطريق البحر ، فوصلا اليها في السابع عشر من كانون الثاني (يناير) من سنة ١٨٣٥ . وكان ابراهيم باشا يهيئ حملة على عسير يقصد منها دعم المهجوم عن طريق الطائف الذي سبق لنا ان قرأنا اخباره . وقد شاهدا فلاحاً وجد مسلحاً قرب خيمة ابراهيم باشا ، يحكم عليه بتهمة محاولة اغتياله ، ويرفع على الحازوق .

وقصدا جيزان بطريق البحر ، ومن هناك اتجها الى اللخية ، والحديدة ، وبيت الفقيه ، وزيد ، حتى الحما ، بحماسة متزايدة الوضوح ، ثم بلغا جيزان ورأيا اكواخها الاسطوانية الشكل ذات السقوف المخروطية محوطة بمزروعات البن والسنا ، والنساء سافرات في اردية فضفاضة زرقاء ، معتمرات قبعات

من القش ، مزينات شعورهن باكليل نصفي من الازهار ، والرجال مدثرين بدثر من الصوف . وقد اثر فيها اطيب التأثير (كما جرى لتسيجر الذي زار في ايامنا هذه نهاية هذه المنطقة) مرحح الاهلين ولطفهم . وقد وجدا في اللحية التي تتشكل البيوت فيها من منازل مبنية بالحجارة ، ومساكن من القش ، او القصب المتشابك ، المحصنة بسورها القرميدي وقلعتها ، موضوعاً للوحة جذابة بفوضاها الجميلة الفاتنة ، ووجدوا السوق جيلاً ضيقاً محصوراً في بقعة صغيرة ، كأنه صنع كذلك لجمع عطوره في مركز واحد ، وهو كثير الفواكه والازهار .



منزل من القش في تنامة .

كان محمد علي قد استولى على الحديدة ، وكان يقوم بالمحافظة على النظام فيها دوريات ضعيفة من رجال الأمن .

وقد اعجبا بيت الفقيه ، ومسجدها الرائع ، وقلعتها البديعة المشرفة على المدينة المبنية المنازل من الحجارة أو القش .

ويعطي وصفها للطريق حتى ألها فكرة حية عن هذه البلاد الرملية القاحلة تارة ، وذات الغابات الكثيفة الخضراء والأراضي المزروعة أحياناً ، والمهوطة بالجبال السوداء ذات القمم الشاهقة الوعرة على مقربة من ألها .

عند الاقتراب من موشج رأيا جبال الجبشة من بعيد ووجدوا هذه القرية في منطقة لطيفة ، ترفل بأشجار الميموزا والنخيل والادغال ، وتختفي عند الاقتراب من قرية مختل ذات المنازل المصنوعة من القش ، والمسجد الرائع الذي أثار إعجابها .

ولكن ألها ذات المنازل المصنوعة من الحجارة والقش معاً ، والمساجد الثلاثة ، تبدو لها مدينة كبيرة ، عليها مسحة من الثراء والعظمة ، رغم انه لم يمض طويل زمن على نهب بدو غير ألها . وقد وجدوا اثاث المنازل فيها ما بين تركي وأوروبي : أرائك ، وحصر ، وكراسي هزازة ومناضد ، ومقاعد من صنع برمباي .

ان قصة كومب التي كتبها وعاشها رجل ذو مزاج فنان ، والتي تصف منطقة قام نيبور بزيارتها ، تمتاز بأنها تُعطي عنها فكرة أكثر حياة ، وتبرز طبيعة الطريق الواقعة بين الحجاز والعربية السعيدة ، التناقض ما بين هذه البقاع ، وبين فتنة جنوبي تهامة ، رغم قسوة المناطق القاحلة المنتشرة فيها .

لم يحل النبوغ دون الدقة في هذا الكتاب الذي يحتوي على عدد من المعلومات عن موارد هذه المنطقة ، وتجاراتها ، وصناعتها . ويشعر قارئ

هذا الكتاب ان تجارة النجا كانت ما تزال هامة يغنيا - كما قال فالانسيا -
استيراد البضائع الهندية كالأسلحة ، والسكاكين ، والمرايا ، والزجاج
المقصود ، واللاكي الزائفة ، والمنسوجات ، والسكر ، والشاي ،
وخمسة سعادة عجمية في السنة ، في حين يصدر منها البن ، والصبر ،
والبخور ، وعرق اللؤلؤ ، والعطور .

وقد لاحظنا في زبيد مصابيح ، ومصانع للأسلحة البيضاء ، والنيلة .
ورأينا في ضواحي جيزان مناجم حديد ، وجواهر ، وكبريت ، ورخام
مماقي .

★

زادت الرحلة التي قام بها كومب وتاميزيه الى بلاد الحبشة في اهتمام
الفرنسيين بهذه البلاد المترامية الاطراف ، الغنية بالآثار القديمة ، التي تقدم
لعلماء الطبيعيات والاجتماعيات والجغرافيين ميداناً واسعاً للارتداد . لذا
قررت وزارة الخارجية في سنة ١٨٣٩ أن توفد اليها السيد فرته
وغالينيه . وقد التقيا فيها ببعوث من حديقة الحيوانات يدعى م . ويلدن
توفي على اثر مرض أصيب به اثناء الرحلة .

وبعد ان مكثنا غانية اشهر في القاهرة لتعلم اللغة العربية ، وشهراً لرسم
خارطة عسير استناداً الى المعلومات التي أدلى بها ستيدوفو ومادي ، كما
وأينا ، أنجرا برفقة السيد بل وروجيه الذين كانا يقصدان الحبشة على
نقطة الخاصة لجمع نماذج للتاريخ الطبيعي . وكانت مزمعاً ان يقضى على
الاول بالشلل لجرح أصابه من طعني رمح كادنا أن تكونا قاضيتين
على حياتهما ، وان يقضى الزحار على حياة الثاني . وبكفي القول بأن
الرحلة لم تكن خالية من الحوادث المفاجئة والاختطار .

لقد عاد فرته وغالينيه من رحلتها بمؤلف علمي غني جداً ، سرفق
بأطلس رائع من الصفائح ، ولكن اقامتها في شبه الجزيرة العربية لم

تكن سوى رسو موقت .

وقام فرنسي آخر يدعى روشيه دي هيريكور برحلة على نفقته الخاصة لارتباد مملكة خوا في القسم الجنوبي من بلاد الحبشة . ولدى عودته ، قدرت الجمعية العلمية الفرنسية أنه بإمكانه القيام بعمل مشر ، فيما اذا امتلك ادوات علمية ، فقدمت إليه اجهزة دقيقة ، وعلمته استعمالها ، وأرسلته في رحلة ثانية سنة ١٨٤٢ فعاد منها بعدد وافر من المعلومات في مختلف نواحي المعرفة تتعلق ببلاد الحبشة بنوع خاص .

ومع هذا ، لا تخلو قصة رحلته ، ومروره بالقصيم ، وجدة ، والحديدة ، والحا ، من المعلومات الشائقة ، إذ كان قد طراً تبدل عظيم في شؤون البحر الاحمر ما بين سنتي ١٨٣٩ و ١٨٤٢ ، وذلك بتأثير الظروف السياسية الدولية .

لما رأّت انكلترة أن فرنسة قد اكتسبت نفوذاً خطيراً في البحر الأبيض المتوسط ، عقدت حلفاً مع الاتراك الذين كانوا في أسوأ وضع مع تابعهم المصري الذي كان قد حصل في سنة ١٨٣٣ على اعتراف بامتلاكه سورية . ومن جهة اخرى اشترت انكلترة عدن من سلطان اليمن في عام ١٨٣٨ كي تحتفظ بطريقها في البحر الاحمر ، ووقعت اتفاقية تجارية مع الباب العالي حصلت لرعاياها بموجبها على حرية دخول اراضي الامبراطورية العثمانية بما في ذلك سورية ومصر . وقد رفض محمد علي التوقيع على هذه الاتفاقية التي لم تعترف له بحقوقه ، فكان جواب السلطان محمود ، بتشجيع من انكلترة ، أن أمر بإقالته ، وغزا سورية بجيش تركي يقوده ضباط المان . ولكن فرنسة كانت قد أرسلت ضباطاً يقومون بتنقيف الجيش المصري وتنظيمه . وقد سار هذا الجيش بقيادة ابراهيم باشا محرز النصر في الدرعية ، ودحر الجيش التركي في شهر حزيران (يونيه) من عام ١٨٣٩ . وكان لهذا الاندحار تأثيره الشديد على انكلترة ، لاسباب وأن

موت السلطان محمود آثار ازمة خطيرة في الامبراطورية العثمانية . وبعد ارتقاء ابنه عبد المجيد العرش بزمان قصير ، أعلن الاسطول التركي انفصاله ، ولجأ الى الاسكندرية مستسماً لمحمد علي ، مجرداً تركية من أقوى سلاحها .

ولكن الدول العظمى التي كانت تخشى تعاظم قوة محمد علي ، وامتداد استعمار غير الاستعمار التركي ، اتفقت فيما بينها على وضع تركية تحت وصايتها المشتركة .

الا ان هذه العودة الى حالة الوضع الراهن (ستاتوكو) التي كانت مصر وسورية تظلان بموجبها القوة العظمى ، لم تكن لتقنع انكساراً ، فاستغلت العداء الناشب ، ما بين القيصر الروسي ولويس فيليب من جهة ، والحصومة القائمة ما بين بروسيا وفرنسة من جهة اخرى ، وأعادت تأليف المحالفة الرباعية مع النمسة لعقد معاهدة تفرض على محمد علي قبول عروض السلطان الذي كان مستعداً للاعتراف له ولذريته بحق الملك على مصر مقابل اعادة كريت ، والمدن العربية المقدسة ، وشمالى سورية ، الى الامبراطورية العثمانية .

ولكن محمد علي الذي كانت تشجعه فرنسة وتسانده ، رفض تلك العروض . فأسرع اسطول انكليزي - نمسوي بفرض الحصار على السواحل السورية ، ورمى بيروت بالقنابل ، بينما أعلن السلطان خلع محمد علي . وقد أعلن تيير وزير الخارجية الفرنسية آنئذ ، معارضته لذلك العمل ، وعدم سماح فرنسة به ، جاعلاً أوروبا على قاب قوسين أو أدنى من الحرب . على ان النمسة التي كانت قد أصبحت دولة بحرية بموانئها الايطالية ، كان تحالفها مع الانكليز يشكل تهديداً خطيراً جداً لفرنسة في البحر الابيض المتوسط . وكان لويس فيليب عازماً على تجنب الحرب ، مها كلفه الأمر ، فعمد الى إقالة تيير وعين مكانه غيزو ، وكلفه بالدخول

في مفاوضات للحصول على امتيازات .

ولكن بالمرستن كان قد وطد العزم على إذلال فرنسا ، والحصول على النفوذ الأكبر في بلاد الشرق ، فأعلن تمسكه باتفاقية لندن . وأثار عملاء الانكليز سورية على محمد علي ، واستسلمت المدن السورية واحدة تلو الأخرى للأسطول الانكليزي - النمسي ، وعدل محمد علي عن عناده عند التهديد بقذف الاسكندرية بالقنابل ، فجلا عن سورية ، وأرجع الأسطول التركي الى السلطان ، مقابل الوعد بالاعتراف بحقه وحق وراثته في حكم مصر ، الأمر الذي تحقق في مؤتمر لندن بفضل احتجاج غيزو على رغبة بالمرستن في ألا يدع لمحمد علي سوى سلطة تدوم مدى حياته .

هكذا وجد روشيه دي هيريكور في رحلته الثانية في جدة والحديدة ، سلطة محتلة جديدة ، هي سلطة الاتراك غير المتحالفين مع المصريين .

ولم يكن روشيه قد وجد فيها الوضع محموداً في رحلته الاولى ، ولكنه وجد في هذه المرة أسوأ من ذي قبل . فقد سُلِّت جدة الى باشا تركي كانت مطالبه الوقعة ترجع الالهين . وألقى الحديدة قد وقعت ضحية لحريق هائل ، نسيه الناس الذين جن جنونهم ، الى عقاب أبيض ألقى عليها جذوة ملتهبة ، ونسيه آخرون الى حاج عجمي يكاد يكون ضريباً ذي عين حاسدة أنقذه بسييها رجال الشرطة دامية من العقاب الاعتباري الذي أُنزل به . ولكن السكان الأفضل تفكيراً كانوا يعلمون ان الجنود الاتراك الذين كانت المدينة تدين لهم ببعض المبالغ هم الذين سببوا ذلك الحريق .

ولم يجد الخا أكثر أماناً للعرباء ، فقد سادها الكآبة ، والخوف ، والأسف على نظام الحكم السابق . وكان الشريف حسين هو الحاكم فيها بفضل توصية محمد علي . ولكن ذلك الجحود أعلن عداوه له فور انسحابه ، وانضم الى الاتراك وأصبح تابعاً لهم . فتحكم اخوته المدن

الساحلية ، واخذ هو يتز اموال التجار .

ولم يضعف من شجاعة روشي دي هيريكور التقاؤه رجلاً انكليزياً عدل عن السفر الى خوا ، حيث قُتل ستة جنود من حرس القبطان هاريز ، بل تابع رحلته بجراً ، وبعد ان استخدم آلاته في إعداد بيان دقيق عن الساحل العربي ، ذهب ليلبس مواقع العرض ، ودرجات الحرارة ، والانحراف المغناطيسي ، وبحث عن النباتات ، والحيوانات ، والصخور ، وعاد بنتائج اعماله الى الجمعية العلمية .



وكان فرنسيان آخران هما آرنو وفابيسير زمعين ان يشهدا في الحديده ، في سنة ١٨٤٧ ، قمتة تاريخ الشريف حين .

عندما يجد المرء في حوزته صورة او سيرة ، صورتها ريشة الكسندر دوماس الساحرة ، يكون من الاجرام تأخره عن اشراك القراء بمتعتها . سندع اذن روائنا يقدم لنا صورة حقيقية وتاريخاً حقيقياً لهذين الرائدین لأنه كان يعرفها وقد استمع الى قصتهما :

« ان آرنو الذي فقد عادة الكلام خلال السنوات الست عشرة التي قضاها في الشرق ، ربما لن يجيبك الا بايماءة من رأسه ، أو غمزة من عينه ، او ابتسامة رفيقة لا يملكها سوى هذا الشاعر الحالم ، لكنك اذا وجهت الكلام الى فابيسير وجدت لديه تلك القرينة المتوقدة المصحوبة باللهجة الجنوبية ، فيخيل إليك وانت تسمعه انما تستمع الى ميري يروي لك قصة فلوريد السحرية .. لقد جمع الطرفة الحية ، وتاريخ قبل أمس ، وأمس ، واليوم ، طائفاً ساحل البحر الاحمر في بزة بحار أو في زي بدوي . ان فابيسير هو القصة مجسدة . »

كان آرنو قد زار مصر سنة ١٨٣٤ والعربية منذ سنة ١٨٣٥ . ولما التحق به فابيسير كان قد زار جدة ، والها ، وصنعاء ، وعدن ، وعثر

على اطلال سبأ القديمة المفقودة ... ولكن هذه قصة اخرى سنرويها فيما بعد . « كان قد عاد الى عدن شبه أمي ، مملقاً كل الاملاق ، فأراد الانكليز الذين يملكون المال للقيام بكل شيء ، ان يشتروا منه ما كتبه ، ولكنه رفض البيع بها يكن الثمن . وكان على وشك الموت جوعاً على مقربة من كنزه ، حين آواه الاب سيراфан كاهن الجنود الايرلنديين للرابطين في عدن .

« عندئذ أقرضه تاجر فرنسي مائتي فرنك أعانته على العودة الى جدة . وهناك استقبله القنصل الفرنسي م . فريسنل ، الرجل الممتاز ، والمستشرق للتعنى الذي كان في وسعه ان يبدو كعربي ، وتبين مخطوطاته ، وقام بترجمتها ، وأرسل دراسة عنها نشرت في الجريدة الآسيوية .

« وأخيراً أدركت الوزارة التي أرسلت إليها تلك الملاحظات والمخطوطات ، مدى الخدمات التي كان في وسعها ان تنتظرها من رجل قام برحلة في مثل تلك الصعوبة والخطورة ، اعتماداً على نفسه ليس إلا ، خكلته بمهمة العودة الى سبأ ، والكشف عنها مرة اخرى ، وتدوين ما يكون قد فاتته في المرة الاولى من معلومات . وحينئذ التقى فايسير في القاهرة حين جاءها لشراء ما يحتاج إليه من اللوازم الضرورية لرحلته الثانية .

« أما فايسير فبعد سبع سنين قضاها في الجندية ، وأربع عشرة حملة . اشترك فيها في الجزائر ، سافر ذات صباح الى مصر ، تحذوه إليها روح المغامرة ، التي قادت ارنو من قبل ذلك باحدى عشرة سنة . ولما التقى به ارنو كان قد مضى على إقامته في القاهرة سنتان ، وهو وكيل بمبامي في وزارة الحربية . «

وقد تعارفا في الفندق فاجتذب الرحالة الرحالة ، وقدم فايسير استقالته ، وانجها كلامها الى السويس ومنها الى جدة ، حيث اجتمعا

بالسيد فريسنل ، ثم يما شطر الحديدة التي بلغاها في شهر آب (اغسطس)
من عام ١٨٤٩ ..

« قاما ، وهما العالمان بالطبيعات ، بجمع الاصداف ، معرضين
نفسهما لتهديدات سكان نهامة الذين لم يتمكنوا من تفهم الاسباب التي
تدفع برجلين عاقلين مدركين ، الى مغادرة بلدهما ، وقطع مسافة غائقة
فرسوخ لجمع كركدن البحر وغيره من الحيوانات العادية . ولكن السلام
كان قد عاد الى نصابه ، وكانت جرائم القتل تحدث كل يوم عوضاً عن
ان تحدث كل ساعة . »

توجهها الى زبيد ليصطحبها معها صديقاً لآرنو يدعى السيد سالم من
سلالة النبي . وكان الاحترام الذي يتستع به سالم في طول اليمن وعرضها
كفيلاً بأن يؤمن النجاح للمسافرين في مهنتها ، فيما لو نجحوا في اصطحابه .
« ولكن كان عليها قبل كل شيء ان يذهب لارتياح تلك الامارة
الصغيرة التي كثرت فيها الحرائب ، اماراة نجران التي لم يكن أي اوروبي
قد دخلها . »

« وكان السيد سالم قد تزوج ، لسوء طالعها ، فقدّم اليها جنديين
من عشيرة يام استودعاه اسلحتها كضمانة ، وتلفظا بالعبارة المشهورة :
« في وجهي » . »

ولسوء حظها ايضاً ، نزل إمام صنعاء من الجبال ، في الوقت
الذي حدداه لرحيلها ، لاستعادة أراضي القديعة ، أو بالاحرى أراضي
اجدادها . وهنا نجد تمة لقصة الشريف حسين .

« كانت جيوشه تهب ، وتسرق ، وتغتصب ، ويسمى اغتصابها بركة ،
ولكنها مقابل ذلك لم تكن تخارب الا قليلاً . لذا فانها عندما التقت
بجيوش الإمام ، نخلت عن الشريف وانحازت الى جانب عدوه . »

وقد قاوم الشريف حسين الجريح ، وثلاثمائة من رجاله ، طوال

شهر ، محاصرين في احد المساجد . ولكن الجدوي تفشى بين رجاله ، فلم يسه الا أن يستسلم ، واستسلمت معه النجا وزيد وبيت الفقيه .
« في تلك الاثناء كان الرحالتان يبعثان عن تماثيل في الجبال ، متبعين تعليمات كاذبة ، وقد عثرا على بضعة عشر حجراً كالشواهد التي يقيمها المسلمون عند رؤوس موتاهم . »

وامام الوضع العسكري ، انكفأ شطر زبيد واتجهها نحو الشاطئ . حتى الحديدية . ولكنها اضطرا الى الهرب من هناك ، لان الحسين الذي كان قد كسر ، كان مزمعا على غزو المدينة ونهبها . فتوكا بمجموعاتها وأمتعتها ، ولجأا الى قارب غير متزودين بأي طعام سوى الارز والبصل . وأبحرا بغية الوصول الى الساحل الحبشي ، ولكن العاصفة لم تلبث ان داهمتها . وأوشك المركب ان يفرق لازدياد ثقل القطن الذي أصابه البلل . فاضطرا الى العودة نحو كمران الواقعة شمالي الحديدية ، وسافر في اليوم التالي نحو مصوع .

وظل آرنو في مصوع مريضاً ، يعاني أشد الألم من داء مفاصل حاد . اما فايبيير فقد خرج وفرنسي آخر الى القنص .

ولكن حدثاً تاريخياً جديداً اضطرها الى الاسراع في الهرب . فقد ستم ملك قنبره انتظار مؤازرة الملك لويس اياه في طرد المسلمين الأتراك من مصوع ، فقرر غزوها بنفسه ، واذا بجياعة متوحشة من الأحباش تتدفق عليها وتفسر فيها الذعر والفظائع ، فاعتلى صاحبانا الفرنسيان ظهر سفينة من مارسيليا أوصلتها الى جدة .

وقد اجتمعا بفريسنل الذي كان شديد الانزعاج لإقدام احد الارفاؤوط على اطلاق النار عليه ، وقد أخطأه لحسن الحظ ، فطالب بالتعويض عن الحادث . ولكن لم يفكر احد في التدخل ، لتلافي خلق صعوبات ديبلوماسية . وفضلاً عن ذلك فقد قامت الشرطة التركية بداهمة منزل.

آرنو وفابيسير وقلبت مجموعاتها رأساً على عقب .

وقد أقبل فريسنل من منصبه لان حكومته لم تشأ أن تعضده وتخلق المشاكل ، وأرسل الى الموصل . وهكذا وُضع حدٌ لنشاط القنصل المدرك الذي عرف كيف يؤدي الخدمات المفيدة لتقدم العلم : بإلقاء الأسئلة على العرب لتقديم المعلومات الجغرافية والتاريخية لجوامد الذي كان ينقب عن المصادر المخطوطة التي استخلص منها دراسة عن تاريخ جنوبي الجزيرة العربية القديم ، وبتشجيعه آرنو والنصح له بالبحث عن خرائب سبأ .

عاد آرنو وفابيسير الى القاهرة بصحبة فريسنل ، وكافا مزمعين ان يحضرا الى باريس مجموعتهما من الطيور ، والحيوانات البوثة ، والحشرات ، والاصداف ، والنباتات البحرية ، والبرية ، التي سلمت الى متحف العلوم الطبيعية ، وأن يكتبا للجريدة الآسيوية دراسة اجتماعية عن طبقة « الاخدام » في اليمن .

يرى القراء ان فرنسة كانت تبذل نشاطاً واسعاً في البحر الاحمر آنئذ ، وان البحر الاحمر كان ماثلاً في اذهان الفرنسيين ، وكان الفرنسيون يقرأون ايضاً قصة غرام واقعية ، للكاتب لويس دفيل ، حدثت في إطار من البحر الاحمر ما بين السويس وجدة ، ولكن كان هنالك شيء أفضل . فاذا كان لامارتين ، لدى عودته من رحلته الى بلاد الشرق ، قد حمل معه ذكريات النيل وسورية ، التي أشاد فيها بذكر البدوي وجمله ، وحلم بالمدن المنقرضة ، كان الكسندر دوماس قد يمم نظريه شطر البحر الاحمر . فلم يدع مسافراً لم يجمع منه مذكراته وملاحظاته ، ليهيئ منها لباريس قصة ممتعة ، حية ، مثيرة . هكذا نشر في صحيفة « النظام » اليومية تقرير آرنو وفابيسير ، في ملاحق مستقلة متسلسلة ، واضعاً له المقدمة التي سبق لنا أن أوردنا مقاطع منها . ولكنه كان قد نشر

مذكرات الكولونيل لويس دي كوره ايضاً ، الذي كان نابوليون الثالث قد كلفه القيام بمهمة رسمية في افريقية ، ونشر في سنة ١٨٥٩ كتابه تحت عنوان « ذكريات رحلة الى آسية وافريقية » . وقد سمح لالكسندر دوماس ان يقتبس من مغامراته ثلاث روايات : احداها باسم مستعار لمؤلف دعاه عبد الحميد بك اطلق عليها اسم « قصة رحلة الى شبه الجزيرة العربية » (سنة ١٨٥٦) والثانية « زيارة الحاج علي بك لمكة والمدينة والعربية السعيدة » (سنة ١٨٥٦ و ١٨٥٧) والثالثة « ذكريات رحلات الى افريقية وآسية » (سنة ١٨٨٠ ثم ١٨٦١ و ١٨٦٤) وقد نشر دوماس الكتابين الاخيرين باسمه ، وكونت الروايات الثلاث احد عشر جزءاً .

لقد مال دوماس الى العرب ، ولا سيما الى الوهابيين . وكتب بلغريف الذي حاز مجلداً بعداً ضخماً من القراء ، انهماً محاسياً للوهابيين قال فيه : « ان شهادتنا ستساعد ، على ما نأمل ، على تصحيح الأخطاء التي أشاعها عدد كبير من الشعراء والكتاب ، ولا سيما الفرنسيين منهم ، فيما يختص بأبناء الصحراء » .

وقد غدا بلغريف من المناهضين لدوماس . واذا كان الناس قد ضنوا عليه بالاعجاب الذي ينتظرونه ، فما ذلك الا لأنهم ازدروا كتابه اللذين تغلب عليها روح الرواية ، معتبرين اياهما غير حقيقيين .

فدوماس قد أعطى المذكرات الحقيقية التي جمعها ، شكلاً روائياً ، وقدمها بكل تواضع كقصة خيالية ، اما بلغريف فانه قدم كقصة علمية ، كتاباً مفروضاً من نوع الروايات الخيالية .

واذا كان بلغريف قد استهدف دوماس ، فيمن استهدف من الكتاب الذين أثنوا على العرب ، فلم يكن ذلك مبالغة منه في تقدير فضائله السياسية ، اذ كان دوماس في الحقيقة ذا حجة سياسية لاذعة ، ولن

يكون عديم الفائدة من وجهة نظر التاريخ الفكري ، ومن وجهة نظر تاريخ شبه الجزيرة العربية ، ان نبعث دفاعه التالي من طيات النسيان :

« لنفترض لحظة ان الملك لويس فيليب قام بعكس ما قام به ، وانه استناداً الى مخالفة الأمة الحبشية قام ببسط نفوذنا على البحر الاحمر ، ألم يكن من الممكن حينئذ ، بل من السهل ، إعطاء مسألة الشرق وجهاً لم يره أي انسان بعد ؟ اننا لو فعلنا لتوكلنا جثمان الباب العالي المعجوز يفسد ويتفسخ على خفاف البوسفور ، ولخلقنا عوضاً عن واجهة الامبراطورية هذه التي تحجب فراغاً حقيقياً على حساب مصر وتركية ، قومية عربية تكون قوتها الحركة امة الوهابيين التي تمتلك حيوية الاجيال الفتية ، وایمان المرسلين ، وحماسة واقتناعاً دينيين مبغثها المعتقد الوهابي ، هذا المعتقد الذي كان مؤهلاً لأن يسود ، والذي كان سيصبح مركزه - فيما لو تحقق هذا الاصلاح البروتستانتي في الاسلام - مكة المدينة المقدسة نفسها .

« ان الاصلاح لوشيك الحدوث من القفقاس الى رأس زنجبار ، اي على مسافة ألفي ميل من الشرق الى الغرب . ان مائتي مليون مسلم اليوم يتعادون ، ويتنازعون ، ويتباحكون ، تجمعهم نقطة عقائدية واحدة هي الحج ، تشتم' خلاله كل شعبة الشيعة الأخرى . . ولكن المستقبل في غمرة كل ذلك للوهابيين وحدهم . . ولمذهبهم الذي يختفي أمامه ألوف الاولياء والشيوخ والمتصوفين ، الذين يقدمهم المسلمون من غير الوهابيين ، وامام مبادئهم الخلقية التي تكاد تكون مبادئ الانجيلية يحوي ذلك الانحلال الشرقي المنتشر في اكثر العواصم . »

ولكن ما هو مخطط دوماس ؟ لقد قال : « ان ابن سعود الذي كان سجيناً في القاهرة ، يقيم اليوم في جدة ، في فقر مدقع ، وفي وسعه أن يثير سكان المنطقة العربية الوسطى جميعهم . فاذا ما تحالفت فرنسا والحبشة ، والوهابيون ، مكنت سعوداً من تحقيق انقلاب على ابن عمه

فصل المغتصب ، ومن الاستيلاء على الاماكن المقدسة ، شريطة ان تكون لديه « حجة للقيام بشورة » وان يكون الى جانبه رجل عبقرى يدعمه . والحجة يمكن ايجادها في أي عجز مالي يبدو من الباب العالي عن تأدية التخصّصات المالية لزعماء تهامة الصغار . اما الرجل فهو عبد القادر الجزائري المقيم في دمشق .

« وفي انتظار ذلك ، لتكن لنا محطة في البحر الاحمر . ونحن نمتلك لذلك ارضاً تمتد ثلاثين فرسخاً على الساحل ، باعها السكان الى شركة مؤلفة من أهالي فانت وبوردو ، واقعة ما بين حايد وامفيلة .

« بعد ان قمنا بجمع الملك لويس فيليب لانه لم يحقق ما نريده ، ألم يحزن الوقت لأن نقوم بعكس ما قام به ؟ »

ولكن ، حتى في النظم الديموقراطية ، لا يُعهد الى الروائيين بايجاد الحلول السياسية ، وكان بلغريف مزمماً ان يقوم برحلته الى نجد بالأموال التي قدمها له نابليون الثالث ، بقصد التحقق من امكانية القضاء على الوهابية ، واقتلاع جذورها من الجزيرة العربية !!..





سراشرباً

في مطلع القرن التاسع عشر ، أخذ الناس يهتمون اهتماماً شديداً بالآثار القديمة ، وبالكتابات الأثرية التي كان يحتمل احتواؤها عليها . فقد تعلموا ان يعرفوا آثار مصر الفرعونية ، وآثار افريقية الشالية ، وسورية ، والبراء ، وكانت آثار الحبشة قد بدأت تتكشف منذ زمن قصير .

كان قد تم اكتشاف وادي المكتشبة في شبه جزيرة سيناء ، حيث كانت الصخور مكسوة بالكتابات الاثرية الغامضة ، وقد رآها ليون لاورد ، وقام بتصويرها خلال الرحلة التي قام بها الى البراء . وكانت هـ. سالت الذي أوفده اللورد فلانسيا الى الحبشة كما رأينا في الفصل السابق ، قد شاهد في بجا أربع كتابات أثرية اخذ نسخاً عنها .

ألم يكن في الامكان العثور على وثائق أثرية مثلها في جنوبي الجزيرة العربية ؟ لقد سبق لنيبور وسيترز أن برهنأ عن وجود مثل هذه الوثائق على كل حال .

لم يكتف ضباط السفينة بالنيوروس بجمع معلومات عن الساحل ،

وهي المهمة التي كان القبطان هاينس يقوم بها بصورة خاصة . بل أخذوا
يؤغلون في البلاد ، كلما اتبعت لهم الفرصة ، بحثاً عن الخرائب والكتابات
الاثرية . فأثرت تحرياتهم على الساحل الجنوبي ، إذ عثر كارلوس في عام
١٨٣١ ، قرب ويج ، على مخطوط اثري قديم لم يعلن عنه الا في
سنة ١٨٤٥ .

لقد نزل الطبيب المساعد ه. ت. كارتر في عام ١٨٣٣ ، الى الساحل ،
لملاحظة خرائب ظاهرة للعيان في أحد الموانئ القديمة المعروف بمحور روري ،
فعرّف عن كتابة أثرية بالاضافة الى الدراسات التي خلفها عن لهجة
عشيرة مهرة ، وعن شجرة البخور ، وموقع غرسها المحتمل ، بالاستناد
الى بطليموس .

لكن هذه الاكتشافات لم تكن شيئاً يُذكر بالنسبة الى ما كان ثلاثة
من بحارة السفينة بالينوروس مزعمين ان يحققوه بعد مرور سنة على ذلك
في حصن الغراب وهم : ولستد وكروتندن وهلتن .

لم يورد ولستد اسم رفيقه في اعلانه عن هذا الاكتشاف في السنة
التالية ، في حين ان الفضل فيه ربما كان عائداً اليها ايضاً . وقد وُجه
إليه اللوم على ذلك بحق . على ان الأمر في الامر هو الاكتشاف في حد
ذاته . وإليك ما كتبه ولستد في تقريره :

« في صباح السادس من شهر ايار (مايو) من عام ١٨٣٤ ، ألقينا
المرساة عند الساحل العربي ، في ممر ضيق ، قصير ، مغلق من احد
جانيه بجزيرة صغيرة منخفضة ، ومن الجانب الآخر بصخرة ضخمة ، قائمة ،
وعرة ، ألقى عليها ملاحنا اسم حصن الغراب .. وبالنظر الى ان ثمة
خرائب بدت لنا على قمة هذه الصخرة ، توجه فريق منا الى الساحل
بغية تفحصها ... نزلنا الى البر على طريق وولية امتدت الى اسفل التلة ،
فألقينا أنفسنا بين أطلال وأبراج ومنازل كثيرة . وكانت المنازل صغيرة ،

مربعة الشكل ، تضم أربع غرف ، على الأكثر ، ذات طابق واحد . وانحدار التلة من هذه الجهة يرتفع باعتدال ، وقد انتشرت آثار عديدة على منحدرها ، إلا أننا لم نجد عليه أطلال منازل ، أو أبنية عامة ، ولا آثار قناطر أو أعمدة ، فقد كان معظم الخرائب مبنياً من قطع فصلت عن الصخور ، كسيت بأسمنت مصنوع من الصدف المتحجر . والجزيرة الصغيرة اليوم متصلة بالساحل ببرزخ رملي ، ولكنها كانت فيما مضى ، مفصولة عنه تماماً .

وقد بحثوا في غير جدوى عن طريق لبلوغ القمة ، وإذا بأحدهم يقول ان الابراج يمكن ان تكون اول المنطلق . وبعد أن تسلقوا الركام ، وجدوا بالفعل ، شِعْباً متعرجاً حفر في الارض الصخرية ، ولكنهم حين بلغوا ثلث الطريق الصاعدة ، رأوا على احدى الصخور ، كتابة أثرية نقش فيها بعناية فائقة ، فلسخا كل منهم ، بغية اجراء مقارنة فيما بعد بين تأويلاتهم للرموز .

والى الأعلى وجدوا بيوتاً وجدراناً ، وأقساماً ناتئة من حصون ، وفي الزاوية الناتئة من القمة ، شاهدوا برجاً مربعاً ضخماً البناء ، فعلموا أنها قلعة حصينة جداً بموقعها المواجه للساحل ، وتحصينها معاً . وكان للجزيرة الصغيرة علاوة على ذلك ، ميناءان يقضى للمراكب الرسو فيها في كلا موسمي الرياح الموسمية .

ولم يكن اهل البلاد يعرفون شيئاً عن تلك الخرائب ، سوى نسبتهم انشاءها الى بعض « الغرباء » .

افترض ولستد محققاً أن الكتابة الاثرية لا بد من أن تكشف سر ذلك المكان الحصين ، وسبب وجوده ، وتاريخ انشائه ، والقوم الذين أنشأوه . على انها كانت في تلك الساعة أحرفاً ميتة لا يعرف أحد أن يقرأها .

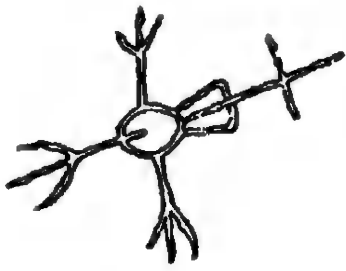
·X1Y7M7H11·11H1A1·17761776H7:31·175H·1·331·10M
 4·11·10H7·14113·14717·10747·15AX11·1·161X77A10741
 1H41·14717·10711·151A8H·1X77·10H1A1·1311·10131·
 7Y77114H·11713·147H1·1447·1X141·151A17·19·10YH7·
 7700·1481·10Y1·1X11H·1477A·1477A·1X77·10YH·3A·
 4144X714H1·10A1H1N14H1A177Y7·1·1A·1H1A·1477A·15
 777·1·YX77A7·1·Y177·1·YX7771·YH·1A1X1·1044
 11X13H7A7·1A1·1X77Y101A17H1·1A771·YH1·1A77A
 1H77A·1510Y7A1Y7·1A·1010Y7A701·1Y7A1010Y7H1A1H1X

10X14Y10X7A101A 11H77·1H14X77H1·Y77·

4
..vx



777 1 277 2



7777777
 10A·147
 Y777777

77 77

77 77

·144H11A7A114771477H1A1041A
 X1·10177·1H10X7A1A77H1

1041A

77 77

الكتابات والنقوش الجيرية التي عليها ولتد عن حصن القراب

ولما أعلن ولستد اكتشافها ، قال عنها انها « كتابات اثرية ذات طابع حبشي » ، وكانت الرموز التي احتوتها « في الحقيقة » شبيهة برموز الكتابات الاثرية التي عثر عليها « سالت » في بلاد الحبشة . فكان من الصواب اذن التقريب بينها ، ولكن الامر الذي توجب تحديده كان ما يأتي : « هل كتابات حصن الغرب الاثرية حبشية الطابع ، أم ان الكتابات الاثرية التي وجدت في منطقة ييحا من بلاد الحبشة ذات طابع عربي جنوبي ؟ » .

ولم يلبث الجواب في الكتابات الاثرية ان تبنا النظرية الثانية : لقد رئي ان الكتابات الاثرية في جنوبي الجزيرة العربية الكثيرة ، والمكتوبة جميعاً بأبجدية واحدة ، لم تكن سوى كتابات الممالك العربية القديمة التي سبقت الاسلام . وبما ان السير العربية القديمة كانت تتحدث كثيراً عن الملوك الحميريين ، وبما ان الكتابات الاثرية التي عثر عليها كانت ترجع الى عهدهم ، سميت هذه الكتابات العربية الاثرية بالكتابات « الحميرية » . وكان لا بد من الاعتراف بأن الكتابات التي عثر عليها سالت في بلاد الحبشة ، كانت تختلف عن الكتابات الحبشية ، وانها عربية جنوبية ، الامر الذي كان يشكل مسألة تاريخية ، ما تزال حتى يومنا هذا ، أبعد من ان نلقي عليها ضوءاً .

ولكن ولستد وكوتندن أرادا أن يوغلا أكثر فأكثر في داخل بلاد حضرموت ، فلم يسمح لهما بالتوغل أكثر من خمسين ميلاً ، واضطرا الى التخلي عن فكرة اكتشاف قلب وادي حضرموت ، والمدن التي كان الناس يحدوثونها عنها كدوعن ، وشبام .. ولكنها ، على كل حال ، بلغا خرائب نقب الحجر .

ألقي ضباط السفينة بالينوروس في أحد أيام نيسان (ابريل) من سنة ١٨٣٥ المرساة امام برج بلحاف ، فعملوا بوجود خرائب في داخل

البلاد غير بعيدة عنه . فبحث ولستد وكوتندن عن بعض البدو ليدلوهما على الطريق إليها . وبعد أن تم ترتيب كل شيء ، سارا الساحل حتى بلغا وادي ميفمة الذي انتشرت فيه القرى والواحات والمزارع .

وقد تعرضا في القرية الأولى التي دخلوها الى عداء الأهالي ، إذ أن أحد البدو المرافقين لهما ، أواد التلي ، فقال لهم أن الرجلين يسعيان وراء الكنوز ، ولكنها ما كادتا يتجاوزان تلك القرية حتى لقيتا من الأهالي معاملة لطيفة وضيافة سخية .

وأخيراً شاهدا أمامهما من على إحدى التلال ، خرائب حصن ، تتوج أحد المرتفعات وتشرف على موقع خصب ، فأنعما النظر عن كتب في جدار الحصن فألقيا مبنياً من الحجارة المنحوتة ، والرخام الأخضر المجزّع بالسواد . ورأيا برجين لحراسة المداخل ، وعلى مقربة من البرج الشمالي خط طويل من الكتابة الأثرية الجميلة النقش .

أما في داخل الحصن ، فقد رأيا أبنية عادية ، إلا أن أحدها امتاز بتوجيه جدوانه توجهاً دقيقاً وفقاً للجهات الأربع الأساسية ، فقد رآ أنه معبد . ولكن خاب أمل ولستد في العثور على كتابات أثرية فيه ، لأن مواد السقف المنهار الى الداخل كانت قد سدّت كل مكان .

ان الكتابة التي رأياها على الباب ، كان في وسعها وحدها أن تلقي ضوءاً في يوم من الأيام على هوية بناء هذا الحصن .

ولحسن الحظ نجا الضابطان من كمين نصبه لهما بعض اللصوص ، وعادا الى المركب ، ونشر ولستد بعد انقضاء سنتين على ذلك ، قصة الرحلة ، ووصفاً للخرائب ونسخة عن الكتابة الأثرية .

في تلك السنة نفسها ، عهد الى ولستد وحده هذه المرة ، بارتداد منطقة همان ، ولكنه لم يعثر على أية كتابة أثرية قديمة . لقد كانت

حضارة جنوبي الجزيرة العربية القديمة هي نفسها حضارة الزاوية الجنوبية الغربية من شبه الجزيرة .

وفيما كان ولستد في منطقة عمان ، اكتشف هاتن وسميث ، على الساحل الجنوبي ، وبالتدقيق على مقربة من رأس شرمة ، خمس عشرة كتابة اثرية منقوشة على الحجارة . وبعد ذلك بقليل ، قام هاتن بصحبة كوتندن برحلة الى صنعاء ، فيما كانت سفينة الباليينوروس راسية في النخا ، وضباطها يقومون برسم مخطط للمرفأ .

كان ذلك سنة ١٨٣٦ ، وكانت الجيوش المصرية ما تزال تحتل النخا . وتشدد الخناق تشديداً وحشياً على الاهلين . ولكن الشريف حسين ، حليف محمد علي الذي كان يقبض منه مخصصات مالية ، كان يحكم البلاد . سلك السائحان بادية ذي بدء الطريق التي سبق لنيبور ان سلكها ، وقد ارتديا الزي الوطني ، ورافقهما تاجر عجمي ، وكانت هذه الطريق قري بموزع ، وزبيد ، وبيت الفقيه ، وهي الطريق العكسية للطريق التي قطعها كومب وتمييزه في السنة السالفة . وقد لاحظا هما ايضاً ، في شمالي بيت الفقيه ، مرجح الاهالي ، وارتداهم ثياباً خاصة بهم . ثم توغلا في سلسلة الجبال عن طريق واد ذي مناظر طبيعية رائعة ، يتسع في بعض الاحيان في شكل مدرج فسيح من الاراضي الزراعية المرتفعة ، تطل عليه قري واقعة على القمم .

لم تكن السماء قد أمطرت على الساحل منذ أربع سنوات ، وكان الزرع قد يبس ، والجوع أخذ يهلك السكان الى درجة لم يكن مستغرباً معها ان يرى المرء جثثاً في الشوارع . ولكن لما بلغ كوتندن وهاتن الهضبة الصخرية المحيطة بصنعاء ، أخذت عاصفة تنذر بالمهبوب ، ثم تلبث ان هبت ، ودامت ثلاث ساعات . وهطل اول مطر ، منذ أربع سنوات ، فاستقبله الناس بفرح بالغ ، وأقاموا لهطوله المآدب والافراح .

أخذت تظهر في صنعاء التي بلغها في اليوم التالي ، نتائج المجاعة ،
اذ كان يموت في كل يوم مائة وخمسون شخصاً من حمى خبيثة . وارتفع
هدى العصيان ، لأن الإمام أبدى عدم اكتراث بمصير الشعب الفاجع . وقد
فرّعه في تلك الأيام من مأرب ، والتحق بالشريف حسين ، الذي قدم
له المساعدة ، فلم يلبث أن عاد فيما بعد فخلع الإمام العاجز الذي كرهه
الشعب عن العرش ، وألقى عليه القبض وسجنه .

ولما شعر الإمام بالاضطرابات نسبها الى الرجلين الاجنيين ، ففرض
عليها الإقامة الجبرية في منزلها ، الامر الذي حرّمها من كل أمل في القيام
برحلة الى مأرب . وقد أصيب الدكتور هلتن بمرض ، وكان لا بد من
انتظار ثلاثة أسابيع كي تتغلب الكيناء مؤقتاً على الحمى ، وتجعله قادراً
على القيام برحلة العودة . فأجلسه كروتندن في هودج حمله اثنا عشر
رجلاً . ولكن شجاعة الرجل الفاتكة التي جابهت بانتصار ، تجربة هذه
العودة القاسية ، كانت دون جدوى ، اذ توفي بعد بلوغها المركب
بزمن قصير .

كانت هذه الرحلة الجديدة الى صنعاء قد أنتجت ما لم تنتجها أية رحلة
سابقة لها : أنتجت صوراً عن بعض الكتابات الأثرية . فقد شاهد
كروتندن عمالاً يحملون اربع أحجار ، ثلاث منها عادية ، والرابعة
رخامية ، تحمل كتابات أثرية ، جيء بها من مأرب لتستعمل في انشاء
احد الابنية في المدينة . وكان كروتندن قد تمكن من رؤية جزء من
رأس منحوت أتى به الى الإمام من المكان ذاته في مأرب ، فلم يكذب
الإمام يراه حتى حطمه ، لكونه من بقايا الكفار القدماء الكريمة ، وحصل
كروتندن عليه .

لقد اهتم علماء الآثار السامية على الفور بحصيلة هذه الآثار التي أضيفت
اليها كتابة أثرية وجدها هينس في عدن وأعلن نبأ اكتشافها في عام

١٨٤٣ = وخمس كتابات أخرى اشتراها الدكتور ماكل في عدن ،
وعرف عنها ج. بيود سكرتير الجمعية الملكية الآسيوية في بومباي في
عام ١٨٤٤ .

كان لا بد من فك رموز تلك المخطوطات . وقد حاول ا. روديجر ،
و. و. جيزينيوس ، و ج. جيلد مبستر في المانيا ، ان يلقوا بعض النور
على توحيد علامات الأبجدية الحميرية . فاعتقد روديجر ان الكلمة الاولى
في نقوش حصن الغراب يجب أن تقرأ س م ك (لأن اللغات السامية
كتابة لا أحرف صوتية لها) ، وتعرف الى حرفين يدلان على ضمير
المتكلم ، فحصل على ما ترجمته : « سكنا ... »

وظن شارل فورستر القس الايرلندي آنثذ انه توصل الى اكتشاف
حمير . وتستحق قصة هذا الاكتشاف أن تروى .

لقد لاحظ ان الكاتب العربي النويري (١٢٧٩ - ١٣٣٢) قد أورد
نص قصيدة ، زعم ان ملوك حمير الاقدمين كانوا قد كتبوها على احد
قصورهم . وكانت هذه القصيدة تبدأ بجملة « سكنا » كما ان الكتابة
المنقوشة على باب حصن الغراب بدأت بعبارة « سكنا » التي ترجمها
روديجر .

اقتنع فورستر بأنه اهتدى الى مفتاح فك رموز الكتابة الحميرية . وبما ان
قصيدة النويري كانت في اعتقاده ترجمة للكتابة الاثرية على باب حصن الغراب ،
لم يكن عليه الا ان يقيم مقارنة بين الاسطر ، والجل ، والالفاظ ..
فانصرف فورستر الى عمل هائل ، أنهاء بتقديم جداول كبيرة لمطابقة
الالفاظ ، الأمر الذي أقاح له تخمين قراءة بعض الكلمات ، ومن ثم
مطابقة بعض الاحرف . واستنتج القراءة المحتملة لمفردات النص الاخرى
بفضل الاحرف التي سبق له أن عين هويتها ، وقدمت له هذه المفردات
الجديدة بقية رموز الأبجدية ، ثم توصل الى دراسة المفردات التي قرأها

بهذه الطريقة ، والى تفسير معانيها تخميناً ، استناداً الى القصيدة التي أورد
التوري ترجمتها ، مربوطة بعض الربط الى اصول بعض الالفاظ العربية ،
الامر الذي أتاح له القيام بالترجمة التالية :

« لقد سكنا وعشنا وقتاً طويلاً حياة بذخ في قاعات هذا المسكن
الفسيع ، وكان الشقاء والخصومة بعيدين عن ساحتنا .

« كان البحر الهائج المسرع نحو مدخل ممرنا المائي ، يضرب قصرنا
بأمواجه الثائرة ، وكانت الينابيع تفور من فوق اشجار النخيل العالية ،
وتجري فيوسع خريز مياهها ، وكان الحراس يمحنون التمور الناشفة من
مزارع النخيل في وادينا ، ويبدرون الارز الجاف . وكنا تقتنص الماعز
الجلبي ، ونصطاد الارانب بالمصايد والشباك ، نحتال على الاسماك فنخرجها
من مخابثها ، ونخطر في هدوء وشمم متسرلين ثياب الحرير الموشى بالنقوش
العديدة الألوان ، وثياب خضراء سندسية مبقعة .

« كان يحكمنا ملوك غريبة عنهم كل انواع السفالات ، يُنزلون
شديد العقاب بالاشمرار . وقد كتبوا لنا احكاماً صالحة استناداً الى عقيدة
هبر ، جمعت في كتاب يجب حفظه ، وكنا نعلن اعتقادنا بالمعجزات ،
والبعث ، والعودة الى منخري نسمة الحياة .

« ولقد غدونا كقطاع الطرق الذين يحاولون استمهال القنص معنا .
وسرنا جميعاً نستمتح خيلنا ... نحن وشابنا الكريم ... برماح صارمة
ذات أسنة حادة ، مندفعين بقوة الى الامام ، ندافع بحماسة عن اولادنا
وزوجاتنا ، نحارب ببسالة على ظهور خيول سريعة طويلة الاعناق ، بنية
غامقة أو رمادية حديدية ، أو سوداء كاشفة ، ولم تكف سيوفنا عن
طعن اعدائنا وشر اجسامهم الى شطرين الا عندما تغلبنا على حالة
البشرية تلك ، وسحقناها .

» هاجنا رجال الاجرام
» بحقد وعداء
» وانطلقت خيولنا الى الامام
» ووطئتهم بحوافرها ، .

» قُسم نشيد النصر هذا الى اجزاء ، وكتب من اليمين الى اليسار ،
ونقط ، - سارش ووزيراح .

هكذا تُرجمت كتابة حصن الغراب ، وحُلت رموز الالبجدية الحيرية ،
ووضع أول معجم لها !! ..

ولكن هذه النتائج الجميلة كلها كان يمكن الحصول عليها فعلاً ، من
كتابة جُمِعت في لغتين ، أي النص المجهول وترجمته ، وقد وضع احدهما
الى جانب الآخر ، أو في خطوط يتبع كل خط ترجمته في الحظ التالي ،
بلغة معروفة . ولكن هنا ، كان كل ذلك الزكام المائل من الاستنتاجات
المثيرة يرتكز على اساس افتراضي . فهل كان من الممكن ان تكون
قصيدة النويري ترجمة للكتابة الاثرية التي وجدت على باب حصن
الغراب ؟ .. !

ان التسليم بذلك كان يعني جهل الطريقة التي دوت بها التاريخ مؤلفو
المصور السالفة المسلمون الذين لم يكونوا يهتمون بترجمة النصوص القديمة
التي كانوا يجهلون قراءتها ولا شك ، وكانوا يجمعون الاقوال والاحاديث
والقصائد المتداولة ، ويركبون منها قصصاً محشوة بالحرفات ، تحتوي هنا
وهناك على بعض المعلومات التاريخية الحقيقية ، في إطار عام مستعار من
تاريخ التوراة عن اسمعيل وسليمان .

لم يكن هنالك أية علاقة بين القصيدة العربية المتداولة والنص العربي
الجنوبي ، المنسي على تلك الصخرة المواجهة للبحر . ثم ان ووديجر كانت
قد أخطأ في قراءته ، سكنا ، لان اللفظة الاولى كانت اسم علم وهو

« صميافا » كما أكد الذين تمكنوا فيما بعد من قراءة النص ، ولم تذكر الاسطر الستة الاولى الا أسماء بناء ذلك البناء الاثري . فقد أعلن هؤلاء انهم كتبوا ذلك النص على صخرة « ماويات » عندما ركبوها للاحتفاء بها لآثر عودتهم من بلاد الحبشة ، وانهم أرسلوا في الوقت ذاته جيشاً من الاحباش فهاجم بلاد حمير وقتل ملكها وقواده . وبيلي ذلك ، التاريخ وهو شهر ذي الحجة من سنة ٦٤٠ م .

كانت قصيدة فورستر أجمل .. ولكن حين غدا في الامكان قراءة ذلك النص بحقيقته العارية في عام ١٨٧٢ ، أمكن فهم الاهمية الخارقة التي قد يمثلها في إعادة تركيب الاحداث التي هزت جنوبي الجزيرة العربية وبلاد الحبشة ، في القرن السادس للميلاد .

وكان في الكتابة تاريخ استفتح منه جوزف هاليفي في سنة ١٨٧٤ نتيجة لتعقيقات بارعة قام بها بوساطة مصادر تاريخية حبشية ، انه التاريخ الاسامي (السنة الاولى) من طريقة تأريخ مستعملة في هذه المخطوطة وفي نصوص سبأية أخرى من القرنين الخامس والسادس الميلاديين .

*

في تلك الاثناء كان السيد ف. فريسهل القنصل الفرنسي في جدة يبحث في المعلومات التي أوردها المؤلفون القدماء عن شبه الجزيرة العربية ، فأرسل الى الصحيفة الآسيوية رسالة عن جغرافية بلاد العرب ، حاول فيها تحقيق هوية المدن اليمنية التي بلغها القائد الروماني اتيليوس غالوس في سنة ٢٤ ق م . وقد استقصى كتب المؤرخين المسلمين ليجمع منها معلوماتهم عن تاريخ العرب قبل الاسلام .

على انه ما من احد كان قد استطاع أن يرى أثراً سبئياً قديماً حقيقياً .

في سنة ١٨٣٦ اكتشف عالم النبات الفرنسي بول اميل بوتا ، طبيب محمد علي ، ومبعوث متحف العلوم الطبيعية في باريس في مهمة خاصة ، طلالاً قديماً . كان قد خرج من بيت الفقيه وتوغل داخل اليمن بحثاً عن النبات ، وكان هدفه الاول ان يزور منطقة جبل صَبِير ، الجبل العظيم الذي تستند إليه مدينة تعز . وكان فورسكال العاثر الحظ رفيق نيبور ، قد ذكر انها منطقة نبات كثيف غزير وانها حديقة اليمن ، ولكنه لم يقدر ان يدخلها .

توجه بوتا الى تعز وقام برحلة الى جبل صَبِير . وعلى الرغم من انه لم يكن يبحث الا عن النبات ، ذكر له دليله انه يستطيع ان يشاهد أطلال قلعة متهدمة على قمة الجبل ، فسأله ان يقوده إليها ، وقد رأى في الواقع على قمة مشرفة على المنطقة كلها جدران قلعة قديمة ، يُصعد إليها بشعب وأدراج منقورة في الصخرة ، فتساءل : « الى أي عهد يرجع تاريخ عيش النسر هذا ؟ » لكنه لم يجد الى أية كتابة أثرية ، أو أي شيء آخر يوضح له ذلك . وما زالت هذه القلعة مسألة مغلقة حتى اليوم ، على الرغم من أن فرنسوا بالسان اكتشف حديثاً اطلال قلعة أخرى في هذا الجبل بالذات ، وربما ذات طابع مماثل للاولى ، تعذر تحديد تاريخها .



وفي الوقت الذي وصل فيه بوتا الى اليمن ، وفد الى هذا البلد المبشر جوزف وولف ، كمرسل الى اخوانه اليهود ، قادماً من حدود نجران . وقد ترك قصة غريبة عن مغامرات الرحلة التي قام بها الى صنعاء . ووصل القس ستون بدوره الى صنعاء في عام ١٨٥٦ . ولكن العلم لم يفد معلومات جديدة من هاتين الرحلتين اللتين لم يكن الغرض منها علمياً .

الا أن رحلة ث. ج. آرنو الذي يعرفه القارىء ، فتحت على العكس من ذلك ، السبيل نهائياً أمام تطور علم الآثار في جنوبي شبه الجزيرة

العربية . وكان فوجلانس فريسنل القنصل الفرنسي في جدة ، يتحمس لكل ما يختص ببلاد العرب القديمة . فلما رأى آرنو في جدة قدر عظم الخدمات التي يستطيع ذلك الرجل أن يقدمها للعلم ، اذا ما أراد .

كان هذا الفرنسي الشاب مرتبطاً في عام ١٨٣٥ ، كصيدلي ، الى احدى فرقتي الطبيعة اللتين أرسلها محمد علي الى جدة للاشتراك في الحملة على عسير . وكان قد ألف سماع العربية في تهامة عسير ، وتعلم لهجتها الخاصة التي ظل محتفظاً بها . ثم مارس الصيدلة عند إمام صنعاء الذي أواه ثقته . وهكذا قدم نفسه الى فريسنل في مطلع سنة ١٨٤٣ ، راجياً إياه ان يعير ملاحظاته على المناطق التي قام بزيارتها بعض اهتمامه . عندئذ أثار فريسنل الحماسة في صدر آرنو للقيام بمهمة لا يقدر احد سواه أن يقوم بها ، ألا وهي الوصول الى مأرب وخرائب سبأ .

وقد قام بالرحلة في التاسع من شهر حزيران (يونيه) سنة ١٨٤٣ برفقة البعثة التركية المرسلة من جدة الى الإمام ، فبلغ صنعاء ، حيث كان أول همه الافتراق عن رفاقه الذين قد تعرضه صعبتهم للخطر ، والبحث عن مسكن ، ودليل يقوده الى مأرب . وقد وفق الى العثور على دليل ، وفيما كان ينتظر موعد القيام برحلته اهتم بنسخ ثلاث كتابات أثرية بارزة رأها ليلاً على حجارة احد الجدران .

عاد آرنو الى المكان الذي شاهد فيه الكتابات في فجر اليوم التالي ، ولكن اقدمه على نسخها كان امرأ يلفت إليه الانظار ، وقد كتب يقول : « لم اكد أفرغ من نسخ الكتابة المنقوشة على الحجر الاولي حتى أحاط بي الفضوليون من المارة ، وأحذقوا بي مزدحين ، وقد اخذ بعضهم يزحمي بالمرافق ، وآخرون ينتزعون حذائي ، وغيرهم يعتوضون بيني وبين الكتابات التي كانت تعلو خمسة اقدام عن الارض ، وطلق الاصفر سناً . يقبلون الدفتر الذي كنت أنسخ عليه ليروا ما أنا فاعله » .

لم يستغرق استعداده للرحلة زمناً طويلاً ، لأن دليله لم يسمح له إلا بالتزود بسمن وطحين يكفيان خمسة عشر يوماً . وقد تزينا بزي مدني فقير ، فاعتم ، ولبس رداءً من نسيج اسود عريض الكمين ، ومنطق بنطاق رديء ، وانتعل زوجاً من الصنادل العتيقة ، واخذ معه عباءة ليتدثر بها أثناء الليل .

كانت القافلة التي انضم إليها ودليله ، تتألف من خمسة عشر رجلاً ، وغمانية من البدو يلتسبون الى عشائر متحالفة مع عشيرة الدليل . وكان الدليل قد نفقهم شيئاً من المال ليعموم من افراد عشائريهم عند الحاجة .

وحين أصبحوا في وادي السرّ الواقع على بعد اربعة فراسخ من صنعاء ، والذي يقوم على جانبيه منحدران جبليان قليلاً الارتفاع انتشرت عليها القرى ، ألفوا أنفسهم في منطقة غير معترف فيها بسلطة حكومة صنعاء . وبما انه لم يكن بين المرافقين أحد من أفراد العشائر الثلاث التي كانوا سيجتازون مناطقها في بادئ الامر ، أحسوا بخوف شديد على سلامة آرنو ، وقد كتب يقول :

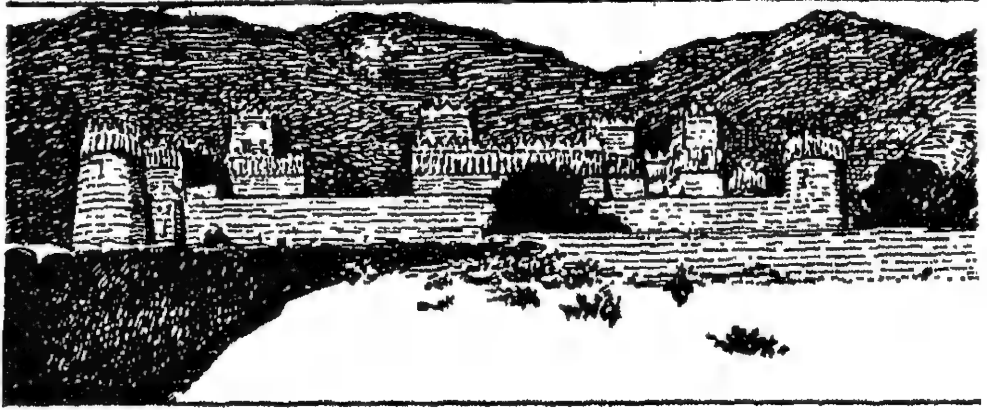
« ولهذا فانهم أركبوني رجلاً أقعدوني عليه متربعاً ، ولغوني بدثار بلدي من الصوف ، حجبني كلياً باستثناء شيء من لحيتي ، خشية أن يلفت بياض بشرتي أنظار من قد يلتقوننا . وعلى الرغم من انه كان من المؤلم الاحتفاظ على هذا الوضع طوال الرحلة ، كان لا بد لي من التجلد ، لأنه لم يبق لديّ من شك في الخطر الذي يتهددني وانا أسمع الجمالين يظهرون قلقهم في كل لحظة ، ويرتعشون ويضرعون الى النبي محمد وجميع أولياء الاسلام أن يعينوم ويحموم . وقد ازدادت مخاوفهم حين علموا أن عشيرة بني نوق أغارت منذ يومين سلفاً ، على حين غفلة ، على عشيرة بني شداد في المنطقة المجاورة للبقعة التي كنا نجتازها ، وذبحوا اثني عشر شخصاً منها .

و كان أفراد جميع العشائر البدوية غير المتنازعة - كلما التقونا - يتبادلون والبدو المرافقين لي التعميمات والتعديلات طوال عشر دقائق ، ثم يسأل بعضهم بعضاً عن أخبار المناطق التي يأتون منها ، وأخيراً يسألون مرافقي « من هذا المخلوق الذي يركب الجمل ؟ » ، فيجيبونهم : « انه رفيق لنا مريض » . لذا فاني لم اكن اقدر أن أدون ملاحظاتي في آخر مرحلة إلا بابتعادني عن القافلة منتحلاً بعض الأعذار .

لقد ذكر آرنو بعناية كلية اتجاهات الأودية الثلاثة التي سلكوها ومميزاتها ، وذكر بايجاز الطريقة التي كان يتبعها أدلاؤه في إعداد الخبز لكل وقعة ، بلقهم العجين حول حصى محماة في النار .

وفي فجر الخامس عشر من شهر تموز (يوليه) رأى سهلاً ينبسط أمامهم ، وكانت أطلال مدينة الحربية التي وعده دليله بايصاله إليها واقعة هناك . ولكنه علم بعد المحطة ، انهم قضوا ذلك النهار في الاستراحة على بُعد مسيرة ساعتين من الأطلال ، لأنه لما استأنفت القافلة السير ، اخذ « يُشاهد عن بُعد خرائب تشغل منطقة واسعة » . ولكنه لم يفكر في الابتعاد وحده عن القافلة . وحين رأى دليله في المحطة التالية لامة لوماً عنيفاً ، وحصل منه على وعد بأن يريه الخرائب عند العودة .

كانوا قد أصبحوا على مسيرة يوم واحد من عاصمة سبأ . وبعد أن ساروا أربع ساعات ، بلغوا سفح جبل يمتد أمامه سهل مأرب الذي يجتازه مسيل وادي أذنة ، وقد ظهر فيه الماء في بعض الأماكن . وبما ان نخيم عشيرة دليله لم يكن يبعد عن تلك النقطة الا فرسخين ، فقد توجهوا إليه ، فاستقبل اولئك البدو آرنو استقبالاً حاراً وأحسنوا ضيافته ، وقد كتب يقول : « سرعان ما تجمع قرب الحيمة التي دخلتها جميع الذكور في الخيم ، ليتأملوا المخلوق الشديد الغرابة الذي جاءهم ، في حين ان نساءهم وبناتهم كن ينظرون إليّ من بعد .. »



قصر امير لجران تھلا عن صورة فوتوغرافية لبثه ريكانز - فيلي

« وأخذ كل واحد يطرح عليّ الاسئلة ، لعدم إدراكه الباعث الذي أهاب بي الى القيام برحلة كهذه . ثم أخذ بعضهم يقول لبعض ، انه ما من أحد إلا الله يعلم من هو هذا المخلوق وما هي نواياه . فقال احدهم : « انظروا ما اللطف كل شيء فيه ، حتى صندليه اللذين ينتعلهما ! » وأضاف آخر يقول معجباً : « انه رجل أرق من أن يتعرض لمشاق الصحراء » . انما خلق لجرد التنقل من أريكته الى المسجد ، مرتدياً رداءه الابيض .. ألا يكون المهدي ؟ » ، فيجيبه آخر قائلاً : « يظهر في الحقيقة انه طير من طيور الله ، طير من الجنة ! »

« وكان المتقدمون في السن يتفحصونني بمختلف الطرق والصور ، ليكشفوا سري ويعرفوا ما اذا كنت قادراً على اكتشاف الكنوز الخفية في الأرض . وكنت أجب بأحسن ما أستطيع ، محاولاً فجنب كل جواب يمكن أن يعرضني للخطر . وحين كانوا يريدون ان يعرفوا بلادي وقومي ، كنت أكتفي بالقول انني من الغرب حيث تقوم الشعوب التي يعرفونها بالمغربيين . »

« وازداد فضول هؤلاء البدو لما أجبت على اسئلتهم المتكررة ، عما

إذا كان لي أولاد في وطني أو في مكان آخر ، بأنني لم أتزوج في حياتي .
عندئذ أخذوا ينظرون إليّ كمنخلق خارق للعادة ، وكأنني كامل ، لأنهم
لا يعرفون في خيامهم ، وفي صحرائهم ، أي وذيلة من الرذائل التي
ينصرف إليها سكان المدن ، حتى سكان أصغر القرى .

في اليوم التالي توجه الدليل إليّ حاكم مأرب وسأله الموافقة على دخول
آرنو المدينة . فلم يتعنت في السماح له بالدخول ، إما بدافع الرغبة
الملحة في رؤية مخلوق خارق للعادة ، أو رغبة في تلقي الهدايا الصغيرة
العادية منه .

ولكنه كان من المعروف ان اجتياز ذلك السهل الذي ترقاه عدة
عشائر لا يخلو من الخطر . لذا فقد اضطر آرنو الى التمسك بدفع أجور
اربعة رجال ينتمون الى عشائر مختلفة ، بالإضافة الى الدليل ، ليؤمنوا وصوله
سالمًا الى مأرب . فاتجهوا في اليوم التالي نحو سد مأرب الذي بني فيها
مضى في عرض السهل ، والذي كان أحد الأوروبيين سيتمكن أخيراً من
تأمل خرابته .

وكتب آرنو يقول : « عدنا نحو الغرب لنسلك الطريق في مسيل
أذنة ، والاستدارة شرقاً ، بين جبلي بلق القليلي الارتفاع اللذين كانا
يشكلان فيها سلف حوض السد ، ولما وصلنا الى السد في ساعة امتداد
أوار الظهيرة ، غلكتني نشوة عند مشاهدة الابنية القديمة الواقعة في أرض لم
تطأها قدما أوروبي من قبلي ، أو وطئتها قدما أوروبي منذ سنة خلت ،
لكنه لم يعد منها .

« أخذت أنسلق خفة المسيل اليمنى التي سدها الاشجار واغصان الاشجار
اليابسة . وحين أصبحت بين بناءين قديمين محفوظين جيداً ، اكتشفت في
بإحدى الامر كتابة أثرية منقوشة في الصخر ، نسختها على الفور ، ثم
أخذت أطوف في جميع الأرجاء لأنسخ جميع الكتابات التي تقع عليها عيناى .

« وبينما كنت منهمكاً في هذا العمل ، كان وفاقي قد انسحبوا الى مكان غير بعيد وجلسوا يتفأدون الاشجار ، ولما فرغت من عملي هناك ، ذهبت لأخبرهم انني عازم على زيارة الطرف الآخر من السد . وبالنظر الى أن أحدهم المدعو صالح عصفور كان قد ابتعد عنهم لفترة قصيرة ، وبما انهم كانوا يخشون تعرضي للخطر اذا ما ابتعدت عنهم ، أرادوا بمنعتي . فقلت لهم انني سأصرخ اذا ما تعرضت لهجوم ما ليخفوا الى نجدتي ظناً مني بأن الطرف الآخر ليس بعيداً . ولكنني أدركت فيما بعد ، انني لو تعرضت لخطر ما لما بلغهم صوت صراخي لبعد المسافة .

« وعلى الرغم من اعتراضاتهم وتحذيراتهم ، فقد ابتعدت عنهم واخذت أقيس المسافة بين الجبلين . وقد بدأت من حيث كنت موجوداً تحاشياً لاضاعة الوقت ، وحين بلغت الضفة الثانية ، أخذت أحسب سماكة السد ، حسب ظواهر الآثار القديمة للأتربة المنقولة . وأخيراً سرت على قمة بقية من بقايا السد موعلة في سفح الجبل ، وقد وجدت عند نهاية هذه البقية من السد أبنية محفوظة جيداً .

« ولما نزلت من أعلى أحد هذه الابنية الذي بلغته باتباعي قمة السد ، كان أول ما استرعى نظري حجر مربع الشكل تقريباً ، يبلغ ارتفاعه قدمين ، ظهرت عليه رسوم منحوتة من غير كتابة ، فحاولت على الفور أن أرسم عنها صورة طبق الأصل بحيث أتمكن من اعطاء فكرة عنها ، ثم أخذت أنسخ جميع الكتابات الأثرية التي وقع عليها نظري ، وأقيس بعض الأماكن .

« ولم اكن قد فرغت من نسخ الكتابات الأثرية كلها عندما رأيت صالح عصفور مقبلاً نحوي . رأيت واقفاً في أعلى أحد الأبنية ، مصوباً بندقيته نحوي وهو يشتمني شتماً نابياً ، ويهددني بإطلاق النار عليّ ، لانني عرضت نفسي للخطر . فأجبت : « حسناً حسناً ، ومضيت

في نسخ ما تبقى عليّ من الكتابات الأثرية ، الامر الذي استشاطه غيظاً ، فصرخ قائلاً : « سأطلق النار اذا لم تعد علي الفور » ، فلم أرفع نحوه نظري ، بل أجبت قائلاً : « طيب ، طيب ، حسناً ، حسناً » ، لقد انتهيت ، لقد انتهيت ! ... » ، وأخيراً تمكنت من نسخ كل ما كان منقوشاً من الكتابات الأثرية .

« رأيت نفسي مضطراً الى ترك كل شيء للحاق بصالح عصفور ، والعودة الى بقية رفاقنا . ولما مرت للمرة الثانية بأطلال السد القديم تزدت بقطعة من التراب الذي استعمل في بنائه . ولكنني عندما وصلت الى حيث كان الرفاق جالسين في ظل الاشجار لم أعد أرى بوضوح ، واخذ رأسي يدور كأنني سكران . واخذ البدو يتلهون بسؤالي عن جهة الشرق ، فأدلم على جهة الغرب . وأظن ان ليس في ذلك ما يدهش ، حين يكون المرء قد قضى ساعات معرضاً لأشعة تلك الشمس المحرقة . وقد كنت محظوظاً لنجائي من ضربة الشمس التي كان من المحتمل أن أصاب بها » .

بعد ان توقفوا لتناول طعام العشاء ، لم يبقَ امامهم الا مسيرة ساعة لبوغ قرية مأرب الحديثة ، وقد كتب يقول : « كان السكّات جميعاً ينتظروننا خارج الأسوار ، حتى ان النساء كن قد صعدت الى سطوح المنازل لبشدهن وصول رجل خارق للعادة الى مدينتهن . عندئذ تقدمنا احد رفاقنا جرياً وكان من عشيرة عبيدة ، وهو يهتف بأهالي مأرب : « لقد جئناكم بالمهدي » ، فتصاعد الهتاف من افواه الجميع ، وأخذ كل واحد يقترب مني ، ماداً اليّ يده للسلام عليّ كأنني من الأشراف ، ولكنني احتوزت من قبول ذلك القلب خيبة أن يعرضني للخطر فيما بعد ، فأسرعت الى مصارحتهم بأنني لست من الأشراف ، ويبدو ان اول زائر اوروبي قدم مأرب لم يتخذ هذا الاحتياط ، الأسر

الذي أدى الى هلاكه ، ان لم يكن فيها ، فعند عودته من حضرموت .
وقد قيل لآرنو فيما بعد ، ان رجلاً أبيض البشرة جاء مأرب منذ
اثنتي عشرة سنة خلت ، وكان متوسط القامة ، قوي البنية ، ادعى انه
شريف مغربي ، جاء من حضرموت ونسخ كل الكتابات الأثرية التي رآها ،
ولكنه أخذ يبكي ذات يوم ، عند تلقيه رسالة سرية ، لا يعرف كيف
وصلته ، فسأله مضيفه القاضي الذي تواته الدهشة ، عن سبب بكائه ،
فأخبره أنه تلقى نعي أخيه ، وأن عليه ان يعود الى بلاده دون ما
إبطاء ، وطلب الى القاضي ان يذهب في اليوم التالي الى الركن المربع
الموجود في المعبد المتهدم ، ليأخذ ما يجده على الحجرة المقلوبة التي نقش
عليها كتابة أثرية . واختفى الغريب في الليل ، من غير دليل ، متجهاً
نحو حضرموت التي قدم منها ، كما دلت على ذلك آثار قدميه . ووجد
القاضي على الحجرة التي عينها له احدى عشرة قطعة من النقد الذهبي باعها
بشمن باهظ في صنعاء .

واذا كانت هذه القصة قد اتخذت عبر رواية سكان مأرب ، نسق
قصص ألف ليلة وليلة ، فلا يحول ذلك دون استنادها الى واقعة صحيحة .
وقد اضاف آرنو يقول : « لدى عودتي من مأرب ، وخلال إقامتي
الطويلة في عدن ، منحت لي فرصة التحدث مراراً الى م دي وريده
الذي عاد من حضرموت ، فروى لي انه سمع الناس يتحدثون في وادي
دَوَعَن عن رجل أبيض ، صوروه له بالشكل الذي صور له في مأرب ،
يطوف منطقة حضرموت كلها ، في الوقت الذي أشرت إليه ، ولكنه
لم يخرج من تلك المنطقة ، لأن سكانها أقدموا على قتله طمعاً فيما اعتقدوا
انه يحمل من مال » .

وقد استقبل الحاكم آرنو استقبالاً حسناً ، وهنا هذا نفسه على الحماية
التي لم ينفك ييسطها عليه . ولكنه لقي في الايام الثلاثة التي قضاها

هناك ، من قلة رصانة الاهلين والبدو ، وفضولهم الخارق ، ولما قبلهم
الشديد لرؤيته ، ما لم يلقه من الازعاج خلال السنوات الاحدى عشرة
التي قضاها في شبه الجزيرة العربية .

بدأ العذاب والازعاج في قصر الشريف - حالما فرغ من اكرامه
بفرك ساقه حتى نصف الفخذين بالزبدة الطازجة ، حسب العادة المتبعة ،
وتقديم القهوة - بالقاء الاسئلة : « من اين انت ؟ الى اين تذهب ؟
ماذا تفعل ؟ ولماذا ؟ ولماذا ؟ لماذا قنسخ الكتابات الاثرية ؟ ماذا تريد
ان تفعل بها ؟ ألك مصلحة في ذلك ؟ أحسن قراءتها ؟ من أرسلك ؟
مع من جئت ؟ أتبحث عن الكنوز الدفينة في الارض ؟ ألا تعرف ان
تكشفها ؟ أتحاول انتزاع احجارنا كلها لارسالها الى بلدك ؟ لماذا لا
تصلي ؟ »

كان آرنو يصلي على طريقته الخاصة ، الا انهم ألحوا عليه في ان يحذو
حذو المسلمين في صلاتهم ، وإلا فسيعلنون انه كافر . ولكنه لم يكن
يجعل تقاليد الاسلام فحسب ، بل كان حريصاً على ألا يتلفظ بأية كلمة
تتضمن شيئاً من معاني الدين الاسلامي ، وألا يقوم بأية حركة قد تعني
بالنسبة الى نصراني مثله ، تسكراً لدينه ، وقد جعله ذلك في مأزق حرج .

وأرادوا اصطحابه الى المسجد فتظاهر بأنه نائم ، وسألوه عن الشعائر
الدينية التي يمارسها ، فتظاهر بالغضب لأنهم شككوا في معرفته لواجباته .
وطُلب إليه ان يتلو شهادة الاسلام فقال : « لا اله الا الله » ، ولكنه
أبدل جملة « محمد رسول الله » بكلمات فرنسية تنتهي بأصوات شبيهة
بمخارج اصوات هذه الكلمات .

كان الجواب على كل سؤال من اسئلتهم لا يخلو من الخطر ، فاذا
ظنوا انه تركي قضي عليه ، واذا اعتقدوا انه انكليزي تعرض للخطر ،
فقد سمعهم يروون له حوادث انتقام عنيفة جرت في عدن ، واذا عرفوا

انه فرنسي فلن يكون مصيره أفضل ، لأنهم كانوا سيقتربونه جاسوساً
لمحمد علي . لذا قال لهم انه مغربي . ولكن بقي عليه ان يعطيهم
جواباً على سؤالهم المختصين بالكنوز الدفينة ، والكتابات الأثرية . وفيما
يلي الشرح الذي أدلى به في محاولته افهام اولئك القوم ، دوافعه العملية
التي عجزوا عن ادراكها :

« قلت لهم انه لا هدف لي من التجوال في العالم سوى تأمل
عجائب الكون التي أبدعها الخالق الأعظم ، وزيارة الأماكن التي اشتهرت
عند القدماء ، وذكرت في الكتب المقدسة ، فقد مننت علي العناية
الإلهية بكل ما احتاجه في هذا العالم ، ولن اسمى الى تكديس الاموال
والكنوز . وذكرت لهم انني اقوم بنسخ الكتابات الأثرية لتشهد لدى
معارفي على صحة زيارتي لهذه الأماكن ، الأمر الذي اقتنع به الشريف
عبد الرحمن ، قناعة تامة . وأضفت قائلاً انني لا أبغي من وراء ذلك أي
نفع ، وانني لا املك موهبة اكتشاف الكنوز ، وانني اذا ما عثرت على
كنز اتفاقاً فسأقدمه لهم ، لأنه لا قبل لي بجرمانهم منه ، وذكرت لهم
ان في بلادنا كثيراً من الحجارة ، فلا حاجة لي ان انقل إليها احجاراً من
مأرب ، وان ما من احد أرسلني ، وان القدر هو وحده الذي حملني
الى بلادهم ، دون أي حارس ، أو حام ، سوى الدليل الذي تعهد
بأن يرشدني . »

ولكن الاجهاد العصبي الذي تستلزمه الاجابة على مثل تلك الاسئلة
كان مستمراً ، لانه عوضاً عن ان يكون في مأمن في منزله ، كان
على العكس يجد ازعاجاً طوال النهار من جماعات من عشيرة عبيدة
يقول عنها :

« كانت تزدهم حوالي ، وتعذبني بطرق شتى . فاذا خرج من عندي
عشرة اشخاص بعد إقامة طويلة ، دخل خمسة عشر غيرهم بالقوة ، والجميع

مسلحون بينادقهم ، وكان هؤلاء البدو يزحونني الى درجة لا يبقى لي معها مكان للتحرك . وعلاوة على الأوضاع المزعجة المختلفة التي كنت اضطر الى اتخاذها في جلستي لأفسح لهم في المكان ، كان يتوجب عليّ أن أجيب على الاسئلة المتكررة لكل منهم ، وكانوا يتساءلون بعد أن أكون قد أنهكت نفسي في الاجابة : « ماذا قال ؟ » وعندئذ كنت يتدروني بالكلام سائل جديد ، فيلقي عليّ ذات الاسئلة التي ألقاها عليّ رفيقه من قبله ... وغالباً ما كنت - وقد شئت ذلك الازعاج - انسحب قليلاً وأتظاهر بالنوم ، ولكنهم سرعان ما كانوا يقبلون عليّ أفواجاً ، ويحيطونني بمختلف الطرق على الاستماع إليهم ، فالبعض يقرصني ، والبعض يسحبني من قدمي ، والبعض الآخر يستلّ خنجرأ يمرّه لامعاً تحت لحيتي مهدداً إياي ، وآخر يصوب اليّ بندقيته قائلاً : « لنر ما اذا كان في استطاعة بندقتي ان تبتله . ها ! انه ليس في مثل الضخامة التي صوّر لنا بها ، مع انه يقال لنا ان الاتراك ضخام البنية ، ولكن لا ريب في انه ليس تركياً ، فيقول فوج آخر : « في الحقيقة ، لو كان تركياً ، لمزقناه إرباً إرباً ، صحيح اني لم اكن أخشى أي شيء ، وانا في حماية الشريف ، ولكن مهزلة كذلك المهزلة لم تكن لتسليني ، فكنت أنور ، وأستمهم ، وألومهم على سوء تصرفهم نحو رجل غريب حل بين ظهرانيهم ، على انهم لم يكونوا يشعرون بالحجل من معاملتهم إياي تلك المعاملة المغايرة لتقاليد الضيافة العربية . »

الا انه توصل منذ اليوم الاول الى ان يحمل ابن الشريف ، وأحد الفتيان الذي كان قد زار تامة واستوعى انتباهه في الليلة السابقة بذكائه ، على مرافقته الى خرائب المدينة القديمة . فقبّعه جمهور من البدو ، ولكن الامير الشاب أنقذه منهم بإيعامه إياهم انه ساحر . ولم تكن الخرائب سوى « اكوام من التراب » وكان هدفه الاول ان يزور المعبد . وفي اليوم التالي نجح في الذهاب لزيارته قبل أن يصل المدينة أفراد عشيرة

عبيدة . وقد كتب يروي زيارته بقوله :

« اجتزنا المسيل الناصب الذي يمر تحت خرائب المدينة القديمة . وعلى مسافة قصيرة من المسيل ، والى شرقي المدينة ، رأيت مكاناً فسيحاً ، معبداً جيداً ، صلب التربة ، قيل لي انه ميدان إله الحرب عند السبثيين ، وكانت آثار البناء ما تزال باقية فيه ، من غير ان يعثر المرء على أية حجرة من أية حجم .

« وبعد مسيرة نصف ساعة بجهد ، وصلنا الى الركائز التي لم أجد عليها سوى كتابتين أثريتين ، احدهما عافية لم استطع نسخها . وانجھنا من الاعمدة الى حرم بلفيس الواقع على مسيرة ربع ساعة الى شمالي الاعمدة ، حيث وجدت ثلاث كتابات اضطرت الى عدم نسخها ، لكونها مكسوة بطبقة من الرمال أولاً ، ولطت مرافقي لإاي على الاسراع بالعودة . لذلك لم أتمكن من زيارة التلة غير البعيدة من الحرم ، والكائنة من عظام الضحايا الذين كان السبثيون يذبحونهم في الازمنة القديمة ، على حد قول أهل مأرب .

رغم هذا العذاب ، لم يتراخ عزم آرنو العنيد على انجاز مهمته . فقد تمكن في ذلك النهار ايضاً من نسخ بعض الكتابات الأثرية ، وكتب يقول : « تعذر عليّ في الليل السابق نسخ عدة كتابات رأيتها على جدران المنازل في مأرب . الا انني تمكنت من نسخ اثنتين منها ، في غمرة من هرج السكان ومرحهم ، وهم يقبلون جرياً من انحاء القرية ليشهدوا ما أقوم به . وقد ظهر النساء والاولاد بدورهم على الاسطحة وهم يهتفون : « اطردوا هذا الساحر ، الكافر ، الذي جاء يحمل المصائب الى بلدنا ، لا شك في انه سيسبب لنا بأساليبه هذه ما لا تتصوره من النكبات ! » فعال كثيرون منهم عندئذ دون نسخي الكتابات الموجودة على جدران منازلهم ، وهرع آخرون يشكونني الى الشريف عبد الرحمن ، ويطلبون

إليه ان يمنني من نسخ الكتابات . فأجابهم انهم يجهلون عن قلعة فطنة
اذ يظنون ان ما اقوم به يحلب السوء عليهم ، وأضاف يقول : « ما دمنا
قد قبلناه في بلدنا ، فدعوه يفعل ما يحلو له ، وإذا ما حل بنا سوء ،
فلن يكون ذلك الا بإذن من الله » .

وكانت تجربة قاسية تنتظره ، فقد أكره على الذهاب الى احد المنازل
لانتقل احدى العجائز من شر . سبته لها الارواح على زعمهم . فانتهالت
عليه اسئلة الرجال الواخزة : « وأخذت أربع أو خمس نسوة يتفحصني
كأنني دب ابيض ، وازدحم حولي وأرهقني بأسئلة لم ترقني ، وأخذن
يسخرن بي مقهقهات ، الامر الذي أثار ثائرتي » .

وأخيراً ، بعد ان قام بمهمته ، تنفس الصعداء ، وعاد الى صنعاء
برفقة قافلة تمهد صاحبها بإيصاله ولكن حاميه لم يكفد يتبعه ، حتى
طبق مرافقوه يلحقون به شتى الالمات ليسفروا منه . فيصوب إليه
البعض بنادقهم ، ويجز آخرون خناجرهم تحت لحيته ، وهو اعزل لا سلاح
لديه يدافع به عن نفسه الا اللوم الذي يحاول استنارة نخوتهم به .

ولكن ذلك لم ينس أدنو آثار « الحريبة » التي أراد ان يشاهدها
عند مروره بها ، مهما كلفه الامر . ولما رأى انهم يقتربون منها ، حاول
إقناع رئيس القافلة باقتياده اليها ، بوعدة إياه بمبلغ اضافي يدفعه له عند
وصولهم الى صنعاء ، فأفلح في ذلك . وكتب يقول :

« سرفا في اليوم التالي باكراً . فأمرع صاحب القافلة بوضعي في
المقدمة . وقد لقيت شديد العناء في اللحاق به . ولم نلبث أن وصلنا
الى اطلال الحريبة عند بزوغ الفجر . فرأيت على الفور كتابات أثرية ،
وعلى الرغم من كبر أحرفها وجدت صعوبة في تمييزها ونسخها ، ولكنني
بذلت قصارى جهدي لأنسخها نسخاً صحيحاً ، ثم لم يلبث النور ان انتشر ،
فأسرعت بنسخ كل ما وقع عليه نظري من كتابات . وقد لحقت بنا



القافلة حين لم يبق لدي شيء أنسخه . عندئذ فتع دليبي باب بيت يسكنه
 احد الرعاة ، بنسي من بقايا أطلال الحربية . ولم أكد ادخله حتى رأيت
 كتابات عديدة على احجار فيه وضع بعضها فوق بعض ، ورأيت فناء
 تزرّب فيه المواشي ، لحت في وسطه مقعداً حجرياً طويلاً ، على جانبيه
 كتابات ، قوسه شقّ شطره الى شطرين ، لكن الكتابات المنقوشة فيه
 يا حروف صغيرة لم تكن مسموعة ، فأخذت أنسخها ، ولكن بالنظر الى ان

القافلة كانت قد سبقتنا بما يقارب مسيرة ساعة ، فقد استعجلني دليلي ، ولم يعد يرتضي الانتظار .

« وقد وجب عليّ ، رغمًا عني ، ان ابزح ذلك المكان الذي كان شديد الخطر علينا بعد ابتعاد القافلة ، قبل ان انجز عملي . وأرغمني دليلي الذي كان ضخّم البنية ، مقتول العضلات ، على الجري حوالي الساعتين للحاق بالقافلة التي أدركناها في آخر سهل الحربية ... وصلت لاحقًا ، منهوك القوي ، ولحسن الطالع بثّنت بي فكرة الخطر الذي قد أتعرض له اذا ما قصّرت عن دليلي ، العزم على السير وعدم التأخر عنه ، وهو يستحث خطاي تارةً ، ويجري طوراً . »

*

لقد تمكن آرنو بفضل ذلك الجهد الباسل ، من مشاهدة موقع عاصمة سبأ الثانية . فلفظة الحربية انما أطلقت على ذلك الموقع لوجود أطلال فيه ، ولكن اسم الموقع الحقيقي كان صرّواح كما تبينه ادوارد غلاذر فيما بعد . فان هذا الرحالة الذي كانت تحميه الحكومة التركية الباسطة سلطتها على اليمن آنئذ ، قد عثر خلال عام ١٨٨٤ على الكتابات الأثرية التي قام آرنو بنسخها ، وساعد على التعرف الى الكتابة التي لم يتمكن من نسخها ، ولم تترجم الا في سنة ١٩٢٧ . وما يزال المقعد الحجري الشهير موجوداً حتى يومنا هذا في منزل الرعاة . وقد رآه هناك وصوّره م. ا. فخري ، ثم الاستاذ غوكنز من جامعة لوفان الذي أوفدته الى اليمن منظمة الامم المتحدة سنة ١٩٥٦ .

لم تكن الكتابة الاثرية الموجودة بين أسراب الدجاج التي تنشد الحب ، سوى احدى الكتابات التاريخية السبئية الأشد أهمية ، وهي قصة الفتوحات العسكرية والديبلوماسية التي قام بها أبرز زعيم سياسي في سبأ ، توصل في يوم من الايام ، قبل التاريخ الميلادي بعدة عصور ، الى ان

يوحد المشائر العربية الجنوبية المختلفة تحت سلطته ، مستعيناً بكبار
آلهة سبا .

بقي على آرنو ان يجابه صعوبة اخرى نجمت عن الطمع الشديد الذي
بدر من شيخ آخر قرية قبل صنعاء ، عند استيفاء الرسوم الجمركية .
وقد سار آرنو مع ابن حاكم مأرب الذي وافق القافلة ، واجتاز نقطة
الجمرك دون ان يلفت النظر . ولكن المسؤول عن القافلة الذي كان
يرافق الأحمال لم يفلح فيما أفلح فيه آرنو . وقد علم هذا الأخير بما
جرى ، بعد وصوله صنعاء بيومين ، لانه لم ينتظر القافلة في المحطة ،
فكتب يقول : « حين لم أرَ دليلي دردش يصل الى البلدة ، ظننت ان
ثمّار كل المخاطر التي اقتحمتها قد ضاعت سدى ، لانني كنت اتسنته على نسخ
الكتابات الاثرية ، والملاحظات التي كنت قد دوّنتها ، وأحمد الله على
ان ظني لم يكن في مكانه » .

« وصل دردش في اليوم التالي المصادف للسابع والعشرين من شهر
تموز (يولييه) حاملاً كل أوراقه مرقبة ترتيباً حسناً . فاستقبلته احسن
استقبال ، وأعددت له غداءً شهيّاً . وقد روى لي المسكين ما قاساه من
عناء بسببي عند مروءه بالشرف » .

« أؤكد لي انه لا وصل الى المكان ، رأى الشيخ مغتاضاً حانقاً لأن بعض
من في القافلة قد أطلعه على حقيقة أمري ، وقد طلب إليه الشيخ ملحاً
ان يعيدني الى الشرف » ، فوعده بذلك ان هو أدركني ضمن حدود منطقته .
وأكد لي دردش ايضاً بأن الشيخ أراد بإصرار ان يفتش امتعتي ، ليتقاضى
عنها رسوماً جمركية ، فسمح له بذلك ، بعد ان أخفى جميع أوراقه
في كم ردائه الذي اتسع لها جميعاً ، وأراه ما تبقى من امتعتي والمواد
الغذائية الخاصة بي . وكان بين مؤثني علبة صغيرة من الصفيح تحتوي بعض
الادوية ، وعلبة صغيرة فيها لُقَم خبز لصنع الاقراص الدوائية . وعندما

رأى الشيخ تلك اللقمة قال : « انظروا كيف حوّل هذا الساحر الكافر القطع الذهبية الى قطع من الخبز ؟ أين نسخ الكتابات الاثرية التي قام بنسخها في مأرب ؟ علينا ان نحرقها على الفور انتقاء لشرب هذا الكافر ، » .

أما دردش الذي كان يتوقع الحصول على هدية أقدمها إليه اذا ما أنقذ ثمرة رحلتي ، فقد أجاب انه لا يعرف عن الكتابات شيئاً ، وانني قد اخذت كل مخطوطاتي معي . عندئذ ألقى هو والشيخ سلاحيهما في وسط المجلس علامة لتعهدهما بعدم اختتام الجلسة قبل الانتهاء من المناقشة . ثم أراد الشيخ اخذ عبادة لي ، ولكن دردش مانعه بقوله انه لا يعرفني ، وانه بطالبي بدين قدره قرشان نمسويان ، وانه 'اعتجز تلك العبادة لقاء الدين المذكور . عندئذ نشب نزاع شديد ، فاضطر دردش الى المكوث في ذلك المكان يوماً ونصف اليوم . وقد أخبرني انه اجتمع في ذلك المكان ما ينيف على المائتي شخص انحاز بعضهم لي والبعض الآخر الى الشيخ . واخيراً قدّم دردش بعض الهدايا الصغيرة الى وسطاء ، فتدخلوا وحسموا النزاع . الا ان دردش اضطر الى ايداع بندقيته كأمانة الى حين عودته ثانية ، » .

هكذا أنقذ نتاج رحلته بفضل أمانة دليله واخلاصه ، ولولا ذلك لذهبت أمتعاه ادراج الرياح .

اننا نعرف كيف عاد آرنو وحده الى تهامة ، خاوي الوفاض ، مصاباً برمد خطير الى درجة انه حين تمكن من بلوغ جدة ومقابلة القنصل فريسنل ، ظلت أسباب الرجاء بشفائه مقطوعة طوال سنة كاملة . ونعرف ايضاً انه شفي من مرضه واصطبغ فايبيير معه في رحلة ثانية لم تكن على شيء من الاهمية بالنسبة الى الرحلة الاولى ، بسبب الاحداث الطارئة ، رغم ان الحكومة الفرنسية قامت بتمويلها بطلب من جمعية العلوم .

لقد استنتج جومار ، قبل ذلك بعدة سنوات ، استناداً الى اقوال الكتاب الغربيين والمؤلفين العرب ، في كتاب تاريخي وضعه عن البلاد العربية ، قائلاً : « يبدو لي ان بعض العقول قد انكرت سدى وجود المدينة القديمة في الجزيرة العربية ، وازدهارها في الازمنة الغابرة » وقد أورد آرنو البرهان على هذا الاستنتاج ، وهكذا حصلت اوروبا بفضلها ، على معلومات عن أقدم «اصمتين لسياً ، وعن سد مأرب ، وأصبح تحت تصرفها ست وخمسون نسخة عن كتابات اثرية نشرها فريسنل في عام ١٨٤٥ . فكان منها في هذه المرة ، مادة كافية ، سمحت بحل رموز الكتابة الميريية على أسس افضل مما فعله الرحالة والعلماء السابقون ، وبذلك نشأ علم الآثار وعلم الكتابات الاثرية الخاصان بجنوبي الجزيرة العربية .





عُمان وَحَضْرَمَوْت

في مطلع القرن التاسع عشر ، لم يكن أحد من الرحالة الغربيين قد توغل بعد الى ما وراء الساحل في الجنوب الشرقي من جزيرة العرب حيث تقع منطقة عُمان ، ومنذ الرحلة القسرية التي قام بها الأب بائز الذي كان ما يزال مجهولاً ، لم يكن احد منهم قد بلغ القسم الداخلي من حضرموت . لم يكن الناس يعرفون حتى ذلك الحين الا الموانئ والسواحل غير المضيفة من تلك المنطقة التي اشتهرت بكونها مصدراً للطيوب والبخور ، وكانوا يسمعون ان مدناً عظيمة تقوم في أوديتها العجيبة .

على انه لم ينقض نصف قرن حتى تم ارتياد هاتين المنطقتين ، ارتاد احدهما الضابط ولستد الذي مر معنا انه كان مرتبطاً بالسفينة بالينوروس ، والاخرى البارون ادولف فون وريد البافاري العاثر الحظ .

اما عمان فقد كان الناس يعرفون « مسقط » ميناءها العظيم وعاصمتها في آن واحد ، المسيطرة على الطريق البحرية من الهند الى الخليج العربي ، والتي كانت ولا ريب تمثل منذ زمن بعيد دوراً تجارياً بالغ الأهمية .

كان البرتغاليون قد أنشأوا فيها منشآت طوال قرن كامل . وكانت

القلعتان اللتان قاموا بإنشائها ، والكنيسة التي حوّلت الى دار للقضاء ،
ما تزال في عام ١٨٠٩ بادية للعيان .

ولكن يبدو ان هذا الفصل من تاريخ الاوروبيين في الجزيرة العربية ،
كان بما يرثى له ، استناداً الى ما روثه المصادر الاسلامية والمسيحية ،
ومن جملتها رسائل الأب غاسباريس اليسوعي البلجيكي .

لما نزل هذا الأب الى البر في مسقط عام ١٥٤٩ ، وصدده يتلظى
غيرة على تلك الجالية النصرانية القليلة العدد ، الوحيدة المهمة ، لم يجد
بينها أي كاهن . وكانت المدينة مأوى للخارجين على القانون من العرب
الذين كان البرتغاليون يقومون بخدمتهم ويأثمرون بأمرهم . وكانوا قد
تتكروا لدينهم قبل ذلك بست سنوات ، ليأسهم من النجاة بحياتهم ،
وقد عادوا جميعهم الى دينهم إثر وصول الأب غاسباريس ، ولكنه اضطر
الى اتخاذ هرمنز مركزاً له ، وأخفقت الابحاث لمعرفة ما اذا كان قد عين
خلفاً له في مسقط .

وقد سقطت المدينة بكاملها ، بما في ذلك الحصون ، في يدي السلطان
ناصر في أواسط القرن السابع عشر . ورسم مشهداً عاماً لها في سنة ١٦٥٥ .
الهولندي جان سترويس الذي قاده الاقدار الى مسقط خلال الرحلات
التي قام بها الى بلاد الهند والعجم ، وجمع معلومات عن القسم الداخلي من
البلاد . ولكن اوروبية كانت زمعة ان تحصل في عام ١٨١٩ على لوحة
مفصلة حية عن الحياة في هذه العاصمة بفضل رجل ايطالي أوصله إليها في
عام ١٨٠٩ لإخفاقه في مهمة لا تخلو من المغامرة .



لقد أسى هذا الايطالي المدعو ف. موريزي نفسه في مسقط الشيخ
منصور ، وكان المثال الكامل للمغامر . غادر رومة فور انتهائه من دراسته
في الكلية لتعارض افكاره التحررية وأسرته . فكيف عاش ؟ انه لا

يوضح ذلك بل يذكر انه زار اليونان والقسطنطينية وبلاد الاناضول ،
وأقام في اثينا حيث اعتُبر عميلاً للحكومة الفرنسية ، ثم في مسقط حيث
قام بقيادة جيش السلطان ، وفي بغداد وفي كردستان كمدير للمدفعية ،
وفي آذربيجان حيث ألقاه الروس في السجن . ثم شوهد في طهران حيث
ادّعى انه قدم إليها للتسوية « قضية دقيقة » ، ثم في الهند . وفي طريق
العودة فاجأته « نكبة مؤسفة آلت به الى احط دركة من دركات البؤس »
لكنه عرف كيف يتغلب عليها الى درجة انه شوهد في مسقط وهو
يشغل مقابل مرتب ضخم ، منصب طبيب السلطان الحاكم السيد سعيد
طوال ست سنوات .

ان قصته لتدخلنا مباشرة الى قلب الوضع السياسي في البلاد ، حيث
استطاع ان يجلو سر المأساة التي ارتقت بالسيد سعيد الى سدة الحكم .

لقد صور الشيخ منصور سيده كأمرٍ رفيع الحال ، وكان الضابط
ولستد مزمعاً ان يرسم له فيما بعد صورة حماسية ، وبعد أن قام بمعالجة
عبد أسود علم انه القاتل الذي خلص السيد سعيد من اخيه بدر ، وتحدث
الى مطلق القائد والسفير الوهابي ، قام بتعريضاته لدى السكان فتوصل الى
ازالة الغموض عن تاريخ عمان السياسي في مطلع القرن التاسع عشر .

ويبرز في هذا التاريخ التصميم على اخضاع قراصنة الخليج العربي
المعروفين بالقواسمة ، الذين لم يكتفوا باغراض مركز لهم على ساحلهم
المعروف بساحل القراصنة ، بل أقاموا مراكز اخرى على الساحل المقابل
ايضاً في جارك ولنجة ولافت ، فتحكموا بمدخل الخليج ، معطلين الحركة
التجارية التي تدين لها مسقط بازدهارها . وغدت السيطرة على هذا الممر
المائي الضيق من الأهمية بمكان بالنسبة الى عمان ، حتى ان أولي الامر فيها
استولوا على بندر عباس الواقعة على الساحل الفارسي ، وعلى جزر قشم
وهرمز ولارك . وهكذا يتضح صراع امراء عمان والقراصنة في هذه

المنطقة التي تُعدّ مفتاح الخليج العربي .

ان هؤلاء القواسمة الذين أطلق عليهم الشيخ منصور اسم « جيوفاسيوم »
يخبرنا ولستد انهم في الاصل يريدو احد الاولياء المحاربين ، وقد تسموا
باسمه . وكانت عاصمتهم « رأس الحيمة » هي المكان الذي نصب فيه أبناء
ملتهم خيامهم في صفوف متراصة حوالي خيمة زعيمهم .

حدد الشيخ منصور خارطة الخليج العربي السياسية كما يأتي : منطقة
مصب شط العرب تابعة للبصرة ، ولكن فيها ايضاً حلفاء للوهايين / ،
والقطيف والبحرين تابعتان للوهايين ، واذا ما علمنا ان القراصنة غدوا
وهايين في عهد عبد العزيز بن سعود ، أدركنا انه كان لا بد لمسقط من
مقاومة القراصنة الوهايين دفاعاً عن نفسها . وكان للانكليز مصلحة حيوية جداً
في الدفاع عن حرية المرور في الخليج العربي الذي كانت تجري عن
طريقه التجارة مع بلاد الهند ، ولذا كانوا قد عينوا فيه لهذه الغاية
مقيماً انكليزياً من قبل شركة الهند الشرقية في بوشهر (رأينا ان هذا
المقيم كان في عام ١٨١٩ ج. ف. سادلير) . لذا فان مصلحتهم كانت
تقضي بتحالفهم مع زعماء عُمان للتغلب على الاعداء المشتركين . ولهذا
السبب رأينا السيد سعيد يميل الى الجانب الانكليزي .

لقد قُتل زعيم عُمان في حملة له على القواسمة عام ١٨٠٥ ، فنشأت
بين ابنائه الثلاثة منافسة شديدة زاد من حدتها اختلاف ميولهم السياسية .
فان بدر ، الابن الاكبر الذي تسلم السلطة بادىء ذي بدء ، والذي قهره
الوهايون في عام ١٨٠٦ ، ووقع معهم معاهدة أجبرته على ان يدفع لهم
جزية كبيرة ، وأن يستقبل في بيته في مسقط معاملاً دينياً . من الوهايين ،
وأن يقبل عنده حرساً مؤلفاً من اربعمائة فارس وهايي . وقد برهن بدر
عن أمانته للمعاهدة ، وتحديه للجيش التي كانت مخصصة لأبيه ، وهي مؤلفة
من أبناء بلوشستان والهند .

ويمكن الأخوان الآخرون من استمالة هذه الجيوش دون ما صعوبة ،
واتبعوا سياسة عدائية تجاه الوهابيين . عندئذ حدثت المأساة ، فقد دعي
البدر الى مأدبة عند احد أخويه ، وطعنه عبد أسود خرج من الصفوف
فجأة ، بمنجبر كان مخفيه ، وذلك في قاعة المأدبة ، ولكن السيد سعيد ،
شقيق القتل ، بادر الى اشاعة النبا في مسقط ، متهماً الوهابيين بقتله ،
فهرع سكانها لينأروا للبدر من الوهابيين ، وأقبل الوهابيون للنار لمحيمهم
القتيل من أخيه السيد سعيد . وبذلك لم يتخلص السيد سعيد من شقيقه
البدر فعسب ، بل تخلص ايضاً من الفرسان الوهابيين الاربعمائة الذين
كانوا قد فرّضوا عليه فرضاً ، والذين هربوا من وجه الشعب الهائج
وعادوا الى الدرعية . وقد احتج سعود على ما حدث ، ولكن السيد
سعيد أعلن عن استعداده لتنفيذ بنود المعاهدة المعقودة مع الوهابيين باستثناء
البند الخاص بالفرسان الاربعمائة . ولم يبق أمامه الا ان يجعل السيطرة
الوهابية تؤول من تلقاء نفسها .

وذكر الشيخ منصور ان حدود منطقة عُمان من الداخل هي البريمي
التي نعرفها اليوم للخلاف الناشب حول اليادة عليها ، وكان يملكها
الوهابيون ، وعلى الساحل شخاص التي يملكها القواسمة . ورسم لمسقط
العاصمة لوحة حية ، فقال انها قبل كل شيء مدينة تجارية ، يسكنها ستون
ألف نسمة من بينهم اربعة آلاف بانياني ، وعدد صغير من اليهود ،
ولا يقيم فيها أي مسيحي ، ولكن يرى فيها كثير من الغرباء . فالأغنياء
المتزبون بالزى القادسي يسرون والبدو جنباً الى جنب ، وفي مأدب
السلطان يرى المرء آنية الخزف الصيني الفاخر ، وفي ركن المرفأ حيث
مركز الجمر ك نشاط كالنشاط الذي نجده في المدن الاوربية .

وتحكم الشرطة فيها باستبداد . والجيوش الذي يبلغ عدد افرادة ثلاثة
آلاف جندي ، يضم ألفين من المرتقة الغرباء بالاضافة الى العيد السود ،

وبضع مئات من العرب . ويرتفع عدد افراد الجيش في حالة الحرب الى خمسة عشر ألفاً أو عشرين ألفاً من الجنود المشاة ، وألف من الحيلة يُسهم في تجهيزهم تجار المدينة . ويتضمن الاسطول سفناً تجارية ذات ثلاثة صواري تصلح عند الحاجة لنقل الجنود ، واربعين مركبا تراوح حمولتها بين ثلاثمائة وسبعمائة طن أخذت من الفرنسيين والانكليز اثناء الحرب ، وأخيراً بعض مراكب عربية .

والتجارة فيها رائجة ، فرأس مال بعض التجار ، يقدره الشيخ منصور بليون دولار في ذلك الوقت ، وللسلطان بعض الاحتكارات ، فبالإضافة الى المكوس التي عهد بها الى رجل بانياني بطريقة الالتزام ، كان يتمتع بدخل من تصدير الملح من مناجم هرمز وقشم ولارك وبندرعباس ، ولا سيما من تجارة العبيد السواحليين التي كانت تدر عليه خمسة وسبعين ألف دولار في السنة .

وليس في مسقط الا بعض البساتين التي تُروى ، لأن موقع المدينة صخري ، ولكن ليست السهول الحصبة قليلة في داخل البلاد ، ويُعدُّ سهل الرستاق الواقع على بعد مسيرة يوم واحد من العاصمة بستاناً فسيحاً حقيقياً ، ومحصول البلح واخر الى درجة انهم يصدرونه الى بلاد القرس ، وأخيراً ، يقوم سكان الساحل بصيد اللؤلؤ .

*

أدهش القبطان أدين - الذي أتم فيما بعد ارتياد السواحل الذي قامت به السفينة بالينوروس ، حين ألقى المرساة في مسقط - انه سمع بعض الناس يتكلمون اللغة الهندية اكثر من العربية . ولا شك في ان ذلك كان في الميناء فقط حيث يسيطر التجار البانيانيون .

الا ان الانكليز ، ولا سيما فيما يختص بعُمان ، لم يكونوا يقصرون اهتمامهم على ارتياد السواحل ، بل كانوا يهتمون بمعرفة مدى امتداد نفوذ

حليفهم سلطان 'همان الى داخل البلاد . لذا فقد أرسلوا إليها الضابط ولستد في مهمة خاصة في أواخر عام ١٨٣٥ . وقد استقبله السيد سعيد بحفاوة ، وقدم له مساعدته خلال رحلته . ولم يلق شيئاً من الصعوبات الا حين دخل المنطقة التي كان الوهابيون يحتلونها آنئذ .

وقد قام برحلة طويلة عبر المنطقة طوال اربعة اشهر ، يستطيع المرء ان يقدروها من نظرة يلقيها على الخارطة ، وقد تناولت رحلته ثلاث نقاط : الأولى منطقة « عشيرة ابو علي » البدوية التي توجه إليها من مرفأ صور ، وكان موقف أبناء هذه العشيرة من الانكليز غامضاً جداً ، لأنهم كانوا قد اعتنقوا المذهب الوهابي في سنة ١٨١١ ، وشقوا عصا الطاعة على سلطان مسقط ، فهاجمهم السلطان بمؤازرة الانكليز الذين آلت عليهم الحلة بمحاربة شديدة ، ولكنهم قاموا بحملة اخرى في سنة ١٨٢١ كلفت بالظفر ، فاعتقلوا الشيخ ومن بقي في قيد الحياة ، ونفوسهم الى بومباي حيث ظلوا وهن الاعتقال طوال سنتين ، ثم أعيدوا الى منطقتهم منقلين بالهدايا . وقد لاحظ ولستد ان تلك السياسة كان لها أطيّب الاثر ، فقد استقبل بحفاوة تامة ، وشهد رقصاً حريباً ، وسباق جمال ، وعرض عليه بدو من افراد عشيرة ابو جنابة كانوا آنئذ في زيارة عشيرة « ابو علي » أن يصطحبوه معهم الى الجنوب الغربي ، ومن هنا منشأ المرحلة الثانية من رحلته .

ولكن ولستد كان يهدف الى زيارة منطقة البريمي ، المركز الوهابي الامامي ، ولذا قصد مضارب « ابي علي » وتوجه نحو الشمال الغربي حيث أباد ان يبلغ نزوى ، والوصول منها الى هدفه . فتبع وادي البطحاء الكبير الذي ينحدر من الجبل الاخضر الذي يقصده ، حيث أعجب بالواحات الحسنة الري ، وبالمدين الحقيقية المشيدة في تلك المنطقة ، ومنها مدينة إبراي ذات المنازل المزدانة ببلاط فاتى من كلس ووخام ، والمزخرفة بأوابها بالفلز .

وقد التقى ذات يوم في طريقه بالضابط وايتلوك الذي أفاد من إحدى عطله للجبهة إلى عمان لتعلم العربية ، واتفق معه على أن يترافعا في قسم من الطريق .

وبعد أن بلغ نزوى ، تقدم حتى تخوم الصحراء الكبرى ، ولكنه فقد ما يحمله من مال ، فأرسل يطلب بعض المال من صاحب مصرف يهودي في مسقط ظناً منه أن بينه وبين رؤسائه اتفاقاً ، ولكن اتضح له أن هؤلاء لم يصدرُوا إلى اليهودي أي أمر بشأن مده بالمال ، ولم يتم زملاؤه بإقراضه . ويذكر القاري أنهم لم يكونوا ينظرون إليه نظرة حسنة لكونه رائداً هزيباً لا يتقن العربية ، ولكن ذلك لم يحل دون تقرده بشرف اكتشاف حصن الغراب ونقب الحجر ، على أن السلطان ، كما يبدو ، هو الذي عرض عليه أن يمهده بالمال .

في تلك الاثناء ألقى القبض على ولستد في نزوى . فأصيب ومرافقوه بجرحى خفيفة ، وبعد أن قضى ثلثي وأربعين ساعة في الهذيان ، أخذ يتأثر إلى الشفاء شيئاً فشيئاً ، ولكنه لم يعد يفكر في التوجه مباشرة إلى البريمي ، فقفل عائداً نحو الساحل مع وايتلوك الذي كان قد لحق به .

وعلم في « السيب » أن الوهابيين قد دخلوا شمالي عمان . إلا أنه لم يتدخل عن مشروعه القاضي ببلوغ البريمي ، فساير الساحل الذي وجده أشبه بوشاح من مزارع النخيل ، ولما وصل إلى السويك ، سلك طريق التلال لبلوغ « مسكن » ثم « المتبر » . ولكنه فوجئ بمفاجأة غير سارة برؤية مائتي وهابي يحتلون المتبر . وكان يحمل رسالة توصية من سلطان مسقط قدمها إلى الشيخ ، ولكن هذه الرسالة كانت خليقة بأن تعرضه للخطر في مثل ذلك الظرف . ومن الطبيعي أن الشيخ رفض أن يرفقه بمن يقوده إلى البريمي ، وأمره بمغادرة البلدة على الفور . فلم يجد بداً من الرجوع على أعقابيه مع حرسه ، يصحبه عداة الشعب الذي لم

يعبر عنه لحسن حظه ، الا برشفه ببعض الجبارة .

ولما بلغ السويدك في طريق عودته ، لم يقر بهزيمته ، فكان كل ما استطاع الشيخ ان يفعله ان قدم له مركباً يوصله الى شتاص في حال اصراره على الذهاب ، فقبل بذلك .

وحين بلغ شتاص أرسل يطلب الى الزعيم الوهابي السماح له بزيارته ، وفيما كان ينتظر الجواب أخذ يجمع معلومات شفوية عن المنطقة . ولكن الجواب الوحيد الذي تلقاه كان نبأ تقدم الرهابيين نحو « بديعة » . فتقطعت به أسباب الأمل في الوصول الى البريمي .



تمكن الملازم الاول وايتلوك ، من اجتياز شبه الجزيرة التي تسد مدخل الخليج العربي ، وأتم استكشاف الساحل حتى الجبل الاخضر . كانت المسافات التي قطعها ولستد شاسعة ، ولكن ما أفاده منها لم يكن شيئاً يُذكر ، وقد خص هذه الرحلة بكتاب وضعه عنها ، الا اننا لا نكاد نجد فيه سوى بعض القصص الطريفة عن رحلاته ، وبعض الطرائف المسلية ، والحوادث المتفرقة ، والملاحظات السطحية .

وعلى كل حال ، كان قد تم التعرف الى عُمان ثمرافاً عابراً ، ورسم خارطة لها ، وتلك لعربي نتيجة عظيمة .

بعد انقضاء عامين على ذلك ، هبط الى ساحل عُمان رجل من نوع مختلف كل الاختلاف عن سابقه ، هو ريمي اوشر ايلوي ، وهو عالم نبات متحمس ، كان قد وطد العزم على خدمة العلم بوسائله الخاصة ، رغم فقره وممرضه ، بمثابة لم تقتر حتى الموت . ويبدو انه كان ألعبوبة في يد القدر . لاذ انه تخلى عن مشروع مطبوعة في باريس ليتجه وأسرته الى روسيا التي خيل إليه انها ستوفده في بعثة استكشافية الى القوقاز ، وهو أمر لم يتم . وبما ان سفير العجم في بطرسبرج كان قد طلب الى فرنسا ان تقدم له رجلاً

قادراً على إنشاء مطبعة وجمعية للعلوم في بلاد فارس ، فقد وقع الخيار على اوشر ايلوي ، ولكن المفاوضات معه باءت بالاخفاق . فعرضت عليه الجمعية العلمية في بطرسبرج ان يذهب في مهمة الى بكين ، ولكن عدم ثقة الحكومة الروسية به ادى الى اخفاق المشروع .

وكان الحزن والسقام قد انحلاه ، وأصبح مكثرياً لأحد الامراء عندما طلب منه السفير التركي ان يشخص الى القسطنطينية ليصدر فيها صحيفة بالتركية والفرنسية . فتوجه إليها بحماسة جديدة مصطحباً زوجته وابنته . ولكن المشروع لم يتحقق قط . عندئذ وطد العزم على القيام برحلته وحده ، ولم يشته أي شيء طوال ثلثي سنوات عن عزمه على جمع أنواع جديدة من النباتات لبشكل ذات يوم مجموعة نموذجية لنباتات بلاد الشرق .

من عام ١٨٣٠ الى عام ١٨٣٦ طاف ريمي اوشر ايلوي في مصر ، وسيناء ، وفلسطين ، وسورية ، وقبرص ، ثم ازمير ، ورودرس ، وآسيا الصغرى ، ثم أرمينية ، وسورية ، وبلاد فارس ، وقد توقف لكي يقوم برحلة جديدة الى بلاد اليونان عاد منها الى القسم الاوروبي من تركية . وعندئذ أفلح في أن يرسل الى متحف العلوم الطبيعية في باريس باثني عشر ألفاً ومائة واحد عشر نوعاً من النباتات .

وقام اوشر ايلوي برحلة اخرى عام ١٨٣٧ مع عالم آخر توفي محموراً في طهران . فتوجه وحده الى بلاد الافاضول ، ثم نزل منها باتجاه بلاد الفرس ولورستان الى بندر عباس ، وغايته ارتياد عمان . وقد أبحر في أول آذار (مارس) من عام ١٨٣٨ ، ولكن دهمتهم عاصفة عنيفة ، فتأملها نبات ورباطة جأش وكتب فيها يقول :

« لم أقالك من أن أعجب بالمشهد المروع البديع الذي قدّمه لي البحر . فقد بدا البحر بفعل خاص من الوميض الفسفوري في المناطق الاستوائية ، كأنه ملتهب ، وكانت كل هبة ريح تقذف بنا الى وسط جبال سيارة من

الهرب الدائم التجدد تهدد بابتلاعنا في كل لحظة .

وقد نجت السفينة من الغرق ، ووصلت أخيراً الى صحّار .

وتابع اوشر ابوي طريقه بجرأ الى مسقط حيث عني بالحصول على وسائل توصية الى الشيوخ المحليين ، وبإيجاد حرس ودليل . وقد توسل للمعتمد الانكليزي سلطته لمساعدته في ذلك . وكان يريد بلوغ المنطقة التي يعتقد بأنها غنية بالنباتات ، فتوجه الى الجبل الاخضر . وبعد ان اجتازه بلغ تزوى ، ومن ثم قصد « ازيكي » متبعاً في وجهة معاكسة الطريق الذي سلكه ولستد .

وقد أتى هذا العالم من ثلاث رحلات قام بها الى جبل سييه بعشرين نوعاً من النبات ، ولما دنا من الجبل الاخضر ، شاهد قرى ، ومزروعات ، وبساتين مغروسة بأشجار الرمان . وحين أخذ سبيله الى الجبل ، اختفت اشجار النخيل ، وظهرت اشجار الفواكه الخاصة بالمناطق المعتدلة المناخ ، كالجوز والتين والمشمش والكرز ومعرشات العنب .

وعندما هبط الجبل للوصول الى تزوى لم ير الا صفوراً جرداء رهية . ولكن المدينة الصغيرة نفسها بدت وسط مزروعات قصب السكر والقطن ، واشجار النخيل ، والموز والرمان والليسون ، وقد أصيب هو أيضاً بالحى في تزوى ، لكنه لم يمنع نفسه الا فترة قصيرة من الراحة ، بل قام بزيارة البساتين ، فأصابته الحى ثانية ، فعالجها بالحمية عن الطعام ثلاثة ايام توجه في نهايتها عبر مزارع النخيل نحو « ازيكي » . وقد كتب يقول : « ان البلاد كلها ، بما في ذلك الجبل ، محرقة قاحلة ، ولكن الريف مروي بديع . ويسود العداء بين المزارعين والبدو الذين لا يكفون عن الاغارة على الاراضي المزروعة ، ولا يبقون على شيء فيها لشدة كرههم للمزارع ولكل ما يمت اليهم بصلة » .

ومن ازيكي اتجه شطر مسقط ، فاجتاز مناطق صحراوية حتى بلغ

واديًا تغيض مياهه في الرمال بعد أن تجري مسيرة خمس ساعات . وقد رأى البرسيم نابتاً تحت أشجار النخيل ، والقطن مزروعاً في مساحات واسعة ، بحيث يمكن رؤية مغازل للغزل وأنوال للحياكة في تلك البلاد . ويختفي النهر ، وتبدو على التتابع المناطق الصحراوية والاراضي المزروعة .

ترك الوادي وسار في منطقة قاحلة للتوجه الى مطرح . وفي ذات يوم ، قبل بلوغ ساحل مطرح ، أصبح حذاؤه غير صالح للانتعال ، فدميت قدماؤه . واضطره التعب في اليوم التالي الى التوقف عن السير على بعد مسيرة ساعة من مطرح . وعندما بلغ مسقط كانت قد انتابته حمى عنيفة ، ولم يعد لديه دراهم لدفع اجور الرجلين اللذين رافقاه .

لقد وجد مائتين وخمسين نوعاً من النبات ، وطاف بحثاً عنها ، بمختلف المناطق الجغرافية في البلاد بتضاريسها : الساحل ، والجبل ، والمنطقة الشديدة الحرارة الواقعة خلف الجبل . ولكنه كان قد غدا منهوك القوى . وقد عني المعتمد الانكليزي بنقل هذا المريض ، الملق ، الذي تنابته الحمى ، والذي حار الناس فيما يفعلونه به ، الى ظهر احدى السفن .

الا ان السفينة التي أقلته وعدداً من الحجاج المتجهين الى كربلاء المكان المقدس في نظر الشيعة ، تعرضت لعاصفة ، فاضطر الى التوقف في بندر عباس ، واعتقد عالمنا النباقي انه قد استعاد من قواه ما يكفي لقيامه بارتياح بلوستان التي بدت له نباتاتها مبشرة بخير كثير . ولكنه ما لبث ان أيقن بوجوب العودة الى بيته في القسطنطينية . ووصل الى شيراز في حالة نزاع . ثم تعافى قليلاً فاستطاع التوغل حتى اصفهان حيث اضطر الى دخول احد الاديرة ليستقبل الموت فيه بهدوء .

وكان اوشر ايلوي ، منذ سنة ١٨٣٦ حتى ساعة أدرسته المنية في تشرين الاول (اكتوبر) من عام ١٨٣٩ ، قد جمع وأرسل الى متحف

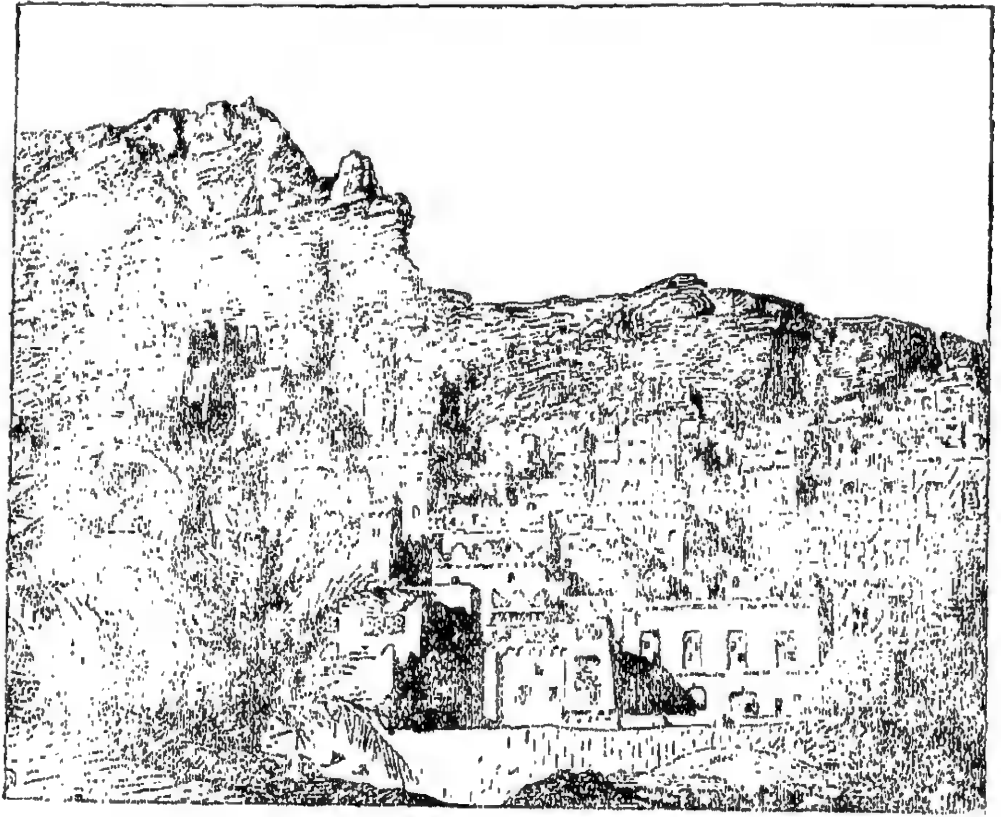
العلوم الطبيعية في باريس خمسة عشر ألفاً ومائتين وخمسة وخمسين
نوعاً من النبات .

*

لم يعد القسم الداخلي من عمان سرّاً خفياً ، ولكن حضرموت ظلت
مجهولة . ففي ما وراء الساحل الجنوبي الوعز ، الصخري ، المقفر ، الذي
كتب عنه اوين يقول : « اجمعنا على القول بأنه الساحل الأقل برصّة
من بين السواحل التي قمنا بزيارتها » ، كانت تختفي أشد البقاع خصباً في
العربة السعيدة .

بينما كان آرنو في مأرب ، علم ان احد الاوروبيين قد أفلح في دخول
هذه البقعة ، وانه يطوف فيها . فادّعى انه راغب في متابعة طريقه نحو
حضرموت ، فقدم له بدوي كان قادماً منها ، وقد كتب يقول :
« سمعت البدوي يروي أنه رأى في بلاده منذ زمن قصير ، رجلاً أبيض
مثلي ، ظنه هندياً ، لا يعرف من العربية سوى « لا اله الا الله ، محمد
رسول الله » واستنتجت من الاوصاف التي أوردتها البدوي لذلك الرجل
الابيض انه السيد ادولف فون وريد ، الذي سبق ان علمت بنواياه وبالجهة
التي يقصدها ، فامتعت عن المضي في السؤال عنه خوفاً من تعريض كليتنا
للخطر . »

كان آرنو قد قابل ، فعلاً ، البارون ادولف فون وريد في عدن .
وكان قد سمع انه من ابناء باغاريا ، دخل سلك الجندية صدفة ، والتحق
بخدمة الملك اوتون في اليونان ، وأقام في آسية الصغرى ثم في مصر .
وكان ولستد قد فشل في دخول حضرموت كضابط انكليزي ، ولكن
فون وريد أراد ان يجرب حظه بالتزيي بزي مسلم ، والتظاهر بالرغبة في
الحج الى قبر هود ، نبي حضرموت الشهير ، الذي كان قد اتخذ له نصيراً
فأسمى نفسه « عبد الهود » .



مدينة في وادي دوعن في حضرموت ،مألاً عن صورة فوتوغرافية لستارك
في كتاب « رحلة في حضرموت » .

وكان قد قابل دي فريسنل في جدة ، وبعد الارساء في عدن ، نزل
الى البر في ميناء رأس بروم ، حيث توجه براً الى المكلا ، وقد مكث
فيها أقصر وقت ممكن خشية أن يُكتشف أمره ، واتجه في السادس
والعشرين من شهر حزيران (يونيه) من عام ١٨٤٣ نحو داخل البلاد ،
بعد ان حصل على حماية بدوي يدعى عقيرة .

استغرق الطريق الى الوادي الكبير الأول في الداخل ثمانية ايام ونصف ،
ولكن المسير الفعلي خلال ذلك لم يزد على تسع واربعين ساعة وثمانى
عشرة دقيقة .. وقد سلكا في بادىء الامر ممرات جبلية ضيقة تكتنفها

الصخور الصوانية ، التي كثرت فيها ينابيع المياه الحارة ، والمياه المعدنية الحديدية . وشاهدا اشجاراً باسقة ، وبعض القرى . وفي اليوم الرابع كانوا قد نزلوا جبلاً يبلغ ارتفاعه أربعة آلاف قدم ، ووجدوا نفسها على قمة في أسفل جبلين صغيرين عمودي الانتصاب يشكلا ن أشبه ما يكون بالباب الشديد الضخامة . وقد توقفوا ليلاً عن المسير . وكان البرد شديداً . واجتازا بقعتين منبسطتين رمليتين التراب ، فبلغا نجداً شاهقاً وكتب يقول :

« لم نكن نرى من الغرب الى الشمال الشرقي الا سهلاً فسيحاً مائل اللون الى الصفرة ، انتشرت فيه بعض التلال المحروطة الشكل تارة ، والشبيهة بالقمة طوراً ، وظهرت لنا في الشرق قمم جبل كورمبيان العظيم ، المطلة على الوادي ، وفي الجنوب سلسلة من الكتل الصوانية المحروطة الشكل ، تمتد الى بُعدٍ يضع فيه النظر في جو المحيط المظلم البخاري . وقد بقي الطريق على النجد ابتداءً من هذا المكان ، وشاهدنا عدة صهاريج يبعد الواحد منها عن الآخر مسيرة ساعتين او ثلاث ، ولكن نظرنا لم يقع على أية قرية او شجيرة تقطعان رقابة ذلك السهل الفسيح . والهواء هناك لطيف في النهار ولكن البرد يشتد في الليل ، .

الا ان النجد يوحد فجأة الى شفا هاربة عظيمة شديدة الانحدار يكتشف المرء في قعرها وادباً شديد الحصب ، يبدو كالجنة لناظري من تكبدوا خلال عدة ايام وحشة النجد المترامي الاطراف ، وجدبه .

تأمل فون وريد دهشاً أسفل المضيق الجلي البالغ عرضه ألفاً ومئتي قدم ، وعمقه خمسمائة قدم ، والذي يرتفع في شكل مدرج ، وتقع على منحدراته المزلفة من الردوم الساقطة من الجوانب ، عدد من القرى والمدن ، بينما يجري في وسطه - أشبه بوشاح طويل - نهر قامت على ضفتيه

مزارع النخيل ، وتدرج في كل مكان منه مزروعات تروى بأقنية متفرعة من النهر .

« ان النزول الى الوادي خطر ، ولا سيما في فوهته ، حيث يسير الطريق الذي لا يتجاوز ارتفاعه أربعة أقدام - في اماكن كثيرة - هوى هائلة الى اليسار ، والجانب الصخري الي اليمين .

« يدعى هذا الوادي الاول وادي دَوْنَعْن ، وقد لاحظ فون وريد ان الاودية الاخرى لا تختلف عنه بشيء . وما منطقة حضرموت الداخلية سوى سلسلة من هذه الاودية ، ويجتمع واديا عَمْد ودَوْنَعْن وهما أهم واديين ، لبشكلا وادي حضرموت حيث تقوم مدينتا تريم وشبام الغريبتان الملقبتان « بشيكاغو الصحراء » لما فيها من المنازل التي تشبه قاطعات السحاب ، ولكن لم يُقدّر لفون وريد بلوغها ، وبلوغ قبر النبي هود الواقع الى الشرق منها ، فلم يكد صاحبنا « عبد الهود » يصل الى الحربية الواقعة في وادي دَوْنَعْن حتى أدار ظهره للهدف الذي زعم انه يرمي إليه ، وقرر الوصول الى وادي ميفعة ليشاهد آثار نقب الحجر . ولذلك عاد الى الساحل ولكن مرغلاً في اتجاه الغرب .

لم يبلغ فون وريد المكان الذي تقع فيه الخرائب لأن جماعة من البدو أجبرته على النكوص على عقبه وهو على مسيرة ساعتين من هدفه . على أنه شاهد ما هو أفضل من تلك الخرائب ، إذ رأى عند اجتيازه « ابن ، أو « لبن ، جداراً قديماً يعترض الوادي ، ونسخ عنه كتابة اثرية طويلة رائعة . وعاد الى المكان الذي انطلق منه ، وارتاح في الحربية بضعة أيام .

ويذكر أنه بلغ وادي عَمْد ، وزار المدينة التي تحمل اسم الوادي ذاته ، وانه سار فيه حتى بلدة الحوطة ، واتجه منها غرباً طوال اربعة أيام

حتى صوتاً (ساوة ؟) بحيث أصبح على مسيرة يوم واحد من صحراء البحر
السافي ، وكتب يقول : « ان هذا القسم من الصحراء يستمد اسمه من
الملك السافي الذي انطلق على رأس جيشه من بلاد سبا ، وواديان ورأس الغول ،
وأراد اجتياز هذا القفر ، فهلك جيشه .

« كان الناس يزعمون ان فيه اماكن كثيرة يختفي فيها كل شيء عن
سطح الارض ويغور في الرمال ... وقد أسرع في اليوم التالي الى
التوجه نحوها للتحقيق في هذه المزاعم .

« بلغت حد الصحراء بعد مسيرة ست ساعات ، ويكدر انخفاضها عن
التجدد بألف قدم . وهي سهل فسيح من الرمال ، قامت فيه تلال
كالمواج ، فبدأ لتأطري كالبحر المضطرب . ولم نر فيها أي نبات أو
طير يقطع بشدوه صمت الموت الذي كان يحيم على قبور افراد الجيش
السبئي .

« رأيت ثلاثة اماكن امتازت ببياضها الناصع ، وقد قال لي رفاقي
البدو : « هذا البحر السافي . ان هذه الهوى السحيقة تسكنها الجن التي
غطت الكنوز المودعة في حراستها بالرمل الخداع ، ولا شك في ان من
يجسر على الدنو منها ، تجتذبه الرمال ، فلا تذهب إليها . ومن
الطبيعي اني لم أعر هذه النصيحة أي اهتمام ، بل سألتهم ، على العكس
من ذلك ، أن يقدوني الى جوار تلك الاماكن حسب اتفاقنا . وكان
ما يزال امام جمالنا مسيرة ساعتين لبلوغ اسفل التجدد . وعبثاً سألت
البدو ايضاً الى تلك الاماكن ، فقد امتنعوا ، ولم اتمكن من اقناعهم
بذلك ، لأنهم كانوا يخشون الجن الى درجة لم يكونوا قادرين معها على
ان ينبسوا ببنت شفة ، لذا قررت الذهاب إليها وحدي ، مخاطراً بنفسي ،
حاملًا مسبراً وزن نصف كيلوغرام ربط إليه حبل رفيع طوله ستون
باعاً ... وبأقصى ما يمكن من الجذر اقتربت من الشفا لأتفحص

الرمل الذي ألفيته دقيقاً جداً . وقذفت بمسيري أبعداً ما أمكنني ،
فاختفى في الحال ، وقد تضائل تسارع اختفاء الجبل شيئاً فشيئاً ، الا
انه بعد انقضاء خمس دقائق اختفى تماماً .

« لن أسمح لنفسي بتدوين أية ملاحظة عن هذه الظاهرة التي لا ريب
في ان علماءنا هم الذين يستطيعون تفسيرها ، بل اكتفي بتدوين ذكرها
بأمانة . . .

وذكر انه شاهد في صوماً قبراً حميراً ، كان تعصبُ احد الشيوخ
- وبالألف - قد حمله على طمس الكتابة الأثرية عن بابيه . ثم عاد الى
الحرية . وبعد أن أخذ فيها قسطاً من الراحة خلال بضعة أيام ، اتجه
برفقة ولدَيْه مضيفه وشيخ كثير الاعتبار في المنطقة ، لزيارة قبر النبي
هود ، فبلغوا صيف في اليوم التالي ، وقد كتب يقول :

« كان رفاقي الذين امتطوا حميراً قد سبقوني ، فبلغت المدينة بعدهم
بساعة من الزمن . وكان قد احتشد فيها خلق كثير جاءوا ليعتفوا بالعيد
في الغد ... ولم اكد اتوسط الجماهير ، حتى هجمت عليّ ، وأنزلتني عن
جملي ، وجردتني من سلاحي ، وأوثقتني رابطة يدي وراء ظهري ،
وجرتني على الارض الى حضرة السلطان ، وقد كست الجروح وجهي ،
وعفرتُ تعفيراً ، وهي تضج وتلغظ بأعلى صوتها متهمة اياي بأن الانكليز
قد أرسلوني لأتجسس عليهم ، واستقصي اخبار بلادهم ، مطالبة باعدامي .
وكان السلطان الذي يخشى جانب البدو موثقاً بأن يأمر بقتلي نزولاً عند
رغبتهم ، حين أقبل رفاقي . فنجوت من الهلاك بفضل تأثيرهم المعنوي في
تلك الجماهير ، الا انهم سجنوني في غرفة وقيدوا قدمي . وليت سجيناً
ثلاثة ايام ، دون ان ينقصني شيء . وفي مساء اليوم الثالث جاء 'حماتي'
يخبرونني بأنهم لم يفلحوا في تهدئة البدو الا بعد ان قبلوا الشرط الذي
اشتراطوه عليهم بعودتي فوراً الى المكلا وتسليم جميع اوراقني . فأخفيتُها

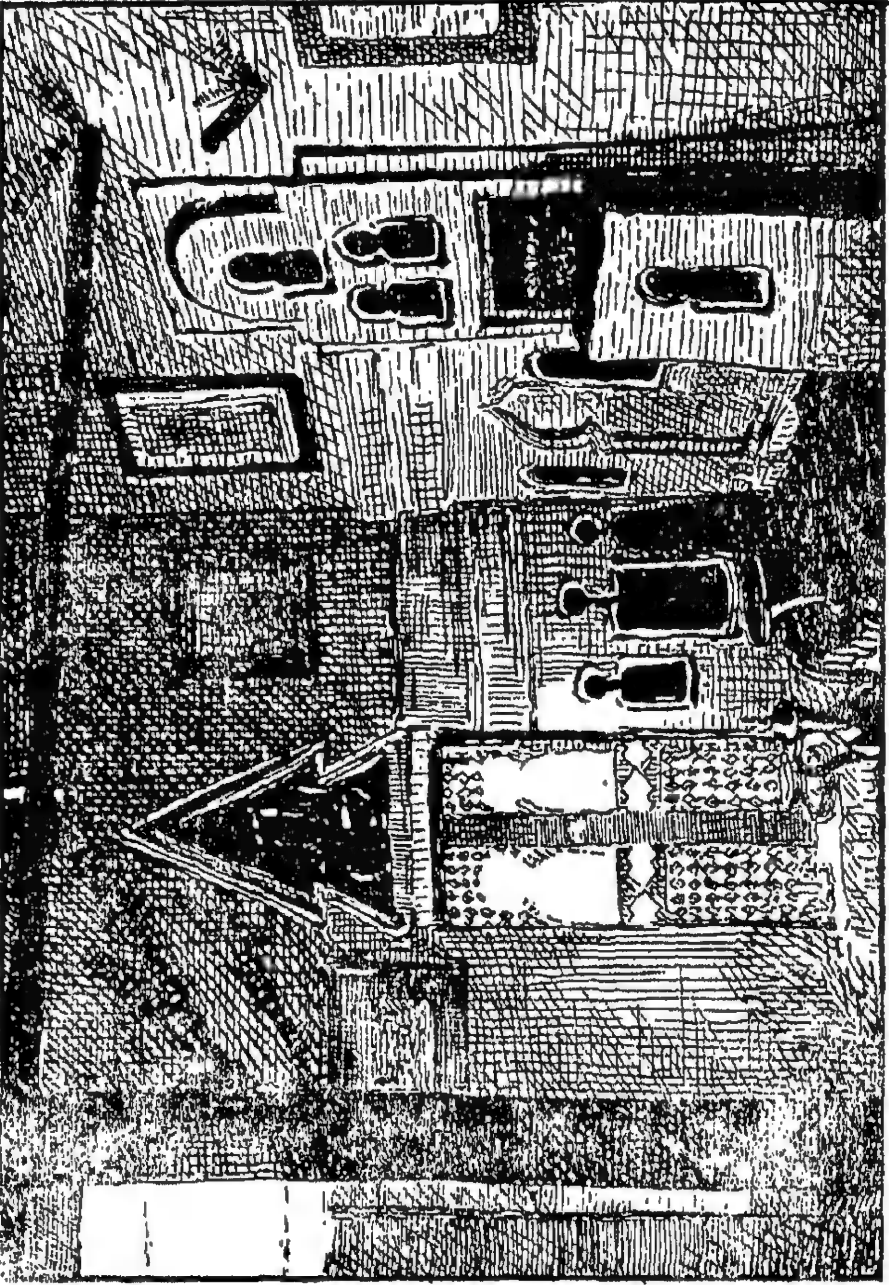
اثناء الليل ، ولم أسلم منها في اليوم التالي الا الملاحظات التي كنت قد
دوحتها على اوراق بقلم الرصاص ، فاكثفوا بها - لحسن حظي - وطلب
الحاكم ان يفتش امتعتي ، فأخذ منها كل ما أعجبه ، ولم ينس ان يستولي
على ما كان لدي من دراهم .

« وأرغمت في صباح اليوم التالي على التوجه الى المكلا بحراسة احد
افراد البدو ، فبلغتها بعد مسيرة اثني عشر يوماً . وقد اضطررت الى
الاجار الى عدن لانني كنت قد جردت من كل ما يمكنني من القيام
برحلات اخرى . »

كان فون وريد قد احتفظ بقائمة بأسماء الملوك الجيريين أعطاه اياها
شيخ عالم ، وبمعلومات عن المواقع الجغرافية ، ولائحة بأسماء العشائر ،
وصور المشاهد الطبيعية . وقد عاد الى اوروبة لينشر كل ذلك مرفقاً
بقصة رحلته .

ولكن اموراً كهذه ، غالية الثمن في حال صحتها ، لا تستحق الا
كل ازدراء اذا كانت ملفقة . وقد تعرض فون وريد في وطنه ، لتشكيك
عالمين مسوعيين الكلمة هما الكسندر فون هومبولدت وليوبولد فان بوخ .
فقد بدا لهما ان قصة الحفر الرملية المتحركة في البحر السافي بعيدة كل البعد
عن ان يسلم بها العقل ، واعتبرا ان الرحلة نفسها مشكوك في صحتها ، الا
ان هاينز ، ربان السفينة بالينوروس ، الذي حصل من فون وريد على
تقرير موجز عن رحلته ، قدمه الى الجمعية الجغرافية الملكية في لندن
فقامت بنشره .

ولكن هذا الرائد وجد في فرنسا بنوع خاص مدافعين عن قضيته .
فقد قام بزيارة فريسنل ، وقابله ارنو في عدن . وسمع هذا بدوياً من حضرموت
يتحدث إليه عن الساحل الابيض الذي كان - ولا مشاحة - فون وريد . ونشر



منزل تاجر
 في حضرموت
 عملاً عن صورة
 فوتوغرافية
 لتساراك في
 كتابه « رحلة
 الى حضرموت »

فريسنل تقريراً عن نتائج رحلة هذا الرائد مؤكداً انه اطلع على وثائقه في اوائل عام ١٨٤٥ في القاهرة ، وأعرب عن عدم شكه في أي شيء مما ورد في قصة رحلته ، وأرفق بها اللائحة الكاملة بأسماء الملوك الحميريين التي أوردتها بوكوك في سنة ١٦٥٠ استناداً الى ابي الفداء ، وأبجدية الكتابة الحميرية التي قام بنسخها في « ابن » والتي جاءت مطابقة لما ورد في الكتابات الأثرية الاخرى المعروفة . وذكر فريسنل انه عرض الرسوم التي رسمها فون وريد ممثلاً بها الازياء ، على رجل حضرمي رآه في القاهرة فأكد الرجل انها صحيحة .

واخيراً وجد من يوافق على نشر القصة ، ولكن المترجم لسوء الطالع قد انتحر ، كما لم يعثر على الخرائط والرسوم والصور الملونة التي رآها فريسنل في القاهرة ، وهكذا لم يبق سوى قصة الرحلة ، فأبى الناشر ان يقوم بطبعها .

يش فون وريد يأساً شديداً فعادر اوروبة الى مكان مجهول . ويقول و. ج. هزغارت انه من المحتمل ان يكون قد عيم شطر التكساس ، حيث انتحر حوالي عام ١٨٦٠ .

وبعد عشر سنوات اهتم البارون ه. فون مالتزان بنشر كتاب فون وريد بما في ذلك نسخة الكتابة الأثرية في « ابن » ، والملاحظات ، والخرائط ، مضيفاً الى ذلك كله مقدمة أعاد بها المؤلف الى ما كان عليه من الاعتبار عند الناس .

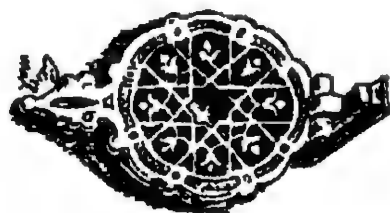
على ان قضية فون وريد ظلت مكتنفة بالغموض حتى عام ١٩٢١ ، حين وافق الاستاذ ه. فون ويسمن ، الدبلوماسي الهولندي د. فان درمولن في بعثة الى حضرموت ، وانصرف الى دراستها . وقد سلك الطريق التي سار فيها فون وريد ذهاباً وإياباً ، وهو يراجع ملاحظاته ، فوجدها مطابقة للواقع الا في امر واحد .

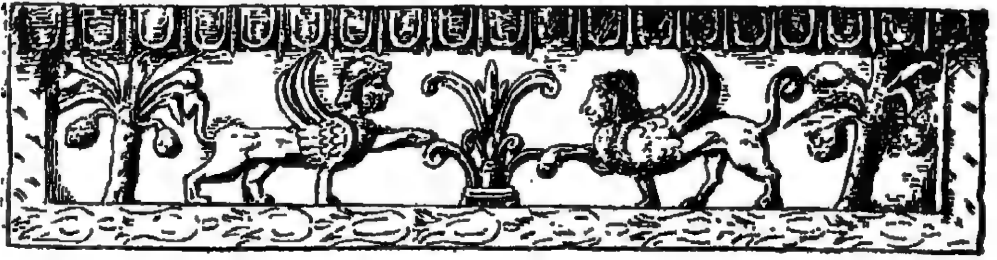
لقد ذكر فان درمولن وهو يرفاد وادي عند ان فون وريد قد وصف هذا الوادي وصفاً يفاير الواقع ، اذ جعل القرى الواقعة كلها الى جهة أعلى العبد ، في الجهة السفلى منه ، ونعت المر الوعر المؤدي من العبد الى الجنوب بأنه منحدر سهل ، ضالاً بذلك ضلالاً تاماً في كل جزء من اجزاء وصفه ، حتى ان فون ويسمن قد أيقن بأن فون وريد لم يسلك هذه الطريق ، وهكذا يمكن ان تكون قصة المغامرة التي قام بها الى تخوم البحر السافي حيث غرق مسيره في الرمل المتحرك كما يحدث في الماء ، مقتبسة عن قصص لعله سمعها في وادي دَوَّعَن عن قوافل تفرق في الرمال ، أو ربما تفرق - على الأرجح - في بحيرة ملحة بكسرها القشرة الملحية التي تكسوها ، وقد أخفتها عن النظر الرمال المتراكمة فوقها . ويضيف د. فان درمولن الى ذلك قوله : « وفي الوقت نفسه استطعنا تدقيق الاقسام الاخرى من رحلته الى صيف وادي دَوَّعَن وهي أبعد نقطة بلغها في الشمال ، وإلى وادي حبر ، ووجدنا ان وصفه للبلاد حسن وصحيح ، ورأينا في فون وريد رائد حضرموت الكبير » .

وقد سمى السيدان فون ويسمن وفان درمولن الى اماطة اللثام عن كيفية موته ، فوجدوا بعد التدقيق ان فون وريد قد انخرط في سلك الجيش التركي ، وانه توفي فقيراً مغموراً في احد مستشفيات القسطنطينية .

لقد اعتقد فون وريد ان في وسعه ان يخلط المعلومات التي التقطها عن طريق السمع بالمعلومات التي حصل عليها عن طريق المشاهدة ، ولم يدرك في خلد هذا الرجل العسكري الى أية درجة يمكن ان تكون المعلومات المستقاة بصورة غير مباشرة مغلوطة ، وسهولة الاكتشاف للأعين النقاد ، وإلى أية درجة كان ذلك الخليط غير المعترف به من المعلومات الداعية الى الارتياب والمعلومات الممتازة التي حصل عليها ، سيلقي الشك والريبة على المجموع كله ، ويجرمه مجداً قد استحقه .

الا ان الوثائق الصحيحة بدورها - ولحسن الحظ - يسهل على المعين
الحيرة التعرف إليها ، وقد أصاب فريسنل في ايراد ذكر الكتابة
الأثرية التي نسخها فون وريد في « ابن » كدليل على صحة الرحلة ،
وقد جاء أخيراً الاسلوب الواحد في رسائل النسخة التي قام فون مالتزان
بنشرها مصدقاً لصحتها . وغدا بالفعل اكتشاف جدار « ابن » وكتابته
الأثرية معادلاً في الأهمية لاكتشاف آثار نقب الحجر ، من وجهة نظر
التاريخ وعلم الآثار . اما اسهام فون وريد في أغناء المعلومات الجغرافية
فقد كان ذا أهمية عظمى ، إذ ألقى نور المعرفة على طبيعة تلك الاودية
ذات المظهر الفريد من نوعه في العالم ، والتي كان هو أول من وقف على
حقيقتها المدهشة ، وقد عزلت عن العالم بالحاجز الطبيعي المكوّن من
جبالها الساحلية ، ونجدها الشاهق ، الفسيح المقفر ، « المجذب » ، اللاهب ،
الذي كان قد أصبح من الواجب النفوذ منه الى تلك البقعة الاسطورية
المدعوة « بالعربية السعيدة » .





اسخاتمة

اذا كنا قد اختتمنا بحثنا عند هذا الحد ، فليس من المؤكد ان اكتشاف الجزيرة العربية كان قد أنجز في سنة ١٨٧٠ ، انما كان هذا الاكتشاف قد تم تحقيقه بصورة اجمالية فيما يختص برسم حدود البلاد ، والاماكن المقدسة ، وسكان المناطق المختلفة فيها .

وهكذا تمكن الجغرافي الالاماني ك. ريتز من ان يضع في سنة ١٨٤٦ خارطة دقيقة مفصلة للجزيرة العربية ، وقدم آ. دافريل للجمهور الفرنسي في عام ١٨٦٨ دراسة عن المدن المقدسة والحج ، يجمع المعلومات التي أوردها الرواد . ولم يأت الرواد والسياح الآخرون من امثال ر. ف. بورتن ، وفون مالتزان بشيء جديد ذي بال ، وكذلك ج. ف. كين الذي رأى من مكة مائة مرة أقل بما كان قد عُرِف عنها ، ولكن أضاف قصة خيالية الى هذا الفراغ . أما سنوك هرنخونه فقد كان مزعماً على عكس ذلك ان يقوم في عام ١٨٨٨ بعمل حاسم .

وبما يبرهن على انه كان قد تم في سنة ١٨٧٥ جمع معلومات بحجة عن شبه الجزيرة العربية ، قيام آ. زهم بوضع كتاب بطريقة التأليف عن الجزيرة العربية استناداً الى الصورة التي اعطتها عنها اكتشافات الرواد . وخلاصة القول ، ان حُجُب الجهل التي كانت مسدلة على معظم اجزاء

الجزيرة العربية كانت قد هتكت باستثناء الحجاب المدل على منطقة الربع الخالي الذي كان مزمعا أن 'يمزق في أيامنا هذه .

ولا ريب في أن هناك فرقاً بين الخروج من الجهل وبين المعرفة ، فقد أصبح في وسعنا اليوم تنظيم بعثات لتوضيح تخطيط احد الأودية ، وتعيين المكان الصحيح الذي تختفي فيه سلسلة جبال الطوَيْق في الرمال ، بغض النظر عن جميع التفاصيل من قرى ، وآبار ، وجبال ، وأودية ، وارتفاع ، التي يجب ان تمثل على الخارطة الجيدة بصورة صحيحة . الا اننا فيما يختص بالجزيرة العربية ، ما تزال بعيدين عن التمكن من وضع خارطة من طراز الخرائط التي تستعملها رئاسة الاركان في الجيش . فما تزال ثمة مدن لم تحدد على خرائطنا مواقعها العرضية بالنسبة الى خط الاستواء . وماذا نقول عما تبقى ؟

كان ما تبقى القيام به في سنة ١٨٧٠ ما يزال كثيراً . اما فيما يختص بعلمي الجغرافية والاجتماع ، فقد كانت جميع الغوامض قد جليت الواحد تلو الآخر خلال العصور . وقد أودنا في هذا الكتاب العثور على كل من كان البادئ في فتح باب المعرفة وجلاء سر من الأسرار ، فيما يختص بجزء من أجزاء الجزيرة العربية ، خلال تلك العصور الحسة .

ولكن في العصر الذي وصلنا إليه ، أدرك الناس ان ابراباً اخرى مغلقة قد بدأت تعرض للرغبة الملحة في المعرفة ، وأسراداً اخرى قد أخذت تظهر من نوع مختلف عما سبقها ، تحتاج الى الجلاء .

اننا نعني تلك الحجارة البكماء ، ذات الكتابات المنقرضة التي كانت رغم ذلك تخفي اسرار التاريخ القديم الفاتن للمالك العريقة في القدم في العربية السعيدة ، أو آثار تلك المدن الخالية في الشمال ، أو تلك النقوش التي كان سكان الصحراء القدماء قد نقشوها في صخور بعض الأودية .. تلك الحجارة والكتابات التي تبعت عصوراً عديدة من

التاريخ- البشري المنسي ، من تاريخ لا يقتصر على ملكة سبأ ، وبلاد
البغور ذات الثراء الاسطوري وحدهما . فشة حاجز صامت من الاسرار
ما يزال ينتصب بين العقل الذي يسأل ، والحقيقة التي تمتنع ... وهذه
الحقيقة التي يجب الخلوص اليها ، تخص الماضي في هذه المرة .

الا ان اكتشاف الماضي أبعد عن متناول الرائد من اكتشاف الحاضر ،
لانه في حاجة الى العالم الذي يفسر شهادة الحجارة الحرساء عن التاريخ ،
والعالم بدوره محتاج الى الرائد ليضع بين يديه هذه الوثائق ، ويعرضها
على ناظره .

ان بعث الازمنة الحالية ، مغامرة يقوم بها العقل بحثاً عن المعرفة ،
شبيهة بالمغامرة التي يقوم بها الرائد بحثاً عن الحقيقة . ومن هذا البعث
يتكون تاريخ سيضاف الى التاريخ الذي عشناه بين دفتي هذا الكتاب .
رغم اختلافه عنه كل الاختلاف .

ولسوف يضاف الى وجوه الرواد العظيمة من درعتي الى فيلي ، وجوه
اخرى عظيمة ، الا انه مهما تكن زيادة المعارف التي يمكن أن يُسهم بها
امرؤ في علم جغرافية البلاد العربية ، لن يقدر احد ان يقف موقف
اللامبالاة من مسألة الماضي التي غدت ، من الآن فصاعداً ، من أمتع
المسائل التي عرضتها الجزيرة العربية .

فهرس الأعلام

- ١ -

القنقاس : ٣٤٧ .	أوروبا : ٢١ ، ٢٠ ، ١٩ ، ١٠
ايلز اورين : ٣٢٧ .	٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٥ ، ٣٨
اغريق : ١٩ ، ٢٨ ، ٣٣ ، ٦٩	٢٩ ، ٤٢ ، ٤٦ ، ٦١ ، ٦٣
١٦٧ ، ٢١٤ .	٦٤ ، ٧٢ ، ٧٨ ، ٨٨ ، ٨٩
آشوريون : ٢٨٧ .	٩٠ ، ٩٤ ، ١٠٣ ، ١٠٤
الروقة (عشيرة) : ٢٩٢ .	١٠٦ ، ١٠٨ ، ١١٣ ، ١١٨
اكس لاه شابل : ١٩ .	١١٩ ، ١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٢٨
اموداريا (اكسوس) : ٢٠ .	١٣٣ ، ١٣٦ ، ١٤٣ ، ١٤٥
آ. كامر : ١٣٥ .	١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٥ ، ١٥٨
البحر الابيض المتوسط : ١٩ ، ٢٠ ،	١٦٠ ، ١٦٤ ، ١٧٠ ، ١٧٣
٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٥٧ ، ١١٤	١٧٧ ، ١٨٤ ، ٢٢٣ ، ٢٢٧
١١٧ ، ١١٨ ، ٢٣٨ .	٢٣١ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٤٠
المكلا (عشيرة) : ٣٩٣ ،	٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥٠
٢٩٨ .	٢٥٣ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥
الشيخ منصور : ٢٨١ ، ٢٨٢ ،	٢٩١ ، ٢٩٣ ، ٣٠٠ ، ٣٠٢
٢٨٥ ، ٢٨٤ .	٣١٩ ، ٣٣٩ ، ٣٨١ ، ٣٩٢

البحر الاحمر : ٢٣ ، ٢٨ ، ٣١ ،
 ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٧ ، ٤٤ ، ٥٢ ،
 ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٧٠ ، ٨١ ،
 ١٢١ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٨٥ ،
 ٢٨٢ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ،
 ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ،
 ٣٣٨ ، ٣٤١ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ،
 البحر الميت : ٢٠٦ ، ٢١٢ ، ٢٨٩ ،
 ارمينية : ٢٠ ، ٨٢ ، ١٠٨ ، ٣٨٩ ،
 آرنو : ٢٩ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٤ ،
 ٣٤٥ ، ٣٦١ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ،
 ٣٦٥ ، ٣٦٩ ، ٣٧٧ ، ٣٩٢ ،
 ٣٩٨ ،
 افغانستان : ٢٠ ،
 اذربيجان : ٢٠ ،
 النمسا : ٣٣٩ ،
 الكسندر درماس : ١١ ، ٣٠٣ ،
 ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٤١ ، ٣٤٦ ،
 المانيا : ٣٩ ، ١٦٦ ،
 الشارات (قبيلة) : ٢٩٦ ،
 الصين : ٢٠ ،
 الشريف حسين : ٣٤٠ ، ٣٤٣ ،
 ٣٥٥ ، ٣٥٦ ،
 الهند : ٢٠ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ،
 ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٤ ، ٤٨ ، ٥٢ ،

٥٣ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ،
 ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٤ ،
 ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ،
 ٩١ ، ٩٨ ، ١٠٣ ، ١٠٩ ،
 ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١٢٨ ،
 ١٥٢ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، ٢٣٣ ،
 ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٤٦ ، ٢٢٩ ،
 ٢٨١ ، ٢٨٣ ،
 الشريف عبد الرحمن : ٣٧١ ، ٣٧٣ ،
 السند : ٢٠ ،
 امقيله : ٣٤٨ ،
 ابن بطوطة : ٢١ ، ١٤١ ،
 ازكي (مدينة) : ٣٩٠ ،
 اسبانيا : ٢٠ ، ١٢١ ، ١٨٥ ،
 الرياض : ٢٤٥ ، ٢٥١ ، ٢٧٥ ،
 ٢٨٢ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ،
 ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٩ ، ٣١١ ،
 ٣٢٠ ، ٣٢١ ،
 الاسكندرية : ٢١ ، ٣٨ ، ٥٨ ،
 ٦٧ ، ٣٢٧ ، ٣٣٩ ،
 القاهرة : ٦ ، ٢١ ، ٣٧ ، ٣٨ ،
 ٤٤ ، ٤٧ ، ٦٧ ، ٧٥ ، ٩٥ ،
 ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٢ ، ١٠٦ ،
 ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ٢١٢ ،
 ٢١٣ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ،

العربية السعيدة : ٤٦ ، ٣٣ ، ٣٢ ، ٤٦ ، ٥٣ ، ٦١ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ٣٢٣ ، ٣٣٦ .

العربية البتراء : ٢١٠ ، ٢٠٦ ، ٢٩٩ ، ٢١١ ، ٢٢٦ .

العربية القفراء : ٦١ ، ٥٣ ، ٣٣ ، ٧١ ، ١١٧ ، ١٧٩ ، ٢١١ ، ٢٨٩ .

الجزيرة العربية : ٤٣ ، ٣٥ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٦ ، ١١٤ ، ١٦٦ ، ٢٤٣ ، ٢١٤ ، ٢٤٩ ، ٢٧٠ ، ٢٨٤ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٣٤٧ .

الرولة (قبية) : ٢٩٠ .

البتراء : ٩٩ ، ٦٩ ، ٣٥ ، ٣١ ، ١٧٩ ، ٢٠٩ ، ٢٠٧ ، ٢٠٥ ، ٢١٠ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢٢٧ ، ٣٤٩ .

الكسندر فون هومبولدت ، ٣٩٨ -

السلطان محمود : ٣٣٩ -

السلطان عبد الحميد : ٣٣٩ -

أريتريا : ٣٣ ، ٣٤ -

القبطان أويغ : ٣٨٥ -

الجرعاء (٣) : ٣٥ -

٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ،

٢٣٧ ، ٣٣١ ، ٣٧٤ ، ٣٥٤

٣٤٦ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ .

الجبسة : ٤٦ ، ٤٤ ، ٣٧ ، ٢٥ ،

٤٨ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٩ ، ٦١ ،

٦٢ ، ٦٤ ، ٧٨ ، ١٠٥ ، ٢٣٦ ،

٢٥٦ ، ٣٢٧ ، ٣٣٣ ، ٣٤٦ ،

٣٩٩ ، ٤٠٠ .

اليمين : ٢١ ، ٢٥ ، ٥٨ ، ٥٩ ،

٦٩ ، ٧٦ ، ٨٦ ، ١٠١ ، ١٠٣ ،

١٠٩ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١٣٣ ،

١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ،

١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ،

١٦١ ، ٢٠٧ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ،

٢٣٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٧٥ ،

٣٣٣ ، ٣٣٨ ، ٣٦١ ، ٣٧٦ ،

الافلاج : ٣١١ -

الامم المتحدة : ٣٧٦ -

امين بك : ٢٥٤ -

إيطاليا : ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٨ ، ٧٥ ،

٨٣ ، ١٤٢ ، ١٥٥ ، ٢٤٦ -

القنيفة : ٢٩٥ -

القدس : ٢٢ ، ٦٧ ، ٢٨٩ -

الحرية : ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٩٥ -

القطالانون : ٣٩ -

' ٧٩ ' ٧٦ ' ٧٣ ' ٧٢ ' ٧٠
 ' ٨٩ ' ٨٨ ' ٨٧ ' ٨٦ ' ٨١
 ' ١٣٦ ' ١٣٤ ' ٩١ ' ٩٠
 . ٣٨٠ ' ١٦٥
 المحيط الهندي : ٢٥ ' ٣٤ ' ٤٧
 . ٢٠٧ ' ١٣٥ ' ٥٨
 آسية الوسطى : ٢١١ .
 اثيليموس غالوس : ٣٤ ' ٣٦٠ .
 اوفير : ٢٨ .
 آفينون : ٢٥ .
 آريمتدور : ٣٤ .
 آغانا رشيد : ٣٤ .
 ايزيلون جابر (ميناء) : ٢٨ .
 ارسطو : ٢٩ .
 ايراتوستين : ٣١ ' ٣٢ .
 الميعينيون : ٨ ' ٣١ ' ٢٠٧ .
 الحريشة : ٣١٤ ' ٣١٥ .
 الامبراطور اوغسطس : ٣٢ .
 العقبة : ٣١ .
 ابو القداء : ١٣٨ ' ١٤٠ ' ١٤١
 . ٢٩١ ' ٢٨٥ ' ١٤٥
 الإدريسي : ١٣٨ ' ١٣٩ ' ٢٥٢
 . ٢٩١
 ابو بكر الصديق : ٤٤ ' ٢٣٩ .
 النبي اسحق : ٤٦ ' ٤٥ ' ١٢٢ ' ١٢٣ .

البندقية : ٣٦ ' ٣٨ ' ٣٩ ' ٥٢
 . ١٠٦ ' ٥٧
 المانيا : ١٥٤ ' ٢٣٧ .
 البرازيل : ١١٥ .
 الملك جان : ٢٣٧ .
 ارنولد فون هارف : ٣٨ .
 التوراة : ٢٧ ' ٢٨ ' ٤٢ ' ١٢٣
 . ٢٠٦ ' ١٥٥
 الحسن بن علي : ٩٧ ' ١٧٦ .
 الرس : ٢٤١ ' ٢٤٥ .
 ابن جبير : ٢٣ .
 السويس : ٨٠ ' ٨١ ' ٩٣ ' ١١٤
 . ٢١٢ ' ٢٣٤ ' ٣٢٥
 الخليج العربي : ٢٥ ' ٣١ ' ٣٣
 ' ٣٢٧ ' ٢١٥ ' ٨٤ ' ٥٧ ' ٣٥
 . ٣٣٢
 ايدومي : ٢٠٧ .
 ايدومة : ٢٠٦ .
 آدوم : ٢٠٦ ' ٢١٠ ' ٢١٢
 . ٢١٤
 آدم : ١٠١ ' ١٩٤ .
 افريقية : ٢٥ ' ٢٧ ' ٤٧ ' ٨٠
 . ٢٥٦ ' ١٣٣ ' ٨١
 البرتغال : ٢٧ ' ٤٧ ' ٤٩ ' ٥٧
 ' ٦٤ ' ٦١ ' ٦٠ ' ٥٩ ' ٥٨

النبي اسماعيل : ١٢٢ ، ١٢٣ ،
 ١٢٤ ، ١٩١ ، ٢٣٨ ، ٣٥٩ .
 ابراهيم الخليل : ٤٦ ، ٨٩ ، ٩٤ ،
 ٩٧ ، ١٠١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ،
 ١٨٦ ، ١٩٣ ، ٢٣٨ .
 الحسين بن علي : ٨٣ .
 استيفاء دي كاما : ٥٩ .
 آغا خان : ٥١ .
 الفونسو دي البركرك : ٥٨ .
 الباطنية (فرقة) : ٥١ .
 المسعودي : ١٣٧ ، ٢٥٢ .
 المقرنة : ٥١ .
 اياز (سوق) : ٥١ .
 النبي ايرب : ٢٠٦ .
 الكوليزيه : ٤٥ .
 الانباط : ٢١٠ .
 البنغال : ٤٤ ، ١٠٢ .
 النفرد (صحراء) : ٤١ ، ٦٦ ،
 ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ .
 الشيخ ابراهيم المسلم : ٢١٧ .
 ابن حوقل : ١٣٨ .
 جبل الاخضر : ٣٨٨ .
 انكبة : ٤٠ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٩٨ ،
 ١٠١ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ،
 ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٣ .

٢٣٧ ، ٢٠٠ .
 البحرين : ٥٧ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ،
 ١٧٠ ، ٢٣٠ ، ٣٨٣ .
 الشحر : ٥٩ ، ٧٣ ، ٧٨ ، ٧٩ ،
 ٨٠ ، ١٤٠ .
 انكلترة : ٢٩ ، ٥٩ ، ٧٣ ، ٧٦ ،
 ٨٨ ، ٨٧ ، ٩٢ ، ١٠٣ ، ١٠٩ ،
 ١٢٨ ، ١٣٦ ، ١٤٤ ، ١٥١ ،
 ١٥٤ ، ٢١٦ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ ،
 ٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٣٣٨ ، ٣٨٣ ،
 ٣٨٥ .
 النجا : ٩ ، ٦٤ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٦ ،
 ٧٧ ، ٨١ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ،
 ١٠٩ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١٥١ ،
 ٢١٤ ، ٢٥٢ ، ٣٢٨ ، ٣٣١ ،
 ٣٢٤ ، ٣٣٦ ، ٣٣٨ ، ٣٤٠ ،
 ٣٥٥ .
 البصرة : ٦٦ ، ٢٢٨ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ،
 ١٧٣ ، ١٧٧ ، ٣٨٣ .
 الحجر (منطقة) : ٢٨٥ .
 العراق : ٦٦ ، ٢٠١ ، ٢٧٣ .
 القطيف : ٦٩ ، ١٨٣ ، ١٠٣ ، ٣٨٣ .
 الانباط : ٦٩ .
 ام سليف : ٦٩ .
 الحديدية : ٧٣ ، ١٥٠ ، ٣٣٦ .

٢٠٣ ، ٢٠٢ ، ٢٠١ ، ١٩٨
 ٢٢٨ ، ٢٢٠ ، ٢١٣ ، ٢٠٤
 ٢٣٧ ، ٢٣٣ ، ٢٣١ ، ٢٣٠
 ٢٤٣ ، ٢٤٢ ، ٢٤١ ، ٢٣٩
 ٢٧٣ ، ٢٥٥ ، ٢٥١ ، ٢٥٠
 ٢٢٠ ، ٢٨٧ ، ٢٨٤ ، ٢٨٠
 ٣٨٤ ، ٣٨٣ ، ٣٨٢ ، ٣٣٦
 السيد سعيد : ٣٨٤ ، ٣٨٣ ، ٣٨٢ ، ٣٨٦

الشريف غالب : ١٩٩ ، ١٩٨
 الجوف : ٢٨٢ ، ١٨١ ، ١٥٩
 الاردن : ١١٧
 الادريسي : ١٣٧
 الهايلندرز (فرقة) : ١٣١ ، ٢٣١
 الكرنك : ٣١٤
 ابن بطوطة : ٢٥٢
 استانبول : ٢٤٩ ، ٢٤٦
 ابراهيم باشا المصري : ٢٤٢ ، ٤٣
 ٢٣٤ ، ٢٤٩ ، ٢٤٦ ، ٢٤٥
 الحجاز : ١٣ ، ١٤٠ ، ٢٣٣ ، ٢٥١
 ٢٥٢ ، ٢٧٠ ، ٢٧٣ ، ٣١٤
 السودان : ٢٩١
 الخرطوم : ٢٥٦
 الفرعة (عشيرة) : ٢٤٢
 الحفوف : ٤٤ ، ١٨٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥

٣٣٨ ، ٣٤٤
 امستردام : ١٠٧ ، ١٢٤
 الصعود (سفينة) : ٧٣
 الكسندر شاريه : ٧٣
 آب (مدينة) : ٧٥ ، ٨٣
 القسطنطينية : ٧٦ ، ٧٨ ، ٨١
 ٨٤ ، ٩٠ ، ٩٢ ، ١٠٦ ، ١١٢
 ٢١٨ ، ٢٣١ ، ٢٣٩ ، ٣٨٢
 ٣٨٩ ، ٤٠١
 الحجر : ١٣٨
 ازميز : ٩٢
 امير اورانج : ٧٨
 البحر : ٨٤ ، ٩٢
 الديبل : ٨٧
 افويه : ٨٨
 الجزائر : ٨٩ ، ٩٣ ، ٩٧ ، ١١٩
 ٣٤٢
 الانجيل : ٩٠
 ايليوت : ١٢٩
 انطونيو دي الميدا : ٩١
 ايرلندا : ٩٧ ، ١٤٣
 الدانرك : ١٥٤
 اماره ابي شهر : ١٧٠
 الوهاي ، وهايون : ١١ ، ١٢ ، ٩٢
 ١٠١ ، ١٨٥ ، ١٩١ ، ١٩٦

. ٣٠٩ ، ٣١٦ .
 العينية : ١٧٤ .
 ادوارد بوكوك : ١٤٣ .
 النبي هود : ٣٩٥ .
 ابن خلدون : ١٤١ .
 ادوارد نولد : ٣٠٨ .
 الهولة (عشيرة) : ١٦٨ ، ١٦٩ ،
 . ١٧٠ .
 الاصطخري : ١٤١ .
 المقدسي : ١٤١ .
 ابرامس : ١٤١ .
 الفجيلي (عشيرة) : ٢١٩ .
 المجمع العلمي الفرنسي : ١٤٣ .
 الجمعية العلمية الفرنسية : ١٧٧ .
 اللغة : ١٥١ .
 الحديقة : ١٥٢ .
 آسيا الصغرى : ١٥٤ .
 ابو علي (عشيرة) : ٣٨٦ .
 ابو عريش : ١٢ ، ١٥٨ ، ٢١٣ ،
 . ٢٥٣ ، ٢٦٣ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ .
 البارون كينفوس : ١٦٢ ، ١٦٣ .
 امير ابي شهر : ١٦٣ .
 الامير مهنا : ١٦٣ ، ١٧٢ .
 الزبير : ١٦٤ .
 الدورية : ٣١٠ .
 الهلال الحبيب : ٢٠٥ .
 الكويت : ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٨٣ ،
 . ٣٠٤ .
 اللورد بلونت : ٣٠٨ ، ٣١٧ .
 الليدي بلونت : ١٤ ، ٣٠٦ ، ٣٠٨ .
 الزينة : ٢٥٧ .
 المذنب : ٢٤٢ .
 اشقر (عشيرة) : ٢٤٢ .
 الدهناء : ١٤٠ ، ٢٤٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ،
 . ٣٠٧ ، ٣٠٩ ، ٣١٢ ، ٣١٣ .
 اهرنبورغ : ٣٣٣ .
 ابراهيم المسلم : ٢٤١ .
 آل رشيد : ٢٧٣ .
 الحسا : ١٦٤ ، ١٦٥ ، ٢٣٠ ، ٣٠٥ ،
 . ٣٠٩ .
 الهبرا : ٣٨٧ .
 القصم : ٢٤١ ، ٢٤٩ ، ٢٨٥ ، ٢٩٥ ،
 . ٣١٠ ، ٣٧٨ .
 الارخيل : ٢٣٥ .
 ابو نقطة : ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠١ ،
 . ٢٠٢ ، ٢٣٠ ، ٢٥٢ .
 اصلهان : ٣٩١ .
 الاقال : ٢٤٠ .
 الطارقة (عشيرة) : ١٧٠ .
 أين (مدينة) : ٤٠٠ ، ٤٠١ .
 الحناكية : ٢٤٦ ، ٣١٤ .

. ٣٠٩ ، ٣١٦ .
 العينية : ١٧٤ .
 ادوارد بوكوك : ١٤٣ .
 النبي هود : ٣٩٥ .
 ابن خلدون : ١٤١ .
 ادوارد نولد : ٣٠٨ .
 الهولة (عشيرة) : ١٦٨ ، ١٦٩ ،
 . ١٧٠ .
 الاصطخري : ١٤١ .
 المقدسي : ١٤١ .
 ابرامس : ١٤١ .
 الفجيلي (عشيرة) : ٢١٩ .
 المجمع العلمي الفرنسي : ١٤٣ .
 الجمعية العلمية الفرنسية : ١٧٧ .
 اللغة : ١٥١ .
 الحديقة : ١٥٢ .
 آسيا الصغرى : ١٥٤ .
 ابو علي (عشيرة) : ٣٨٦ .
 ابو عريش : ١٢ ، ١٥٨ ، ٢١٣ ،
 . ٢٥٣ ، ٢٦٣ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ .
 البارون كينفوس : ١٦٢ ، ١٦٣ .
 امير ابي شهر : ١٦٣ .
 الامير مهنا : ١٦٣ ، ١٧٢ .
 الزبير : ١٦٤ .
 الدورية : ٣١٠ .

الصفاء : ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢٣٨ .
 الحجر الأسود : ١٨٦ ، ١٩١ ، ٢٠٠ .
 المعازة : ٢٨٠ .
 الدرعية : ١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٨٣ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ .
 السيل (قرية) : ١٣ .
 المحيلة (قبيلة) : ٢٨١ .
 احمد باشا : ٢٥٤ ، ٢٦٢ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ .
 الطائف : ١٣ ، ٢٢٨ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٩ ، ٣٣٤ .

أبها : ٢٦٤ .
 اللجا : ٢١١ ، ٢١٩ .
 النعيم (عشيرة) : ٢١٩ .
 الطفيلة (عشيرة) : ٢٨١ .
 الحويري : ١٧٢ .
 الممداني : ٦ .
 القبطان اربي : ٢٢٧ .
 الايستوفاجيون : ١٦٦ .
 البريمي : ٣٨٦ ، ٣٨٧ .
 التكرونيون : ٢٥٦ ، ٢٦٣ .
 الدواسر : ٢٤٩ .
 السويدية : ٣٨٧ ، ٣٨٨ .
 الاسكندر : ٢٤٧ .
 الفيتوم : ٢٠٧ .
 المزدلفة : ١٩٥ .

ب -

بلقان : ٢٤ .
 بانز (الأب) : ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٧١ ، ٢١٤ ، ٣٨٠ .
 باب المنذب : ٣٤ ، ٤٨ ، ٨١ ، ٣٢٦ .
 بادجر : ٣٠٤ .
 باتريزي : ٣٨ .
 بطليموس : ٣٥ ، ٥٣ ، ١٣٣ .

بيبر : ١٩ ، ٢٠ .
 بوودو : ٣٤٨ .
 بالمرستن : ٣٤٠ .
 بلقيس : ٦٢ ، ٣٧٣ .
 بروفانسيه : ٢٠ .
 بواتيه : ٢٠ .
 بيزنطة : ٢٠ ، ٢٤ .
 ودران : ٢٢ .

باقافيا : ١٠٩ ، ١٦٢ ، ١٦٤ .
 بيتروفوسكال : ١٤٦ .
 بریم : ١٠٩ .
 بیورجون : ٧٠ ، ١٣٥ .
 برج بلعاف : ٢٥٣ .
 بیت الفقیه : ١١٤ ، ١٥١ ، ١٥٢ ،
 ٢١٣ ، ٣٣٤ ، ٣٤٤ ، ٣٥٥ .
 بکین : ٢٠٦ ، ٣٨٩ .
 بورنو : ٢٥٦ .
 بانک ولغ : ٢٢٧ .
 بورتولان : ١٣٤ .
 بلوجشستان : ٣٨٣ ، ٣٩١ .
 بنو قحطان : ٢٩٢ ، ٢٩٥ .
 بکیل : ١٥٩ .
 بصری : ٢٤٥ .
 بروسیه : ٣٨ ، ٥٣ .
 ب. سرجنت : ٧٩ .
 بیتوفان دون بروکه : ٧٧ ، ٧٩ ،
 ٨٠ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٦ ،
 ٨٧ ، ٨٨ ، ١١٥ .
 برسابا : ١٢٣ .
 بانیا نیوت : ٨١ ، ٨٤ ، ١١٣ ،
 ١٦٩ ، ٢٣٠ ، ٢٦٩ ، ٣٨٥ .
 برینه : ١٠٥ .
 بالینوروس (سفینه) : ٣٢٥ .

١٣٧ ، ٢٠٦ ، ٣٥٠ .
 بولونیا : ٢٨ .
 بدرودی کوفیلها : ٣٧ .
 باتتام : ٧٧ ، ٧٩ .
 بیروت ، ٣٩ ، ٣٠٥ .
 بلجج : ٥٠ .
 بوکوک : ٣٩٩ .
 بورکهاردت : ١٤ ، ٤٥ ، ١٠١ ،
 ١٢٠ ، ٢٠٥ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ،
 ٢١٤ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ،
 ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ،
 ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٣ ،
 ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ،
 ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ،
 ٢٥٢ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ ،
 ٢٨٢ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٤ ،
 ٣٠٧ .
 بکنفهام : ٦٥ .
 بیجا : ٣٥٣ .
 بابل : ٦٦ .
 باویس : ٦٧ ، ١٠٤ ، ١٠٨ ، ١١٤ ،
 ١٣٦ ، ١٤٣ ، ١٨٥ ، ٢٤٨ ،
 ٢٥٤ ، ٢٨٨ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ .
 باربیه : ١٣٦ ، ١٤٧ ، ٢٤٧ .
 بیتوز کوبین : ٨٠ .

٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ،
 ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ،
 ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ،
 ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ،
 ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ،
 ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ،
 بيشه : ٢٣٣ ، ٢٦٣ ، ٢٦٥ ، ٣٥٦ ،
 بومبيوس : ٢٠٧ ،
 بندر نخلو : ١٦٩ ،
 بغداد : ١٦٥ ، ١٧٣ ،
 بطرسبرج : ٣٨٨ ، ٣٨٩ ،
 بندربك : ١٧٠ : ١٧٢ ،
 بلاطات ، ٢٦٩ ،
 بلي : ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٨ ،
 ٣٠٩ ،
 بنو كعب : ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ،
 باب السلام : ١٨٩ ، ١٩٠ ، ٣٠٠ ،
 باب السعادة : ١٨٩ ،

٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٤٩ ، ٣٥٣ ،
 ٣٨٠ ، ٣٨٥ ، ٣٩٨ ،
 بونديشيري (سفينة) : ١٠٩ ،
 بروس : ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ،
 بندر عباس : ١٦٩ ، ٣٨٢ ، ٣٨٩ ،
 بلايستند : ١٢٨ ، ١٢٩ ،
 بشر البرود : ١٣ ، ٢٥٧ ،
 بومباي : ١٤٥ ، ٢٣٥ ، ٢٤٣ ،
 ٢٤٦ ، ٣٠٤ ، ٣٣٦ ،
 بحر الصافي ، ٣٩٦ ، ٣٩٨ ، ٤٠٠ ،
 بو شهر : ١٦٩ ، ١٧٢ ،
 بول اميسل بوتا : ٣٦١ ،
 بو خم ، ١٦٣ ،
 بريده : ٢٤٢ ، ٣١٠ ، ٣١١ ،
 بني خالد (عشيرة) : ١٦٥ ، ٢٤٢ ،
 بني صقر (عشيرة) : ٢٨٩ ،
 بحرة : ١٣ ، ٢٥٧ ،
 بلغريف : ٢٤٦ ، ٢٨٨ ، ٢٩٧ ،

— ت —

١١٩ ، ١٢١ ، ١٢٦ ، ١٤٩ ،
 ١٨١ ، ٢١٢ ، ٢١٨ ، ٢٢٨ ،
 ٢٢٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ ،
 ٢٣٧ ، ٢٥٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ،
 ٣٧٢ ، ٣٨٩ ،
 تمّنة (مدينة) : ٣١ ،

تركية : ٩ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٣٨ ،
 ٣٩ : ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ،
 ٦٤ ، ٦٨ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٥ ،
 ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ٨١ ، ٨٢ ،
 ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ١٠١ ، ١٠٦ ،
 ١١٠ : ١١٢ ، ١١٤ ، ١١٥ ،

تغز : ۱۰ ، ۵۰ ، ۷۶ ، ۷۷ ، ۸۲ ،

۸۷ ، ۱۰۹ ، ۱۳۴ ، ۱۵۱ ،

۳۶۱ .

تريم : ۶۱ .

تدر ۱۲۹ ، ۱۰۶ .

تير : ۳۳۹ .

تباله : ۲۳۳ .

تراجان : ۲۷ .

تونس : ۱۲۹ .

توبه : ۲۳۳ .

تور كجه پيليز : ۲۵۲ .

قيم : ۱۴۰ .

تود سيني : ۲۴۱ .

توبك : ۲۸۴ ، ۲۸۷ .

تنامه : ۲۳۰ ، ۲۶۷ ، ۳۳۰ ، ۳۴۸ ،

۳۷۸ .

تباء : ۸۷ ، ۲۹۴ .

تسانيه : ۲۶۳ .

توماس كيث : ۱۳ ، ۲۳۱ .

تاميزيه : ۱۳ ، ۱۲۴ ، ۲۳۲ ، ۲۳۷ ،

۲۵۳ ، ۲۵۴ ، ۲۵۵ ، ۲۵۶ ،

۲۵۷ ، ۲۵۸ ، ۲۵۹ ، ۲۶۰ ،

۲۶۲ ، ۲۶۵ ، ۲۶۶ ، ۲۶۸ ،

۲۶۹ ، ۳۲۶ ، ۳۳۷ ، ۳۵۵ .

- ث -

ثمود : ۹۹ ، ۱۴۰ ، ۲۸۴ ، ۲۸۵

ثيوفراست : ۲۹ .

- ج -

۷۶ ، ۸۶ ، ۱۰۹ ، ۱۱۴ ،

۲۳۳ ، ۲۳۵ ، ۲۳۶ ، ۲۳۸ ،

۲۴۲ ، ۲۴۶ ، ۲۵۳ ، ۲۵۵ ،

۳۴۲ ، ۳۶۰ ، ۴۶۲ .

جزيرة قران : ۴۸ .

جيزان : ۴۸ ، ۶۹ ، ۲۵۲ ، ۲۳۷ ،

۳۳۴ .

جوزيف بيكس ديكتور : ۹۲ ،

۹۸ ، ۹۸ ، ۱۰۰ .

جون جوزداين : ۷۳ ، ۷۴ ، ۷۶ ،

۸۲ ، ۸۶ .

جورجيه : ۲۰ .

جبرائيل : ۱۸۶ ، ۲۰۳ ، ۲۳۸ .

جزيرة كاندي : ۶۷ .

جزيرة (غراي) : ۲۳ .

جبال القمر : ۳۸ .

جدة : ۴۴ ، ۶۰ ، ۶۸ ، ۷۴ ،

جيو فاسيوم (الشيخ منصور) :

٠ ٣٨٣

جنتيلي : ٠ ٢٤١

جبل أبي قبس : ٠ ١٠١

جبل شمر : ٠ ٢٩٥

جاك ولتجه : ٠ ٣٠٢

جزيرة ديو : ٠ ١١٢

جبل الكرميل : ٠ ١١٨

جوان دي لا كوزا : ٠ ١٣٤

جيزينيوس : ٠ ٣٥٧

جيلديستر : ٠ ٣٥٧

جورج - نيل : ٠ ١٣٥

جاكو بوغا ستالدي : ٠ ١٣٥

جزيرة أل : ٠ ٢٤١

جامعة غوتنجن : ٠ ٩ ، ١٠ ، ١٤٤

٠ ١٥٥

جوليف : ٠ ٢٢٧

جوزف وولف : ٠ ٣٦١

جورج غيوم بورتفانيد : ٠ ١٤٦

جزارة (مدينة) : ٠ ٢١١

جورج سابا شبر : ٠ ١٩٧

جبل عرفات : ٠ ١٨٧ ، ١٩٤ ، ١٩٥

٠ ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٣٨

جبل النور : ٠ ٢٠٣

جبل الطور : ٠ ٢٢٦

جان سترويس : ٠ ٣٨١

جيهان نامه : ٠ ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢

جومار : ٠ ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٢

٠ ٢٥٧ ، ٢٧٠

جبة (قرية) : ٠ ٢٨٤ ، ٢٨٥

٠ ٢٩٩ ، ٣٠٧

جون جوردان : ٠ ٣٢٨

جوزيف هاليفي : ٠ ٣٦٠

جزيرة خوريا موريا : ٠ ٦٠

جواوكاستر : ٠ ٥٩

- ج -

حايد : ٠ ٣٤٨ ، ٣٨٧

حواء : ٠ ٢٥٥

حائل : ٠ ١٤ ، ٢٨٧ ، ٢٩١ ، ٢٩٣

٠ ٢٩٥ ، ٣٠٣ ، ٣٠٧ ، ٣١٨

حوران : ٠ ٤٠ ، ٢١١ ، ٢٩٦

حاجي خليفة : ٠ ١٤١

حاشد : ٠ ١٥٩

حداء : ٠ ١٣

حصن القراب : ٠ ٣٥٠ ، ٣٥٢

٠ ٣٥٣ ، ٣٥٧ ، ٣٥٩

٢٩٣ ، ٢٩٢ ، ٣٨٠ ، ٣٦٩
 ٤٠١ ، ٣٩٩ ، ٣٩٨ ، ٣٩٤
 حلب : ٣٩ ، ٨٠ ، ١١٩
 حمير ، حميرية : ٨ ، ١٠ ، ٢٨٤
 ٣٥٣ ، ٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠
 ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩

حواز : ٥١ ، ٢١٩
 حجة : ٢١٣
 حضرموت : ٣٤ ، ٣٥ ، ٦٠ ، ٦١
 ٦٢ ، ٧١ ، ٧٩ ، ١٣٧ ، ١٤٠
 ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٥٩ ، ١٦٠
 ٢٠٧ ، ٢٣٥ ، ٢٦٩ ، ٣٥٣

خ

خوزي (جزيرة) : ١٦٣
 خارج (جزيرة) : ١٦٢ ، ١٦٣
 ١٦٤
 خور وودي : ٣٥
 خولان : ١٥٩
 خط الاستواء : ١٥٩

خير : ٤٢ ، ٩١ ، ٢٩٤
 خفوة زامل : ٣٠
 خرا : ٣٤١
 خنفر : ٦٤
 خنيس مشيط : ١٤ ، ٢٣٣ ، ٢٦٨
 خرام شهر : ١٧٢

د

داريوس : ٣٣
 دي كوجه : ٦
 دي لا غرولودليير : ١٠٩ ، ١١٠
 ١١٢ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١٣٦
 دغتي (عشيرة) : ٤٢ ، ٣٠٦
 ٣٠٧ ، ٣٥٣
 دون مانويل : ٥٢
 داميار دي غويس : ٦٥

دمشق : ٢٢ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٦
 ٤٧ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٨٠
 ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٢ ، ١٨٢
 ١٨٥ ، ١٨٦ ، ٢٠٧ ، ٢١٨
 ٢١٩ ، ٢٣١ ، ٢٩٦
 ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٤٨
 داوود هنري مار : ٦
 ديودور : ٣٠

دوفور : ٢٥٦ .
 دارفيو : ١٣٨ ، ٢٤٨ ، ٢١٧ ،
 ٢١٨ ، ٢٢٣ .
 دومنغو باديا اي بليخ : ١١ ، ١٤ ،
 ١٨٤ .
 دومينيك فيفان دينون : ٢٤٨ .
 دهار بلوت : ١٤١ .
 دسكرة الزبير : ١٧٧ .
 ديوروس : ٢٠٦ .
 دنقلة : ٢٥٦ .
 دردش : ٣٧٨ .

دي هيوس : ٦٥ .
 دي لاروك : ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٨ ،
 ١٠٩ ، ١١٥ ، ١١٩ ، ١٢٩ ،
 ١٣٨ ، ١٤٥ ، ٢٤٧ .
 دي غالتدا : ١٠٤ .
 دوم استياديو دي غاما : ٣٢٥ .
 دكستير : ٩ .
 دجلة : ١٢٨ .
 ديدان : ٢١٠ .
 دانقيل : ١٣٦ ، ١٤٠ ، ١٤٥ .

— ذ —

ذمار : ٥٠ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ١٠٩ ، ١٣٥ ، ١٤١ ، ١٥٢ ، ١٥٨ .

— ز —

زينولد دي شاتيون : ٢٢ ، ٢٣ ،
 ١١٨ ، ٢٤٤ .
 رأس الرجاء الصالح : ٤٧ ، ٥٧ ،
 ٧٢ ، ٧٣ ، ١١٧ ، ١٣٣ ،
 ٣٢٩ ، ٣٣٢ .
 رأس غردوفي : ٥٨ ، ٦٥ .
 زوتورو (كتاب) : ٥٩ .
 زوي غونسلافر دي كاميرا : ٦٠ .
 رأس الكتيب : ٦٩ .
 زيولم : ٩٣ .

زوديجير : ٣٥٧ ، ٣٥٩ .
 زيمي اوشر ايلوي : ٣٧٨ ، ٣٨٩ ،
 ٣٩٠ ، ٣٩١ .
 رأس الحيمة : ٣٨٣ .
 روما — رومان : ١٩ ، ٣٢ ، ٣٨ ،
 ٤٠ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٩٠ ، ٩١ ،
 ١١٧ ، ١١٨ ، ٢٠٦ ، ٣٠٥ .
 ريكمانس : ٢٦٧ ، ٢٨٤ ، ٣٦٥ .
 رافس : ١٩ .
 رينو : ١٨٣ .

رأس حتي : ١٦٩ .
 روبل : ٣٣٣ .
 رينه (مدينة) : ٢٤٣ .
 رومنه : ٣٢٦ .

رابع : ٩٣ .
 ريتشارد بوكوك : ٩٧ .
 رأس شرمه : ٣٥٥ .
 رأس بردستان : ١٦٩ .
 روسيا : ٣٨٨ ، ٣٨٩ .

- ز -

ز : ٣٣٤ ، ٣٤٤ .
 زيلع : ٦٥ .
 زنجبار : ١٢ ، ٣٤٧ .
 زامل : ٢٩٤ .
 زومير : ٣٠٩ .

زوزم : ٤٥ ، ١٨٤ ، ١٨٧ ، ١٩٠ ،
 ١٩٢ ، ١٩٦ ، ٢٣٨ ، ٣٤٣ .
 زنوبيا : ٢٠٦ .
 زيسد : ٥٢ ، ٦٥ ، ٦٩ ، ٨٧ ،
 ١٣٤ ، ١٥١ ، ١٥٨ ، ٢١٣ .

- س -

سيتزن : ١٠ ، ٢٠٥ ، ٢١٠ ، ٢١١ ،
 ٢١٢ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ،
 ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ،
 ٢٣٠ ، ٣٤٩ .
 سوقطرة : ٢٥ ، ٣٨ ، ٤٩ ، ٥٢ ،
 ٥٩ ، ٨٦ .
 سليمان (الملك) : ٢٧ ، ٣١ ، ٦٢ ،
 ٨١ ، ٢٨٤ .
 ساحل سنا : ٣٨٤ .
 سبأ : ٨ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ،
 ٣٢ ، ٣٥ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ .

سرة (قبيلة) : ٢٨٣ .
 ستوننج : ٣١٤ .
 سانتياغو : ٣٢٩ .
 ستيدوفو : ٣٣٧ .
 سهل الرستاك : ٣٨٥ .
 سورية : ٢٠ ، ٣٨ ، ٥١ ، ١١٨ ،
 ١٢٨ ، ١٣٩ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ ،
 ٢١١ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ،
 ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٣٥ ، ٢٧٣ ،
 ٢٨٣ ، ٢٨٩ ، ٢٩٩ ، ٣٢٣ ،
 ٣٣٨ ، ٣٤٠ ، ٣٤٥ ، ٣٤٩ .

سوفرن : ٣٢٩ .
 سيناء : ٣٨ ، ١٢٠ ، ٢١٩ ، ٢٢٨ ،
 . ٢٧٥ ، ٣٨٩ .
 سعود بن عبد العزيز : ١٤ ، ١٨٣ ،
 ١٨٤ ، ١٩٨ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ،
 . ٢٠٣ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ .
 سلمان بن سلطان : ١٧٣ .
 سدوم : ٦٨ ، ٩٩ ، ٢١٠ .
 سكوتو : ٢٤٣ .
 سيل علام : ٩٨ .
 سدوس : ٣٠٥ .
 سفليجي : ٢١٣ .
 سلالا : ٦٩ .
 سياستيان : ١٠٤ .
 سيلان (عشيرة) : ٢٩٦ .
 سانت مالو : ١٠٠ : ١١٥ .
 سهل الحامض : ٢٢٩ .

٦٩ ، ٨١ ، ١٥٩ ، ٢٠٧ ،
 ٣٤٥ ، ٣٤٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٣ ،
 . ٣٦٤ ، ٣٧٩ .
 سيرافان : ٣٤٢ .
 سيلاس جاييس : ٣٣٠ ، ٣٣١ .
 سوشيو : ٢٤١ .
 سواكن : ٢٥٦ .
 سيلان : ٣٨ .
 سميت : ٣٥٥ .
 سادليير ، ٢٤٣ : ٢٤٤ ، ٢٤٥ ،
 ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥٠ ، ٣٠٨ ،
 . ٣٠٩ .
 ساكس غوتا : ٢١٠ .
 ستارك : ٦٢ ، ٣٩٣ ، ٣٩٩ .
 سفر الملوك : ٢٧ .
 سفورزا : ٥٣ .
 سيلب : ٣٨٧ .
 سلطنة قشن : ٥٩ ، ٧٣ ، ٧٩ .

— ش —

١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ،
 ١١٩ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٥ ،
 ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤١ ،
 ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٩ ، ١٥١ ،
 ١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ،
 ١٧٤ ، ١٧٨ ، ١٨١ ، ١٨٥ ،
 ١٩٨ ، ٢٠٥ ، ٢١٢ ، ٢١٦ ،

شبه الجزيرة العربية : ٢٢ ، ٢٣ ،
 ٢٤ ، ٢٥ : ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ،
 ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٨ ،
 ٤١ ، ٤٧ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٧ ،
 ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٦ ، ٦٩ ، ٧٠ ،
 ٧١ ، ٧٢ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٨ ،
 ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٢ ،

شیراز : ۱۰۰ ، ۱۷۲ ، ۳۹۱ .
 شاتوبریان : ۱۸۵ .
 شبام : ۶۲ ، ۱۳۵ ، ۱۴۰ ، ۱۴۱ .
 ۱۴۲ ، ۳۵۳ .
 شریف مكة : ۱۴ .
 شعر : ۲۴۹ ، ۲۷۳ ، ۲۷۷ ، ۲۷۹ .
 ۲۸۳ ، ۲۸۴ ، ۲۸۵ ، ۲۸۹ .
 ۲۹۱ ، ۲۹۶ ، ۳۱۸ .
 شیدوفو : ۲۵۳ ، ۲۷۰ .
 شعب مطروق : ۲۶۲ .
 شيسان : ۳۱۶ .
 شخاص : ۳۸۸ .

۲۱۷ ، ۲۱۸ ، ۲۲۸ ، ۲۳۱ .
 ۲۳۲ ، ۲۳۳ ، ۲۳۴ ، ۲۳۷ .
 ۲۳۸ ، ۲۴۴ ، ۲۴۶ ، ۲۴۹ .
 ۲۵۱ ، ۲۵۵ ، ۲۶۹ ، ۲۷۰ .
 ۲۷۳ ، ۲۸۶ ، ۲۹۸ ، ۳۰۰ .
 ۳۰۳ ، ۳۰۶ ، ۳۰۸ ، ۳۲۱ .
 ۳۲۲ ، ۳۲۶ ، ۳۳۷ ، ۳۴۶ .
 ۳۴۷ ، ۳۶۰ ، ۳۷۰ ، ۳۸۸ .
 شط العرب : ۱۷۳ ، ۳۸۳ .
 شيخ سير : ۱۶۹ .
 شقرا : ۲۴۲ ، ۲۴۵ ، ۳۱۱ .

- ص -

صنعاء : ۴۹ ، ۵۱ ، ۵۹ ، ۶۱ .
 ۵۳ ، ۷۳ ، ۷۴ ، ۷۶ ، ۷۷ .
 ۷۸ ، ۸۰ ، ۸۲ ، ۸۳ ، ۸۵ .
 ۸۶ ، ۸۷ ، ۱۳۴ ، ۱۳۵ .
 ۱۴۱ ، ۱۵۲ ، ۱۵۸ ، ۱۵۹ .
 ۲۱۳ ، ۲۱۴ ، ۳۴۱ ، ۳۵۵ .
 ۳۶۳ ، ۳۶۹ .

صلاح الدين الايوبي : ۲۳ .
 صابئة (فرقة) : ۱۶۵ .
 صقلية : ۳۹ ، ۱۳۷ .
 صيداء : ۱۱۸ .
 صور : ۲۰۷ .
 صربيا : ۳۹ .

- ض -

ضهر عباس : ۱۶۹ .

- ط -

طليطة : ۲۱ .
 طويق (جبال) : ۳۱۱ .

طرابلس الغرب : ۲۰ .
 طرابلس : ۳۹ ، ۶۷ .

٢٤٠ ، ٢٤١ .

طهراز : ٩٩ .

طهران : ٣٨٩ .

طلال بن الرشيد : ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ،

٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ .

طوسن باشا : ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٣٣ ،

- ع -

علو (قبيلة) : ١٦٩ .

عرعر : ١٦٥ .

عنزة : ٢١١ .

عسير : ١٢ ، ١٣ ، ١٩٨ ، ٢٣٠ ،

٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٨ ،

٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٣٣٤ ،

٣٦٢ .

عبد القادر الجزائري : ٣٤٨ .

عيت : ٢٦٣ .

عبد الله بن سعود : ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٤٠ .

عبد الله بن فيصل : ٢٩٢ .

عبيد بن الرشيد : ٣٠٠ .

عبد الله بن الرشيد : ١٤ ، ٢٧٣ ،

٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٩٥ .

عبد الهود : ٣٩٢ ، ٣٩٥ .

عنيزة (قبيلة) : ٢٤٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ،

٢٩٥ ، ٣١١ .

عتيبة : ١٣ ، ٢٤٢ ، ٢٥٨ ، ٢٦٣ ،

٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ .

عايض : ٢٥٢ ، ٢٦٦ ، ٢٦٩ .

عمر ابن الامير : ٣٠٧ .

عبيدة (عشيرة) : ٣٧١ .

عيلام : ٢٠ .

عمودة : ٤١ ، ٤٢ ، ٦٨ ، ٩٩ ، ٢١٠ .

عدن : ٢٥ ، ٣٨ ، ٤٨ ، ٤٩ ،

٥٠ ، ٥٢ ، ٥٨ ، ٦٥ ، ٦٩ ،

٧٣ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٦ ،

١٠٦ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٥٧ ،

٣٧٠ .

علي بك العباسي : ١١ ، ١٤ ، ٩٤ ،

١٨١ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٨ ،

١٨٩ : ١٩٠ ، ١٩٥ ، ١٩٨ ،

١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٢١٤ ،

٢٣٣ ، ٢٣٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ،

٣٤٦ .

عبران - عبري : ٤٢ ، ١١٩ ، ١٤٢ ،

١٥٥ ، ١٥٧ .

عمر بن الخطاب : ٤٤ : ١١٠ ، ٢٤٠ .

عثمان بن عفان : ٤٤ .

صمان : ٥٧ ، ١٥٤ ، ١٦٢ ، ١٧٢ ،

٣٠٣ ، ٣٥٤ ، ٣٨٠ ، ٣٨٣ ،

٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٨٩ ، ٣٩١ .

عبد العزيز بن سعود : ١٨٢ ، ١٨٣ ،

٢٥١ ، ٢٩٤ ، ٣٠٩ .

- غ -

غوارماني : ۲۹۰ ، ۲۸۹ ، ۲۷۲ ،
 ۲۹۱ ، ۲۹۳ ، ۳۹۲ ، ۲۹۴ ،
 ۲۹۵ ، ۲۹۶ ، ۳۰۸ ،
 غيزو : ۳۳۹ ، ۳۴۰ ،
 غوكنز : ۳۷۶ ،
 غليوم آدم : ۲۵ ،
 غرينوريو / داسكوارد : ۶۵ ،
 ۶۶ ، ۷۸ ،
 غريليز : ۱۲۸ ، ۱۲۹ ،
 غزة : ۲۰۷ ،
 غاسباريس : ۳۸۲ ،
 غالنيه : ۳۲۶ ، ۳۳۷ ،

فلسطين : ۲۰ ، ۲۱ ، ۲۳ ، ۳۸ ،
 ۱۱۸ ، ۱۱۹ ، ۲۰۵ ، ۲۰۷ ،
 ۲۱۸ ، ۲۲۶ ، ۲۸۹ ، ۳۸۹ ،
 فاطمة بنت محمد : ۴۴ ، ۲۴۰ ،
 فاوس - الفرس : ۱۰ ، ۳۰ ، ۴۴ ،
 ۴۸ ، ۵۳ ، ۶۹ ، ۷۹ ، ۸۰ ،
 ۸۴ ، ۸۸ ، ۸۹ ، ۹۸ ، ۱۵۱ ،
 ۱۵۴ ، ۱۶۳ ، ۱۶۶ ، ۱۶۷ ،
 ۱۶۹ ، ۱۷۰ ، ۱۷۲ ، ۳۸۹ ،
 فرنسا - فرنسي : ۲۲ ، ۲۵ ، ۱۰۴ ،
 ۱۰۷ ، ۱۰۸ ، ۲۰۹ ، ۱۱۲ ،
 ۱۲۸ ، ۱۴۲ ، ۱۴۴ ، ۱۸۶ ،
 ۲۰۳ ، ۲۳۷ ، ۲۴۸ ، ۲۵۳ ،
 ۲۶۹ ، ۲۷۷ ، ۳۲۶ ، ۳۳۸ ،
 ۳۳۹ ، ۳۴۵ ، ۳۷۱ ، ۳۸۵ ،
 ۳۸۸ ، ۳۹۸ ،
 فيرة : ۳۲۶ ، ۳۳۷ ،

- ف -

فيترول : ۳۵ ،
 فالاشين : ۳۹ ،
 فاسكو دي غاما : ۴۷ ، ۷۲ ، ۱۳۳ ،
 ۱۳۴ ، ۱۳۵ ،
 فورسكال : ۱۵۱ ، ۱۵۲ ،
 فارسستان : ۲۰ ،
 فسان بلان : ۶۶ ، ۶۷ ، ۶۸ ،
 ۷۰ ، ۱۳۵ ، ۲۰۷ ،
 فون وريد : ۳۹۲ ، ۳۹۴ ، ۳۹۵ ،
 ۳۹۸ ، ۳۹۹ ، ۴۰۰ ، ۴۰۱ ،
 فان هاوتنغ : ۱۶۳ ،
 فايين : ۸۵ ،
 فون دون پروكه : ۹ ،
 فوزليه : ۱۰۵ ،
 فرنو : ۱۳۵ ،
 فيلكه : (جزيرة) ۱۶۴ ،
 فيرساي : ۱۱۲ ،

فلسطين : ۲۰ ، ۲۱ ، ۲۳ ، ۳۸ ،
 ۱۱۸ ، ۱۱۹ ، ۲۰۵ ، ۲۰۷ ،
 ۲۱۸ ، ۲۲۶ ، ۲۸۹ ، ۳۸۹ ،
 فاطمة بنت محمد : ۴۴ ، ۲۴۰ ،
 فاوس - الفرس : ۱۰ ، ۳۰ ، ۴۴ ،
 ۴۸ ، ۵۳ ، ۶۹ ، ۷۹ ، ۸۰ ،
 ۸۴ ، ۸۸ ، ۸۹ ، ۹۸ ، ۱۵۱ ،
 ۱۵۴ ، ۱۶۳ ، ۱۶۶ ، ۱۶۷ ،
 ۱۶۹ ، ۱۷۰ ، ۱۷۲ ، ۳۸۹ ،
 فرنسا - فرنسي : ۲۲ ، ۲۵ ، ۱۰۴ ،
 ۱۰۷ ، ۱۰۸ ، ۲۰۹ ، ۱۱۲ ،
 ۱۲۸ ، ۱۴۲ ، ۱۴۴ ، ۱۸۶ ،
 ۲۰۳ ، ۲۳۷ ، ۲۴۸ ، ۲۵۳ ،
 ۲۶۹ ، ۲۷۷ ، ۳۲۶ ، ۳۳۸ ،
 ۳۳۹ ، ۳۴۵ ، ۳۷۱ ، ۳۸۵ ،
 ۳۸۸ ، ۳۹۸ ،
 فيرة : ۳۲۶ ، ۳۳۷ ،

٣٢٠ ، ٣١٧ ، ٣١٥ ، ٣١٣
 . ٣٦٥ ، ٣٢١
 فولني : ٢٠٦ ، ٢٠٥ .
 فورستر : ٣٥٧ .
 فيرجيل : ٢٠٦ .
 فيصل بن سعود : ٢٧٣ ، ٢٩٢ ،
 . ٢٩٤
 فريسنل : ٢٥٢ ، ٢٦٩ ، ٢٧٥ ،
 ٣٤٢ ، ٣٤٥ ، ٣٦٠ ، ٣٦٢ ،
 ٣٧٩ ، ٣٩٣ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ،
 . ٤٠١
 فرانسوا بالسان : ٣٦١ .
 فالانسيا : ٣٢٥ ، ٣٢٧ ، ٣٣٢ ،
 . ٣٣٧

فروسو : ١٥٠ .
 فرانسيكو رودريغر : ١٣٥ .
 فيكتور عمانوئيل : ٢٨٩ .
 فرامورد : ١٣٤ .
 فايبيير : ٢٤١ ، ٣٤١ .
 فاندرو هولست : ١٦٣ .
 فون ويسمان : ١٤٢ ، ٤٠٠ .
 فونس (الأخ) : ١٢١ .
 فريديريك الخامس : ١٤٤ .
 فريديريك فون هافن : ١٤٦ ، ١٥٢ ،
 فون زاخ : ٢١٠ ، ٢١٣ ، ٢١٤ .
 فردنند وستفالد : ٦ .
 فيليبي : ١٨٢ ، ١٩٧ ، ٢٤٧ ، ٢٦٤ ،
 ٢٦٧ ، ٢٨٤ ، ٣١١ ، ٣١٢ ،

— ق —

قولي خان : ٩٩ .
 قبالة : ١٠٩ .
 قبرص : ١٥٤ .
 قشم : ٣٨٢ .
 قزوين (بحر) : ١٠ ، ٢٦٨ .
 قادس : ١٨٥ .
 قسمة : ٢١٣ .

قوقاز : ٢٠ .
 قلعة المقارنة : ٦٩ .
 قرطاجة : ٥٢٠ .
 قرقاصون : ٥٢٠ .
 قتبانيون : ٨ ، ٣١ .
 قربان : ٥٨ .
 قنا : ٦٩ .
 قانا (ميناء) : ٧٠ .

ك. ميلار : ١٣٧ .	کردستان : ٢٠ .
كو كبان : ١٥٩ .	كجرات : ٧٦ .
كالب (عشيرة) : ١٦٥ .	كوك : ٢٠ .
كونك (مدينة) : ١٦٩ .	كولونيا : ٣٨ .
كران : ٣٤٤ .	كنعان : ١٢٣ .
كشير : ٩٩ .	كلكوتا : ٥٧ ، ٥٢ .
كجرازة : ٢٠٦ .	كولونا : ٥٣ .
كبيرتان : ٧٥ .	كاوفاجال : ٥٣ .
كو كيل (شركة) : ٢٨٩ .	كربلاء : ٦٦ ، ١٨٣ ، ٣٩١ .
كامبردج (جامعة) : ٣٠٩ .	كويب : ٣٢٦ ، ٣٣٧ ، ٣٥٥ .
كونتيه سومرست : ٣١٤ .	كريم خان : ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٣ .
كيولس : ٣٣٤ .	كامر : ١٥٢ .
كارلوس : ١٣٥ .	كامباي : ١١٢ .
كارتز : ٣٥٠ .	كومودوس (جزيرة) : ٧٩ .
كروستد : ٣٥٠ .	كاتينرو : ١٣٤ .
كوتدن : ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٦ .	كونستان : ٢١٤ .

ل. ١٤٥ ، ١٩٣ ، ٢١٠ ، ٢٩١ .	ليبيا : ٢٠ .
لويس فارتيا : ٨ ، ٣٨ .	لوبو صوارز دي البرغايا : ٦٠ .
لشونه : ٥٢ ، ٥٨ .	لودفيكو دي فارتيا : ٣٦ ، ٣٧ .
لوفان (جامعة) : ٣٧٦ .	٣٨ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٦ .
لج : ٦٤ .	٤٧ ، ٤٨ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ .
لوزان : ٢١٦ .	٧٨ ، ٨٢ ، ٩٩ ، ١٠٩ ، ١٣٤ .

ليوبولد فان بوخ : ٣٩٨ .
 لورانس : ٢٥٤ .
 لورستان : ٣٧٩ .
 لويس فيليب : ٣٣٩ ، ٣٤٤ ، ٣٤٧ ،
 ٣٤٨ .
 ليون لابورد : ٣٤٩ .
 لنجة : ١٦٩ .
 لويس دي كوريت : ٣٢١ .
 لويس دي فيل : ٣٤٥ .

ليل : ٣١٠ .
 لويس الخامس عشر : ١١٤ ، ١٣٦ .
 لويس الرابع عشر : ١١٨ .
 لويس دارفيو : ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ،
 ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ،
 ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٤ .
 لويس دي كوره : ٣٤٦ .
 لندن : ١٢٨ ، ١٨٥ ، ٢٧٣ ، ٣٠٣ ،
 ٣٩٨ .

— م —

مطرح : ٥٨ ، ٣٩١ .
 مصر - مصري : ١٢ ، ٢٠ ، ٢٨ ،
 ٣٣ ، ٣٩ ، ٤٨ ، ٥٣ ، ٥٨ ،
 ٩١ ، ٩٧ ، ١٠٦ ، ١١٤ ،
 ١٧٧ ، ١٨١ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ،
 ٢٠٧ ، ٢١٧ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ،
 ٢٣١ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٤٠ ،
 ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ،
 ٢٥٠ ، ٢٧٣ ، ٢٨٠ ، ٢٨٩ ،
 ٣٢٦ ، ٣٣٣ ، ٣٤١ ، ٣٨٩ .
 مزريب : ٤١ .
 مدغشقر : ٣٨ ، ٧٩ .
 مريابه : ٣٢ .
 مغرب : ٢٠ .

محمد بن عبدالله : ٢٢ ، ٢٤ ، ٤٤ ،
 ٤٦ ، ٤٧ ، ٥١ ، ٤٧ ، ٦٦ ،
 ٦٨ ، ٧٩ ، ٩١ ، ٩٩ ، ١٠١ ،
 ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١٣٩ ،
 ١٧٦ ، ١٨٢ ، ١٩١ ، ١٩٣ ،
 ١٩٤ ، ٢٠٢ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ،
 ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦١ ،
 ٣٧٠ .
 مسيح - مسيحي : ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٥ ،
 ٦٦ ، ٧٧ ، ٨٤ ، ١٦٥ ، ٢٣٥ ،
 ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٩٠ .
 ما بين النهرين : ٢٠ ، ١٥٤ ، ١٧٦ .
 ما كل ٣٥٦ .
 ملك تاجورة : ٣٢٤ .

مُنَى : ٤٥ .

مَكَّة : ٩ ، ١١ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٣٧ ،

٤٠ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ،

٤٦ ، ٤٨ ، ٦٨ ، ٨١ ، ٨٤ ،

٨٦ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٢ ،

٩٤ ، ٩٨ ، ١٠٠ ، ١٠١ ،

١٠٦ ، ١٣٥ ، ١٧٤ ، ١٨٢ ،

١٧٤ ، ١٨٥ ، ١٨٨ ، ١٩١ ،

١٩٢ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٨ ،

٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢١٣ ،

٢١٨ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣٣ ،

٢٣٥ ، ٢٤٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٧ ،

٣٢٨ ، ٣٤٧ .

مَدِينَةُ : ٩ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ،

٢٧ ، ٤٠ ، ٤٤ ، ٦٦ ، ٩٢ ،

١٠١ ، ١٠٢ ، ١٧٤ ، ١٨٥ ،

١٩٦ ، ١٩٩ ، ٢٢٢ ، ٢٢٨ ،

٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ،

٢٣٩ ، ٢٥٩ ، ٣٢١ .

مَمَالِيك : ٤٠ ، ٤٧ .

مَرِيَمُ الْعَذْرَاء : ٥٢ .

مَوْصِرَاتُ (الْأَب) : ٦٠ ، ٦١ ، ٦٤ .

مَآرِب : ٦٤ ، ٧١ ، ١٣٥ ، ١٥٩ ،

١٦٠ ، ٣٥٦ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ،

٣٦٦ ، ٣٦٩ ، ٣٧٣ ، ٣٧٩ ،

٣٩٣ .

مَوْتَان : ٢٣٨ .

مَوْتُ كَارِلُو : ٣١٠ .

مَسْقَط : ١٦٢ ، ٢٣٥ ، ٢٤٣ ،

٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ،

٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٩٠ .

مَعَان : ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٩٩ ، ٢٩٨ ،

مَانُوئِيلُ دِي آلْمِيدَا : ٦٤ .

مَطِيرُ (عَشِيرَةٌ) : ٢٤١ ، ٢٩٥ .

مَقْدِيشُو : ٦٥ .

مِرَاكُش : ١٨٥ ، ١٨٨ .

مَارْسِيلِيَا : ٦٧ ، ١٠٤ ، ١٠٧ ،

١٠٨ ، ١١٩ ، ٣٤٤ .

مَدَائِنُ صَالِح : ١٣ ، ٢٨٥ .

مَاتِيُو دِي كَاسْتَرُو : ٩٠ ، ٩١ .

مَوْزَع : ١٠٩ ، ٣٥٥ .

مُوْدِيْزِي : ٣٨٢ .

مَنْزُول : ١٠٩ .

مَانَقَاز : ٢٢٧ .

مِيغَاثِيَالِس : ١٤٤ .

مَلِكُ الدَانْمَرْك : ١٤٦ .

مُونْتَسْكِيُو : ١٥ .

مِيْنَاهُ الْحَدِيْدَةِ : ٢١٣ .

مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ : ١٧٤ ، ١٧٦ ،

١٧٧ .

مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الرَّشِيدِ : ١٤ .

مُوسَى (النَّبِيُّ) : ٢٢٦ .

مُحَمَّدُ بْنُ سَعُوْدٍ : ١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٨٢ ،

٢٣٩ ، ٢٣٨ ، ٢٣٦ ، ٢٣٣
 . ٣٦٢ ، ٣٦١ ، ٣٤٠
 . مصوع : ٢٥٦ ، ٢٣١
 . ماليزيا : ٢٣٥
 . منفوحة : ٢٤٥
 . ماري : ٣٢٧
 . مصطفى بك : ٢٥٩

موشج : ٣٣٦ .

مايلز : ٣١٧ .

مهرة (عشيرة) : ٣٥٠ .

محمد علي باشا : ١٢ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ ،

٢٣٤ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ،

٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ،

٢٧١ ، ٢٧٣ ، ٢٨٥ ، ٣٢٢ ،

- ن -

نجد العارض : ٢٤٩ .

نهيك : ١٥٩ .

نابوليون : ١٧٨ ، ١٨١ ، ١٨٥ ،

٢٤١ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ .

نابوليون الثالث : ٢٧٣ ، ٣٠٣ ،

٣٠٧ ، ٣٤٦ ، ٣٤٨ .

نانت : ٣٤٨ .

ناربون ، ٢٠ ، ٢١ .

نيم : ٢٠ .

نهر مارقل : ٢٠ .

نهر الرون : ٢٠ .

نهر الاندوس : ١٠ ، ٢٠ ، ١٦٣ ،

نهر النيل : ٣٨ .

نجران : ٥١ ، ١٣٥ ، ٢٤٩ ، ٢٦٦ ،

٣٤٤ ، ٣٦١ ، ٣٦٥ .

نهر الفرات : ١٠ ، ١٦٦ ، ١٧٣ ،

١٧٤ ، ٢٠٦ .

نورمبرغ : ٩٢ .

نژوي : ٣٨٧ ، ٣٨٦ .

نسند : ١٦٩ .

نيبور : ١٠ ، ١٢ ، ١١٥ ، ١١٩ ،

١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ،

١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٢ - ١٦٢ ،

١٦٤ - ١٧٠ ، ١٧١ - ١٧٤ ،

١٧٨ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ٢١٤ ،

٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٣٣٦ ، ٣٤٩ ،

٣٥٥ ، ٣٦١ .

نادرشاه : ١٠ ، ١٦٨ .

نافر . (امير بندر) : ١٦٢ .

نجد : ١٤ ، ١٣٥ ، ١٧٤ ، ١٧٦ ،

١٨١ ، ١٨٢ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧ ،

٢٥١ ، ٢٧٠ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ،

٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٨ ، ٢٩٠ ،

٢٩٣ ، ٣٠٥ .

نقب الحجر : ٣٥٣ ، ٣٩٥ ، ٤٠١ .
نوح (النبي) : ٨٤ .

نقيل سماری : ٧٥ ، ٨٣ .
نافر : ١٧٠ .

— ٥ —

هاينز : ٣٢٥ ، ٣٣٤ ، ٣٥٠ ، ٣٥٦ .
هيركور : ٣٢٦ ، ٣٣٨ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ .

هنري ووك : ٣٣٠ ، ٣٣١ .

هرمان فان جيل : ٨٦ .

هنري ميدلتن : ٧٧ ، ٨١ .

هنيبل : ١٩ .

هرمز : ٢٥ ، ٣٨٢ .

هيرودوس : ٢٨ .

هيرودوت : ٣٣ ، ٥١ .

هيبالوس : ٣٤ .

هينين : ٦١ ، ٦٢ .

هولندا : ٩ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٧ .

٨٢ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ١٠٩ ، ١١٤ .

١١٥ ، ١٢٨ ، ١٣٦ ، ١٥٨ .

١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ .

هز غارت : ٤٠٠ .

هنري دي مونفريد : ١١٦ .

هنيكر : ٢٢٧ .

هجر : ١٦٥ .

هارون (النبي) : ٢٢٦ .

هنديان : ١٧٣ .

هاغارت : ٢٤٤ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ .

٣١٦ ، ٣١٧ .

هويقة (اماره) : ١٧٣ .

هاجر : ١٢٠ ، ١٢٣ ، ١٩٠ ، ٢٣٨ .

هوى : ٣٩٤ .

هنري برغوس : ٢٥٢ .

هلفغورس (جامعة) : ٢٧٣ .

هلسنكي : ٢٨٨ .

هينيم : ٢٩٢ ، ٢٩٣ .

هلتن : ٣٥٠ ، ٣٥٥ .

— ٩ —

وبار : ٣١٥ ، ٣٨٠ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ .

٣٨٨ .

وايليون : ١٢٨ .

وادي سدوم : ٤١ ، ٤٢ .

وادي عمد : ٣٩٥ .

ولستد : ٣٥٠ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٥ .

— ٤٣٠ —

وادي حنيفة : ١٧٤ ، ٢٠٥ ، ٢٤٥ ، ٣١٢

٢٨٦ ، ٢٩٦ ، ٢٩٩ ، ٣٠٧ .

وادي فاطمة : ١٣ ، ٢٥٧ .

وادي المكتب : ٣٤٩ .

وادي الليمون : ٢٥٧ .

وادي درة : ٢٦٢ .

وادي دنيا : ١٣ ، ٢٦٣ .

وادي مرجاب : ١٤ ، ٢٦٥ .

وادي شهران : ١٣٢ ، ٢٦٥ .

واتيلوك : ٣٨٦ ، ٣٨٨ .

واحة غات : ٣١٠ .

والديمولر : ١٣٤ .

وولفنبيل : ١٣٤ .

وادي بطحاء : ٣٨٦ .

وادي الشلي : ٣١٢ .

وادي الحامة : ٢٦٥ .

وادي دوعن : ٣٩٥ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ .

وادي السرحان : ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ .

— لا —

لاغرو لوديير : ٢٤١ .

لاراك : ٣٨٢ .

— ي —

١٦٥ ، ٢٣٥ ، ٢٦١ ، ٢٩١ ،

٢٩٢ ، ٣٨٧ .

ينبع : ٨٦ ، ١٨٥ ، ٢٣٢ ، ٣٢٨ .

ينفورا (قرية) : ٢٦٥ .

ياقوت الحموي : ٥١ .

يوحنا الثالث : ٢٥ .

يعقوب (النبي) : ٨٤ .

يبريت : ٢٤٩ .

يونان — يوناني : ٧٠ ، ٧٤ ، ١٠٠ ،

٣٨٢ .

يهود — يهودي : ١٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ،

٨٢ ، ٨٤ ، ١١٢ ، ١٥٥ ،

فهرس

مقدمة بقلم الشيخ حمد الجاسر ٥

الجزء الاول : رفع الستار

شبه الجزيرة العربية القارة المفقودة ١٩
من خلال كتب القدماء ٢٧
لودفيكو دي فارتيا ٣٧

الجزء الثاني : رواد مصادقة

الاسرى ٥٧
المنافسة ما بين شركات الهند ٧٢
الحجاج الى مكة ٧٩
بلاد اليمن ١٠٣
قنصل فرنسي لدى البدو ١١٧

الجزء الثالث : مولد الريادة

فجر العلم ١٣٣
كارل فن نيور ١٤٦

الجزء الرابع : العربية القفراء والعربية البتراء

١٨١	علي بك في مكة والوهابيون الأول
	ستيزن وبوركهارت
٢٠٥	البدو والمدن المنقرضة في العربية البتراء
	في اواسط شبه الجزيرة العربية
٢٣٠	خلف الجيوش التركية - المصرية
٢٥١	اكتشاف عسير
٢٧٢	وآلان وغوارماني لدى امراء آل رشيد
٢٩٨	قضية بلغريف

الجزء الخامس : العربية السعيدة

٣٢٥	البحر الاحمر
٣٤٩	سر آثار سبأ
٣٨٠	عمان وحضرموت
٤٠٣	الحائمة
٤٠٦	فهرس الاعلام

هَذَا الْكِتَابُ

الرحالة الغربيون الذين حاولوا اكتشاف جزيرة العرب في القرون الخمسة الاخيرة ، واعطاء فكرة واضحة عنها لاوروبة ، التي كانت تجهل عن بلادنا كل شيء ، سواء منهم المغامرون الذين قدموا الى البلاد العربية حبا بالمخاطرة وبحثا عن المجهول ، أو العلماء الرواد الذين خاطروا بحياتهم في سبيل الكشف العلمي والبحث عن الحقيقة ..

جميع هؤلاء الرحالة ، من مغامرين افاقين وعلماء مخلصين ، جمعتهم البحثة الفرنسية جاكين بيرين بين دفتي هذا الكتاب الرائع ، لتروي قصصهم الشيقة ، وتسجل ما قدموه من خدمات في حقل المعرفة البشرية ، واكتشاف المناطق المجهولة والاقوام التي تقطنها ، منتقلة معهم في المكان والزمان ، مينة الدوافع الحقيقية لرحلاتهم ، والنتائج العملية التي افضت اليها ، دون ان تتردد في هتك الستار عن كذب المفترين وخداع الدجالين ، او في الانحناء امام الرواد الصادقين الذين تكبدوا المشقات وجابهوا الاخطار في سبيل رسالتهم العلمية النبيلة .

وهكذا جاء هذا الكتاب الممتع ، مرجعا فريدا في الجغرافية البشرية لمنطقة ما تزال مجهولة حتى لدى الباحثين العرب ، وتاريخا حيا ينتقل بالقارئ عبر خمسة قرون ، من بلاد اليمن وعسير وحضرموت ، الى عُمان ومسقط ، الى نجد ومعان وبلاد الشام ، ومن آثار سبأ ذات الاسرار الى آثار بترا الخبيثة في قلب الجبال .

ويزيد في قيمة الكتاب المقدمة القيمة التي وضعها للترجمة العربية العلامة الشيخ حمد الجاسر ومساهمته في ضبط اعلامه وكتابه هوامشه .